





ketab_n

العمر الذاهب

رحلة المازني المعرفية

من القراءة إلى الكتابة



د. عبد الرحمن بن حسن قائد

العمر الذاهب

رحلة المازني المعرفية

من القراءة إلى الكتابة

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

العم الذاهب

رحلة المازني المعرفية

من القراءة إلى الكتابة

حقوق الطبع محفوظة

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قائد، عبد الرحمن بن حسن

العمر الذاهب - رحلة المازني المعرفية من القراءة إلى الكتابة./
عبد الرحمن بن حسن قائد - الرياض، ١٤٤١هـ.

٣٦٨ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٩-٠-٩١٦٦٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - المازني، إبراهيم عبد القادر ت ١٣٦٨هـ

٢ - الأدباء المصريون - مقالات ومحاضرات

٣ - الأدب العربي - مصر أ. العنوان

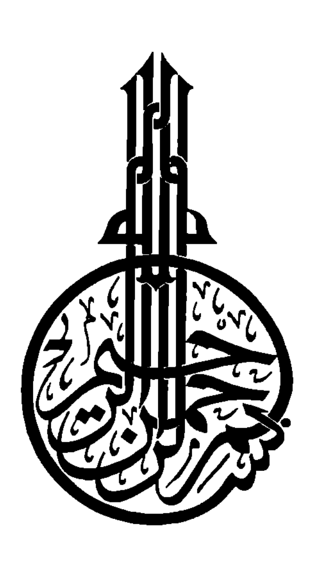
ديوي ٨١٤,٩٦٢ ١٤٤٢/١١٢٢١

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١١٢٢١

ردمك: ٩-٠-٩١٦٦٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م



الفهرس

الكِتَابَةُ وَشُجُونُهَا

شيءٌ كالتقديم

وما هو به، أو لعله إياه على مدرجة التواضع الظاهر، والفخر الخفي، وهضم النفس المستشرف للثناء، وغفر الله للمازني ما أورث الناس من هذه الطريقة.

وبعد، فهذا كتابٌ لذيذ، وإن من الكتب لما يلذُّ لقارئه ويجد لذاذته في فمه وعينيه وأطراف أنامله، وإن منها لما يطبق على قلبه فلا يستطيع المضيَّ فيه، وينشب في حلقه فلا يسيغه ولو تجرَّع له دلوًا من ماء.

وهو كتابٌ حلو، وفي الكتب الحلوُ المعسول والملحُ الأجاج.

وهو كتابُ هزلٍ وجدّ، وفرح وحزن، وفكاهة وحكمة، وتعابثٍ ووقار، ومن الكتب الهزلُ المحض والجدُّ الخالص، وقليلٌ ما كان بين ذلك، والهمم متفاوتة، والزمان مُدْبِر، والأنفس إلى المَلالة ما هي.

وهو كتابٌ أنيس، وربَّ كتاب تأنس به حتى كأن بينك وبين كاتبه عهدًا قديمًا وإخاءً معقودًا ومودَّة سالفة وإن لم تعرفه إلا السَّاعة، وآخر ينأى عنك وتنأى عنه وإن كنت صاحبه.

على أني لا أقدمه لك بشرط البراءة من كل عيب، فما في الدنيا مطمعٌ لذلك بعد الوحي، وحُمَاداه أن يغلب صوابه خطأه، ويشفع خيرُه لشرِّه، ويعلو حقُّه على باطله، وسبيله من بعدُ سبيل أخيه «ذكرى عهود»، فإن وزنتَه بغير ميزانه فقد ظلمتَه، وإن وهبتَ إساءته لإحسانه فقد أنصفتَ أخًا له من قبل.

ثم أما بعد، فإن الحديث عن القراءة وشؤونها حبيبٌ إلى الناس وإن لم يكونوا قارئين، والقول في الكتابة وشجونها شهيٌّ إليهم وإن لم يكونوا كاتبين، فكيف إذا كان مدار ذلك على حياة المرء وتجاربه وخاصِّ أمره؟ وليس شيءٌ كالحديث عن

سرائر النفس وأحوالها أحبَّ وأشوق وأغرىٰ وأشفىٰ للفضول، فإذا ما امتزجت به تجربةٌ ثرَّة، وأدَّته أداةٌ مكتملة، وواتاه ظرفٌ مطبوع، وانتهىٰ إليك في بيان رشيق، بلغ من المراد غايةً لا تُلْحَق.

وقد فُتِن بعض بني قومنا بمشاهير قرَّاء الغرب والمولعين منهم بالكتب حتىٰ كأن الله لم يخلق سواهم من القرَّاء إنسانًا، فعسىٰ أن يعرف أولئك أن في بني عمِّهم رماحًا وأقلامًا، ويعلموا أنهم أعشقُ للمداد، وأهيمُ بالعلم، وأسبقُ إلىٰ الحرف، وأحرصُ الناس علىٰ كتاب.

وفي هذا الكتاب ما تفرَّق من كلام المازني في شؤون القراءة وشجون الكتابة مستقصًىٰ من كتبه ومقالاته وحواراته، وما هو بالنَّزر، ولعل كثيرًا من الخلق أو قليلًا منهم لا يظنون أن له من الاهتمام بهما ما يبلغ هذا القدر.

والمازني جديرٌ بالعناية بأدبه، حقيقٌ بالتوفر علىٰ آثاره، وإن لم يكن ذلك إلا لما أسبغ علىٰ كلمه من سهولة الأسلوب، وإشراق اللفظ، وطلاوة البيان، وظرف الروح، ولطيف التأمل، مع التوقي من عثاره، والمجانبة لزلل أفكاره، وما من أديب أو كاتب إلا وله من هذه وتلك أشياء، فمستقلٌّ ومستكثر[1].

وهو كما قال في رثائه رصيفُه الزيات: «كان أحد الكتَّاب العشرة الذين يكتبون

---

(١) وقد تسمَّح الدكتور محمد رجب البيومي فجعله من أعلام النهضة الإسلامية، وترجم له في كتابه (٤/ ٧- ١٩)، وردَّ على من اعتبره من أعلام النهضة الأدبية فحسب، ولا أراه كما قال، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، وفي صنيعه توسُّعٌ يقضي على دلالة عنوان كتابه. على أنه أعجبني عدُّ المستشرق تشارلز آدمس في كتابه «الإسلام والتجديد في مصر» (٢٤٣) العقاد والمازني من «الكتاب المصريين الذين يعتقدون أن الشرق يستطيع الأخذ عن ذخائر العلوم والآداب الغربية دون أن يتخلى عن الطابع الإسلامي العربي الذي يطبع مدنية الشرق وثقافته». وانظر تعظيم المازني لمقام النبوة وغضبته على من تطاول عليه بدعوى حرية الفكر، يقول العقاد: «وما راعنا إلا المازني الوديع الساخر كأنما لمسته نفحةٌ من وقود مضطرم». «حياة قلم» (١٨٠).

لغتهم عن علم، ويفهمون أدبها عن فقه، ويعالجون بيانها عن طبع»[1].

وكما وصف أسلوبه شيخ النقاد مارون عبود بقوله: «انفصل المازني عن أقرانه طه حسين والعقاد والرافعي والزيات وهيكل بأسلوبه الشخصي المستملح، فكان نسيج وحده كما عبَّر أسلافنا القدماء، تعرفه حين تقرأ مقالًا له وإن كان غير ممهور، وتلك سمة الكاتب الفذ»[2].

وكما أنصفه شيخُ العلم والأدب علي الطنطاوي، فقال: «وأسلوبه من السَّهل الممتنع، فهو يكتب كما يتحدَّث[3]، فيحسُّ قارئه أنه يستطيع أن يكتب مثله، فإن جرَّب رآه عاجزًا مقصِّرًا عنه. ثم إن المازني أوتي براعة في السُّخرية حتىٰ من نفسه، فتجيء سخريته عفويَّة غير متكلَّفة»[4]. وأخبر في موضع آخر أنه أحبَّه، وكان يطربُ لأسلوبه وفكاهته وسخريته، واعترف بأنه تأثر به حينًا، وحاول تقليده[5]، ثم قال:

---

(١) «وحي الرسالة» (٣/ ٢٨٩)، و«ذكرى عهود» (٣٨٣).

(٢) «جدد وقدماء» (٢/ ٦٧٤- الأعمال الكاملة).

(٣) يحكي الأستاذ عبد الحميد جودة السَّحَّار في «صور وذكريات» (١٩٦) زيارته المازني في بيته، فيقول: «وبدأ يتحدَّث، فانقشع اضطرابي، وأصختُ سمعي، وتعلَّقت عيني به، فهو محدِّثٌ بارع، وإنني أقرر بعد أن عرفتُ جميع كتَّابنا الكبار أن المازني كان ألبقهم حديثًا، وأكثرهم تدفقًا، حتى إنك لا تحسُّ فرقًا كبيرًا بين كتابته وحديثه، وما أوسع الهوَّة بين أحاديث كثير من كبار كتَّابنا وكتابتهم».

(٤) «الذكريات» (٨/ ٢١٨).

(٥) كان المازني يفتخر بأن له أسلوبًا خاصًّا عصيًّا على التقليد، يقول في «قبض الريح» (٥٠) متهكمًا بطه حسين: «فهل يسمح لنا صديقنا أن ننوب نحن عنه في تجديد العناية واستئناف النظر؟ ويسوؤنا أننا لا نحبُّ أن نحاكي أسلوبه ونضرب على قالبه في إرسال الكلام، وليس ذلك لأن أسلوبه الكتابي شاقٌّ يتعذر تقليده، بل لأن لنا أسلوبنا الخاص، ومن فضل الله علينا أن ليس لنا فيه مقلِّدون»، ثم يقول: «ولقد سمعت الدكتور مرة يقول وقد عرض ذكر أسلوبه ما معناه: إنه لا يطمع من الشهرة في أكثر ممَّا وُفِّق إليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به ويحتذون مثاله في طريقة الأداء وفي تأليف الكلام. وعندي أن الأساليب التي يسهل محاكاتها هي أخلى الأساليب من المَياسم الشخصية والميزات الخاصَّة التي يختلف بها كاتبٌ عن كاتب، أو بعبارة أخرى: هي التي لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها».

ولكن من أين لي خفَّة روحه؟[1].

وعن سرِّ ذلك الأسلوب الذي تفرَّد به يقول الزركلي: «أديبٌ مجدِّد، من كبار الكتَّاب. امتاز بأسلوب حلو الديباجة، تمضي فيه النكتة ضاحكةً من نفسها، وتقسو فيه الجملة صاخبة عاتية، ... وقرأ كثيرًا من أدب العربية والإنكليزية، وكان جلدًا علىٰ المطالعة، وذكر لي أنه حفظ في صباه «الكامل» للمبرد غيبًا، وكان ذلك سرَّ الغنىٰ في لغته. ورأىٰ الكتَّاب يتخيَّرون لتعابيرهم ما يسمُّونه «أشرف الألفاظ»، فيَسْمُون به عن مستوىٰ فهم الأكثرين، فخالفهم إلىٰ تخيُّر الفصيح ممَّا لاكته ألسنة العامَّة، فأتىٰ بالبيِّن المشرق من السَّهل الممتنع»[2].

وعن ذلك الفصيح المتخيَّر من كلام العامة يقول الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي في تعريفه بكتاب المازني «عَ الماشي»: «الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني أول من أثبت قدرة اللغة الفصحىٰ علىٰ احتضان التعبيرات الدارجة، وعلىٰ صياغتها بحيث لا تفقد ولا تنقص جاذبيتها أو يتلاشىٰ سحرها وتبرد حرارتها، ولعله في هذه الناحية يكاد ينفرد بهذا الميزة»[3].

والحديث عن أسلوب المازني طويلٌ لا تتسع له هذه العجالة، غير أني أحبُّ أن أُطْرِفَ القارئ بلون جاحظيٍّ لن يقع عليه في كتب المازني التي بين أيدي الناس اليوم؛ إذ كان المازني يجري في مطلع شبابه علىٰ طريقة الجاحظ، ويتقيَّل أسلوبه ويستنُّ ببيانه، وكان مفتونًا كذلك بأسلوب عبد القاهر الجرجاني، وهو جاحظيُّ الصَّنعة أيضًا، ويقول في ذلك: «وعلىٰ ذكر الأسلوب أقول: إن الظنَّ الشائع هو أني كنت متأثرًا في البداية بالجاحظ. وهذا صحيح، ولكن أصحُّ منه فيما أعلم أني كنت مفتونًا بأسلوب الجرجاني عبد القاهر صاحب «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»،

---

(١) «الذكريات» (٢/ ٣٩٣).

(٢) «الأعلام» (١/ ٧١).

(٣) «مجلة المقتطف» (أغسطس ١٩٤٤، ص ٢٧٦).

علىٰ أن هذا شيءٌ قد مضىٰ، وعهدٌ قد انقضىٰ، ولله الحمد»، إلىٰ أن يقول: «وقد كنت وأنا معلِّمٌ أدرِّس الترجمة أخشىٰ علىٰ نفسي أن أهبط إلىٰ مستوىٰ التلاميذ، وأن أتعوَّد التسامح والتسهُّل، فأعالج ذلك بالعكوف علىٰ قراءة الأدب القديم، وعسىٰ أن يكون هذا هو الذي يرجعُ إليه أني كنت أتكلَّف الجزالة والفخامة في صدر حياتي»[1].

وأشار المازني مرَّة إلىٰ هذه المرحلة، فذكر أنه كان يوقِّع ما ينشر فيها هكذا «ع. ا. المازني»، قال: «وواظبت علىٰ هذا إلىٰ سنة ١٩١١ أو ١٩١٢، وكنت يومئذ أتحذلق وأتقعَّر، ولا سيما فيما أنشره في «مجلة البيان» لصاحبها المرحوم الأستاذ البرقوقي، فكتب الدكتور هيكل -وكان يومئذ مثلنا، لا بك ولا باشا- في «صحيفة الجريدة» مقالًا في كتَّاب «البيان» يقول فيه ما معناه: إنه لعل اسم «المازني» هو الذي يرجع إليه السببُ في تقعُّره، فكان من أثر هذه الغمزة أن نبذتُ التكلُّف، ونزعتُ إلىٰ البساطة»[2].

وقد ردَّ علىٰ مقالة هيكل بمقالة بارعة جاحظية النسج، احتجَّ فيها لبيانه، وأثنىٰ علىٰ الجاحظ، وافتتحها بقوله: «نعيتَ علىٰ كتَّاب البيان اختلاف أساليبهم، وفخامة تراكيبهم، وعدولهم كما زعمتَ عن مذاهب السهولة إلىٰ جفوة الأعراب وخشونة البادية» إلىٰ أن قال: «... وهل ترىٰ للجاحظ إلا لفظًا منضَّدًا، وسياقًا مطَّردًا، وحبكًا جيِّدًا، وكلامًا منسجمًا؟ وهو مع ذلك من أكابر الكتَّاب ومشاهير المترسِّلين. فإن قلت: ذاك زمانٌ وهذا زمان، قلنا لك: إن البلاغة في كلِّ زمانٍ نصفُها لفظ؛ لأن اللفظ جسمٌ وروحه المعنىٰ؛ فإذا سَلِم المعنىٰ واختلَّ بعض اللفظ كان نقصًا للكلام وهُجنةً عليه، ولا تجد معنًىٰ يختلُّ إلا من جهة اللفظ، واللفظُ الرَّثُّ يفسد المعنىٰ، والشائقُ من الألفاظ يَزِينه ولو كان مبتذلًا»[3].

---

(١) مقالة «الصِّحافة والأدب».

(٢) «جريدة البلاغ» (١٤ نوفمبر ١٩٤٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٥/ ١٣٧).

(٣) «مجلة البيان» (١٢مارس ١٩١٢)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ١٩).

والنصُّ الجاحظيُّ الذي سأورده لك كتبه المازني في الأصل مقدمة لمقالاته عن ابن الرومي في «مجلة البيان» سنة ١٩١٣، ثم أسقطه حين أعاد نشر تلك المقالات في كتابه «حصاد الهشيم» سنة ١٩٢٤.

يقول: «نسأل الله يقينًا يَعْمُر القلب، ويملأ الصَّدر. وبعد، فهذا ما شحذتَ العزم علىٰ كتابته، وحضضتَ علىٰ تقديمه، من النظر في شعر أبي الحسن علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر المشهور، وتاريخه، والموازنة بينه وبين نظرائه وأكفائه من فحولة شعراء العرب والفرنج، بما يستدعي ذكر أعيان قصائده ومقطَّعاته، ويستوجب الشرح والملاحظة وتفسير ما يقع من كلام غريب ومعنًىٰ مستغلق، حتىٰ يكون المقال مكتفيًا بنفسه، ومستغنيًا عن أن يرجع إلىٰ أحدٍ في تقريب بعيده وبيان مستعجمه. وهو عملٌ لعمري يفيد، غير أنه وعر المركب، كؤود المطلب، وما أظنُّ بك إلا أنك عالمٌ بصعوبته، عارفٌ باعتياصه وبعد مشقَّته، وإلا أنك قد مهَّدتَ لي العذر من ذي نفسك في التقصير والضعف وسائر ما عساه يقع من الارتباك والخلل. وقد وجدتُ -أصلحك الله- أكثر من ترجم ابنَ الروميِّ من الكتَّاب المتقدمين لم يستقصوا أخباره، ولا توخَّوا الإحاطة بها، أو ترتيب ما آثروا منها ...»[1].

ولعل من أهم الأسباب التي عدلت بالمازني عن هذه الطريقة، بالإضافة إلىٰ ما ذكره من نقد هيكل له، اشتغاله بالكتابة الصَّحفية اليومية وما تقتضيه من سرعة الإنجاز وملاحقة الزمن، ثم ما أفادته إياه ملابسة حياة الناس ومعالجة شؤونهم، وما أفضت إليه من اليقين بضرورة مخاطبتهم بالفصيح المأنوس من كلامهم والتباعد عن مهجور الألفاظ والأساليب، بخلاف الطريقة الأولىٰ التي كان يقصد بها مجاراة أهلَ العلم والأدب وما تستدعيه من طول الأناة ومعاودة النظر وتخيُّر اللفظ وتنقيح العبارة، وكان إذ ذاك مدرسًا متسع الوقت معتزلًا للناس غير مضطرٍّ إلىٰ تسليم ما يكتب في زمان محدد.

---

(١) «مجلة البيان» (٦ فبراير ١٩١٣)، وهو من فوات «الأعمال غير المنشورة».

وانظر إلىٰ ما ذكره من المقارنة بين حاله أيام اشتغاله بالتدريس في أول أمره، ثم ما صار إليه عند اشتغاله بالصحافة: «إني كنت أتمتَّع أيام التعليم بإجازة سنوية تبلغ أربعة شهور غير يوم الجمعة من كل أسبوع، وفضلًا عن الإجازات القصيرة في المواسم والأعياد، ولم أكن أعمل في اليوم أكثر من ساعاتٍ ثلاث أو أربع، وهذا نادر، وكثيرًا ما كانت جملة عملي في الأسبوع عشر ساعات فقط.

وقد نسيتُ الراحة والإجازات منذ اشتغلتُ بالصِّحافة، ويكفي أن تتصوَّر أني ارتحتُ من العمل شهرًا علىٰ دفعتين في خمس سنين في «الأخبار»، وشهرًا وبضعة أيام في أربع سنين في «السياسة»...»[1].

ثم انضاف إلىٰ ذلك ما كان من صحبته للأستاذين: العقاد وعبد الرحمن شكري، وما أفادوه معًا من النظر في الأدب الإنجليزي وما تُرجم إليه من آداب الأمم الأخرىٰ، وما تقلَّدوه من الدعوة إلىٰ المذهب الجديد في الأدب، والحملة علىٰ ما نبزوه مذهبًا قديمًا وعلىٰ أعيان أهله من الشعراء والناثرين، وقد كان لتلك الصحبة بلا ريب الأثر الأعظم في صوغ أدب المازني وتكوين آرائه ومواقفه النقدية والفلسفية.

وقبل أن نمضي في هذا الحديث، ونذهل عما ينبغي أن نقدِّم به من التعريف بالرجل تعريفًا مختصرًا يكون تذكرة للعارف وتبصرة لغيره، وتوطئة لبعض القول في شؤون قراءته وشجون كتابته، فهاك موجزًا من التعريف كحسو الطير أو كقبسة العجلان.

ولد المازني في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠ وتوفي في ١٠ أغسطس ١٩٤٩، ودوَّن في مؤلفاته ومقالاته وشعره كلَّ ما أصابه في حياته بين هذين التاريخين، فهي أصدق مرجع لسيرته، وأوثق مصدر لقصَّته، قد تكون قليلة الأحداث ولكنها دائمة التطور وثيقة الصِّلة به وبأدبه وروحه[2].

---

(١) مقالة «كيف أكتب».

(٢) انظر: «إبراهيم المازني» لمحمد مندور (١٦).

وليس من غرضي هاهنا أن أترجم له كما ينبغي أن تكون الترجمة، أو أدرس فنَّه وأدبه كما تستحق أن تبلغه الدراسة، فلذلك موضعٌ آخر وكتبٌ كثيرة ومقالاتٌ ورسائل علمية وغير علمية[1].

بيد أني رأيت من صواب التدبير وسداد المذهب أن يستحضر القارئ لسيرته المعرفية الخطوط العريضة لسيرته التاريخية ووقائعها، والمعالم العامة لأطوار حياته وأصول خلائقه، فإنها معينةٌ له علىٰ الإحاطة ببواعث أفكاره وفهم ما قد يغمض من مواقفه وآرائه، ولا غنىٰ لمن أراد تمام الإحاطة أن يرجع إلىٰ ما سلفت الإشارة إليه من المصادر.

ولنتخذ الترجمة الجامعة التي كتبها صديقه ومُجَالِسُه والعارفُ به خيرُ الدين الزركلي[2] سبيلاً قاصدًا لما رمناه من تلك الغاية.

فهو إبراهيم بن محمد بن عبد القادر المازني، نسبته إلىٰ «كوم مازن»[3] من

---

(١) من أقدم ما كُتِب عنه وأجوده كتاب «أدب المازني» لنعمات أحمد فؤاد الذي صدر سنة ١٩٥٤ بتقديم العقاد، وأشارت في مقدمة طبعته الثانية إلى سطو أحدهم على كتابها، تريد كتاب محمد مندور «إبراهيم المازني»، وأصله محاضرات ألقاها سنة صدور كتابها على طلبة قسم الدراسات الأدبية بمعهد الدراسات العربية العالية. وكتاب «المازني شاعرًا» لأبي همام عبد اللطيف عبد الحليم، وهو رسالته للماجستير من «دار العلوم». وكتاب «السخرية في أدب المازني» لحامد عبده الهوال. ودراسات ومقالات بين ذلك كثيرة. انظر: العمل الببليوجرافي الرائد لتراث المازني وما كُتِب عنه لحمدي السكوت ومارسدن جونز (٢٣٣ - ٣١٠، ٣٢٩ - ٣٤٥). ولصديقه العقاد مقالات ثمينة ونصوص متفرقة عنه تستحق أن تنشر في كتاب مفرد.

(٢) قال عنه المازني في مقاله الذي كتبه تعريفًا بل تقريظًا مستحقًا لكتاب «الأعلام»، وقلَّ من يذكر مقاله هذا أو يشير إليه: «وبعد عام من اتصالي بالصديق الزركلي فقد صار صديقًا أحبَّ إليَّ وأعزَّ عليَّ وأكرم عندي وأجلَّ من كثيرين من أصدقاء العمر». «مجلة السياسة الأسبوعية» (٢٤ يناير ١٩٣١)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ١٢٢).

(٣) وهي قرية صغيرة في مركز تلا التابع لمحافظة المنوفية، وكان المازني يحتفل بهذه النسبة ويعتز بها ويوهم أحيانًا أنها نسبة إلى «مازن» العربية، وهي قبائل وبطون من تميم وسليم وغيرهم، اشتهر منها أعلام كثيرون من الصحابة والعلماء والشعراء.

المنوفية بمصر، ومولده ووفاته بالقاهرة.

تخرَّج بمدرسة المعلمين، وعانىٰ التدريس، ثم الصِّحافة.

وكان من أبرع الناس في الترجمة عن الإنكليزية.

ونظم الشعر، وله فيه معان مبتكرة اقتبس بعضها من أدب الغرب، ثم رأىٰ الانطلاق من قيود الأوزان والقوافي، فانصرف إلىٰ النثر.

وعمل في جريدة «الأخبار» مع أمين الرافعي، و«البلاغ» مع عبد القادر حمزة، وكتب في صحف يومية أخرىٰ، وأصدر مجلة «الأسبوع» مدة قصيرة، وملأ المجلات الشهرية والأسبوعية المصرية بفيض من مقالاته لا يغيض.

وعاش عيشة الفيلسوف مرحًا زاهدًا بالمظاهر.

وكان من أرقِّ الناس عشرة، ومن أسلسهم في صداقته قيادًا، يبدو متواضعًا متضائلًا -وفي جسمه شيءٌ من هذا- وفي قرارة نفسه أشدُّ الاعتزاز بها والعرفان لقدرها، يمزحُ ولا يمسُّ كرامة جليسه، مخافة أن تمسَّ كرامته، ويتناول نقائص المجتمع بالنقد، فإذا أورد مثلًا جعل نفسَه ذلك المثل، فاستُسِيغ منه ما يُستَنكر من غيره.

وهو من أعضاء «المجمع العلمي العربي» بدمشق، و«مجمع اللغة العربية» بالقاهرة.

وله كتب، منها: (حصاد الهشيم - ط) مقالات، و(إبراهيم الكاتب - ط) جزآن قصة، و(قبض الريح - ط)، و(صندوق الدنيا - ط)، و(ديوان شعر - ط) جزآن صغيران، و(رحلة الحجاز - ط)، و(بشار بن برد - ط)، و(ميدو وشركاه - ط) قصة، و(ثلاثة رجال وامرأة - ط)، و(غريزة المرأة - ط)، و(عَ الماشي - ط)، و(شعر حافظ - ط) في نقده، و(الشعر، غاياته ووسائطه - ط) رسالة.

وترجم عن الإنكليزية: (مختارات من القصص الإنجليزي - ط)، و(الكتاب الأبيض الانجليزي - ط).

وللدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتاب (أدب المازني - ط)[1].

وجمع الدكتور عبد السلام حيدر، وأحسن فيما جمع، طائفة كبيرة من مقالاته التي لم تنشر في كتبه، وأصدرها في ستة أجزاء تضم (التأملات والذكريات، ونظرات نقدية عامة، وتطبيقات نقدية، وأشكال سردية، ورحلات)، بعنوان «الأعمال غير المنشورة»، عن المجلس الأعلىٰ للثقافة بمصر (٢٠٠٦ - ٢٠١٠).

وعودًا للحديث عن المازني القارئ الكاتب، فهذه لمحاتٌ سريعاتٌ لبعض ما يتصل بشؤون قراءته وشجون كتابته مما تناثر هنا وهناك ولن يرد له ذكرٌ فيما تستقبل من الكتاب، ولم أحبَّ أن أستأثر به دونك.

أما عن شؤون قراءته، فقد نشأ المازني علىٰ حبِّ القراءة والتعلق بالكتاب، وإن كان في حداثة عهده وطفولته الأولىٰ ميَّالًا إلىٰ اللعب كما يكون الأطفال، «ومتىٰ يلعب الواحد ويجري وينطُّ إذا لم يفعل ذلك في طفولته؟» كما يقول[2]، وكان في تلك الأيام إذا دخل الليل يجلس قريبًا من المصباح ويفتح الكتاب ويقرأ خوفًا من السَّوط لا رغبة في التعليم، ويراه أبوه فيشفق علىٰ عينه أن تؤذيهما القراءة في الليل، فينهاه عنها، فيطوي المازني الكتابَ ويسكت[3].

إلا أنه لم يلبث أن انصرف سريعًا عن اللهو، وأقبل علىٰ الجدِّ، وصارت القراءة له ديدنًا وعادة لازمة لا تفارقه في سفره وإقامته، ومكوثه في مكتبته وخروجه للرياضة

---

(١) «الأعلام» (١/ ٧٢)، وحذفت من النص ما سبق نقله آنفًا عند الحديث عن أسلوبه. وقد فات الزركلي ذكر عدد من كتبه ورواياته ومترجماته. انظر: ببليوجرافيا السكوت وجونز (٥٣ - ٦٠، ٧٩ - ٨٠).

(٢) «قصة حياة» (١٨).

(٣) «قصة حياة» (١٨).

والنزهة[١]، حتىٰ في عمله أيام كان معلِّمًا كان لا يفارقه كتابٌ يقرأ فيه في أوقات الراحة[٢]، وأصبح لا يستطيع أن ينام حتىٰ يقرأ[٣].

وكان أساتذته في المدرسة في اللغة الإنجليزية خاصة يرشدونه ويساعدونه ويقرضونه الكتب هو وزملاؤه الذين يأنسون منهم ميلًا إلىٰ القراءة، ويصحبونهم إلىٰ مكتبة المدرسة، ويتخيَّرون لهم ما يوافقهم وما يسعهم أن يفهموه، ولا يبخلون عليهم بالتفهيم والشرح حتىٰ في أوقات الفراغ إذا طلبوا منهم ذلك[٤].

وأخباره في عشق القراءة وحديثه عن دأبه واجتهاده في طلب المعرفة مسطوران في كثير من مقالات الكتاب.

وعن تكوينه وقراءاته في صدر شبابه يقول صاحبه ورفيق عمره العقاد: «ويشاء القدر أن يكون علىٰ نظارة المدرسة[٥] يومئذ رجلٌ من أفاضل العلماء المطلعين علىٰ الآداب الأوربية هو الدكتور دليني، فتعهَّد طلابه بالمطالعات النافعة، وهداهم إلىٰ الكتب القيِّمة، ووالاهم بالسُّؤال والمراجعة، فتخرَّج علىٰ يديه نخبةٌ من أدباء الجيل وفضلائه ، وفي طليعتهم عبد الرحمن شكري والمازني و محمد جلال رحمه الله».

ثم يقول عنه: «علىٰ أن هداية الطبع قد أفادت أديبنا كما أفادته هداية التعليم، فاستعان بإرشاد أستاذه علىٰ اختيار أحسن الكتب الأدبية في اللغة الإنجليزية، ولكنه اهتدىٰ بسليقته إلىٰ أحسن الكتب العربية التي تشحذ القريحة، وتصحِّح اللغة، وتصقل الذوق، وتهذِّب الملكة، فلم يكن له معينٌ في اختيارها غير تبادل الرأي بينه وبين زملائه، فهم جميعًا بين هادٍ ومهتد، وسابقٍ هنا ولاحقٍ هناك. ولم أعرف

---

(١) مقالة «في طريق الحياة».

(٢) «قصة حياة» (٧١).

(٣) مقالة «الجيل الجديد».

(٤) «الأدب والمدرسة»، «مجلة الرسالة» (العدد ٢٩١، ٣٠ يناير ١٩٣٩).

(٥) مدرسة المعلمين العليا.

من أحاديثي معه رحمه الله ما يدلُّ علىٰ تعثُّر في الاختيار، أو استقامة في الطريق بعد انحراف، سوىٰ ما كان منه باختياره حبًّا للاطلاع، وتوسُّعًا في الإحاطة بصنوف الشعر والنثر في مختلف العهود والأدوار».

ويمضي في تفصيل مقروآته فيقول: «كان من مطالعاته الأوربية في هذه الفترة دواوين بيرون، وشيلِّي، وشعراء البحيرة[1]، عدا شكسبير الغنيِّ عن الذكر في هذا المقام. وكان يقرأ مع الشعر نقدَ الشعر وتاريخ الأدب في كتب النقاد الممتازين والمؤرخين المأثورين، وأحبُّهم إليه: هازليت، وأنولد، وماكولي، وسينتسبري، وطائفة من كتَّاب المقالة الأدبية والعجالة النقدية الاجتماعية، أمثال: لي هنت، وشارلز لام، و سويفت، وأديسون، وإخوان هذا الطراز. وأحبُّ الروائيين إليه نخبةٌ من فحول فن الرواية: كوالتر سكوت، و ديكنز، وثاكري، وكنجزلي.

أما مطالعاته العربية، فقد كان آثرها لديه في الشعر: دواوين الشريف الرَّضِي، وابن الرومي، والمتنبي. وكان آثرها لديه في البلاغة المنثورة: كتب الجاحظ، والجرجاني[2]، والأصفهاني[3]، مع مراجعة متكررة لأمهات الأدب الكبرىٰ، كالأمالي، والكامل، والبيان والتبيين، والعقد الفريد، والأغاني، ونهج البلاغة، وما جرىٰ مجراها في موضوعها، وإن لم يبلغ مبلغها في حجمها وطبقتها»[4].

وقال في تقديمه لديوان صديقهما علي شوقي: «كان صديقُنا وصديقُه المازني رحمه الله يقرأ الشريفَ الرَّضِي ويُعْجَب به كإعجابه، وكان أسلوب الشريف ينطبع

---

(١) ثلاثة من الشعراء الإنجليز عاشوا في منطقة البحيرات بإنجلترا مطلع القرن التاسع عشر، ولم يكونوا ينتمون لأي مدرسة أدبية، وهم: وردزورث، وكولريدج، وروبرت سوثي.

(٢) عبد القاهر.

(٣) أبو الفرج.

(٤) كلمة ألقاها العقاد في ذكرى الأربعين لوفاة المازني بالجمعية الجغرافية، ونشرت في «جريدة الأساس» (٢٠ سبتمبر ١٩٤٩) بعنوان «عبقرية المازني»، ثم في ديوان «بعد الأعاصير» (٢٨٣ - ٢٨٤).

في قريحته فيبدو علىٰ غير قصدٍ منه في نظم عباراته وتراكيبه، ولكن المازني كان يقرأ الشريفَ ويعيد قراءته في أيامٍ كثرت فيها قراءتُه للشعراء المختلفين من الأوربيين، فامتزجت آثار هذه القراءات ولم تجتمع كلُّها علىٰ النمط الشرقي المعهود»[1].

وقال في كلمته التي ألقاها في حفل استقبال المازني عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة: «فكنا نتلاقىٰ علىٰ مائدة الأدب والمطالعة، نقرأ ابن الرومي ونعارضه، ونقرأ وليام هازليت ناقد الإنجليز الأكبر ونرفعه مكانا عليًّا فوق زمرة النقَّاد العالميين، ولا نسمع بشاعر أو كاتب من أعلام الأدب والفكر في اللغات الأجنبية إلا ذهبنا نلاحقه ونطارده في كل ما يصل إلينا من كتبه، ثم نقتسم نصيبنا منه بالمذاكرة والمشاورة، كما نقتسمه بالمنازعة والمشاجرة في أحايين»[2].

ويقول في التعريف بمسرحية «هَمْلِت» لشكسبير: «وأذكر أننا كنا نقرأ هَمْلِت مع صديقنا المازني، فكنا نتوقف عند هذا التناقض لنعجب من صدقه ودقته في التعبير عن شخصية بطل الرواية؛ إذ كان شكسبير يصوِّر لنا إنسانًا مخبول الحسِّ مضطرب الإرادة، يتردد بين الانتقام والإحجام»[3].

وكتب المازنيُّ مرة أنه قرأ عشرات وعشرات من القصص الفرنسية[4].

وحكىٰ غير مرة عن اقتنائه ديواني أبي العلاء: «سِقط الزَّند»، و«اللُّزوميات»، وعكوفه عليهما[5]، وقال سنة ١٩٤٤: «يرجع عهدي بأبي العلاء إلىٰ أيام الطلب والتحصيل، أي إلىٰ نحو خمسة وثلاثين عامًا أو تزيد، ولعل الأصح أن أقول: إلىٰ

---

(١) «مقدمات العقاد» (٣٢٣).

(٢) «مقدمات العقاد» (٥٣٢)، عن مجلة «مجمع اللغة» (٧/ ١٤٧)، وقد جُعِلت تقديمًا لكتاب «سبيل الحياة» وهو مجموعة مقالات للمازني جُمِعت وصدر بعد وفاته.

(٣) «مقدمات العقاد» (٥٦٠).

(٤) «إبراهيم الكاتب» (١٠٧).

(٥) «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٣٧٤).

بداية أيام الطلب؛ فما أعرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها، وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرَّج فيها المرء ولكن يخرج منها، وما فتئتُ أرجع إليه حينًا بعد حين»[1].

ومما ينبغي أن نقف عنده قبل أن نمضي سراعًا للحديث عن المازني الكاتب تحرير رأيه في القراءة، وتوجيه موقفه من الكتب، وتفسير بيعه لها وما يوهمه بعض كلامه من الزهادة فيها والرغبة عنها، وإمدادك بما يزيل وحشتك ويدرء مفاجأتك بما قد تقف عليه من ذم الكتب والضيق بها والتبرم منها فيما ستقرأ من الكتاب إن شاء الله.

فاعلم أن المازني قد مرَّ في رحلته مع القراءة والكتب بمراحل ثلاث من لم يحط بها لن يفهم كلامه على وجهه ولن يحسن تنزيله منازله، وسيتهمه بالتناقض كما فعل بعض الباحثين، وإنما هو من باب تطور الفكر وتغير الاجتهاد، وقد صرَّح المازني بأنه يغير طريقته في القراءة كلَّ بضع سنوات بل كل بضعة شهور[2]، فهذا من هذا، وإن لم يكن إياه فهو منه بسبيل.

المرحلة الأولى: مرحلة الاعتماد المطلق على الكتب، والتعويل التام على القراءة، والجمود عليهما.

المرحلة الثانية: مرحلة الانصراف عن الكتب، والاستغناء عنها، والاكتفاء بالتجربة والتأمل الذاتي.

المرحلة الثالثة: مرحلة العودة إلى الكتب، والاحتفال بالقراءة، والاعتماد المقيد عليها.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة الشباب واللقاء الأول بالكتب إبان طلب العلم والتوفر على المطالعة والانكباب على التحصيل، وتمتدُّ هذه المرحلة إلى نهاية

(١) «الأعمال غير المنشورة» (٥/ ١٥٢).

(٢) «جريدة البلاغ» (٨ سبتمبر ١٩٣٤)، وسيأتي ملحقًا بمقالة «أطوار قراءتي».

الحرب العالمية الأولىٰ سنة ١٩١٨، وما رافقها من الكرب والكآبة وشدة الحال ومرارة العيش مما كان لمصر منه نصيبٌ وافر، وقد أدركت المازني فيها «حُرْفة الأدب، أو سوء الحظِّ، أو قلَّة العقل إذا أردتَ الحقَّ» كما يقول[1].

وهو يتحدَّث عن هذه المرحلة من حياته بحنين بالغ، ويصوِّر علاقته بالكتب فيها باعتزاز كبير، في مواضع كثيرة من الكتاب، كما تراه في مقالة «مشقة التحصيل»، و«الأدب وتحصيله»، و«سرقت لأصبح أديبًا»، و«القراءة»، وغيرها.

ولنأخذ مثالًا لها من مقالة أخرىٰ غير ما ذكرناه، وسأنقله بطوله لأن فيه دلالة كاشفة عن هذه المرحلة وتهيئتها للمرحلة التي تلتها، قال: «**وأمري مع الكتب أغرب، كنت في أول عهدي بها -أي منذ عشرين سنة أو نحو ذلك- أذهب في أول كل شهر إلىٰ واحدٍ من باعتها**، فيتقدَّم إليَّ العامل سائلًا عن حاجتي، فأبيِّنها له، فيرفع رأسه إلىٰ الرُّفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه، ثم يلتفت إليَّ وعلىٰ شفتيه -دون عينيه- ابتسامة جهل وغباء، ويهزُّ لي رأسه آسفًا، فأنحِّيه عن الطريق وأمضي إلىٰ الرُّفوف وأجِيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني، **وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حِمل حمار، وأغرق فيها بقية الشهر إلىٰ ما فوق الأذنين** إن كان فوقها شيءٌ يستحقُّ الذكر!

وكنت لا أتخطىٰ عتبة البيت إلا متأبطًا كتابًا، ولا تمضي عليَّ ليلةٌ إلا طالعتُ في بعضها قليلا أو كثيرًا. وكانت الكتب أنيسي في وحدتي، وسميري في خلوتي.

وكنت أستغني بها عن مُتَع الحياة ولذَّات العيش، وأقول: إنها تدخل في متناول الحسِّ والعواطف والمدرَكات وكلِّ ما له وجودٌ في العقل، وإنها توقظ الحواسَّ الخامدة والمشاعر الراكدة، وتملأ القلب، وتشعِر النفسَ كلَّ ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله، وكلَّ ما له قدرةٌ علىٰ تحريكها وابتعاثها، وتدرِّب المرء علىٰ الاستمتاع بتدبُّر عظمة الجلال والأبد والحق، وإنها تمثِّل ذلك للإحساس، وتُحْضِره

(١) مقالة «زيتون في قرطاس من الشِّعر».

للذِّهن، وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم، وإنها تعين القلبَ علىٰ تعرُّف الهَول والفزَع، والسُّرور واللذَّة، وتخفِق بالوهم علىٰ جناح الخيال، وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره، **وإنها تسدُّ النقصَ في تجارب المرء، وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشدَّ تحريكًا لها، وتجعله أشدَّ استعدادًا لقبول المؤثِّرات علىٰ اختلاف أنواعها ودرجاتها؛ لأنه ليس بالإنسان حاجةٌ إلىٰ التجريب الشخصي لتتحرَّك فيه هذه العواطف، بل حسبه «ظاهر» التجريب الذي تهيِّئه له الكتب**، وإنما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثِّل للمرء؛ لأن كلَّ حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأي قبل أن يتعرَّفها الذهن أو تؤثِّر فيها الإرادة، **ومن أجل ذلك كان سواءً علىٰ المرء أن تؤثِّر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر**، كالصُّور والرموز التي تمثِّل هذه الحقيقة؛ فإن في طاقة الإنسان أن يصوِّر لنفسه ما ليس له وجودٌ حتىٰ يعود وكأن له جسمًا يُحَسُّ ويُلْمَس، فسيَّان عند الإنسان أن يؤثِّر فيه الشيء أو مثاله؛ لأنه يحرِّك فيه عوامل الفرح والحزن مثلًا علىٰ كل حال، وسواءٌ أكان الشيء حاضرًا أم ماثلًا في الخيال بصورته، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يحسَّ حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحبِّ والإجلال والعجب والشُّهرة؛ فكأن هذه الرموز هي اللسان المترجِم -كما يقول هوريس- عن الحقائق.

كنت أقول مثل ذلك وأصدِّقه، وكان مثَلي كمثَل أشعَب الذي حكوا أن صِبيةً هتفوا به وأثقلوا عليه، فأراد أن يصرفهم عنه، فقال لهم: إن في مكان كذا وليمةً فاذهبوا إليها وأصيبوا منها، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح، فذهب يعدو في أثرهم! وكَما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسُّخر من نفسه كذلك انقلبتُ عن الكتب، فلا أنا أفدتُ شيئًا سوىٰ قمع الشباب، وإضاعة فرصته، وإراقة مائه في تلك الصَّحراء العارية، ولا أنا فهمتُ الحياة كما ينبغي أن تُفْهَم، أو سددتُ نقصًا في تجاربي، أو استطعتُ أن أستغني «بظاهر» هذا التجريب عن التجريب الشخصي.

وشرٌّ من ذلك أني اطَّلعتُ من هذه الكتب علىٰ صورة أو صورٍ للحياة ليس أكذبَ منها ولا أبعَد! ولا نكرانَ أنها أيقظت نفسي، وفتحت عيني، ونبَّهت حواسِّي، وابتعثت مشاعري، وجعلتني أشدَّ تأثرًا بالحياة، وتحرُّكًا لها، واستعدادًا لتلقِّي مؤثراتها، ولكن أليس معنىٰ ذلك أنها جعلتني أتعسَ وأشقىٰ ممَّا كنت أكون لو ظللتُ أرتَع في بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة، ولم أفز بهذه النعمة التي لم أعد بها غنيًّا؟! ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالقٍ للرِّياح والمَدَر؟!»[1].

كانت **المرحلة الأولىٰ** بإغراقها التام في الاعتماد علىٰ الكتب، وغفلتها عن حاجة النفس إلىٰ التأمل والتجربة والشعور بالاستقلال الفكري، معينةً علىٰ الانتقال الصارخ إلىٰ الضفة الأخرىٰ والطرف المقابل في **المرحلة الثانية**.

وقد كان من الممكن في العقل والنظر أن لا يبلغ المازني هذه المرحلة، وأن يكون انتقاله إلىٰ **المرحلة الثالثة** التي تبقىٰ فيها الكتب محتفظة بأهميتها وأثرها مع إعطاء النفس حظها من النظر والتأمل، دون هذا التسخط البالغ، والتبرم الغاضب، وتجريد الكتب والقراءة من فضائلهما، لولا أن هناك عاملًا خفيًّا كان يعمل عمله في نفس المازني، ويأكل من قلبه، ويؤثر في روحه تأثيرًا لا يمكن إغفال تبعته، وهو ما كان من أمر اتهامه حينئذ بالسرقة من الآداب الأوربية والنقل عنها دون تصريح، وما أنتجته تلك المحنة الشديدة من تتابع سياط نقده والتشهير به في الكتب والصحف والمجلات بأقلام مشهورة ومغمورة، وما تفيض به أحاديث المجالس في مشهده ومغيبه علىٰ ألسنة محبيه العاتبين وشانئيه الشامتين، في حملاتٍ قاسية بالحق تارة وبالحقِّ وغيره تارة، كان وقعها عليه فوق ما يستطيع أن يحمله جسمه الواني وروحه المرهفة وأعصابه المكدودة، وكان أشدُّها عليه وأكثرها إيلامًا له ما كتبه صديقه وأستاذه عبد الرحمن شكري، وإن كان أنصفَ من كتب وأحقَّ من نقد.

---

(١) مقالة «بين القراءة والكتابة».

وكان المازني يعتذر دائمًا بأنه لم يتعمَّد السرقة، ويزعم أن تلك القراءات دخلت في وعيه الباطن وامتزجت به لعمق تأثره بها وتفاعله معها، حتىٰ جرت علىٰ سنِّ قلمه حين كتب دون أن يستحضر أنها لغيره[1]، وسواءٌ أصحَّ ذلك أم لم يصحَّ، واستقامت حجَّته فيه أم لم تستقم، فلذلك بحثٌ ونظرٌ ليس هذا موضعه، فقد كان مفهومًا أن تنقبض نفسه عن الكتب بسبب هذا، وتتبغَّض إليه قراءته التي جنت عليه ما جنت، وأوردته من الموارد ما أوردت.

وتأمل قوله في مقالته «كهولتي خير من شبابي» التي كتبها سنة ١٩٤٨ بعد أن هدأت العاصفة والتأمت الجراح أو كادت: «**وكنت في شبابي قليل الثقة بنفسي**، علىٰ الرغم من غروري، **فكنت أراجع الكتب أكثر ممَّا أراجع عقلي**، أي أني كنت لا أفكِّر بعقلي ولا أنظر بعيني، بل أفكِّر بعقول غيري وأنظر بعيونهم. ولهذا كانت شخصيَّتي مستسرَّة، وقلَّما تتبدَّىٰ، وكان الذي يتبدَّىٰ هو اطِّلاعي، أي ثمرة دراساتي وقراءاتي. **ولهذا اتُّهِمتُ بالسَّطو علىٰ آثار الأقدمين، وللتهمة وجه؛ لأن عكوفي علىٰ الكتب كان يبدو أثره فيما أكتب أو أنظم**، ثم إني طوال عمري ضعيف الذاكرة سريع النسيان، فكان معقولًا أن تَعْلَق المعاني بذهني حتىٰ إذا كتبتُ شيئًا أو نظمت شعرًا وخطر لي بعض هذه المعاني توهَّمتها من ابتكاراتي. وقد تنبَّهتُ إلىٰ هذا الضعف لمَّا رأيتُ غير واحدٍ يتَّهمني بالسَّرقة الأدبية، فتحرَّزتُ جدًّا، وما أظنُّ الآن أن أحدًا يذهب إلىٰ أني أسطو علىٰ غيري، والحمد لله. ذلك أني الآن لا أرجع إلىٰ الكتب إلا إذا كان الرجوع لا مفرَّ منه، للاهتداء بحقيقة علمية أو تاريخية أو ما يجري هذا المجرىٰ، ولا أعتمد إلا علىٰ عقلي وحده».

هذه واحدة، وثانيةٌ هي «حُرفة الأدب» التي أدركته في ذلك الوقت، والمصائب لا تأتي فرادىٰ، وما كان من حاجته الشديدة للمال، واضطراره لبيع كتبه، أنفةً من أن

---

(١) انظر مقالتيه «السرقات الأدبية»، و«كهولتي خير من شبابي» في الكتاب.

يظهر ضعفه ولو لأقرب الناس إليه. وقد ولّد ذلك أسًىٰ شديدًا في نفسه، وشعورًا ممضًّا بقلة الجدوىٰ من الكتب والأدب، وضياع العمر فيهما في غير طائل. والمازني علىٰ سخريته اللاذعة وقلمه الصَّارم سريع الجزع، عظيم التأثر، قليل الاحتمال، مرهف الإحساس للغاية، كما تراه ظاهرًا في جوابه المحزن عن أعظم حادث أثر في مجرىٰ حياته.

وقد باع كتبه مرة للحاجة إلىٰ ثمنها، ومرة لضيق البيت بها[1]، كما هي عبارته الدالة علىٰ مبلغ ضيقه هو، وذهاب ثقته بثمرة الأدب وفائدة الكتاب.

وفي هذه المرحلة نجده يقول في مرارة بالغة، في مقالته «بين القراءة والكتابة» سنة ١٩٢٥: «وقد تعاودني الحمَّىٰ القديمة ويتأوَّبني الحنينُ الماضي إلىٰ الكتب، فأدافع نفسي عنها ما استطعت، فإن عجزتُ وغُلِبت علىٰ أمري طاوعتُها علىٰ حذرٍ وسايرتُها متحفِّزًا، وذهبتُ أتخيَّر لها الكتبَ وأنتقيها. **ومهما يكن من الأمر فلستُ الآن ذلك الذي كان كأنما يعبدُ منها دمًىٰ وأصنامًا، وقد اغتنمتُ أول فرصةٍ سنحت فبعتُها جملةً وتحرَّيتُ بعد ذلك أن أزداد جهلًا**».

وفي هذه المرحلة ألحَّ عليه سؤال الخلود في الأدب، وجدوىٰ الكتابة، كما في مقالته «الكتب والخلود» التي كتبها سنة ١٩٢٤.

وعن هذه المرحلة الثانية يقول في مقالته «زيتونٌ في قرطاس من الشعر»: «**في بعض سنوات الحرب العالمية الأولىٰ أدركتني حُرْفة الأدب، أو سوء الحظِّ، أو قلَّة العقل إذا أردتَ الحقَّ، فأصبحتُ يومًا وليس في بيتي كِسرة من الخبز** لا ناشفة ولا طريَّة، ولم أكن أفكِّر في يومي؛ فإن يومًا من الجوع لا يَقْتُل، وإنما كنت أفكِّر في شهورٍ طويلة كان لا معدًىٰ عن قضائها في صومٍ ليس فيه إفطار ...، ومن الأسرار التي لم أبح بها لأحد -حتىٰ ولا للأستاذ العقاد الذي كان يعرف دون غيره ما أنا فيه من الضَّنك

(١) جوابه عن سؤال «مجلة المصوَّر» ماذا يقرأ وكيف يقرأ.

واللَّأواء؛ لأني خجلتُ أن أفضي حتىٰ إليه بذلك- أني قدَّمت طلبين إلىٰ شركة التِّرام وشركة المياه، لم تردَّا عليهما، ولهما العذر؛ لأني أهملت أن أضع طوابع البريد! علىٰ أني لم أنتظر الردَّ، بل ذهبتُ إلىٰ صديق وقلتُ له: إن عندي ملء غرفة من الكتب، وأريد أن أبيع منها ما لا حاجة بي إليه، فسألني عن الباعث، فغالطتُ وقلت: يا أخي، إن أكثر ما قرأتُ يبعد أن أعود إليه، فما فائدة بقائها مرصوصةً عندي؟ فأدرك أني في ضيق، وكأنما أراد أن يهوِّن الأمر عليَّ، فقال: إنه هو أيضًا يبيع بعض كتبه كلَّما افتقر إلىٰ المال، فإذا احتاج إليها مرَّة اشتراها من السُّوق. وأشار عليَّ أن أبدأ بالنسخ الباقية عندي ممَّا أَلَّفتُ، ونهض معي إلىٰ ورَّاقٍ اشترىٰ هذه النسخ بالأُقَّة!

ووجدتُ أن بيع الكتب موردٌ كافٍ أستطيع الاعتماد عليه في اجتياز الشهور التي كنت أقدِّر أن تستغرقها الأزمة، فصرتُ أدعو بمعاونة أصدقائي أصحابَ المكتبات لمعاينة البضاعة، وكانوا أميِّين، وكان تسعيرهم للكتب عجيبًا، فقد كان الواحد منهم يحمل الكتاب علىٰ يده كأنما يَزِنُه، فإذا ألفاه خفيفًا قال: قرشين، وإذا كان ثقيلًا قال: خمسة، فأسفتُ لأني كنت أحرص علىٰ اقتناء الطبعات الحسنة الأنيقة الرقيقة الورق!

واستغنيتُ بذلك عن الاقتراض، وإراقة ماء الوجه، واجتزتُ الأزمة بسلام.

واتفق يومًا أن اشتريتُ من بقَّالٍ زيتونًا أسود، فلفَّه لي في ورقةٍ حملتها وانصرفت، فلمَّا صرتُ في البيت أفرغتُ الزيتون في صحن، وهممتُ أن أرمي الورقة، وإذا بها منزوعةٌ من ديواني الذي كنت قد بعتُ ما بقي منه بالأُقَّة!

من ذلك اليوم بدأ رأيي يتغيَّر في الأدب وقيمته، وما قيمة أدب مصيره إلىٰ دكاكين البَقَّالين ومن إليهم؟!».

وأوضح ما يمثِّل هذه المرحلة الثانية في الكتاب مقالته «بين القراءة والكتابة» التي كتبها سنة ١٩٢٥، ومقالته الأخرىٰ التي كتبها في السنة نفسها «مجالسة الناس ومجالسة الكتب».

وربما اعتادته بعض تلك الهموم في سنوات تالية وألمَّت به، إثر منغِّص من منغصات الحياة التي لا تنتهي، فانظر إليه سنة ١٩٤٥ كيف يقول في لحظة تأمل عدمية: «وليس بعجبٍ وهذا ما وصفتُ من سيرتي علىٰ الجملة أن **ينتابني المللُ أحيانًا حتىٰ لأهمُّ بأن أوقد نارًا ألقي عليها كلَّ ما عندي من كتب وأوراق، وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيقُ النظر إلىٰ كتاب، وأروح أتساءل: ما الفائدة؟! فيم كلُّ هذا العناء؟!**»[1].

أما **المرحلة الثالثة** التي شهدت عودة المازني إلىٰ رحاب منزله الأول، قارئًا للكتب وناصحًا بها، فإن خطاب الضيق والتبرم بالكتب ظل يظهر فيها الفينة بعد الفينة، لكن مع تعليل ذلك وتفسيره وبيان الوجه فيه مما سنذكره بعد قليل، ومع الحض البالغ علىٰ القراءة، والتأكيد المتتابع علىٰ أهميتها، والندم علىٰ ما سلف من موقفه المتهوِّر في المرحلة الثانية التي لم تطل.

وقد كتب في سنة ١٩٤٥ يقول: «وأمامي وأنا أكتب هذا كتاب الأستاذ العقاد في «هذه الشجرة» وهو أول كتاب من نوعه أقرؤه بالعربية أو الإنجليزية اللَّتين لا أعرف سواهما من لغات هذا الإنسان، إذا جاز لي أن أدَّعي أني أعرفهما، ولا يتوهَّم القارئ أني أتكلَّف التواضع أو أمزح؛ فإن علمي بمبلغ جهلي بهما يزداد كلَّ يوم، **وقد غلبني الغرور في أيام الحرب الماضية، أو ركبني الجهل، أو ذهب عقلي، فبعتُ ما كان عندي من المراجع في اللغتين في جملة ما بعتُ يومئذ من كتبي، وظللتُ سنواتٍ طويلات المُدَد نادمًا علىٰ ما بعتُ من الكتب الأخرىٰ، ولم أندم علىٰ التفريط في هذه المراجع، وبعد هذا العمر الطويل تبيَّنتُ أن ظنِّي أن بي غنًىٰ عنها كان قلَّة عقل وسوء رأي، ولهذا اقتنيتُها مرَّة أخرىٰ بأضعاف أثمانها القديمة.**

وقد يضحك القارئ أني أقرأ كتبًا في النحو والصَّرف! إي والله!».

---

(١) مقالة «في الكتابة والكتب».

إلىٰ أن يقول: «**وأنا الآن في سنة ١٩٤٥ أقرأ النحو والصَّرف، وأقضي كلَّ يوم ساعة أو بعض ساعة مع سيبويه والكسائي وإخوانهما، وأجد في ذلك لذَّة ومتعة عقلية أيضًا**؛ لأنهم يمثِّلون فيما أرىٰ مذاهب تفكير لا مذاهب نحو».[1]

والمرحلة الثالثة هي ما استقر عليه المازني بلا ريب، وتمثِّلها جلُّ كتاباته حتىٰ آخر حياته، فنراه يعبر عن يقينه سنة ١٩٣٠ «**أن الجنسَ الإنساني يشفي علىٰ الهلاك إذا** فقَد كنوز الآداب والفنون والمعارف، وبعبارة أوجز وأشمل: **إذا فقَد الكتب**؛ ذلك أن التفكير مرتبطٌ بفنِّ الكتابة، وأداة التفكير هي الألفاظ»[2].

ويعترف في سنة ١٩٣٥ في مقاله الذي عنونه بـ«مكتبتي» بحبه للكتب الذي بلغ مبلغ الجنون، فيقول: «**وإني لمجنونٌ بالكتب**، ولكنَّ جنوني بما فيها لا بأشكالها وألوانها علىٰ رفوفها».

ويتحدث سنة ١٩٣٥ في مقالته الطريفة «ما كنت أتمنىٰ أن أقرأ» عن الكتب حديث المحبِّ المستهام الذي لا يشبع من محبوبه، مع تحرُّز أبداه بقوله: «**فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصدُّ عن التطلُّع أو ما يكتفي به العقل الإنساني عن المضيِّ في البحث والتقصِّي**، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ، فما يتَّسع عمرٌ -مهما طال- للإلمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول»، وهو احتراز عاقل حكيم لا يخالف فيه أعظمُ محبٍّ للكتب.

ويعلن في مقالة «الأدب وتحصيله» سنة ١٩٣٧ أن القراءة والتحصيل لا حدَّ لهما، فيقول: «ولستُ أكتب لأقول هذا، وإنما أريد أن أرسم للقراء صورةً لأيام التحصيل الأولىٰ. وأقول: (الأولىٰ) **لأنَّا ما زلنا دائبين علىٰ التحصيل، لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها**»، ثم شرع في حكاية تجربته في القراءة والاطلاع مذ كان

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٢ أبريل ١٩٤٥)، وسيأتي في مقالة «عندما بعت كتبي».

(٢) مقالة «ماذا تقرأ ولماذا تقرأ».

تلميذًا في المدارس الثانوية، وذكر فضل قراءته الجادة للكتب وأن العناء الذي تكبَّده في ذلك نفعه؛ لأنه أحوجه إلىٰ مراجعاتٍ لا آخر لها، وأطلعَه علىٰ ما كان خليقًا أن يخطئه فيفوته العلمُ به.

وكذلك فعل في مقالة «مشقَّة التحصيل» سنة ١٩٤٥، وقد ساق جزءًا منها بعد ذلك في نصيحته إلىٰ شباب العراق التي بعنوان «واجبات الشباب العربي»، يقول فيها لأحد الشباب: «فاعرِفْ لغتَك أولًا، وادرس أدبها، ثم عالِج بعد ذلك ما شئتَ من فنون الكتابة، **واعلم أنه لا مطمع لأحدٍ في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلا بالاطلاع الوافي**».

ثم يقول معتذرًا عن كثرة إلحاحه بهذه النصيحة: «**وليعذرني القرَّاء الأفاضل إذا رأوني أُلحُّ علىٰ شبابنا أن يعكفوا علىٰ التحصيل، ويجدُّوا فيه ويَشْقَوا أيضًا**، فقد رأيتُ شبَّانًا كثيرين في مصر أكبر ظنِّي أن لهم أندادًا في غيرها يستثقلون الطلب، ويستطيلون مدَّته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفُّون بالأمر كلِّه، ويحاولون أن يَرْقوا بغير سلَّم، وأن يبلُغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأتون إلا بأغثِّ الغثاثة وأسخف السُّخف، ثم يروحون يتذمَّرون ويجأرون بالشكوىٰ»، ثم يفيض في شرح جهاده وتعبه في القراءة والدرس والتحصيل.

ويتذكر في آخر عمره (سنة ١٩٤٨) كيف كان ينفق نصف دخله علىٰ اقتناء الكتب، فيكتب مقالتين بمداد الحكمة يلحُّ فيهما علىٰ تلك النصيحة، فيقول في مقالته «سرقت لأصبح أديبًا»: «أريد أن أقول: **إنَّ طريق الأديب طويلٌ وشاقٌّ، وإنَّ كلَّ خطوة فيه تتطلَّب منه كفاحًا وصبرًا، وإن الذين يُعَدُّون شيوخًا فيه إنما صاروا كذلك لا بارتفاع السِّنِّ، بل بأنهم يَعُدُّون أنفسَهم تلاميذ لا تنقضي حاجتهم إلىٰ الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما**، وبالنظر والتأمل ومحاولة الإدراك الصَّحيح. وهل يستطيع أحدٌ أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لا بدَّ له من غذاء».

ويقول في مقالته الأخرىٰ «هل يحفر الشيوخ قبورهم بأيديهم» في العام نفسه قبل الأولىٰ ببضعة شهور: «إنه لا شكَّ في أن بشبابنا كَلًّا أو سمِّه فتورًا إذا شئت عن التحصيل، وعن حشد الأُهْبَة التي لا غنىٰ عنها لمن يريد أن يشقَّ لنفسه طريقًا في الحياة. ولم يكن جيلنا كذلك؛ **فقد كنَّا نستقلُّ ما نتلقَّاه من الدروس، ونعكف علىٰ القراءة غير مكلَّفين، ونقتصد من مصروفنا الضئيل ليتسنَّىٰ لنا أن نشتري كتابًا نقرؤه. وكنَّا نتبادل الكتب بعد قراءتها؛ لقلة المال في أيدينا**. وأتذكَّر أني في مدرسة المعلمين اشتريتُ كلَّ ما وسعني شراؤه من الكتب في التربية وتاريخ رجالها، فلمَّا رآها معي الأستاذ قال لي: ما دمتَ تقرأ هذه الكتب فلا حاجة بك إلىٰ مذكِّراتي؛ فإن هذه هي التي أرجع إليها وأعتمد عليها في دروسي. فخجلت، وأظهرتُ له العناية بمذكِّراته، وكانت جديرة بذلك»، إلىٰ أن يقول في لغة صادقة: «وأنا أقول: إني أزداد كلَّ يوم جهلًا، فيظنُّ الذين يسمعون مني هذا أني أتكلَّف التواضع، وليس هو من التواضع في شيء؛ فإنه الحقيقة لا أكثر ولا أقل، **ذلك أن الإنسان كلَّما توسَّع في القراءة، أو إذا شئتَ كلَّما زاد علمه، ازداد شعوره بالجهل، أي بالبون الشاسع بين القليل الذي يعرفه والكثير -بل المَهُول- الذي يجهله**».

والحقُّ أنه لا يكاد يختلف أحدٌ مع المازني فيما ذهب إليه من هذه المرحلة، وإن كان في بعض عباراته حدَّة ومبالغة ما كان أغناه عنها، وإن بدرت منه في لحظات يأسه كلماتٌ غاضبة أرسلها علىٰ سجيته في إرخاء العنان لقلمه في التعبير عن ذات نفسه، ولا مناص من فهمها في سياقها، فإنه لم ينفكَّ في كل ذلك يحضُّ علىٰ القراءة ويغري بها ويذكر فضلها وأهميتها، ويطري صنيع جيلهم في العناية بها، وينكر علىٰ بعض ضعفاء الكتَّاب تعجُّلهم التصدُّر قبل الأوان، ودخولهم ميدان الكتابة بغير سلاح، ويقول لهم في عبارة محكمة ووصية جامعة: «فما يكون المرء كاتبًا إلا بعد أن يكون قارئًا»[1].

(١) «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٣٤٨).

وفي هذه المرحلة عاد لقراءة الأدب العربي مرة أخرىٰ، وقال لمن تعجَّب من ذلك، لأنه يراه يقرأ الأدب العربيَّ منذ أكثر من ثلث قرن: «صدقت، ولكن هذه كانت قراءة المفتون، وكانت للمتعة. أما الآن، وقد جاوزت الخمسين، وشاب فَوداي، بل شاع الشيبُ في رأسي كنار الحريق ذات الوقود، فقد عدتُ طالبًا صغيرًا يَدْرُس ليتعلَّم ويفهم»[1].

وقال في صراحة مازنية أخرىٰ: «وكنت قد ذهبتُ إلىٰ آراء في الأدب العربي اجترأتُ علىٰ إعلان بعضها، ولكني شعرتُ منذ بضع سنوات أن عليَّ أن أراجع هذا الأدب وأدرسه درسًا جديدًا منتظمًا»[2].

وقد توفي وفي مكتبته نحو ثلاثة آلاف كتاب[3]، بعد أن عاد واشترىٰ ما كان قد باعه منها بأضعاف أثمانها!

وكتب سنة ١٩٤٥ يقول: «وإنه ليكون تقصيرًا مني أنا في حقِّ نفسي إذا لم أحرص علىٰ اقتناء الكتب القيِّمة دون انتظار إهدائها إليَّ»[4].

ووصف عبد الحميد جودة السَّحَّار مكتبته عندما زاره في بيته سنة ١٩٤٤، فقال: «درتُ بعيني في المكان قبل أن أجلس، فإذا بكتب تغطي المكتبَ والأرائك والمقاعد، فتقدَّمتُ علىٰ حذر، حتىٰ لا أرتطم بالكتب التي صُفَّت علىٰ الأرض، وأزحتُ بعض الكتب عن مقعد قريب في حرص، ثم جلست»[5].

---

(١) مقالة «بدون عنوان». وذكر هذا أيضًا في جواب «مجلة المصوَّر» عن ماذا يقرأ.

(٢) مقالة «زيتون في قرطاس من الشعر».

(٣) انظر وصفها في مقالة «ماذا تضم مكتبة المازني»، «مجلة القاهرة» (العدد ٣٠، ١٣ أبريل ١٩٨٥). وكان في مكتبته قبل أن يبيعها بضعة آلاف كتاب. انظر: «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٨٣). وسيأتي قوله في مقالة «مكتبتي»: «وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجتُ أن أبيع منها مرَّات».

(٤) «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٥٢). وانظر شراءه للكتب أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٣ في مقالة «أثر الحرب على الكتابة والتأليف».

(٥) «صور وذكريات» (١٩٦).

ومن أوضح نصوصه في تجلية رأيه وإزالة الإبهام عن بعض عباراته المطلقة جوابه سنة ١٩٣٥ عن سؤال أحدهم: إذن أنت يا أستاذ تشجِّعنا علىٰ إهمال الكتب، وتضرب لنا مثلًا في الاعتماد علىٰ تلك التجارب والحوادث التي تمر بنا في الحياة للأخذ عنها والاعتبار بها!

فقال المازني: «**لا، فإنني لا أقول بإهمال الكتب، والاقتصار علىٰ ما في الحياة من صور وتجارب، وإنما أعني أن الكتب تمثِّل جانبًا من الحياة لا يكفي أن يفهمه الإنسان فهمًا حقيقيًّا إلا إذا عَجَم عودَه بنفسه وعرف حقيقة أمره**؛ لأنك تعلم أن هناك فرقًا بين سماعك بالشيء وممارستك له، فالأول يعطيك صورة ذهنية فقط، أما الثاني فإنه يَقِفُك علىٰ الحقيقة الواقعة بما فيها من دقائق لا تتسنَّىٰ ملاحظتها في القراءة والسَّماع.

وهذا لا يحطُّ من شأن الكتب؛ لأن وظيفتها بهذا الاعتبار تكون دراسة الحياة والإنسان، وإمتاع النفس بالجمال والجلال، وتربية الإحساس، ثم هي تُطْلِعُك علىٰ ضرب من التجارب التي زاولها مؤلفوها، وتختلف في كلِّ كتاب باختلاف المؤلفين في مقدار الاستعداد للأخذ عن هذه التجارب والانتفاع بها»[1].

وحاصل ما ينقمه المازني علىٰ القراءة في هذه المرحلة يرجع إلىٰ أربعة أمور:

الأول: الاعتماد التام علىٰ الكتب والتعويل عليها دون الاستفادة من التجربة والانتفاع بدروس الحياة.

قال في سلسلة مقالاته «كيف ولماذا أعتزل الناس» سنة ١٩٣٨ والتي نشرت بعد وفاته في كتاب «قصة حياة»: «**كانت الكتب تُغْذِيني وتسحرني، فأنظر إلىٰ الدنيا بعيون أصحابها لا بعيني، وأحسُّها بقلوبهم لا بقلبي**، وأتصوَّر حياتي وأقيسها علىٰ ما يروقني من صور الحياة في هذه الكتب، وأنتحلُ آمال أصحابها ومخاوفهم، وهِمَّاتهم وعزماتهم،

---

(١) مقالة «رأيي في الكتب».

ومُثُلهم العليا، وصور الكمال عندهم، وأوحِي ذلك كلَّه إلىٰ نفسي، ثم أزعُمُني ندَّهم وقريعَهم، فأزهىٰ وأتكبَّر وأغترُّ؛ لأني أري نفسي كما رسمها خيالي الذي استمدَّ من هذه الكتب لا كما هي في الواقع، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحي هذه الكتب».

إلىٰ أن يقول: «فأنا لم أكن في شبابي أتلقَّىٰ وقعَ الحياة مباشرة، بل عن طريق الكتب، وكنت لهذا كالذي نوَّمه غيرُه تنويمًا مغنطيسيًّا، فرأيه، وشعوره، وعاطفته، وهواه، وأمله وخوفه، وحبُّه وبغضه، هو ما يُحْدِثه في نفسه إيحاء منوِّمه. **وقد شببتُ عن هذا الطوق، وما زال ولوعي بالكتب كما كان، ولكنه لم يبق لها شيءٌ من ذلك السِّحر القديم، فقد استطعتُ بفضل معاناتي للحياة أن أقِيَ نفسي وأجنِّبها تلك الفتنة، فأنا أنظر في الكتب وفي الحياة بعيني، لا بعين الكاتب أو الشاعر، وأحسُّ بقلبي لا بقلب سواي، وأتلقَّىٰ وقعَ الحياة منها لا من إيحاء الكتب».**

وقال عن حيرته: «ولهذه الحيرة عللُها المعقولة؛ فأنا قد وَرِثتُ آراء، وأفدتُ من مخالطة الناس آراء، واكتسبتُ من الاطلاع آراء، **وكنت أسلِّم بما وَرِثتُ واكتسبتُ وأنا في سنِّ التحصيل، وكنت ربما كابرتُ بالخلاف فيما أخذته من بيئتي، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقَّاه بالإكبار والإقرار؛ لأني لم أجد من يهديني أو يرشدني، فلا البيت كان لي فيه هذا المُعِين، ولا المدرسة كنت أجدُ فيها هذا المعلِّم الحاذق المرشد**»، إلىٰ أن يقول: «وكنت في خلال ذلك قد احتجتُ أن أنظر بعيني وأفكِّر بعقلي، فألفيتُني أشكُّ في كثيرٍ ممَّا كنت أسلِّم به ولا أكابر فيه، بل ما كان لا يخطر لي أن أعترض عليه. وتغيَّر الأمر، **فبعد أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس صرتُ آخذها من الحياة بلا واسطة، وأعرضها علىٰ عقلي بلا مؤثِّر، فاعتدتُ الاستقلال في النظر، والحرِّية في التفكير، وخلا تفكيري وإحساسي شيئًا فشيئًا من تأثير الكتب وسواها، وبَرَزت نفسي بعد طول التضاؤل**»[1].

(١) مقالة «عندما بعت كتبي».

ويقول في موضع ثالث عن نفسه: «وكنت متكلِّفًا في أسلوب الشعر والنثر جميعًا؛ **لأني أعيش بين الكتب، ولا أكاد أعرف سواها إلا ظنًّا علىٰ الأكثر**، ولهذا كان أدبي في ذلك العهد دراساتٍ في الأغلب، قِوَامها القراءة وحدها تقريبًا، وشعرًا لا يصوِّر النفس علىٰ حقيقتها ولا يعبِّر عنها تعبيرًا صحيحًا؛ لأن الاقتباس فيه بالقديم -من شرقيٍّ وغربيٍّ- أكثر من الاستمداد من التجريب...، وأقول بإيجاز: إني كنت كالرَّاهب أيام كان التعليمُ عملي، فلما زاولتُ الصِّحافة خرجتُ من العزلة القديمة -عزلة الفكر والنفس- ونزلت إلىٰ الحَلْبة، أو خضتُ العُباب، فكأني انتقلتُ من عالم إلىٰ عالم، أو هبطتُ من كوكب إلىٰ كوكب في هذا الفلك الدوَّار. **وقد لا أرضىٰ عما أُخرِجُ في هذا العهد الثاني، ولكنَّ ما أُخرِجُه هو علىٰ كل حالٍ وسواءٌ أأرضاني أو لم يرضني ثمرةُ التجربة للحياة ومشاركة الناس فيها، أما في العهد الأول فقد كان ما أُخرِجُ هو ثمرة القراءة والتحصيل مع تعذُّر التجربة الشخصية**»[1].

واقرأ هذا المعنىٰ أيضًا في مقالته «في طريق الحياة».

الثاني: التسليم التامُّ بكل ما في الكتب، وتقليد أصحابها، والتفكير بعقولهم، واتخاذها أصنامًا تُعْبَد، لا أدلة تهدي.

يقول في تعليل كون كهولته خيرًا من شبابه: «ذلك أني الآن لا أرجع إلىٰ الكتب إلا إذا كان الرجوع لا مفرَّ منه، للاهتداء بحقيقة علمية أو تاريخية أو ما يجري هذا المجرىٰ، **ولا أعتمد إلا علىٰ عقلي وحده، ولا أتخذ من الكتب أصنامًا تُعْبَد، بل أقرؤها قراءة الناقد الذي لا يسلِّم إلا بما يقتنع به**، فالمعوَّل أولًا وآخرًا علىٰ نظري أنا، أما ما أقرأ فقد أصبح كلُّه «محلَّ نظر» عندي، علىٰ خلاف الحال في شبابي، فقد كنت أتلقَّىٰ كلَّ ما أقرأ بالتسليم»[2].

---

(١) مقالة «الصحافة والأدب».

(٢) مقالة «كهولتي خير من شبابي».

ويقول كذلك في الفرق بين تحصيل المرء في شبابه وتحصيله في كهولته: «وأنا اليوم أقرأ ولعلي أعظم شرهًا ممَّا كنت في صدر حياتي، غير أني أحكِّم عقلي لا إحساسي كما كنت أفعل أيام كانت كلُّ كلمةٍ زهرة أو درَّة، ... **فأنا الآن أنظر إلىٰ الجودة وأطلبها وأقدِّر مبلغها**، ولا أحفِل الوقعَ الذي يكون للكتاب في النفس، ... **وهذا طبيعيٌّ مع ارتفاع السِّنِّ، واتساع أفق النفس، ونضج العقل، واعتياد الأناة في النظر والحكم**»[1].

الثالث: عدم استثمار القراءة في تكوين فلسفة خاصة وآراء مستقلة للكون والحياة.

ومن قديم كلام المازني سنة ١٩٢٣: «وحسبُ المرء من الكتب أثرُها في نفسه، وفعلُها في تهذيبها، ورفع مستواها وصقلها»[2].

وقال فيما تعلمه من دروس الحياة: «**وتعلَّمتُ ألا أكون أسير رأي أو كتاب؛ فإن مؤدَّىٰ هذا الأسرِ الإفلاسُ العقليُّ والعاطفي. وفائدة الكتب أن يقرأها الإنسانُ ويدرسها ويفكِّر فيها، ويضيف عقول أصحابها إلىٰ عقله، لا أن يظلَّ أسيرها**»[3].

وهذا ما كان يخشاه ويمتحن نفسه به، كما قال: «**أليس حقيقًا بمن يقضي مثل هذا العمر في القراءة والاطلاع أن يجلس ساعةً يحاسبُ نفسَه، وأن ينصب الميزان فيضع في كفَّة ما أنفق من حياة ومال وجهد، وفي كفَّة أخرىٰ ما اشترىٰ به كلَّ ذلك وما خرج به منه؟!** لم أكن قطُّ ممَّن يقرؤون لأني لا أدري ماذا أصنع غير ذلك. كلا! ما أردتُ من القراءة قتلَ الوقت وتزجية الفراغ، وإنما كان همِّي أن أستقطِر الكتبَ وأستخلص منها كلَّ ما يمكن أن تجود به، فإلىٰ أيِّ حدٍّ يا ترىٰ وَسِعني أن أحتفظ بما

---

(١) مقالة «القراءة».

(٢) «حصاد الهشيم»، وسيأتي ملحقًا بمقالة «كهولتي خير من شبابي».

(٣) «أحاديث المازني»، وسيأتي ملحقًا بمقالة «كهولتي خير من شبابي».

أتوهَّم أني فزتُ به؟ هل اختزنتُ شيئًا في هذا الرأس الذي كَدَدتُه وأجهدتُه كلَّ هذه السِّنين؟

وساورتني المخاوف لمَّا طاف برأسي هذا الخاطر، وخشيتُ أن أتبيَّن أني لم أكن إلا كالأنبوبة يُصَبُّ فيها الماء من ناحية ليخرج من ناحية أخرىٰ، وأقلقني أن يتَّضح أن القراءة لم تكن عندي إلا عادة، وأني لا أقرأ إلا لأني أجد فسحة الحياة كالأبد شاسعة الفراغ»[1].

وقد انتقد التعليم سنة ١٩٣٠ من هذه الجهة، فقال: «التعليم عندنا قد يُكْسِب الشابَّ مهارةً أو طلاقة في اللسان، أو يحشو له رأسَه ببعض المعارف التي تفيده في معيشته المادِّية، ولكنه لا يفضي إلىٰ تغييرٍ في روحه، أو ينقله إلىٰ حالة نفسيَّة أرقىٰ وأسمىٰ، أو يصيِّره رجلًا آخر له معايير جديدة في الحياة، وكلُّ ما يتعلَّمه لا يؤثِّر في روحه ولا يصل إلىٰ قرارة نفسه؛ لأن كلَّ ما يتلقَّاه لا يعدو أن يكون أداةً توضع في يده أو سلاحًا يقلِّده، والأداة والسِّلاح -ككلِّ أداة أو سلاح- شيءٌ أجنبيٌّ عن النفس، يلقىٰ ويُطرَح بعد مزايلة المدرسة أو بعد الفراغ من العمل، ويعود المرء بعد إلقائه واحدًا من السَّواد كلُّ ميزته سلاحُه المطروح»[2].

الرابع: القراءة العشوائية غير المنظمة.

ويقول في هذا المعنىٰ: «وسألتني صحيفةٌ سيَّارة: ماذا تقرأ؟ فكان جوابي: أني أعيدُ درس الأدب العربي علىٰ نحوٍ منظَّم. فاستغرب القرَّاء وكتبوا إليَّ يقولون: إني أضيعُ وقتي، وإنه لا داعي لهذا العناء الذي أتجشَّمه بعد أن فرغتُ من قراءة الأدب العربي.

---

(١) مقالة «بين كتبي، امتحان النفس».

(٢) مقالة «ماذا أقرأ؟ ولماذا أقرأ؟».

فأمَّا أني فرغت من قراءة هذا الأدب، فغير صحيح؛ فما تتَّسع لهذا حياةٌ واحدة. وأما أني أضيع وقتي، فأبعدُ من الصِّحَّة. **ولا ريب أني قرأتُ كثيرًا، وأنفقتُ علىٰ ذلك جلَّ ما كسبتُ بعرَق الجبين من مال، وخيرَ شطرَي عمري، ولكني كنت أقرأ ما يروقني علىٰ غير ترتيب أو نظام**»[1].

وقد ذكر مرة قواعده الثلاث التي وضعها لنفسه في القراءة، فكانت القاعدة الثالثة هي أن يسأل نفسه عن غايته التي يريد، قال: «**وأجبتُ نفسي بأن غايتي أن أكون شاعرًا عظيمًا وناقدًا حصيفًا، ولمَّا عيَّنتُ الغاية سَهُل أن أرسم الطريق**، فأقبلتُ علىٰ دواوين الشعراء، وعلىٰ الكتب التي رجوتُ أن أستفيد منها فلسفة النقد خاصَّة والأدب عامة»[2].

هذا ذروٌ من **شؤون المازني وأحواله في القراءة**، وسينبئك الكتابُ من أخباره ما يمتعك ويدهشك.

ومن **شجونه المتناثرة في الكتابة** ومعاناتها ممَّا لم يرد في نصوص الكتاب:

١ - اختيار العناوين للمقالات والكتب.

للمازني مع عناوين مقالاته وكتبه شأن! فهي آخر ما يصنع، وأصعبُ ما يلقىٰ، وأطول ما يفكِّر فيه.

وقد سئل مرة: ماذا تفعل الآن؟ فقال: أكتب مقالًا. فقيل: ما عنوانه؟ فأجاب: «**لم أضع له عنوانًا، كعادتي في سائر مقالاتي؛ فإنه أصعب شيء عندي، لذلك فأنا لا أفكر فيه إلا بعد كتابة المقال**؛ إذ لو وضعتُ العنوان أولًا لفكرة معينة فقد تسنحُ أفكارٌ أخرىٰ لا بدَّ منها في سياق الموضوع، فتخرج عن العنوان أو لا يشملها العنوان

---

(١) مقالة «بدون عنوان».

(٢) مقالة «القراءة».

مهما عَظُم، ولا بدَّ أن تلاحظ أن العنوان هو المقالة كلها في كلمة أو جملة، وهذا عسير بلا شك»[1].

وحين ذهب إلىٰ دمشق للمشاركة في احتفال «المجمع العلمي» بأبي العلاء المعري، قال في كلمته التي لم يخلها من ظرفه المعهود: «وأرىٰ بعد ذلك واجبًا أن أصحِّح خطأً غير مقصودٍ مرجعُه إلىٰ آفة لا برء لي منها علىٰ ما يظهر، فقد كنت قبل حضوري إلىٰ الأستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له: إن عنوان موضوعي هو (أبو العلاء شاعرٌ إنساني)، والواقع أني كنت إلىٰ ذلك الوقت حائرًا لا أهتدي ولا أدري أية ناحية من أبي العلاء يحسُن بي أن أتناولها، وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الأدب قد وفدوا علىٰ دمشق ليقولوا في المعري، ويقيني أنهم لن يتركوا لي بابًا أدخل منه أو كوَّة صغيرة أنفلتُ منها، وكان الوقت قد ضاق، والمراجعة الواجبة طويلة، والمشاغل لا هيِّنة ولا قليلة، **والعنوان آخر ما أكتب، وهو علىٰ كل حال شيءٌ لا أحسنه، ولقد أخَّرتُ كتابًا لي في المطبعة سنة كاملة حتىٰ وفقني الله فاهتديت إلىٰ اسم له. وأصارحكم أني ما تسنىٰ لي أن أكتب كلمتي هذه إلا قبل مقدمي بيوم واحد، فأنا لهذا أخشىٰ أن يكون عنوان كلمتي مضللًا أو اسمًا علىٰ غير مسمىٰ**، ولهذا وجب التنبيه وإبراء الذمة»[2].

وسيأتي في الكتاب قوله: «**والأسماء آخر ما أختار لكتبي، واختيارُها يكلِّفني شططًا؛ فإن لي فيها لمذهبًا خاصًا، وأنا أتحرَّىٰ فيها ما لا يتحرَّاه غيري**، وقد لبث كتاب «خيوط العنكبوت» حولًا وزيادةً لا يَصْدُر حتىٰ اهتديتُ إلىٰ اسمه، وأسميتُ كتابًا آخر «عابر سبيل»، فأبىٰ العقاد إلا أن يسبقني إلىٰ إخراج كتاب له بهذا الاسم، فحَرَمنيه، ونزلتُ عنه غير شاكرٍ له، واحتلتُ علىٰ المعنىٰ حتىٰ أسميتُه «في الطريق»،

---

(١) «مجلة كل شيء والدنيا» (١٣ أكتوبر ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٥٥٧).
(٢) «جريدة البلاغ» (٣٠ سبتمبر ١٩٤٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٥/ ١٥٢).

ولكن هيهات! ويأبىٰ العقاد إلا أن يتعقَّبني فيفسِد عليَّ أسمائي وهو لا يدري! فقد أطلقتُ علىٰ روايتي الجديدة اسم «الدكتورة سارة»، فسبقني مرَّة أخرىٰ وأخرج رواية «سارة»، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا اسمٌ آخر يضيع بفضل العقاد! فماذا أصنع؟! أترىٰ ينبغي أن أسجِّل في المحكمة ما يخطر لي من أسماءٍ لكتب أنوي إصدارها؟!»[1].

٢- كيف كتب المازني الفصل الأخير من قصة «ثلاثة رجال وامرأة»؟

حكىٰ الروائي الأديب عبد الحميد جودة السَّحَّار الحكاية بتفاصيلها، بدءًا من تفكيره في أن يكتب لهم المازني قصة في لجنتهم الفتية «لجنة النشر للجامعيين»، إلىٰ أن شرع المازني في كتابة القصة، وراح يسلِّمهم أصول ما يكتب، فيدفعه السَّحَّار إلىٰ المطبعة.

يقول السَّحَّار: «حتىٰ إذا ما سلَّمني أصول الفصل الأخير ذهب معي ليصحِّح التجارب، واتضح أن القصة قصيرة، وقد حدَّدنا عشرين قرشًا ثمنًا لها، وكأنما ضايقه صغر القصة، فطلب ورقًا ووقف يكتب علىٰ نضد جمع الحروف، وقد أسند ساقه المهيضة علىٰ العارضة السفلىٰ الواصلة بين رجلي النضد الأماميتين، ولم يغادر مكانه إلا وقد انتهىٰ من كتابة فصل كامل ودفع به إلىٰ المطبعة».

ثم قال: «وقرأت ذلك الفصل بعد جمعِه فأحسستُ أسَىٰ، كانت الفصول الأولىٰ قوية رصينة تمتاز بنضج الفكرة، وإذا بالفصل الأخير يقوِّض الصَّرح الجميل ويذيب جهد الليالي، ولعنتُ في نفسي القارئ فارغ العين الذي يزنُ الكتاب بيده قبل أن يشتريه»[2].

---

(١) مقالة «قصة كتاب يأبى أن يصدر».

(٢) «صور وذكريات» (١٩٤ - ١٩٩).

وقد صدق فيما قال، فإن الفصل الأخير من القصة علىٰ ظرفه وخفة دمه دون ما سبقه من الفصول بكثير.

٣- أول كتاب يطبعه المازني.

للكتاب الأول منزلةٌ عالية في نفس مؤلفه لا تقلُّ عن فرحه بمولوده البكر، وقد كان للمازني أخٌ أكبر منه جنىٰ عليهم، ومع ذلك فانظر ماذا صنع المازني؟

يقول: «وكنت علىٰ الرغم ممَّا أساء أوقِّره وأنزله منزلة الوالد؛ لأنه أسنُّ مني، ولكنه هو كان أشدَّ توقيرًا لي مني له، وأعظم بي تحفِّيًا. **ولمَّا نشرتُ أول كتاب لي وكان ديوان شعر حملتُ إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة، فتناولها معجبًا، وقلَّبها جَذِلًا، وشرع يقرأ، فما راعني إلا دمعُه المنهمر من فرط الحنوِّ والزَّهو، فنهضتُ إلىٰ** زوجته وتشاغلتُ بالحديث معها، فما أطيق البكاء، ولا أعرفه، وإني لأدري أن الدمع رحمة، وأنه كما يقول ابن الرومي:

لم يُخْلَق الدَّمعُ لامرئٍ عبثًا ... الله أدرىٰ بلوعة الحَزَنِ

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصَّبر علىٰ طول الحرمان جفَّفتا عبراتي، وعلَّمتني أن أبكي بقلبي دون عيني، وأن أستر ضعفي عن الناس، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرؤون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة. والفضل في ذلك لأمي» ثم حكىٰ ما كان منها معه[1].

٤- سرعته ونشاطه في الكتابة.

للمازني جوابٌ عمن سأله عن سر نشاطه وسرعته في الكتابة، اجتزأته من أحد مقالاته، وضمَّنته الكتاب[2].

---

(١) «قصة حياة» (٦- ٧).

(٢) مقالة «نشاطي في الكتابة».

وقد ذكر في مقالته «كيف أكتب» أنه لا يعرف التبييض! ذلك أن الصِّحافة تعلِّم المرء الاكتفاء بالمسوَّدة. وذكرت في تعليقي هناك أن نعمات أحمد فؤاد سألت عن مسودات المازني الفنية، فعلِمَت من العقاد أنه لم يسوِّد في حياته قط؛ لأنه لم يكن في حاجة إلىٰ التسويد. وقول الطنطاوي: إن المازني ممَّن يكتب المقالة في جلسة واحدة لا يمسح القلم ولا يعيد النظر في جملة!

وفي خبر كتابته الفصل الأخير من قصة «ثلاثة رجال وامرأة» المذكور آنفًا شاهدٌ قريب.

ويتحدث صديقه العقاد عن هذه السُّرعة الكتابية، فيقول: «كان يجلس إلىٰ المِرْقَم (التايبرايتر) ليكتب القصَّة المطلوبة أو المقال المطلوب ساعة الطلب بغير تحضير. وكان يكتبه في جلسة واحدة، ويختمه مع ختام الورقة الأخيرة، فيحس القارئ أنه لم يقل كلَّ ما عنده، ولكنه يحسُّ كذلك أن الذي قرأه كافٍ وافٍ أو يزيد علىٰ الكفاية والوفاء».

ثم يقول: «ربما كانت سهولة الكتابة علىٰ المازني تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب، ولكنه ينسىٰ أن هذا الذي يكتبه بغير اكتراث يحاوله المكترثون جهدهم فلا ينتهون إليه. وأحسبُ أنني قرأت له المقال الذي كان يكتبه في نصف ساعة، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود إليها في ساعات، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السُّرعة البالغة، سرعة الكاتب الذي يقول إنه لا يبالي، ولكنه يبلغ غاية الشوط من مبالاة الآخرين»[1].

وعلىٰ هذه السرعة المشهودة والإنتاج الغزير فقد كان المازني يتعجب من كثرة إنتاج كامل كيلاني، وإن كان تعجُّبًا ممزوجًا بسخرية لاذعة في جدٍّ مصطنع، فيقول: «كامل أفندي كيلاني شابٌّ مدهش، يخرج في شهر كتابًا أو كتابين، فكأنه مصنعٌ

(١) «حياة قلم» (١٨١ – ١٨٢).

لتأليف الكتب، لا إنسانٌ من لحم ودم وأعصاب! وما لقيته مرة إلا قال لي: إن كتابًا جديدًا اسمه كذا أو كذا سيصدر بعد بضعة أيام.

وأنا أقرأ الكتاب من هذه الكتب في أطول من الوقت الذي يستنفده هو في تأليفه وطبعه! وأنا مع ذلك من أسرع الناس قراءة -وأقلِّهم لهذا استفادة منها- ومع ذلك أراه يصدر الكتب الضخمة في أقصر من الوقت الذي أقرؤه فيها؛ فكيف يكون هذا ممكنًا ميسورًا؟! إن الله قادرٌ علىٰ كل شيء، وهو ولا شكَّ قادرٌ علىٰ أن يهب كامل كيلاني قدرة مصنع آليٍّ علىٰ الإنتاج السَّريع.

ولكن المسألة مع ذلك لا يحلُّ لغزَها أن نحيلها علىٰ قدرة الله. فما هي الحكاية؟ وكيف يتيسَّر لكامل أفندي ما لا يتيسَّر لإنسان؟ ولست أنكر عليه أن يخرج الكتب بهذه السُّرعة التي تدير الرأس، ولكني أحسده وأتساءل: لماذا لا يسعني ما يسعه؟ ولست أعني نفسي علىٰ وجه التخصيص، وإنما أتخذ منها رمزًا لسواي من السَّلاحف.

وهذا الكتاب الأخير، إن كان هو الأخير! (أساطير ألف يوم)، في كم ساعة يا ترىٰ ألَّفه؟ وهو في خمسين ومئتي صفحة لا تنقص واحدة، فلو أني أردتُ أن أنسخها بالقلم لاحتجتُ إلىٰ شهر كامل! ولكنه هو يؤلفه في بضع ساعات، وينذرنا في ختامه بجزء ثانٍ له يتلوه، وما يدريني ويدريكم أيها القراء لعل الجزء الثاني قد صدر ونحن لا ندري قبل أن نفرغ من الكتابة عنه والإشارة إليه!

وأحسب أن كامل كيلاني أفندي لا يدعو المرء له بالقوة، فإنه أحوج إلىٰ الضعف والَفتور»[1].

---

(١) ثم مضى في نقد كتابه نقدًا مرًّا. «جريدة البلاغ» (٢٢ سبتمبر ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٣٥٤).

٥- صبره واحتماله المشقَّة في الكتابة.

يقول في مقالته «شجون الحديث بين الدكتور زكي مبارك وبيني»: «كان العزم أن أتمَّ في هذا الفصل ما بدأته من الحديث عن الجاحظ، ولكن الدكتور زكي مبارك صرفني عن هذا بما كتَب عني، وما أراه أحسن أو عدَل؛ فإن الجاحظ كان أولىٰ بالكلام مني ومنه جميعًا، وقد زعم أن من حقي عليه أن يستدرجني إلىٰ الكتابة والنظم والتأليف، فهو إلبٌ مع الحياة عليَّ، **وما أعرفني كففتُ عن الكتابة حتىٰ يحتاج هو أو سواه أن يستدرجني، ولقد تكفَّل الرزقُ بحملي علىٰ هذا المكروه، فماذا يبغي فوق ذلك؟ وليتني أعرف السبيل إلىٰ الكفِّ! ولشدَّ ما أودُّ أن ألقي القلم وأستريح من عناء باطل، وأريح الناس من هذر طويل**»[1].

ويقول العقاد في بيان صورة من صور احتمال المازني للمشقَّة في الكتابة، وتفسير ذلك: «**وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانيها الكاتب إذا حاول أن يعيد الكتابة في موضوع من جديد**؛ فإنها مشقَّة جهدٍ ومشقَّة ملل في وقتٍ واحد، **ولكنني رأيت المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفرق الثانوية** تأديبًا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب المقرَّر لتلك الفرق، فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وأنه سيطبع المذكرات علىٰ التوالي بعد إعادة تحضيرها. وصبر علىٰ هذا الجهد المملِّ ليملي علىٰ إخوان الأمانة درسًا في عاقبة الخيانة والخداع.

إلا أنني أظلم ملكات المازني كلها إذا رجعتُ باحتماله لهذه المشقة المملَّة إلىٰ الإرادة دون غيرها؛ فإن الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الأول في صبره علىٰ جهد الإعادة ومللها؛ لأنه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخي الضخم في اللغة الإنجليزية، وأن يلخصه وهو يقرؤه، وأن يترجمه وهو يلخصه،

---

(١) «جريدة البلاغ» (٧ يناير ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ١٤٧).

وأن يكتبه علىٰ ورق الآلة الناسخة في وقتٍ واحد! وهي أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة: جهد القراءة، وجهد التلخيص، وجهد الترجمة، وجهد التحضير»[1].

٦- غزارة إنتاجه وكثرة مقالاته.

تقدمت عبارة الزركلي «المعبِّرة» في ترجمة المازني: «وملأ المجلات الشهرية والأسبوعية المصرية **بفيض من مقالاته لا يغيض**».

والإكثار مظنَّة العِثار، وسبيلٌ إلىٰ التخفُّف من الجزالة التي تقتضيها الأناة[2]، وما يتبع هذا من ولوج ما قد لا يحبُّه المرء من الأبواب، كنقد الكتب والكتَّاب، والتعليق علىٰ الأحداث السياسية، ونحو ذلك.

وليس من تلك الأبواب الكتابة في الجنس كما زعم عباس خضر الذي يقول إنه كتب عدة مقالات بعنوان «الأفكار العارية» نقد فيها كتابة المازني في «أخبار اليوم»، إذ كان «يسرف في الإثارة الجنسية علىٰ نهج الجريدة التي اتخذت من كاتب أديب مثل المازني وسيلة لنشر الأفكار العارية إلىٰ جانب صور الأفخاذ العارية»[3]، وهذه مقالات المازني بأيدي الناس، وببليوجرافيا آثاره كذلك، فأين فيها ما يؤيد هذا؟! بل اقرأ إن شئت مقالة المازني الرصينة عن «الأدب المكشوف» ونقده رواية «بئر الوحشة» للكاتبة الإنجليزية رادكليف هول[4]، ومقالتيه عن «المرأة في حياة الأديب» ردًّا علىٰ توفيق الحكيم[5]، وجوابه الصارم سنة ١٩٤٥ في مسألة «الصداقة البريئة بين

---

(١) «حياة قلم» (١٧١).

(٢) على أن تخفف المازني خيرٌ من تكلُّف كثيرٍ غيره، أو كما قال العقاد في كلام سبق: إن الذي يكتبه المازني بغير اكتراث يحاوله المكترثون جهدهم فلا ينتهون إليه!

(٣) «هؤلاء عرفتهم» لعباس خضر (٢٣، ٢٦).

(٤) «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٢٤٥).

(٥) «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٢٩٩، ٣٠٥).

الرجل والمرأة»[1]، لتعلم أين يقع منها جميعًا ذاك الزعمُ الباغي، ولا أدري ما الذي كان بين عباس خضر والمازني من الضغينة ليبهته بمثل هذا!

علىٰ أن المازني كان يعرف إكثاره، ويعلم أنه قد يجيء علىٰ حساب فنه وأدبه، ولا يزال يتوجَّع لأنه إنما يكتب «للخبز لا للأدب» كما يقول في نقده لديوان «الملاح التائه» لعلي محمود طه الذي جرَّ عليه خصومته[2]، ويقول فيما نقله أحدهم: «ستقول: إن المازني كان بالأمس خيرًا منه اليوم، وإنه ترك زمرة الأدباء وانضمَّ إلىٰ زمرة الصحفيين، وإنه يكتب في كل مكان، ويكتب في كل شيء، حتىٰ أصبح تاجر مقالات يهمُّه ملاحقة السوق أكثر مما تهمُّه جودة البضاعة، أليس كذلك؟ ولكن لا تنس أن الأديب في بلدكم مجبر علىٰ أن يسلك هذا الطريق ليكسب عيشه وعيش أولاده، وليستطيع أن يحيا حياة كريمة تشعره بأنه إنسان»[3].

وقد همَّ المازني بأن يتخيَّر من مقالاته الكثيرة كتبًا للنشر، وما أكثر ما يصلح منها لذلك! وكان العزم كما يقول «أن أصدِر كتبي واحدًا تلو الآخر كلَّ بضعة أسابيع كتابًا»[4]، وما منعه إلا أنه يؤثر أن يطبع كتبه علىٰ نفقته، ولا مال عنده! أو يجد ناشرًا «ظريفًا» أمينًا، وما أقلَّ هؤلاء!

يقول: «فإن عندي بضعة كتب أخرىٰ -خمسة إذا أردتَ الدِّقَّة- لا ينقصها إلا أن أجد ما يشجِّع علىٰ تهيئتها للطبع، كأن أجد الورق أو المال الجمَّ الذي يكفي لاقتناء ضيعة، فأشتري به هذا الورق العزيز الذي صار يساوي وزنه ذهبًا، أو يتيح

---

(١) «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٤١).

(٢) سيأتي في الموضع الثالث المنقول بعد مقالة «غضب المؤلفين من النقد».

(٣) نقله عن المازني كاتبٌ رمز لاسمه بـ (أ. م) في مقالة بمجلة «الرسالة» بعد وفاته (العدد ٨٤٢، ٢٢ أغسطس ١٩٤٩)، ولعله حديثٌ شفهي أو متخيل.

(٤) مقالة «قصة كتاب يأبى أن يصدر».

الله لي ناشرًا ظريفًا منصفًا لا يَغْبِن، وقنوعًا لا يطمَع، ولا يجعل همَّه ووُكْدَه أن يُقْنِع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه»[1].

وقال في مقدمة كتابه «صندوق الدنيا» الذي صدر سنة ١٩٢٩، واستمرَّ يكتب بعده عشرين سنة: «وشرٌّ ما في الأمر أن يجيء إليَّ صديقٌ فيقول: أقترح عليك أن تكتب في كيت وكيت، وتحاول أن تفهمه أن كيتًا وكيتًا هذين لا يحرِّكان في نفسك شيئًا، ولا يهزَّان منها وترًا، فلا يفهم؛ لأنه علىٰ الأرجح يظنُّ أن الكتابة لا تكلِّف المرء جهدًا، وأن القلم هو الذي يجري وحده بما يقطر من مَراعِفه، وأن العقل والنفس لا دخل لهما فيما يخطُّه. وإذا ظللتُ أكتب وأكتب هكذا فماذا يكون؟ لا أقول: إني سأفلس؛ فإن الحياة لا تنفكُّ أبدًا جديدة في رأي العين والعقل، وهي لا تزال تسفر كلَّ يوم عمَّا يحرِّك النفس، ولكني خليقٌ أن أُجَنَّ! نعم، وماذا عسىٰ أن يكون آخر هذا النَّصَب؟ ودَعِ الجنون، فلو كان إنسانٌ يُجَنُّ من كثرة ما كتَب لكان عنواني قد تغيَّر منذ أعوام عديدة، ولكن تعال نُجْرِ حسابًا صغيرًا نُسْقِط منه كلَّ ما ليس بالأدبي. **أنا أكتب في الأسبوع مقالين، فجملة ذلك في العام تبلغ المئة، وكل مئة مقال تملأ خمسة كتب كهذا، فسيكون لي إذن بعد عشرة أعوام إذا ظللتُ هكذا ثلاثون كتابًا غير ما أخرجتُ قبل ذلك، أي إن كتبي أنا وحدي تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون** ولا يعدمون منها متعةً أو سلوىٰ، وصاحبها لم يستفد إلا العناء».

٧- التسويف والتأجيل حتىٰ اللحظة الأخيرة.

قال في بعض أحاديثه: «لمَّا قال لي إخواني في محطة الإذاعة: إنهم يريدون مني أن ألقي كلمةً في أعياد الأمة لم أتردَّد في القبول. مضت أيامٌ وأنا لا أعِدُّ الكلام الذي يلقىٰ، ولا أفكِّر في الموضوع الذي رضيتُ أن أدير عليه حديثي. وكلَّما تذكَّرتُ

---

(١) مقالة «في الكتابة والكتب».

وعدي قلت لنفسي على سبيل الاعتذار لها أو عنها: إنه لا تزال هناك أيامٌ باقية، فلا بأس من هذا الكسل الذي يقضي به الحَرُّ، وظللتُ أجري على عادتي، حتى لم يبق إلا أقلَّ ما يكفي. وعادتي هي أني كالمسافر الذي لا يذهب إلى المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرَّك. ومن الغريب أني إذا سافرتُ بالقطار أكاد أبيتُ في المحطة من فرط الحرص على التبكير وعلى ألا يفوتني القطار. **ولكني إذا أردتُ الكتابة لا أتناول القلم إلا في اللحظة الأخيرة، وأحسب أن عملي في الصِّحافة وضجري منها عوَّداني ذلك.** على أني أؤمن بأن الكسل طبيعيٌّ، وأنه هو الأصل في الإنسان؛ لأنه راحة، ومن ذا الذي يؤثر التعب على الراحة إذا كان له الخيار؟! **وقاعدتي في حياتي** هي أن أخالف ما علَّمني أساتذتي في المدرسة وكانوا يحثُّونني عليه من عدم إرجاء الأمر إلى الغد، فأنا أرجئ إلى الغد كلَّ ما يسعني إرجاؤه، ولا أصنع في يومي إلا ما لا أرى لي حيلةً فيه أو وسيلةً للهرب منه»[1].

وقد ألمَّ المازني بهذا المعنى أيضًا في مفتتح محاضرته عن «القراءة» المنشورة في الكتاب.

٨- نشره عدة كتب في وقت واحد.

قال المازني في تعليق له على بعض كتب الدكتور محمد مندور: «ثلاثة كتب أخرجها الدكتور محمد مندور، وألقى بها للناس دفعةً واحدة، وكفى بهذا دليلًا على أنه أديبٌ وعالم، ولكنه ليس بتاجر ولا علم له أو خبرة بالسُّوق وأحكامها وأحوالها، **وما أنا بخيرٍ منه، ولكنه اتفق لي مثل ما اتفق له من إخراج عدَّة كتب في وقت واحد، فاستأذنني الذي اشتراها في دفعها إلى السُّوق واحدًا بعد واحد، حتى لا يعطِّل بعضها بعضًا، أو يقف الرخيصُ الثمن في طريق الذي هو أغلى، فوكَلتُه إلى رأيه.**

---

(١) «أحاديث المازني» (١٣).

وبقيتُ أستغرب أن يدخل أحدنا مكتبةً فيشتري عشرة كتب لعشرة من الكتَّاب مختلفين، ولكنه يستكثر أن يشتري كتابين لمؤلِّفٍ واحد! وعسىٰ أن يكون ذلك راجعًا إلىٰ الرغبة في اتقاء الملل، أو إلىٰ نشدان لذَّة التنويع. **ولا شكَّ أن العكوف علىٰ مؤلفات كاتب واحد أو آثاره لا يخلو من إملال، ولكن مع ذلك أرىٰ أن هذا أعونُ علىٰ حسن الفهم، وصحَّة التقدير، والإحاطة بخصائص الكاتب وجوانبه المتعددة**»[1].

والفقرة الأخيرة من هذا الكلام أهمُّ وأنفع ممَّا سيق النصُّ لأجله!

٩- ميله إلىٰ الإيجاز.

قال مستطردًا في كلامه عن كتاب «أبو تمام الطائي» لمحمد نجيب البهبيتي: «**هذا كتابٌ نفيس، إلا أنه طويل، بل أطول ممَّا يجب، ولو كنتُ صاحبه لاختصرتُ نحو نصفه**، وقد كنت علىٰ استحساني له أشعر بالملل وأنا أقرؤه من الإطناب والإعادة، فأنظر إلىٰ كلماتٍ في أول الصفحة وكلماتٍ في وسطها وأخرىٰ في ذيلها، فإذا لم أقع علىٰ جديد أو مفيد انتقلتُ إلىٰ ما بعدها، وكنت **أقول لنفسي: هذا زمنُ الإيجاز يا عالم!** قنبلةٌ ذرِّيَّة واحدة تغني عن حرب طويلة كانت خليقةً أن تستنفد سنواتٍ من الجهود الضخمة المضنية، ومسافاتٌ كان يقطعها المسافر في أيام أصبحت الطائرة تَمْرُق فوقها وتطويها في ساعات، وإنا مع ذلك نحسُّ أن الطيران ما زال أبطأ ممَّا ينبغي، وأن عليه أن يبلغ سرعة الفكر أو الصَّوت أو الضوء، وما ستمئة ميل في السَّاعة؟!

وماذا يصنع القارئ بكل هذه الكتب التي تخرجها المطابع في الشرق والغرب وَالتي لا بدَّ من الاطلاع عليها؟! أين الوقت الذي يتَّسع لذلك وليس في اليوم إلا أربع وعشرون ساعة يذهب نصفها في النوم والطعام، والربع في الراحة، والبقية في السَّعي الكسب الرزق؟!

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٧ أغسطس ١٩٤٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٥٤٣).

ومن سوء حظ الإنسان أنه قسَّم الزمن، فصار يحسُّ بمَرِّه، وأن طاقته ما انفكَّت محدودة، فليس في وسعه أن يقرأ أكثر من ألف كلمة في الدقيقة مهما فعل لتدريب عينه علىٰ السُّرعة، ولقد استطاع أن يحطم الذرَّة التي لا يراها لا بعينه ولا بمجهر، وأن يطلق بتحطيمها قوَّة مروِّعة كانت كامنة، ولكنه لم يستطع أن يفعل مثل هذا بنفسه، وإن كان في بدنه كلُّ العناصر التي يأخذها من الأرض ويسخِّرها، فقوَّته حبيسةٌ من جرَّاء هذا العجز العجيب، وقدرته محصورةٌ في نطاق ضيِّق.

علىٰ أني أؤمن بأنه لا محالة فاعلٌ هذا بنفسه يومًا ما، إذا لم تُفْنِه القنابلُ الذرِّيَّة وغيرها من المهلكات الوبيلة التي قد يخترعها فيما بعد، أو إذا لم ينقرض كما يتنبَّأ هـ. ج. ولز، لعجزه عن التكيُّف، كما انقرضت حيواناتٌ كثيرةٌ من قبل.

ولكن هذا استطراد، فلأعد إلىٰ الكتاب»[1].

١٠ - عبقريته في الترجمة.

من أهمِّ نواحي عبقرية المازني التي أشاد بها عارفوه ودارسو أدبه: براعتُه في الترجمة، سرعةً ودقَّةً وإتقانًا[2]، حتىٰ وصفها العقاد بالمَلكة «النادرة»، قال: «وأقول: النادرة، وينبغي أن أقول: **الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية؛ فإنني لا أعرف في آداب المشرق والمغرب نظيرًا للمازني في هذه المَلكة التي أسمِّيها بعبقرية الترجمة**»[3].

ثم يوضح بعض نواحي هذه العبقرية: «**إنه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان، ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البحتري والشريف، ثم لا يخرم في ترجمته حرفًا من اللفظ ولا لمحةً من المعنىٰ، بل يأتي بالمقالة المترجمة**

(١) «جريدة البلاغ» (١٢ نوفمبر ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٥٩٩).
(٢) وإن كان ربما زاد بعض الألفاظ أو نقص بعضها. انظر: «أدب المازني» لنعمات فؤاد (١٨٥- ١٨٧).
(٣) «حياة قلم» (١٧٢).

أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف أو أعلىٰ وأبلغ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوروبي العالمي بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئًا لو أنه نظمها في لغة الضاد».

وتلخيص ذلك أنه «استطاع بترجمته أن **يردَّ الكلام أصيلًا كأنه لم يكتب قبل ذلك بلغة أخرىٰ، ولم يصدر عن قريحة سابقة**»[1].

ويقول العقاد متحدِّيًا: «ولستُ أغلو ولا أحجم عن التحدِّي إذا قلت: **إنني لا أعرف فيما عرفتُ من ترجمات النظم والنثر أديبًا واحدًا يفوق المازني في الترجمة من لغة إلىٰ لغة**، ويملك هذه القدرة شعرًا كما يملكها نثرًا، ويجيد منها اللفظ كما يجيد المعنىٰ والنَّسق والطلاوة»[2].

وإن من أشقِّ ما يتكلَّفه المترجمُ الحاذق إظهار أسلوب المؤلف وفنِّه، لا أن يلتفت إلىٰ إبراز أسلوبه هو وبلاغته، وقليلٌ من يحرص علىٰ هذا، وأقل منهم من يستطيعه، وكان المازني من أوائل من نبَّه علىٰ ذلك وتعاناه وتطلَّبه.

ولا بأس من أن أنقل لك كلامه -علىٰ طوله- عن هذا في مقدمته لبعض ما ترجمه من قصص؛ لفائدته وقلَّة ذيوعه ودلالته علىٰ منهجه في الترجمة.

قال: «وقد توخَّينا في الترجمة مثل ما روعي في الاختيار، أي **إبراز أسلوب الكاتب لا أسلوب المترجم. ولم يكن هذا سهلًا، ولا كان مطلبه هينًا؛ لشدَّة التفاوت، ولكنَّا تكلَّفناه، وعسىٰ أن نكون وُفِّقنا فيه**. وقد حرصنا علىٰ التزام الأصل حتىٰ ليمكن أن نقول: إن الترجمة حرفية، علىٰ قدر ما يتيسَّر ذلك في النقل من لغة إلىٰ أخرىٰ بينهما من الاختلاف ما بين العربية والإنجليزية. ولم نحذف من الأصل في هذه المجموعة

---

(١) «بعد الأعاصير» (٢٨٧)، من كلمته التي ألقاها في ذكرى الأربعين لوفاة المازني بالجمعية الجغرافية، وتقدمت الإشارة إليها.

(٢) كلمته في حفل استقبال المازني بمجمع اللغة، ضمن «مقدمات العقاد» (٥٣٥).

كلها إلا بضعة سطور لا يزيد عددها علىٰ عدد أصابع اليدين، وكانت علة الحذف العجزُ التامُّ عن الاهتداء إلىٰ ما يؤدِّي معناها -مع شدَّة تفهها- في لغتنا العربية، وليس هذا نقصًا في اللغة العربية ولكنه نقصٌ في المترجم[1].

وقد استعملتُ ألفاظًا شائعة في عامِّيتنا، وكان الظنُّ أنها غير صحيحة، ولكني وجدتها مثبتةً في كتب اللغة، ومستعملةً في كتب الأدب، **فلم أر مسوِّغًا لهجر هذا الصحيح المأنوس إلىٰ الحوشيِّ أو غير المألوف أو النابي**، وما دامت اللفظة قد استطاعت أن تحيا علىٰ ألسنة الناس فإنها أحقُّ بالاستعمال من أخرىٰ عجزت عن الحياة فدُفِنت في المعجمات، وفي اللغة -كما في الأحياء - يبقىٰ الأصلح، لا الذي يظنُّه المتحذلقون الأفصح، وليس المعوَّل في الفصاحة علىٰ القِدَم، بل علىٰ الوفاء بحاجة التعبير بالقوة المطلوبة أو الجمال المنشود، وسهولة التلقُّف للمعنىٰ وسرعة التأثر به، وليس هذا تعريفًا للفصاحة وإنما هو إجمالٌ للمطلوب بها. وقد نبَّهتُ علىٰ بعض هذه الألفاظ في الهوامش، وأهملتُ التنبيه في الأغلب اكتفاءً باليسير من ذلك. وأقول علىٰ الجملة: إني ما استعملتُ لفظًا غير صحيح وإن كان محسوبًا من العاميَّة إلا لفظة أو اثنتين أجنبيَّتين شائعتين علىٰ الألسنة، لم أجد لها مقابلًا أو استثقلتُ مقابلهما، فوضعتهما بين علامات التضمين أو الاقتباس.

وأقول أخيرًا: إن ما اختير في هذه المجموعة ليس خير ما في الأدب الإنجليزي من نوعه، ولكنه مِن خيره، وعيبُ كلِّ اختيارٍ هو الاضطرار إلىٰ ترك الأكثر والاجتزاء بالأقل، وكثيرًا ما تؤدي الحيرة إلىٰ سوء الاختيار، ولكن القارئ يستطيع أن يكون علىٰ يقين أن ما يقرؤه هنا هو في الأصل إذا لم يكن في الترجمة من الجيد علىٰ كل حال و بشهادة الزمن»[2].

---

(١) أيُّ نفس كبيرة واثقة هذه!

(٢) «مختارات من القصص الإنجليزي»، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٣٩.

تلك عشرةٌ كاملة، وقد كنت أحبُّ إفراد «أدب الاعتراف» عند المازني بحديث أتخلص منه إلىٰ اعتزاله نظم الشعر، وأجعله أنموذجًا نادرًا للصدق مع النفس بما لا تسمح به نفسُ شاعر، وهل رأيت شاعرًا غير مفتون بشعره؟ إلا أن هذا التقديم قد طال، ولعل للحديث عن ذلك موضعًا آخر أليق به وأسمح.

ولم يبق إلا أن أشرح عملي في الكتاب ومنهجي فيه وما تجشمتُ منه.

١- قرأتُ جميع كتب المازني وما ظفرتُ به من مقالاته، واستخرجتُ منها ما يتصل بشؤون القراءة وشجون الكتابة عنده مما يصلح أن يكون موضوعًا يُقرأ، لا فائدة عابرة تُلمَح وتُستملَح، ونظمتُه في قسمين رئيسين، وجمعتُ النظير إلىٰ النظير، واستغنيتُ بذلك عن كثرة التقسيم والتبويب؛ ليكون الكتاب أعذب، وإلىٰ تصانيف الأدب والسير الذاتية أدنىٰ وأقرب، وفرارًا من أجواء الكتب العلمية ذات الأبواب والفصول.

٢- قابلتُ نصوص الكتاب علىٰ أصولها، وضبطت ملتبسها ضبطًا يعين علىٰ فهمها، وشرحتُ لقارئها من غريب الألفاظ ما قدَّرتُ غموضه وخفاءه عليه، وراعيتُ في هذا وذاك القارئ المبتدئ ومن إليه، و«الضعيفُ أميرُ الرَّكب»، فلا يجدنَّ فَوَقة القراء في أنفسهم، فما إياهم أردت، ولا بهم الظنَّ أسأت، وقد قال بعض من تقدم: «كثرة النقط في الكتاب سوء ظنٍّ بالمرسل إليه»، وكانوا يتركونه في كتابتهم للعظماء «إجلالًا لهم عن أن يُتوهَّم عنهم الشكُّ وسوء الفهم، وتنزيهًا لعلومهم وعلوِّ معرفتهم عن تقييد الحروف» كما يقول الصُّولي، فهذه فائدةٌ جرَّ إليها الاعتذار. وعامة ما فسَّرتُ من الغريب فمن «المعجم الوسيط»، وقليلٌ من «معجم تيمور»، وما عداهما صرَّحتُ به غالبًا.

٣- عزوتُ كلَّ نصٍّ إلىٰ موضعه من كتب المازني أو المجلات التي ورد فيها، ونبَّهتُ علىٰ ما كان مقالًا تامًّا أو مجتزءًا، وذكرت في الثاني عنوان المقال الأصلي.

وخرَّجتُ ما وقع في الكتاب من الحديث والشعر نصًّا أو إشارة، ووثقتُ النقول، بعبارة مقتصدة لا تطويل فيها.

٤- علقتُ علىٰ بعض ما حسبته محتاجًا إلىٰ بيان وإيضاح، أو استدراك وتنبيه، أو فائدة تتمِّم المراد أو تمتع القارئ، ولم أسرف في ذلك، والله لا يحب المسرفين.

٥- ومن أداء الأمانة ونسبة الحقِّ إلىٰ أهله فقد انتفعتُ بالعمل الببليوجرافي الرائد لتراث المازني الذي أصدره الدكتور حمدي السكوت والدكتور مارسدن جونز، واتخذته دليلًا لي ومرشدًا، وانتفعتُ كذلك بما أحسن في جمعه الدكتور عبد السلام حيدر من أعمال المازني غير المنشورة، واعتمدتُ عليه في نصوص المقالات التي أشرتُ إليها في مواضعها، وإن أعدتُ قراءتها وتصحيحها وضبطها وشرح بعض غريبها، فلهم جميعا سابقُ الفضل وسابغُ الشكر. وأضفتُ إلىٰ بنائهم بضع لبناتٍ من المقالات والنصوص التي استخرجتها من المجلات ولم تنشر من قبل، وهي:

١. بدون عنوان.

٢. ماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟

٣. كيف أكتب.

٤. رأيي في الكتب.

٥. إنتاج عام من الأدب والعلوم (جزء منه في آخر مقال «النشر في مصر»).

٦. قلة الربح من التأليف.

ولم أفلح في الحصول علىٰ مقالة «الأحذية والكتب» في «البلاغ»، ومقالة «هل في مصر كتب» في «أخبار اليوم» بعد بحث متكرر في «دار الكتب المصرية»؛ لفقدان أعدادها.

وبعدُ مرة أخرىٰ، فهذه سيرةٌ معرفية فاخرة من طرازٍ غير ما تألَف، جمعَت حلاوة البيان إلىٰ ظرف الروح إلىٰ حكمة العمر، فيها عبرةٌ وتجربة، ومتعةٌ وفائدة، وألوانٌ معجبة من الصَّراحة النادرة، ورفعٌ رقيقٌ للحجاب عن أسرار نفس إنسانية قلقة، ومشاهدةٌ لها من قريب، بقلم صَنَاع حاذق، أحسن الإبانة عنها، وافتنَّ في كشف دخائلها، متأثرًا بما أطال صحبته من قصص الروس ورواياتهم، وإن أثرها فيه لكبير.

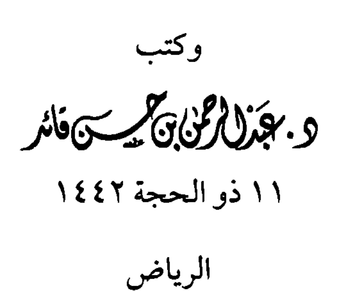
سيرةٌ لا ينقصها الصدق الذي ينقص كثيرًا من السير الذاتية، بل هي مرآةٌ كاشفةٌ لروح صاحبها في رضاه وغضبه، وغروره وتواضعه، وفرحه بما قدَّم وندمه علىٰ ما فرَّط، يخطئ فيعترف، ويُحْسِن فيتباهىٰ، لا يعبأ برأي القارئ فيه، ولا يلتفت لموقف العالم منه، وقد هان عنده كلُّ شيء حتىٰ ما يحفل شيئًا، أو يبالي كيف يكون، أو يتحسَّر علىٰ شيء فات، أو يتطلَّع إلىٰ ما هو آت، كما يقول عن نفسه.

ومن ترىٰ من الأدباء الكبار يجسُر علىٰ الاعتراف بأنه لا يفهم الفلسفة، أو الإقرار بأنه يعيد قراءة الأدب العربي مرة أخرىٰ لأنه تعجَّل في قراءته أول مرة، أو التصريح بأنه يكتب للخبز لا للأدب، أو المجاهرة بترك الشعر وقد كان معدودًا من شعراء عصره لأنه رأىٰ نفسه ليس من أهله؟ ومن منهم تسمح نفسه بالاعتراف بالفضل في توجيهه لواحدٍ من أقرانه، بل من خصومه وأعدائه؟ دعك من كبار الأدباء، كم من عامة الناس من يعترف بأخطائه ويتراجع عن حماقات شبابه؟ ومفاجآت المازني التي ستستقبلها في هذا الكتاب لا تنتهي!

وعنوان الكتاب «العمر الذاهب» مقتبسٌ للدلالة علىٰ رحلة عمر المازني قارئًا وكاتبًا من عبارة وردت في الكتاب علىٰ لسان قارئ غاضب، وفيه نفحةٌ من عناوين المازني السَّاخرة المستخفَّة به وبكتبه، والمعبِّرة عن شعوره بمرارة الحياة ومظاهرها، كـ«قبض الريح»، و«حصاد الهشيم»، و«خيوط العنكبوت» وغيرها، ولعلي لقيتُ في اختياره من العنت وطول التأمل ومشاورة الأصحاب مثل ما كان يلاقي المازني في اختيار عناوينه!

وآخر ما أقوله لك: إنك واجدٌ في الكتاب مواضع جرىٰ فيها المازني علىٰ سجيته في السخرية وطلب الفكاهة، وإنهما لأسرع إلىٰ سنِّ قلمه من حضور بديهته، فلا تحمل كلَّ شيء علىٰ محمل الجدِّ، وانظر إلىٰ السياق، وتدرَّع بالفطنة، ودع الظاهر الذي لا يصحُّ في بديهة العقل إلىٰ ما يسوغ من التأويل، كبعض كلماته في الضيق بأولاده أو ضجره من رعاية أسرته، ونحو ذلك مما لا يُحْمَل كلام عاقل ذي مروءة علىٰ ظاهره، وانظر لتعلم أن ذلك خرج مخرج السُّخرية وجرت إليه ساقية الفكاهة قوله حين جدَّ الجدُّ لتلك التي ظنها فتاةً تراسله وقد طلبت منه لتتزوجه أن يطلق زوجته: «أقسم لك أن هذا الحديث قد أثَّر في قلبي فأضعفه وسبَّب له اضطرابًا أرجو أن تكون عاقبته سليمة، مجرد اقتراح التطليق كان وحده كافيًا لذلك. وأولادي من يشرف علىٰ تربيتهم؟! وقد قال تابعك: ألا يمكن أن يوكل ذلك لأخيك؟ فثرتُ. أولادي ألقي بهم إلىٰ أخي يربِّيهم وأنا علىٰ قيد الحياة أنعم بالحبِّ والسَّعادة؟! أولادي ألقِّحهم علىٰ الناس ولا أبالي كيف ينشؤون ولا كيف يبيتون ولا ماذا يطعمون ولا كيف يعاملون؟! أيكون رجلًا جديرًا بأي منزلة من منازل الاحترام والكرامة من يُطْلَبُ منه مثل هذا؟!» إلىٰ آخر ما قال، وإنما أوردته لك لأني أعلم ثقل تلك الكلمات السَّاخرة عليك، فليكن هذا النصُّ منك علىٰ ذُكرٍ متىٰ مرَّ بك شيء من ذلك، وقس عليه ما كان من أشباهه، وهو قليلٌ علىٰ كل حال، والله يحفظك.

وكتب



١١ ذو الحجة ١٤٤٢

الرياض

القِرَاءَةُ وَشُؤُونُهَا

الأدب وتحصيله[1]

نعىٰ صديقي الأستاذ الزيات صاحب «الرسالة» علىٰ أدباء هذا الجيل الجديد جهلَهم بلغتهم، وتقصيرَهم في تحصيل آدابها، وقال: «إن الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفرٌ قليل. فإذا استثنيتَ هؤلاء السِّتَّة أو السَّبعة -وهم من الكهول الراحلين- وجدتَ طبقة الأدباء كطبقة الصُّنَّاع والزُّرَّاع والتُّجَّار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة، لا بالدَّرس والمعاناة»[2]. وقال أيضًا: «ولا تجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور، من يحسب نفسه أديبًا في لغة وهو لا يعرفُ منها إلا ما يعرف العاميُّ الألَفُّ»[3].

وهذا صحيح. وأحسبني من السِّتَّة أو السَّبعة الذين أشار إليهم الأستاذ[4]، وإني لمن الكهول؛ فقد جاوزتُ الأربعين وقاربتُ الخمسين، ولكني إن شاء الله من الباقين لا من الراحلين، فإني أحسُّ من العزم والقوَّة والنشاط ما لو فُرِّق بعضه علىٰ الأدباء النابتين أو الناجمين في زماننا هذا لكفاهم وزيادة.

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٠٧، ٢١ يونيو ١٩٣٧). ثم نشرت في «سبيل الحياة» (٦٦) الذي صدر بعد وفاة المازني. ثم أعيد نشرها في «مجلة الدوحة» (العدد ١٠٨، ديسمبر ١٩٨٤) بعنوان «عن الأدب وتحصيله أنا وزوجتي والكتب».

(٢) مقالة «أدب السندوتش» للزيات في «مجلة الرسالة» (العدد ٢٠٦، ١٤ يونيو ١٩٣٧)، ثم في «وحي الرسالة» (١/ ٣٨١). وقد أغرت مقالة الزيات هذه العقاد أيضًا، فكتب مقالة جميلة في «الرسالة» (العدد ٢٠٩، ٥ يوليو ١٩٣٧) بعنوان «السندوتش والمائدة»، ليست في ما نشر من كتبه.

(٣) الألفُّ: العييُّ.

(٤) قال الزيات في رثاء المازني في «الرسالة» (العدد ٨٤٥، ١٢ سبتمبر ١٩٤٩): «المازني كان أحد الكتَّاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم، ويفهمون أدبها عن فقه، ويعالجون بيانها عن طبع»، وفي «وحي الرسالة» (٣/ ٢٨٩)، و«ذكرى عهود» (٣٨٣).

ولستُ أكتب لأقول هذا، وإنما أريد أن أرسم للقراء صورةً لأيام التحصيل الأولىٰ. وأقول: «الأولىٰ» لأنَّا ما زلنا دائبين علىٰ التحصيل، لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها.

عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ في المدارس الثانوية، وأدع غيري وأتحدَّث عن نفسي، فأقول: إن مواردي كانت محدودة جدًّا، وكان حسبي أن أؤدِّي نفقات التعليم، وكنت أحمد الله إذا وجدتُ بعد ذلك قرشًا في اليوم.

وكان فريقٌ منَّا يُعْنَىٰ بأن يحضر دروس الإمام الشيخ محمد عبده، والشيخ سيد المَرْصَفي، وانتقلنا إلىٰ التعليم العالي، وكتب الله لي -علىٰ خلاف ما كنت أريد- أن أدخل مدرسة المعلِّمين العليا، فكان مرشدي فيها وأستاذي زميلي وصديقي الأستاذ عبد الرحمن شكري، فقد كان شاعرًا ناضجًا ذا مذهب في الأدب يدعو إليه، وكنت أنا مبتدئًا، فصرفني عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومَن إلىٰ هؤلاء، ووجَّهني إلىٰ الأدب الجاهلي والأموي والعباسي، ودلَّني علىٰ ما ينبغي أن أقرأ من الأدب الغربي.

وكانوا يَنْقُدوننا في هذه المدرسة بضع جنيهاتٍ في الشهر: ثلاثة في السنة الأولىٰ، وأربعة في الثانية والثالثة، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمةً عادلة، فأدفع للبيت نصفَها وأستأثر بالنصف، وأذهب إلىٰ مكتبة فأنتقي منها «مؤونة الشهر»! وكنت أعود إلىٰ البيت بهذا الحِمل، فتسألني أمي: أنفقتَ فلوسك كلَّها! وتظلُّ طول الشهر تقول لي: هات! هات! أي تدبيرٍ هذا؟! فأقول: يا أمي، لك مؤونتك من السَّمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم، ولي مؤونتي من المتنبي والشريف الرَّضِي و«الأغاني» وهازليت وتاكري وديكنز وماكولي، ولا غنىٰ بك عن سمنِك وبصلك ولا بي عن هؤلاء، فتبتسم وتقول لي: طيب، وتدعو لي بالتوفيق.

وكنت أشتري ديوان الشعر ورقًا، أعني بغير غلافٍ أو تجليد؛ ليتسنَّىٰ لي حين أخرج من البيت أن أحمل معي ملزمةً أو ملزمتين أقرأ فيهما وأنا جالسٌ في مقهىٰ، أو إذ أتمشَّىٰ علىٰ شاطئ النيل.

وكان حديثنا إذ نجتمعُ في الأدب والكتب، وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصَّيف حين نتفرَّق لا تدور إلا علىٰ ما نقرأ، وكان أحدنا يلقىٰ صاحبه في الطريق اتفاقًا فيقول له: لقد عثرتُ علىٰ كتاب نفيس بغلافٍ، فتعالَ نقرأه. لا يدعوه إلىٰ طعام، أو شراب، أو سينما، أو لهو، بل إلىٰ قراءة كتاب. وكان كلُّ من يقع علىٰ كتاب قيِّم يخفُّ به إلىٰ صاحبه فينبئه به ويلخِّصه له ويحضُّه علىٰ اقتنائه. وكان أساتذتنا في مدرسة المعلِّمين يحثُّوننا علىٰ التحصيل وييسِّرون لنا أسبابه ما وسعهم ذلك، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب «الرسمي» كنَّا قد عرفنا أمَّهات الكتب في الأدبين العربي والإنجليزي وغيرهما أيضًا من الآداب، ودَرَسنا أكثر شعراء العرب والغرب، وكان لكلٍّ منَّا مكتبته الخاصَّة المُتَخيَّرة.

وتزوَّجتُ، وفي صباح ليلة الجَلْوة دخلتُ مكتبتي ورددتُ الباب، وأدرتُ عيني في رفوف الكتب، فراقني منها ديوان «شيلِّي»، فتناولته وانحططت علىٰ كرسيٍّ وشرعتُ أقرأ، ونسيتُ الزوجة التي ما مضىٰ عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة، وكانوا يبحثون عنِّي في حيث يظنُّون أن يجدوني، في الحمَّام وفي غرفة الاستقبال وفي المَنْظَرة[1]، حتىٰ تحت السَّرير بحثوا، ولم يخطر لهم قطُّ أني في المكتبة؛ لأني «عريسٌ» جديدٌ لا يُعْقَل في رأيهم أن يهجر عروسَه هذا الهجر القبيح الفاضح.

وكانت أمي في «الكِرار»[2] أو المخزن تُعِدُّ ما لا أدري لهذا الصَّباح السَّعيد،

(١) مكان من البيت يعدُّ لاستقبال الزائرين.

(٢) غرفة تخزن فيها حوائج البيت من المواد الغذائية. أصلها: كلار باليونانية. انظر: «تكملة المعاجم» (٩/ ٥٢)، و«تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل» (١٨٠).

فأنبأوها أني اختفيتُ كأنما انشقَّت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقَّبوا في كلِّ مكانٍ فلم يعثروا لي علىٰ أثر، فما العمل؟

فضحكت أمي، وقالت: ليس في كلِّ مكان! اذهبوا إلىٰ المكتبة فإنه لا شكَّ فيها.

فقالت حماتي وضرَبت علىٰ صدرها بكفِّها: في المكتبة؟! يا نهار أسود! هل هذا وقتُ كتب وكلام فارغ؟!

فقالت أمي بجزع: اسمعي، كلُّ ساعة من ساعات الليل والنهار وقتُ كتب. افهمي هذا وأريحي نفسك؛ فإن كلَّ محاولةٍ لصرفه عن الكتب عبث.

فقالت حماتي: لو كنت أعرف هذا! مسكينةٌ يا بنتي، وقعتِ وكان ما كان.

فقالت أمي: هل تكون مسكينة إذا وطَّدت نفسها علىٰ هذه المعرفة؟ ويَحْسُن أن تكبَحي لسانك، وأن تدَعي الأمر لبنتك؛ فإنه من شأنها.

فلم تكبح لسانها، بل قالت: لو كانت ضرَّةً لكان أهون!

فقالت أمي: إنك حمقاء. وليس في الأمر ما يُحْوِج إلىٰ هذا الهراء. اذهبي إليه وناديه.

فارتدَّت إليَّ وفتحت الباب عليَّ، وكنت ذاهلًا، فلمَّا شعرتُ بالباب يُفْتَح أزعجني ذلك، فأشرتُ إلىٰ الداخل أن يرجع، من غير أن أنظر إليه، وكنت مقطِّبًا، وكان لساني يخرِج أصواتًا كهذه: شش! شش!

فخرجَت المسكينة وأغلقت الباب، وذهبت تقول لأمي والدُّموع تنحدر من عينيها إني طردتها وصحتُ بها: هشش! كما يُصَاح بالدجاج.

وقد عرفتُ هذا كلَّه فيما بعد، فطردتها؛ لأني خفتُ أن تخرب لي البيت. ثم إني تزوَّجتُ بنتها، ولم أتزوَّجها هي، فما مقامها عندي ولها بيتٌ طويلٌ عريضٌ وزوجٌ

كريم؟! وكان رأيُ بنتها فيها مثل رأيي، فلم يسؤها منِّي ما فعلت. وأراحنا الله من دَوْشَتِها، ولكن زوجتي كانت تقول إلىٰ آخر أيام حياتها رحمها الله: ليس لي ضرَّة سوىٰ هذه الكتب! كانت تقولها مازحة، فقد راضت نفسها علىٰ احتمال هذا الجنون منِّي، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة، وأن في الوسع صرفي عن أيِّ شيء إلا عن الكتب والدَّرس.

ويا ما أذكىٰ المرأة! تكون لها حاجةٌ تريد مني قضاءها، وتخشىٰ رفضي وعنادي، فتكتمها ولا تكاشفني بها، وتنتظر حتىٰ تراني غارقًا في كتاب، وذاهلًا به عن الدنيا، وآية الذهول أن تدخل مرَّاتٍ فلا أشعر بها، فتُقْبِل عليَّ وتلاطفني وهي عارفةٌ بما سيكونُ منِّي، فأعبس، كما كانت تتوقَّع، فتقول كلمةً واحدة: لن أعطِّلك، فأقول متململًا متأفِّفًا: لا حول ولا قوة إلا بالله! قوليها يا ستِّي ولا تعطِّليني، فتطيلُ عامدةً لتضجرني: كلمةً واحدةً بس، لماذا تغضب هكذا؟! ألا يتَّسع صدرك لكلمةٍ ليس إلا؟! فأكاد أجنُّ وأقول: يا ستِّي قوليها وأريحيني، فتقول: المسألة الفلانية، وأنهض وأمضي بها إلىٰ الباب وأنا أقول: اصنعي ما تشائين، كلُّ ما بدا لك اصنعيه، ولكن لا تعطِّليني، أنا محتاجٌ لعقلي كلِّه الآن، ألا تفهمين؟! هذه نسخةٌ مخطوطةٌ منسوخةٌ من «ديوان ابن الرومي» نسخَها حمارٌ كلُّها غلطٌ وتحريفٌ وتصحيف، ليس فيها بيتٌ واحدٌ له معنىٰ، فكيف يمكن أن أصلِح غلطةً واحدةً إذا كنت تطيِّرين لي عقلي بالفساتين والخياطة والرِّكامة[1]؟! فتبتسم؛ فقد بلغَت سُؤْلها، وتَعِدُني أن تحرسَ هذا الباب فلا تترك أحدًا يدخل منه أو يَقْرَبه.

ومن العناء الذي تكلَّفته أني اشتريتُ «الأغاني» الذي طبعه السَّاسي، اشتريته ورقًا علىٰ عادتي، فكنت أراجع الأبيات التي ترد فيه في دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرىٰ، فأُصْلِحُها أو أتمِّم القصيدة، أنسخُ ذلك في ورقة وألصِقها في

---

(١) الرِّكامة: طراز مُخرَّق تطرَّز به أطراف الثياب للنساء، وأصلها من «رَقْم الثوب».

الكتاب، وكلما فرغتُ من جزءٍ جلَّدته وقد أصبحَ ضعفَ ما كان، وهذا هو الكتابُ الوحيد الذي بعته بأضعاف ثمنه، فقد اشتريته بمئة قرش وخمسة قروش، فلمَّا بعتُ مكتبتي في سنة ١٩١٧ أو ١٩١٨ -لا أذكر- ابتاعه منِّي ورَّاقٌ بخمسين وسبعمئة قرش، وقد ندمتُ علىٰ بيعه؛ فما أستطيعُ أن أصنع الآن ما صنعته قديمًا، ولكنَّ العناء الذي تكبَّدته نفعني، فقد أحوجني إلىٰ مراجعاتٍ لا آخر لها، وأطلعَني علىٰ ما كنت خليقًا أن أخطئه فيفوتني العلمُ به.

وأنا مع ذلك أقلُّ الثلاثة -العقاد وشكري- اطلاعًا وصبرًا علىٰ التحصيل. وأدع للقارئ أن يتصوَّر مبلغَ شَرَهِهما العقليِّ، ولا خوف من المبالغة هنا؛ فإن كلَّ ظنِّي دون الحقيقة التي أعرفها عنهما. وأنا أَجْتَرُّ كالخروف، ولكنهما يقضمان قضمَ الأُسود، ويهضمان كالنعامة، فليتني مثلهما.

مشقَّة التحصيل[1]

منذ ربع قرن تقريبًا زارني شابٌّ في «جريدة الأخبار» وشكا إليَّ المرحومَ شوقي الشاعر، وقال: إنه ذهب إليه يستشيره فيما يَحْسُن به أن يقرأ من الكتب العربية، فأشار شوقي عليه بدرس كتابين وجدهما الشابُّ من كتب النحو وفقه اللغة، فاعتقد أنه أضاع ماله، وأن شوقي أخطأه التوفيق.

فقلت له: إن شوقي لم يخطئ؛ فإن النحو والصَّرف وما يجري هذا المجرىٰ لا بدَّ منه، ولا غنىٰ عنه، ولكلِّ لغة قواعدُها وأصولها وأحكامها وفقهها، والإحاطة بهذا كلِّه واجبةٌ إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداةً للكتابة، وإلا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها؟!

وصحيحٌ أن الكتب العربية القديمة تحتاج إلىٰ تيسير مطلبها، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء، فاعرِفْ لغتَك أولًا، وادرس أدبها، ثم عالِج بعد ذلك ما شئتَ من فنون الكتابة، واعلم أنه لا مطمع لأحدٍ في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلا بالاطلاع الوافي، ولمَّا كانت لغتُنا العربيةَ فهي أداتنا التي لا أداة لنا سواها، ولا سبيل لنا إلىٰ البيان إلا بها، فلا مهربَ لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفُّر علىٰ درسِها.

وقد حدَّثتُ شوقي رحمه الله بهذا؛ فقد كنَّا نلتقي في «الأخبار»، ونتذاكَر، علىٰ الرغم من رأيي المعروف في شعره، فقال لي: يا أخي لقد كنت في بداية عهدي بالشعر بعد أن عدتُ من أورُبَّة ألحَنُ وأخطئ، فيسلقني الناقدون بألسنةٍ حديدة، فالآن أنصحُ للشُّبَّان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم، فيشكونني ويعيبونني بذلك!

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٦٤٠، ٨ أكتوبر ١٩٤٥). وقد ساق جزءًا من المقال في نصيحته إلى شباب العراق، وهي منشورة ضمن «أحاديث المازني» بعنوان «واجبات الشباب العربي» (١٥٥ – ١٥٦).

وقد قلتُ أيضًا لذلك الشابِّ المتذمِّر: إني لا أرىٰ الاقتصارَ علىٰ درس اللغة العربية وآدابها؛ فإنه لا يكفي طالبَ الأدب، بل لا بدَّ من التوفُّر علىٰ درس الآداب الأخرىٰ ولا سيَّما الغربية منها. وحسبُ طالب الأدب لغةٌ واحدةٌ كالإنجليزية مثلًا؛ فإن براعاتِ الآداب الأخرىٰ مترجمةٌ إليها، وقد كان العرب حَصِيفين حين عُنُوا بنقل الفلسفة الإغريقية، فاتسعت آفاقهم[1]، ولسنا نستطيع في عصرنا هذا أن ننقل خارجيَّات الغرب في الأدب والفلسفة، فإنها شيءٌ لا آخر له، ولكنَّ في وسعنا أن نطَّلع عليها ونلمَّ بها إلمامًا كافيًا بإحدىٰ اللغات الغربية.

ونحن نلقِّح الشجر ليثمر، ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب، ويجنينا ما هو أشهىٰ، فلنلقِّح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب، ليعود أوفر إنتاجًا وأحلىٰ جنًىٰ. ونحن آدميُّون، والشجر نبات، ولكن سنَّة الحياة واحدة، وقانونها لا يختلف، وهو واحدٌ في كلِّ مظاهر الحياة علىٰ السَّواء، وما يصير به أقوىٰ وأزكىٰ يصير بمثله الحيوان -ونحن منه- أقدر علىٰ معاناة الحياة وأصلحَ لها وأنجب. وليس ممَّا يصحُّ في الأفهام أن نكون في القرن العشرين ونقنَع بأن نعيش بعقول القرون الخالية. وأخلِق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقًا متخلِّفًا من الأزمنة البائدة، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذي خرجنا فيه.

وأنا أعرفُ أن في هذا مشقَّة عظيمة، ولكن الثواب علىٰ قدرها، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة، بل كدٌّ ونضالٌ وكفاح، وما يبلغ المرء في دنياه غايةً أو يدرك شيئًا إلا بالكفاح وعَرق الجبين المتفصِّد، فلماذا نستثني الأدبَ ونراه أهون شأنًا وأيسر مطلبًا من أن يحتاج إلىٰ عناء؟

---

(١) وضاقت عقائدهم وانحرفت عن نقاء الإسلام وفطرتهم الأولى، وفي هذا يقول الإمام الجويني في «غياث الأمم» (٢٨٣) بعد أن ذكر صنيع المأمون في ترجمة كتب اليونان الفلسفية: «ولو قلتُ: إنه مطالبٌ بمغبَّات البدع والضلالات، في الموقف الأَهْوَل في العَرَصات، لم أكن مجازفًا». وانظر: «الغيث الذي انسجم» للصفدي (١/ ٧٩).

وليعذرني القرَّاء الأفاضل إذا رأوني ألحُّ علىٰ شبابنا أن يعكفوا علىٰ التحصيل، ويجدُّوا فيه ويَشْقُوا أيضًا، فقد رأيتُ شبَّانًا كثيرين في مصر أكبر ظنِّي أن لهم أندادًا في غيرها يستثقلون الطلب، ويستطيلون مدَّته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفُّون بالأمر كلِّه، ويحاولون أن يَرْقوا بغير سلَّم، وأن يبلُغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأتون إلا بأغثِّ الغثاثة وأسخف السُّخف، ثم يروحون يتذمَّرون ويجأرون بالشكوىٰ، ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجَّهَهم، ويعترضون سبيلهم حسدًا، إلىٰ آخر هذا الهراء.

ونقول لهم: إن كلَّ علم وفنٍّ مثل الطبِّ والهندسة والتصوير والموسيقىٰ، إلىٰ آخر ذلك، يحتاج إلىٰ درسٍ طويل وتحصيلٍ وافٍ؛ فإن المَلَكة وحدها لا تكفي، والاستعداد بمجرَّده لا غَناء له ما تؤازره المعرفة الصحيحة، فلماذا يعدُّون الأدبَ بِدْعًا يرونه ممَّا يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة؟! فلا يقتنعون -أو علىٰ الأصحِّ لا يستطيعون- أن يَرُوضوا أنفسهم ويوطِّنوها علىٰ احتمال المشقَّة.

وأوثِر أن أكون صريحًا فأقول: إن هذا تَطَرٌّ لا يعجبني، وكسلٌ لا أراه بشيرًا بخير، فيحسن أن أورد طائفةً من الأمثلة تبيِّن أيَّ مشقَّة احتمَلنا، وأيَّ عناءٍ صبَرنا عليه، وأيَّ جهدٍ تكلَّفناه في حداثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلَّع إلىٰ منازل الأدباء.

وقبل ذلك أقول: إن ممَّا نفعني وأغراني برياضة نفسي علىٰ التشدُّد والتجلُّد كلمةٌ قرأتها ومنظرٌ رأيته.

فأما الكلمة، فقول كوييت في كتابه «نصيحة إلىٰ الشبَّان»: إن علىٰ الشباب إذا أراد أن يكون رجلًا كاملًا لا نصفَ رجل أن يحلق ذقنه كلَّ صباح بالماء البارد في الشتاء. وجوُّ إنجلترا من أقسىٰ الأجواء. فقلت لنفسي: إن مصر جوُّها معتدل، فأنا أولىٰ بهذه النصيحة وأقدرُ علىٰ العمل بها، وتوخَّيتُ بعد ذلك أن لا أستعمل الماء

البارد في كلِّ حال، فنفعني هذا وقوَّاني علىٰ احتمال المؤثِّرات الجويَّة وإن كان بدني خَرِعًا[1].

وأما المنظر، فكان شابًّا من العمَّال راقدًا علىٰ الحجارة في وَقْدَة الظُّهر، وشمسُ الصَّيف تضربه، وكنت يومئذٍ في السابعة عشر من عمري، فقلتُ لنفسي: أنا أتململ لأن وسادتي ليست محشوَّة بريش النَّعام، وسجَّادتي ليست من صنعة العَجم، وهذا الغلام ينام علىٰ الحجارة ولا يتأفَّف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه. أمَا والله لا اتخذتُ بعد اليوم شيئًا وثيرًا! وما زلتُ إلىٰ اليوم أوثر الخَشِن علىٰ الرقيق، وليس في بيتي كرسيٌّ مريحٌ أو فراشٌ ليِّن؛ لأني أخجل أن أكون مترفًا.

ورُضْتُ نفسي علىٰ الجَلَد، فاتفق في أول عهدي بدرس الأدب أن وقعت في يدي نسخة من «ديوان الشريف الرَّضِي» مطبوعة في الهند، ليس فيها بيتٌ واحدٌ يَسْلَم من التحريف، فما استطعتُ أن أفهَم شيئًا، وكدتُ أيأس، ولكني تشدَّدتُ وأقبلتُ عليه أعالِج تصحيحَه، وقضيتُ في ذلك قرابة عامين وأنا أوفَّق قليلا وأخفِق كثيرًا، حتىٰ هداني الله إلىٰ ديوانه المطبوع في بيروت، وهو أصحُّ وأسلم من الخطأ، وإن كان لا يخلو منه، فتشهَّدت واسترحت.

وحبَّب ابنَ الرومي إليَّ ما قرأته له مبعثرًا في كتب شتَّىٰ، فطلبتُ ديوانه، فلم أجد إلا مخطوطًا أعوذ بالله منه في دار الكتب المصرية، وكان فيها مخطوطان آخران، ولكني لم أُعْطَ إلا أسوأ الثلاثة وشرَّها، فاستنسختُه وعكفتُ عليه سنواتٍ طويلات المُدَد أحاول التَّصحيحَ والضبط، فلم أبلغ من ذلك ما أريد، ولكنِّي بذلتُ غاية ما يدخل في الوُسْع.

وكان من أول ما اقتنيتُ «الأغاني» (طبع السَّاسي)، وهي نسخةٌ محشوَّةٌ بالغلط، ففككتُ الأجزاء «مَلازِم»، وجعلتُ أحملُ المَلازِم معي واحدةً واحدةً إلىٰ دار

---

(١) ضعيفًا رخوًا.

الكتب في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصًّا نصًّا، وبيتًا بيتًا، وأدوِّن التصحيح أو التكملات علىٰ ورق أبيض أعددتُه لذلك، وصرتُ ألصِق الورق المكتوب بين الصَّفحات المطبوعة، حتىٰ إذا انتهيتُ من جزءٍ جلَّدتُه وانتقلتُ إلىٰ ما يليه، وهكذا حتىٰ أتممتُ الكتابَ كلَّه، فصار ضعفَي حجمه الأصلي. وحدَث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رَقَّت حالي فجأة، واحتجتُ إلىٰ المال، وأنا امرؤٌ ربَّتني أمي -رحمها الله- علىٰ الاعتماد علىٰ النفس والاستغناء عن الناس، وبغَّضَت إليَّ الاستدانة وكلَّ ضروب الاستعانة بالغير، فلم أجد لي حيلةً إلا أن أبيع ما اقتنيتُ من كتب، ورأىٰ بعضهم عندي نسخة «الأغاني» هذه، فألحفَ في طلبها، فأبيتُ أن أبيعها، فلم يزل يزيد في الثمن ويرتفع به حتىٰ أغراني، وما كاد يخرج بها حتىٰ طار عقلي وندمتُ أشدَّ الندم؛ فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أمي فاءت بي إلىٰ السَّكينة وقالت لي: ألستَ قد قرأتها؟ انتهينا إذن، ولا داعي للأسف! فجعلتُ بعد ذلك أعزِّي نفسي بقولي: إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصحَّ بدنُه، ولو أني نسيتُ اليوم ما أكلتُ في أمسي لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت، وكذلك العقل، يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوِّي مداركَه وينمِّي ملكاته، ولا يمنع حصولَ الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود.

وحسبي هذه الأمثلة القليلة.

والحقيقة أننا أُعْطِينا الحياة لنحياها، لا لننعَم بها أو نسعَد، ومعنىٰ أن نحيا أن نعمَل، ومؤدَّىٰ العمل أن نكدَح ونتعَب، والأدبُ مطلبٌ كسائر المطالب له وسائله، فلا مَعْدىٰ عن العناء في سبيله.

مكتبتي[1]

مكتبتي شيءٌ عظيمٌ جدًّا، ولست أعني أنها كبيرةٌ ضخمة، وأن في خزاناتي آلافًا مؤلَّفةً من المطبوع والمخطوط، فما عندي مخطوطٌ واحد، ولا ولوع لي بجمع هذا الضرب من الكتب، وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجتُ أن أبيع منها مرَّات.

وإني لمجنونٌ بالكتب، ولكنَّ جنوني بما فيها لا بأشكالها وألوانها علىٰ رفوفها، وقد اعتدتُ ألا أبالي أن يبقىٰ الكتابُ عندي بعد أن أقرأه أو أن يذهب، ولم أكن كذلك، ولكن المرء ممَّا تعوَّد. علىٰ أنه سيَّان أن أحتفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريتُه أو أهَبَه؛ فما إلىٰ الوصول إليه سبيلٌ في هذه الخزانات، ولَأَهونُ عليَّ أن أشتري منه نسخةً أخرىٰ من أن أهتدي إلىٰ موضعه وأعرف أين اختبأ! ومتىٰ كان هذا هكذا فما حرصي علىٰ كتاب يحاورني ويهربُ مني وأنا أدور بعيني علىٰ الرفوف؟!

وليس أثقل عليَّ ولا أشقَّ علىٰ نفسي من الإقامة في بيت واحدٍ زمنًا طويلًا، ولو وُكِل الأمرُ لاختياري لاتخذتُ كلَّ يوم بيتًا، ولكن الكتب راضتني علىٰ السُّكون، وردَّتني علىٰ مكروهي، فأنا الآن كالمقعَد لا أكاد أتحوَّل إلا أن أُحْمَل علىٰ انتقالي حملًا؛ ذلك إني كلَّما سكنتُ بيتًا أروح أتخيَّر للكتب أوسعَ الحجرات وأكثرها شمسًا وهواءً، ثم أقول: دعوا الصَّناديق والغِرارات[2] حتىٰ أفتحها وأخرِج ما فيها وأرتِّبه بنفسي، فتُتْرَك شهورًا تنقلبُ الحجرة في خلالها مَزْبَلة، فيتبرَّم أهلي ويلحُّون عليَّ علىٰ أن أفرغ الصَّناديق، فأقول: لا بأس، موافق.

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ١٠٣، ٢٤ يونيو ١٩٣٥).

(٢) جمع غِرارة، أكياسٌ من خيش ونحوه، والمشهور جمعها على غرائر.

فتسألني زوجتي: ومتىٰ تفعل؟

فأعِدُها خيرًا، فتلحُّ عليَّ، فأؤكِّد لها أني فاعلٌ ذلك غدًا إن شاء الله.

فتقول: إن شاء الله معناها عندك أنك لن تفعل أبدًا.

فأقول: أستغفر الله يا امرأة! إن شاء الله يعني إن شاء الله، أليس كذلك؟

فتقول: ولكني أريد تنظيف الغرفة! ألا ترىٰ هذا التراب؟!

فأقول: صحيح، كثير! لأني أحبُّ أن أقرَّ بالحق وأكره المكابرة.

فتهمل الثناء علىٰ ذلك، وتقول: وهذه الصراصير؟ والفئران؟ لا، لم يعد هذا بيتًا يُسْكَن.

فأقول: ألا أقول لك وأريحك؟

فتقبل عليَّ مسرورةً وتسألني: ماذا؟

فأقول: أفرغي أنتِ الصَّناديق، ورُصِّي الكتبَ علىٰ الرُّفوف علىٰ أيِّ ترتيب، وارفعي التراب، واقتلي الصَّراصير، وطاردي الفئران، وعلىٰ الجملة نظِّفي الغرفة. هِيه؟ ما قولك؟

فتوافق، وأعود من عملي فألقىٰ المكان نظيفًا، فلا فئران ولا صراصير ولا تراب ولا صناديق، ولكنِّي أحتاج إلىٰ أن أرجع إلىٰ كتاب، فأفتح خزانةً بعد أخرىٰ وأنظر إلىٰ ما تكدَّس علىٰ رفوفها، فأرتدُّ يائسًا وأصيح بزوجتي: يا امرأة! أين وضعتِ [ديوان] ابن الرومي؟ مثلًا!

فتقول: عندك بالطبع.

فأسألها: أواثقةٌ أنت أنك لم تضعيه في المطبخ؟!

فتقول محتجَّة: المطبخ؟ كيف تقول هذا؟ أهذا جزائي علىٰ تعبي؟!

فأقول: معذرة، ولكني لا أراه هنا.

فتقول: ابحث عنه. فأبحث -أعني أني أروحُ أُخْرِج من الخزانة صفًّا بعد صفٍّ، وأضع ما أُخْرِج علىٰ الأرض هنا وهاهنا، حتىٰ تَخُور قواي، وينفد صبري، ويَهِي جَلَدي، وأنظر إلىٰ ما فرشتُ به الأرض فأجزَع، وأغافِلها -أعني زوجتي- وأتسلَّل خارجًا، وأردُّ الباب ورائي حتىٰ لا ترىٰ شيئًا، وأعود في الليل وفي ظنِّي أنها نائمة، وفي عزمي أن أعيد الكتب إلىٰ الرُّفوف، فأفتحُ الباب برفق، فإذا الكتبُ قد وثبت بقدرة ربِّك، وصفَّت نفسَها علىٰ الرفوف، وتزاحمَت، ودخل بعضها في بعض -خوفًا من الفئران ولا شك-! فأتنفَّس الصُّعداء وأفرُك كفِّي، وأقول: الحمد لله! يا ما أكرمك يا ربِّ!

وإذا بزوجتي تقول: وآخرتها معاك؟! ألا يمكن أن تعيد كتابًا إلىٰ موضعه بعد إخراجه؟ ألا بدَّ أن ينشف ريقي كلَّ يوم بسبب هذه الكتب؟ شيءٌ غريبٌ والله! كيف ومتىٰ يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة همًّا لا ينقضي؟

وأحبُّ مرَّة أخرىٰ أن أقرأ في كتاب، فأدخل الغرفة، فتدخل ورائي تَجْرِي، وتتناول ذراعي وتشدُّني، فأستغرب وأسالها: ماذا؟

فتقول بحدَّة: ماذا أنت؟

فيزيد عجبي وأقول: ماذا أنا؟! ألا تعرفين ماذا أنا؟! سِيدك يا ستِّي!

فتقول وهي تجاهد أن تَعْبِس، والضحكُ يغالبها: دع المزاحَ الآن، ماذا تريد أن تصنع؟

فأقول: شيء جميل! وكيف يعنيك هذا يا امرأة؟!

فتقول: يعنيني مصيرُ الغرفة، هذا ما يعنيني يا سيدي، ولستُ أنوي أن أدعك تقلبها مَزْبَلَة، فقد وَرِمَت كفَّاي من العمل فيها.

فأقول: وماذا تصنع هذه العجوز؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر؟ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئًا غير اللعب مع الأولاد؟ وتلك الثالثة ...؟ أهو بيتٌ أم دكّان مُخَدَّم[1]؟ أريد أن أعرف هذا أولاً!

فتقول: لا تحاور، إن الكتب لا يمسُّها غيري؛ فإني أخاف عليها التمزيق.

فأشكرها، فتقول: العفو! ولكنّي أخافُ منك علىٰ الغرفة، فاصنع معروفًا وارجِع عنها.

فأسألها: ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتابًا؟

فتقول: لا تتعبني، من فضلك، أرجوك.

فأشعر لها برقّة، وأقول: يا امرأة! هل استطعتُ قطُّ أن أرفض لك رجاءً؟ وأتبَعُها، وأنصرفُ عن الكتب والقراءة، وأعزّي نفسي بأني كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغمًا، فما أطمع أن أجد كتابًا أطلبه!

من هنا صار المعقول أني إذا اشتهيتُ أن أقرأ كتابًا أو أردتُ أن أراجعه أن أشتريه، وقد أشتريه وأضعه علىٰ المكتب إلىٰ المساء، فتراه زوجتي فتفتح خزانةً وتدسُّه في صفٍّ، وأعرف ما صنعَت به فأشتري نسخةً أخرىٰ! ومن أجل هذا أيضًا صار عندي من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر.

وقال لي أخي مرَّة: يَحْسُن أن ترتِّب هذه الكتب.

قلت: يا أخي، كيف أصنع؟

قال: أجيئك ببطاقات، تكتب فيها أسماء الكتب مرتَّبة علىٰ حروف المعجم، فإذا طلبتَ كتابًا راجعتَ البطاقات، فسَهُل عليك إخراجُه.

قلت: رأيٌ سديد، هاتِ البطاقات.

---

(١) الثريُّ الكثير الخدم.

فجاءني ببضع مئاتٍ منها، ودفع بها إليَّ، فنظرتُ إليها وشكرتُه، ثم قلتُ له: أما البطاقات فجاءت، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضي أن أخرِج الكتبَ واحدًا واحدًا، وأقيِّد أسماؤها، ثمَّ ...، فصاحت زوجتي: لا لا لا لا! أرجو ... أرجو ألا تفعل!

فالتفتُّ إليها وقلت: يا امرأة! كيف ترضين عن هذه الفوضىٰ؟ بل لا بدَّ من الترتيب.

فقالت: أنا واثقةٌ أن الكتب لن ترتَّب، وكلُّ ما يَحْصُل هو أن تخرِجها وتكوِّمها علىٰ الأرض وتتركَها، فيغطِّيها التراب، وتجتمع عليها الصَّراصير، فأعود إلىٰ نفض التراب وطرد الصَّراصير. لا يا سيدي! لن أسمح بهذا أبدًا!

فنظرتُ إلىٰ أخي وقلت: أتسمع؟ إنها لا تسمح! فما رأيك؟

قال: الحقُّ معها، ولو كنت أنا مكانها ...، فلم أدعه يتمُّ الجملة وصحتُ به: أعوذ بالله!

فشكرني، وقال: إنما أعني ...، فعدتُ إلىٰ مقاطعته وقلت: دع ما تعنيه من فضلك، وحسبك أنك نغَّصتَ عليَّ حياتي!

فدُهِش وقال: كيف؟

قلت: سأرىٰ وجهك بعد الآن كلَّما نظرتُ إلىٰ امرأتي. أعوذ بالله. يا ساتر يا رب. لطفك اللهمَّ!

وقد حرصتُ علىٰ البطاقات لأقيِّد فيها أسماء الكتب مرتَّبة علىٰ حروف المعجم، فما مِن هذا مفرٌّ، ولكن العقدة أن زوجتي تُؤثِر الترتيبَ الحالي، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد أنها أخفَت مفاتيح الخزانات لا أدري أين؟ بارك الله فيها -أعني زوجتي لا الخزانات-.

* * *

وقال في موضع آخر[1]:

كان العزم أن أتناول في هذا الحديث كتابًا أهداه إليَّ صديق، وأويتُ البارحة إلىٰ الفراش وأنا علىٰ ذُكرٍ منهما حتىٰ كدتُ أأرَق، فلمَّا طلع الفجر وتنفَّس الصُّبحُ ألفيتُ نفسي قد نسيتُ كلَّ شيء، أُنسِيتُ أيَّ صديق هو المتفضِّل بالهديَّة، وأُنسِيتُ الكتابَ واسمَه وموضوعَه، وأُنسِيتُ أين وضعتُه أو تركتُه -أعني الكتابَ لا الصديق-، وكان آخر عهدي به -الكتاب أيضًا- قبل أن أذهب إلىٰ مرقدي بدقائق معدودات، فلم أدر ماذا أصنع؟ وفي أيِّ شيء غير هذا أكتب؟ وهممتُ أن أسأل من في البيت أين تركوني في ليلتي قبل أن يتفرَّقواليناموا، ولكن هذا قليل الجدوىٰ، فإني قلما أبقىٰ في مكان واحد، ولا أزال أتحوَّل من غرفة إلىٰ أخرىٰ.

وأجلتُ عيني في المكتبة، فارتعت؛ فإن العثور فيها علىٰ كتاب بعينه أيسرُ منه جدًّا جدًّا الاهتداء إلىٰ إبرة في كوم من القشِّ، أو الالتقاء بصديق علىٰ غير ميعادٍ في هذه المدينة الصاخبة المائجة.

ومن كان مثلي آفته النسيان فأخلِق به أن يحرص علىٰ اتخاذ مذكِّرة يثبت فيها ما يريد قبل أن يطير من رأسه، ولكني لا أفعل، وإني لأحملُ دفترًا صغيرًا، أحمله منذ سنوات، وأدوِّن فيه أحيانًا بعض ما يخطر لي، ولكنِّي لا أعرفني رجعتُ إلىٰ هذا الدفتر، وقلَّما أنتفع به إذا راجعته؛ لأن ما أكتبه فيه لا يزيد علىٰ بضع كلمات تكفي للتذكير في وقتها، ولكنها بعد أسابيع أو شهور تفقد قدرتها علىٰ ذلك، وتنقلبُ أشبه بالألغاز، وعلىٰ أني أنسىٰ الدَّفتر كلَّه، فما خير أن أكتب فيه شيئًا؟!

* * *

(١) «جريدة البلاغ» (١٢ أبريل ١٩٤٢)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٣٩). وعنوان المقال في الأصل: «النسيان»، واقتصرت منه على ما يتصل بالموضوع.

وقال في موضع ثالث[1]:

بيوتنا المصرية خليطٌ عجيبٌ من عصور شتَّىٰ وأجيال عديدة، يتجاور فيها القديمُ والحديث، ويتزاحمُ الماضي والحاضر، ويتشارك الجاهليُّ والمخضرم والمولَّد، ولقد يخطر لي وأنا أدور في البيت وأتأمل مختلفَ ما فيه كأن نفرًا مسافرين من أمم شتَّىٰ التقوا في موضع، فجاء كلٌّ منهم بطعامه وجلسوا يأكلون معي! وهي صورةٌ مألوفة، وما أكثر ما تقع العين علىٰ مناظر هذا بين الآثار المصرية في فصل الشتاء.

كذلك أرىٰ بيتي، الأمر فيه واحد، ولكنه علىٰ هذا خليطٌ في ناسه وملابسه، وفي متاعه وأوانيه، فهو أشبه بالمتحف منه بالمسكن.

ها هنا غرفةٌ حديثة الطِّراز، ولكنَّ الوالدة -أطال الله عمرها[2]- تأبىٰ إلا أن تفرش أرضها تحت البساط بالحصير من الجدار إلىٰ الجدار، وأرىٰ أنا أطراف هذه السَّقيفة باديةً من الجهات الأربع، ومفسدةً منظر الغرفة، ومجافيةً لكل ما فيها، فأعترض، فلا تسمعُ لي ولا تعبأ بي، ثم تروح تبيِّن لي أن هذا الحصير يحصُر الترابَ ويقي البساط البِلىٰ، وعبثًا أحاول أن أفهمها أن من العسير أن يجمع المرء بين الزينة والمنفعة في كلِّ شيء، وكيف بالله يتَّفق طرازُ لويس الرابع عشر والحصير؟ وأيُّ ذوق يقبل أن تُطرح سجادةٌ «للصَّلاة» في غرفة كهذه؟

ومكتبتي أفردتُ لها غرفةً صونًا لما فيها، وأغيبُ بعض النهار عنها ثم أعود فأدخلُها، فإذا بمكنسةٍ علىٰ المكتب، أو هاونٍ تحت الدولاب، أو قطعة كساءٍ قديم أو ثوبٍ بالٍ بين مصراعي الدُّولاب، وخُرْجٍ كان معها في حجِّها تُخْرِجُ الكتبَ وتدسُّه مكانها، وموقدٌ عليه أدواتُ القهوة وحوله منابذُ كثيرةٌ تشهد بأن الغرفة كانت متَّخذةً لمجلس الأسرة وشرب القهوة!

---

(١) «خيوط العنكبوت» (١٤١).

(٢) كتبتُ هذا قبل وفاتها عليها رحمة الله. (المازني)

وتحتاج الوالدة -عفا الله عنها- إلىٰ ورقة تلفُّ بها شيئًا، فلا تسألني ولا تفكِّر فِيَّ، بل تعمد إلىٰ أيِّ دفتر فتنزع منه ما تشاء، وقد يتَّفق أن يكون الدفتر فيه قصائدُ لي لم تُنشَر أو مقالات أو مذكِّرات، وألحظُ ذلك فأحتجُّ، فتقول في بساطة محبَّبة وجهالةٍ تُخْمِد جذوةَ الغضب: يا بني، إن الورق عندك كثير، والدفاتر عديدة، فما قيمة ورقة واحدة أخذتها؟!

فأقول: ولكن الورقة التي نزعتِها قصيدةٌ لي، فماذا أصنع الآن؟ وكيف أنظمها مرَّة أخرىٰ؟

فتقهقه، ثم تقول: تنظِمُها؟ تتكلَّم جادًّا؟!

فأقول: نعم. بلهجة التأكيد.

فتقول: والله عمري ما عرفتُ جِدَّك من هزلك.

فأسأل: ولكن لماذا؟

فتقول وهي مقطِّبة: أتضحك منِّي يا ولد؟ تنظِم؟ أبلهاء أنا حتىٰ تقول لي إنك تنظِم؟

وأفطنُ إلىٰ الخطأ الذي وقعتُ فيه وأفهمها أني أعني بالنظم قرضَ الشعر، لا نظمَ العقود، فتحدق في وجهي ثم تمصمص شفتيها وتهزُّ رأسها وتقول: شعر! ما شاء الله! لم يبقَ إلا الشعر! كان هذا ينقصك! يا خسارة يا خسارة!

فأمضي عنها يائسًا، وأقول: لعلها أحسنت بتمزيق شعري! وفيمَ أغضب وأنا قد كففتُ عن نظم الشعر ونفضتُ منه يدي؟!

اللصُّ والكتب[1]

... وعلىٰ ذِكر الكتب والمكتبة أقول: إن مِن أغرب ما وقع لي في هذا البيت أن لصًّا تسوَّر في ليلة صيفيَّة إلىٰ غرفة نومي، وحمل كلَّ ما علىٰ المِشْجَب من ثيابي وثياب امرأتي، وكان حكيمًا عاقلًا، فلم يحاول أن يفتح خزانةً أو صُوَانًا أو غير ذلك؛ لئلا يُحْدِث صوتًا فنستيقظ، ولو عَرف ما اتقىٰ ولا بالغ في حذره؛ فما عندنا شيءٌ ندفع به عن أنفسنا، حتىٰ ولا عصا. وقد سألني أخي بعد ذلك عمَّا كنتُ خليقًا أن أصنع لو كنتُ غير نائم، فكان جوابي الذي لا أتردَّد فيه: كنتُ أتناوم!

علىٰ أن هذا ليس بيت القصيد، وإنما بيتُه أن اللصَّ ترك ما كان في جيوبي من أوراق ومفاتيح عند مخبأٍ في الفضاء الذي يُشْرِف عليه البيت، فجاءنا بها حارس المخبأ، فأكبرتُ في اللصِّ هذا الحرصَ علىٰ نبذ ما لا ينفعه، وحَمِدتُ له أنه ألقىٰ بالمفاتيح والأوراق علىٰ مقربةٍ من البيت، ولكني لمَّا تأملتُ المفاتيح ألفيتُها ناقصة، فقد أخذ اللعينُ مفتاحَ باب المكتبة الذي علىٰ السُّلَّم؛ فهو إذن ينوي أن يُشَرِّفنا بزيارة أخرىٰ! وضحكتُ وقد خطر لي أن لعله لصٌّ عالِمٌ، أو من هواة الكتب، ولم يسعني إلا أن أغيِّر القُفل!

* * *

وقال في حكاية أخرىٰ مع لصٍّ آخر[2]:

ومن المضحكات أن «جريدة الأخبار» دعت الأمَّة إلىٰ الاكتتاب لإقامة تمثال «نهضة مصر» للمرحوم مختار المثَّال، وبلغت جملة ما جمعَته حوالي ستة آلاف من الجنيهات، وكانت الاكتتاباتُ تودع بنك مصر أولًا فأوَّل.

---

(١) «من النافذة» (٥٣ – ٥٤).

(٢) «قصة حياة» (٧٥ – ٧٦).

ولكن بعض البُلَهاء ظنَّ أن ما تتلقَّاه «الأخبار» من الاكتتاب يُحْفَظ في بيتي أنا[1]، وكان البيت طبقةً واحدة، وله فناءان واحدٌ قدَّامه وآخر خلفه، وفيه الفُرن وما إليه، وكان الجدار الخلفي واطيًا.

فأيقظني ذات ليلة صوتُ جسم وقع في الفناء الخلفيِّ، فتوهَّمتُ في أول الأمر أن حجرًا مُزَعْزَعًا[2] أسقطه قطٌّ أو نحوه، ولكني سمعتُ بعد ذلك حركةً كحركة من يعالجُ فتحَ باب، فنهضتُ، ومضيتُ إلىٰ الباب الموصَد، وفتحتُ شبَّاكه، ونظرتُ فإذا واحدٌ من أهل الحيِّ، ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق، فما في البيت ما يستحقُّ أن يطمع فيه أشدُّ اللصوص قناعة، وظننتُه جاء يطلب شيئًا، فحيَّيتُه، وإن كان قد أسخطني عليه أن يجيء في هذا الوقت المتأخِّر.

وفتحتُ له الباب وقلت له: «تفضل»، وحملتُ ما بدا لي من تردُّده واضطرابه علىٰ محمل الخجل، فألححتُ عليه، فدخل، فمضيتُ به إلىٰ المكتبة، وناولته سيجارة، وقمتُ لأصنع له قهوة، فاستغرب سلوكي معه، وأعجبه علىٰ ما يظهر، فأقرَّ لي بالحقيقة، وسألني الصَّفح.

فضحكت، وقلت له: والله إني لجديرٌ بأن أخجل منك؛ فإن البيت فارغ! ودرتُ به علىٰ الغرف ليرىٰ بعينيه مبلغ فراغها، فزاد خجلُه، وطال اعتذارُه، وعَظُم أسفُه، فخطر لي أن مِن نقص المروءة أن أردَّه خائبًا صِفر اليدين، ولم أجد غير الكتب، فتناولتُ طائفةً منها وقلت له: خذ هذه وبعها، وإذا احتجتَ إلىٰ سواها فتعال إليَّ فقد مللتُ عبادة الأصنام، وكتبتُ له رقعةً وقلت فيها: إني أعطيتُه هذه الكتب، حتىٰ لا تزعجه الشُّرطة.

---

(١) وكان المازني يعمل صحفيًّا في «جريدة الأخبار» يومئذ.

(٢) متحركًا غير ثابت.

ليلة التفتيش[1]

... ومع ذلك لم يخلُ هذا الصَّدر من أيَّامي ممَّا يسمُّونه «المغامرات»، ولكنها لم تكن كثيرةً أو باعثةً علىٰ الرضا، بل كانت علىٰ النقيض سببًا في السُّخط علىٰ نفسي واحتقارها، فآليتُ لأنصرفنَّ عن هذا العبث.

وأقبلتُ علىٰ الدَّرس والتحصيل، واشتغلتُ بالشؤون العامَّة، فصرتُ أحضر جمعيَّات الخطابة، بل ألَّفتُ مع إخوان لي جمعيَّة للخطابة، وعُنِيتُ بقراءة الصُّحف، فكنت علىٰ صِغَري أقرأ كلَّ يوم ثلاث جرائد سياسيَّة، وكنَّا جميعًا من أنصار مصطفىٰ كامل وعشَّاقه في ذلك الزمان.

ثم جاءت الحرب العظمىٰ[2]، فشُغِلنا بأنبائها، وبالاختلاف علىٰ نتائجها المحتملة، وبالخوف علىٰ أنفسنا من الجواسيس والاعتقالات التي كنَّا لا نأمنها ولا نستطيع أن نعرف الطريق إلىٰ اتِّقائها.

ولكنَّ يومًا من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه، وكان لي صديقٌ داره قريبةٌ من داري، ولم يكن معه أحدٌ في بيته، وكان السَّهر محرَّمًا بعد السَّاعة التاسعة، فكنت أقضي عنده السَّهرة في الأغلب، ولا سيَّما في الصَّيف، فأراني يومًا مسدَّسًا ورصاصات، فجعلنا نتدرَّب علىٰ إطلاقها ونرمي بها باب الحمام، ولم نكن نخشىٰ أن يسمعنا أحدٌ لأن البيت كان بعيدًا عن العمَار.

ثم افترقنا، واتَّفق أن زارني بعد ذلك ونسي عندي مسدَّسه، ولا أدري كيف كان يجترئ علىٰ حمله معه! فوضعتُ المسدَّس في دُرج المكتب ونسيتُه فيه، وتكدَّست

---

(١) «في الطريق» (٨٢ – ٨٤). وذكر القصة مختصرة في مقالة «السرقات الأدبية».

(٢) الحرب العالمية الأولى (١٩١٤– ١٩١٨).

فوقه الأوراق علىٰ مرِّ الأيام.

فحدث يومًا أن جاءني صديقٌ وثيقُ الصِّلة بالسُّلطة العسكرية، وأخبرني أن بيتي سيفتَّش الليلة. فشكرتُه، ولم أُعِر الأمر اكتراثًا؛ لأنه ليس في بيتي ما أخشىٰ علىٰ نفسي منه.

فلمَّا كان العِشاء جاء ضابطٌ إنجليزيٌّ ومعه من المصريين ضبَّاطٌ وجنود، فدخلوا المكتبة أوَّل ما دخلوا، ورأىٰ الإنجليزيُّ الكتبَ الكثيرة علىٰ رفوفها، فأقبل عليها يتأمَّلها، فألفاها كلَّها كتب أدب، فجعل يقلِّبها وينظر إليَّ، ثم سألني عن عملي، فقلت: «مدرِّس»، فاطمأنَّ واعتقد ممَّا رأىٰ أني رجلٌ مأمون الجانب، وأرسل المصريين يفتِّشون بقية البيت، ووقف هو معي في غرفة المكتب، ثم دنا من المكتب وجعل يقلِّبُ ما عليه من الأوراق المنتشرة بغير احتفال، ثم فتح دُرجًا وألقىٰ عليه نظرة، ثم ردَّه وشدَّ الدُّرج الثاني، ولم تكن للأدراج مفاتيح، فجمَد الدَّمُ في عروقي، فقد تذكَّرتُ المسدَّس فجأة، ولم أستطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذني، وكان الإعدام عقوبة من يحمل سلاحًا كهذا بلا ترخيص -أو هكذا أعلنوا-، ولكن الله سلَّم، فردَّ الرجلُ الدُّرج، وكان زملاؤه قد عادوا، فحيَّا وانصرف وهو يبتسم، ولعله كان يعتقد أن تكليفه تفتيشَ هذا البيت سخافةٌ مطبقة، وما كادوا يذهبون حتىٰ أسرعتُ إلىٰ المسدَّس، فقذفتُ به في بستان مجاور لبيتنا، وتشهَّدت!

إعارة الكتب[1]

... فلا أرىٰ فائدةً ترجىٰ من هذا الحوار، فأُقْصِر، وأبقىٰ في غرفة كتبي لا أبرحها، وإذا كان لا بدَّ من الخروج أوصدتُها ودسستُ مفتاحها في جيبي؛ فما أكثر ما استُعِيرَ من كتبي ولم يُرَدَّ! وماذا تقول لمن تحلفُ لك مئة يمين ويمين أنها ستعيدُ الكتابَ بعد يومين اثنين لا أكثر؟!

والمصيبة أن كتبي غير مرتَّبة، وأني لم أضع لها فهرسًا، ولست أقيِّد ما يؤخذ منها؛ لأنه لا خير في هذا، فإني أنا أنسىٰ أن الكتاب استُعِير، والذي يستعيره يُؤثِر أن ينسىٰ أنه عارية تُرَدُّ!

ولكني لا أخجل هذا الخجل حين يكون طالب الاستعارة رجلًا، فلماذا يا ترىٰ؟! ألأنَّ الرجل منَّا لا يطيبُ له أن يَدَع امرأةً ولو كانت لا تعنيه تظنُّ أنه فظٌّ جافي الطباع؟!

(١) «من النافذة» (٥٢ ـ ٥٣).

الكتب التي أفادتني[1]

«مجلة الهلال»:

١. ما هو الكتاب أو الكتب التي طالعتموها في شبابكم فأفادتكم وكان لها أثر في حياتكم؟

٢. هل يكفي المطبوع الآن من الكتب العربية لتثقيف الناشئة أو لا غنىٰ لها عن الالتجاء الىٰ الكتب الغربية؟

٣. ما هي الكتب التي تنصحون الشبَّان اليوم بقراءتها غربيةً كانت أم غير غربية؟

٤. ما هو نوع التأليف الذي يفتقر إليه العالم العربي علىٰ الخصوص والذي تودُّون أن يطرقه المؤلفون؟

جواب المازني:

١ – هما كتابان وجَّها نفسي هذا التوجيه: «ديوان شيلِّي» الشاعر الإنجليزي، و«ديوان الشريف الرَّضِي» الشاعر العربي، بهما بدأتُ مطالعاتي الجِدِّيَّة علىٰ خلاف العادة، وعلىٰ إثرهما استنزفتُ أيامي في معاناة الأدب، ولا أدري أيَّ شيء آخر غير الأدب كنت حقيقًا أن أنصرف إليه وأتخلَّىٰ لطلبه لو لم يقع إليَّ هذان الكتابان!

---

(١) وجَّهت «مجلة الهلال» الاستفتاء الآتي إلى مجموعة من كبار الكتَّاب، ونشرت أجوبتهم تباعًا في أعداد سنتي (١٩٢٦ – ١٩٢٧)، واختارت له هذا العنوان، وقد اعتنيت بتلك الأجوبة وعلقت عليها وأعددتها للنشر، وجواب المازني في عدد مارس ١٩٢٧.

ذلك أنهما جاءاني هديَّة، فأما أحدهما فمن صديقٍ لي كان يتعلَّم في إنجلترا، ولم يطل عمرُه حتىٰ ينبئني بالباعث له علىٰ هذا الاختيار. وأما ثانيهما فمن زميل لي بالمدرسة[1]، وكنت في ذلك الوقت أفقر من أن أطمع في شراء كتاب له قيمة، وكان بحسب أهلي الإنفاق علىٰ تعليمي.

وقد قرأتُ قبلهما شيئًا كثيرًا من أمثال «ألف ليلة وليلة» و«سيف ابن ذي يزن»، ولكني لا أعلم أن هذه الطبقة من الكتب كانت تنبسط لها نفسي أو يتفسَّح لها طبعي.

فهذا جوابُ السؤال الأول بالإيجاز المطلوب.

٢- ما هو هذا «المطبوع الآن من الكتب العربية»؟ إن كنتم تعنون آداب العرب فهي حسنةٌ جميلة، ولكن الأرض شهدت مئاتٍ من الأمم غير العرب، وما من أمَّة إلا ولها آدابٌ جميلةٌ حسنة، بل إن بعضها أجمل وأجلُّ وأروع، دع عنك الفنون الأخرىٰ والعلوم والمعارف التي ظهرت في الدنيا، فكيف يستغني طالبُ علم أو أدب بما خلَّف العرب؟

وإن كنتم تعنون الكتب الحديثة من موضوعةٍ أو منقولة فهذه ليست فقط أقلَّ من الكفاية، بل هي لا شيء يُذْكَر بالقياس إلىٰ ما في دنيانا، ومن العبث والحماقة أن يقول أحد: اكتفوا بالموجود أو ضاعفوه بالنقل والترجمة والتلخيص، فما لهذا آخِرٌ يُعْرَف، **وأجدىٰ منه وأخفُّ مؤونةً الإقبالُ علىٰ ما عند الغرب بإحدىٰ لغاته.**

٣- لا أشير بشيء، فما في وسعي أن أتخيَّر كتابًا أو كتبًا، وأن أقول للشابِّ الناشئ: ابدأ بهذا. هذا عسيرٌ، عليَّ علىٰ الأقل، فليبدأ بما شاء كيف شاء؛ فإن الكتاب يهدي إلىٰ الكتب.

---

(١) هو الأستاذ الشاعر عبد الرحمن شكري، كما مرَّ في مقالة «الأدب وتحصيله». ولعله هو زميله الأول كذلك؛ فقد تعلَّم في إنجلترا، وهو من وجَّه المازني إلى شيلِّي وأضرابه، كما سيأتي في مقالة «ماذا أفدت من النقد»، ولعل قوله «ولم يطل عمره» إشارة إلى صداقتهما التي لم تطل.

ولستُ أعرف أحدًا من ذوي الاطلاع الواسع والأثر المذكور في عالم الأدب -عندنا أو عند سوانا- سار علىٰ طريقة منظَّمة من أول الأمر، والواجبُ أن يتناول المرء من هنا وهاهنا ومن كلِّ ناحية حتىٰ تستقرَّ ميولُه، وتتجلَّىٰ نزعاتُه، وينفتح له الطريق الذي يقوىٰ علىٰ السَّير فيه.

وعلىٰ أنه كيف يتعلَّم المرء السِّباحة؟ إنه لا يتعلَّمها بأن تشدَّه إلىٰ عوَّامة إذا تركها أحسَّ أنه فقَد المُعِين والسَّند، فخذلَته الثقةُ بنفسه، ولكن بأن تدفَع به إلىٰ اللُّجَّة، وتدعَه يصارعها وحده وأنت مشرفٌ عليه وملاحظٌ له دون أن يحسَّ أو يعوِّل علىٰ الأمل في نجدتك.

٤- وجواب سؤالكم الرابع هو هذا: العالم العربيُّ أحوجُ ما يكون إلىٰ ذلك الضرب من الكتب الذي يقوِّي المرء علىٰ مكابدة الحياة، ويجعله كفؤًا لمطالبها وفرائضها وفرصها ومسرَّاتها ومتاعبها ومشقَّاتها، لا ذلك الضرب الذي يزيد الأعصاب تفكُّكًا والنفسَ طراوة، وليكن بعد ذلك ما شاء: روايةً أو فلسفةً أو... أو....

إبراهيم عبد القادر المازني

ما كنت أتمنى أن أقرأ[1]

ليس أكثر من الكتب في الدنيا، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقي لنا منها أثر -ودع ما نقَل بعضهم عن بعض- جُمِع في مكانٍ واحدٍ لملأ مدينةً واسعةً كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحفُ بها علىٰ الريف من ناحية وعلىٰ الصحراء من نواح، وليس أشدُّ شرهًا ممَّن يستقلُّ ذلك، أو لا يرىٰ فيه غناءً.

وهنا موضع التحرُّز أو التنبيه إلىٰ وهم قد يسبق إلىٰ بعض الأذهان، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصدُّ عن التطلُّع أو ما يكتفي به العقل الإنساني عن المضيِّ في البحث والتقصِّي، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ، فما يتَّسع عمرٌ -مهما طال- للإلمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلىٰ عمر الواحد منَّا وزيدت عليه لما كانت كافيةً لتحصيل ذلك كله.

ولكني مع ذلك أراني أحيانًا -وأنا جالسٌ بين ما بقي لي من كتبي- أتحسَّر وأتمنَّىٰ.

أتحسَّر لأن مطبوعًا من هؤلاء المؤلفين علىٰ الشعر أبىٰ إلا أن يكون جاهلًا نفسَه، وتوهَّم أنه ناقدٌ أو فيلسوفٌ أو غير ذلك، وذهب يكتب، أو أن كاتبًا فذًّا غالطَ نفسَه فراح يَقْرِض الشعر، ويجيء بالغثِّ، ويحسب أنه صنع شيئًا، وأتمنىٰ لو أن بعضهم نظم قصيدةً في معنًىٰ يخطر لي، وأراه كان أقدَر علىٰ صَوْغِه، أو وضع كتابًا

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ١١٣، ٢ سبتمبر ١٩٣٥).

في بحث معيَّن، أو كتب قصَّة مثلًا، أو أردفَ ما كتَب بشرح ما يعني، كأنما كلُّ هذه الكتب لا تكفي ولا تُقْنِع!

وأتساءل أحيانًا: لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر «سِقْط الزَّند» وبعض «اللزوميات»، وزادنا من مثل «رسالة الغفران»، أكان هو ينقص شيئًا أم كان يزيد؟ وهل كنَّا نحن القرَّاء نخسر أم نكسب؟ كنَّا نربح فيما أعتقد، ولم يكن يضيع علينا شيءٌ من نظمه لا نهمله الآن، ولكن أبا العلاء غَلِط وآثر التكلُّف؛ ليرضيَ غروره، وليتعزَّىٰ أيضًا بإظهار اقتداره، وإنه لفحلٌ عظيم، وما يطيبُ لي أن يظنَّ أحدٌ أني أغمطه أو أنزله دون منزلته، وإني لأعلىٰ به عينًا من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه، ولكني كنت أودُّ لو زادنا من مثل «الرسالة»، وفي يقيني أنه لو كان فعل لبلغ الذروة واستولىٰ علىٰ الأمد.

ويؤسفني أحيانًا أن الجاحظ لم يكتب قصَّة، أما لو كان فعل! أين بين كتَّاب العرب من كان أقدر علىٰ ذلك منه، وأولىٰ بأن يكون أبرع فيه، وأسحَر وأفتَن؟! من له مثل قدرته علىٰ الكتابة ووفاء التعبير بلغته؟! من له مثل فطنته ونفاذ نظره، وفكاهته، وحسن تأتِّيه، ولطف مداخله، وحذقه في التناول والعرض، ودقته في فهم الناس واستبطانهم، والإحاطة بجوانبهم المتخلفة، والتفطُّن إلىٰ نواحي الجدِّ والهزل فيهم، وإلىٰ مبلغ اختلاط هذا بذاك، وإرباء ذاك علىٰ هذا؟!

أوليتَ الجاحظ كان مصوِّرًا! أترىٰ كان يستطيع -لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة- أن يحوِّل مواهبه إلىٰ هذه الجهة؟! أكان يسعه أن يسخِّر قدرته اللفظية علىٰ البيان إلىٰ قدرة من نوع آخر علىٰ الأداء، فيثبت ما يريد علىٰ اللوح ويدعه وهو ساكنٌ لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره، ينطق بما حمله من المعاني؟! ومن يدري؟! إن مطلبَ الكاتب غير مطلب المصوِّر، وأداة هذا غير أداة ذاك، وأقلُّ ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقومُ أسلوبُه علىٰ الحركة والتعاقب،

وأن المصوِّر لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة، والسكون لا ينفي التعبير والنطق، وقد يكون أنطق وأبلغ في نطقه من الكلام. فهل كان بيان الجاحظ -وهو فيضٌ لا تصدُّه السُّدود- يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمُّد والتجمُّع، والنطق بقوة الإبراز لا بفضل الانسياب أو التدفُّق؟! أعود فأقول: لا أدري!

وتمنَّيتُ وأنا أدير عيني في كتبي علىٰ رفوفها لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهَم، بيَّنوا لنا -أو لي أنا علىٰ الأقل- ماذا يريدون أن يقولوا. عجيبٌ أمرهم والله! قرأتُ مرَّة لأحدهم -وأظنه «هِجل»، فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كلِّه- كتابًا في «فلسفة التاريخ»، فخرجتُ منه كما دخلت، وقلتُ لنفسي: إما إني أنا حمار، وإما أن هذا الرجل لا يحسِن العبارة عمَّا في رأسه، ولكنِّي أفهمُ عن غيره فلماذا أراني لا أفهمُ عنه؟! وكيف يُعْقَل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقلُ إنسانٍ مثلي؟![1].

وكان في هذا الكتاب فصلٌ عن المدنية الإسلامية أو عن تاريخ العرب -فقد نسيت-، خُيِّل إليَّ أني فهمتُ أقلَّه، ودارت الأيام ووقع في يدي كتابٌ لرجل أمريكي اسمه «دريبر» عن المدنية ونشوئها، يكتبُ كما يكتبُ خلقُ الله -لا الألمان-، فإذا فيه فصلٌ طويلٌ عن العرب يُعَدُّ تطبيقًا لنظرية «هِجل» التي لم أفهمها، فسألت نفسي: لماذا لم يكتب «هِجل» كما يكتب هذا الرجل؟! ثم عدتُ أسألها وأتعجَّب: لماذا

---

(١) من الطريف أن نجد فيلسوفًا مثل رَسِل يشتكي من غموض فلسفة هيجل، فيقول في كتابه «حكمة الغرب» (٢/ ١٣٠): «إن كتابات هيجل من أصعب المؤلفات في النتاج الفلسفي بأكمله، ولا يرجع ذلك فقط إلى طبيعة الموضوعات التي كان يعالجها، بل يرجع أيضًا إلى الأسلوب الثقيل والرديء الذي كان يكتب به المؤلف»، ويقول: «أما فرنسا فقد ظلت على وجه العموم غير قابلة للتأثر بفلسفة هيجل، وربما كان سبب ذلك هو الغموض الشديد للأصل الذي يحول دون التعبير عنه بلغة فرنسية واضحة المعالم». والشكوى من غموض الألمان مشهورة، حتى قال ديورانت في «قصة الحضارة» (٤١/ ٢٣٧): «وأصبح الإبهام واللبس موضة فاشية في الكتابة الألمانية»، فلست وحدك يا مازني!
وانظر ما سيأتي في التعليق على مقالة «بين القراءة والكتابة».

فهم «ديبر» عن «هِجل» ولم أفهم أنا عنه؟! وأسأتُ الظنَّ بنفسي، واعتقدتُ أن بي نقصًا في التدريب العقلي، وراجعتُ «هِجل»، وكَرَرْتُ إلىٰ هؤلاء الألمان المُعْوِصين كَرَّة المصمِّم المستميت، ولكن مضغَ الجلاميد أعياني، فنفضتُ يدي منهم -ومن نفسي- يائسًا، وقلت: يا هذا، لقد صدق القائل: «كلٌّ ميسَّر لما خُلِق له»[1]، وأنت لم تُخْلَق لتقرأ فلاسفة الألمان، فارجع عنهم، وانجُ بنفسك منهم[2].

ولستُ أعرف أن للمتنبي نثرًا، وإن شعره لحسبُه، فما يحتاجُ بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئًا آخر، أو يجشِّم نفسه جهدًا في باب غيره، ولكني مع هذا أحسُّ بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتابًا عن مقامه في مصر ورحلته إلىٰ «الأستاذ» كافور! ألا يشعر القارئ معي أن كنوز الأدب العربي ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبي في كافور؟ يا لها من تحفة نادرة ضنَّ بها علينا المتنبي! أتراه لم يخطر له هذا قطُّ؟! فماذا كان يصنع يا ترىٰ حين لا يعالج النظم؟ لقد كان مقلًّا، وليس ديوانه الذي خلَّفه بالذي يستنفد عمر مثله أو جهدَه، فلماذا يا ترىٰ لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة؟! أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظومًا؛ لأن عواطفه لا تتدفَّق إلا علىٰ لحن، وخواطره لا تنتظم أو تتَّسق إلا علىٰ النغم؟! ربما.

وينقصُ الأدبُ العربي -في رأيي- اعترافاتُ رواته، فقد ملأوا عالمَه بالدخيل والمنحول والمختَرَع، وتركوا لنا نخلَ ذلك كلِّه وغربلته، فليت واحدًا منهم كانت له جرأة «روسُّو»، إذن لارتفعت عن الباحثين تكاليفُ ثقيلة، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التي لا نراها تغربل شيئًا، ولأمكن أن تنفق الأعمار التي تضيع في هذا البحث فيما هو أجدىٰ. لو أن الرواة كتبوا اعترافاتٍ لخلَّفوا لنا قصصًا من أمتع ما في

---

(١) هذا حديث نبوي مشهور أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩).

(٢) علَّق مارون عبود في «جدد وقدماء» (٢/ ٦٧٦ - الأعمال الكاملة) على هذا النص الجريء من المازني بقوله: «ألا ترى معي أن أستاذًا غير المازني لا يعترف هذا الاعتراف، بل يعدُّ ألف هِجل حمارًا».

الآداب غربيِّها وشرقيِّها، ولكشفوا لنا عن خصائص نفسيَّة وعقليَّة ينفع الناسَ العلمُ بها، ولتسنَّىٰ أن نعلِّل هذه الفوضىٰ التي أغرَق فيها الرواة أدبنا، ولا سيما القديم منه.

ومن الذي لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحدُ منهم ينظم الأبياتَ ثم يحشرها في قصيدة لشاعر قديم، أو يخترع القصَّة أو النادرة ويعزوها إلىٰ هذا أو ذاك من الأوَّلين، ويصرَّ علىٰ أن الأمر حقٌّ وأنه صادق، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلَّان، أو تلقَّفه من أفواه البدو الضاربين في الصحراء؟!

والغريبُ من أمرهم أنهم ينزلون عن مزيَّة كبيرة في سبيل مزيَّة أصغر منها، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدلُّ علىٰ خِصب في القريحة، وعلىٰ قوَّة الخيال ونشاطه، بل علىٰ وجود ملكاتٍ كافية لأن يكون الواحد منهم شاعرًا مجيدًا أو قصَّاصًا بارعًا، ولكنهم يزهدون في ذلك، ويظلمون أنفسهم، ويقنعون بأن يكونوا رواةً فحسب، أي حفَّاظًا ليس إلا، أي خزانةً مفتاحُها في لسانهم!

وأغربُ من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا، وتوخَّوا الأمانة في الحفظ والرواية، لعُدُّوا علماء، ولكانوا محلَّ الثقة والاطمئنان، ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة، ويروحون يزوِّرون ويفترون ويلفِّقون، ويُظْهِرون في ذلك من الحذق والبراعة ما لو أظهروا بعضه في غيره لرفعهم مقامًا عاليًا!

فلا بدَّ أن يكون هناك عِوَجٌ في طباعهم، والتواءٌ في عقولهم، يزيِّنان لهم الطريق الذي سلكوا، ويَعْدِلان بهم عن المنهج الأقوم، ويغريانهم بإهمال مواهبهم أو سوء استخدامها.

وعلىٰ ذكر الاعترافات أقول: إني لا أحبُّ أن أقرأ اعترافاتٍ لذلك النُّوَاسِيِّ الفاجر، وليس هو بأفجَرِ من سواه من أصحابه في زمانه، ولكنه أظهرُهم؛ لأنه أعلاهم لسانًا وأقواهم بيانًا، ومثلُ سيرته لا يزيد الناس فهمًا للحياة وحسن إدراكٍ لها، وما في الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتب نقائصَه كما يفعل غيره، ولم يحاول أن

يستتر لمَّا ابتُلِي، ولولا أنه شاعرٌ لما شُغِل بقصصه أحد، والشُّهرة هي التي جنت عليه، فأبرزت جانب السُّوء والاستهتاك[1] من حياته، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصرٌ أو شعب، فلو أنه كتب اعترافاتٍ لما كانت لها مزيةٌ يفيدها الناس، وماذا كان يمكن أن يكون في اعترافاته ممَّا يجهله الناس، وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به، كلُّ ما كنَّا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة كما عرفها وعاناها فاسقٌ عظيم.

وليت دِعْبلًا ترك لنا مذكِّرات! فإنه متمرِّدٌ ظريف، وليس أحبَّ إلىٰ المرء من الوقوف علىٰ مظاهر التمرُّد، ولكن التمرُّد صنيعُه في حياته، وصنيعُ شعره معه -أو أكثره-، فلو أنه كتَب مذكراتٍ لما أعوز خصومَه الحطب.

لو ذهبتُ أذكر ما كنت أتمنَّىٰ أن أجد فيه كتابًا لما فرغت، فما لهذا آخر، فحسبي ما بيَّنت، وليكن كإشارة الفهرس.

---

(١) رجلٌ مستهتِك: لا يبالي أن يُهْتَك سترُه عن عورته.

أطوار قراءتي[1]

أحبُّ الروايات؛ لأني أحبُّ الأحلام، وما أكثر ما يحيِّرني[2] الأمر أذكره أهو بعض ما اتفق لي أم ما حلمتُ به!

ولقد التهمتُ في حداثتي غير «ألف ليلة وليلة»: «حكاية سيف بن ذي يزن»، و«قصص المَردة والشياطين»، و«حروب عليٍّ كرَّم الله وجهه مع الجانِّ»، وما أحسبُ هذه إلا بعض أحلام الإنسانية بالقدرة التي لا تُحَدُّ ولا يحول دون إرادتها وتصرُّفها حائلٌ من المادة.

علىٰ أن حبِّي للروايات راجعٌ إلىٰ سبب آخر أعمق، ذلك أني أحبُّ الحياة وأجهلها وأشتاق أن أعرفها، وليست الأحلام في مردِّ أمرها إلا أداة لسدِّ النقص في حياة الإنسان، وملء الفراغ في تجاربه ومعرفته، والرجل الذي خبَر الحياة وخاض لُجَجها لا يكاد يحتاج أن يحلم، وليس كذلك المحروم المخلَّىٰ[3] عن مواردها، وهذا بعض الفرق ما بين رجل العمل ورجل الفكر، أو رجل الإرادة ورجل الأحلام، وهل التفكير إلا ضربٌ من الأحلام؟

ومن حبِّي للروايات وإقبالي عليها وشغفي بها هممتُ في فاتحة عهد اشتغالي بالأدب أن أضع رواية، واخترتُ لها عصر الرشيد، وكتبتُ منها فصلًا أو فصلين قرأهما صديقٌ لي فأثنىٰ عليهما مخلصًا أو منافقًا، غير أني مزَّقتهما وانصرفتُ عن

---

(١) «السياسة الأسبوعية» (٢٧ أبريل ١٩٢٩)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ١٠٣). واقتصرت من أول المقال على ما يتصل بالموضوع، وعنوانه في الأصل: «زينب، الصراع بين الواجب والعاطفة»، وهي رواية الدكتور محمد حسين هيكل، أول رواية مصرية في العصر الحديث.

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: يحير في.

(٣) في مطبوعة «الأعمال»: المحلأ.

هذا العبث، وكيف أحسِن تصويرَ عصر الرشيد وأنا لو حاولتُ تصوير العصر الذي أعيش فيه لأعياني الأمرُ وعزَّني مطلبه؟! وماذا أعرف أنا من الحياة وأنا امرؤٌ غادر المدرسة طالبًا وعاد إليها معلمًا؟!

كلَّا، لا بدَّ من درس الحياة أولًا.

وهكذا كان، ولكني مع الأسف ذهبتُ أدرسُها من الكتب، فضاع عمري سدًى، واحتجتُ أن أعود أدراجي إلىٰ الدنيا.

وظهرت رواية «زينب» وأنا دفينٌ بين الكتب، فلم أقرأها، وإن كنت قد عرفتُ ممَّا سمعتُ أنها للدكتور هيكل بك، ولم أزهد فيها استخفافًا بها، بل خوفًا منها؛ ذلك أني سمعتُ أنها مكتوبةٌ باللغة العاميَّة لا العربية الصحيحة، وليس هذا بصحيح، ولكني صدَّقته يومئذ، **وكنت قد آليتُ ألا أقرأ من الكتب إلا ما هو مكتوبٌ بلغة جيِّدة، وأمضيتُ العزم علىٰ ذلك صارمًا.**

وعلَّة ذلك أني كنت يومئذ مدرِّس ترجمة، ولغة التلاميذ ركيكةٌ ضعيفةٌ محشوَّة بالأغلاط، وكان عملي يضطرُّني أن أراجع وأصحِّح أكثر من مئتين من كرَّاسات هؤلاء التلاميذ، فخفتُ أن آلف الرَّكاكة والضعفَ علىٰ الأيام، وأن يجرَّ ما لا بدَّ منه من التسامح معهم إلىٰ التسامح مع نفسي، فيهبط مستوىٰ كتابتي، وينحطَّ أسلوبي، ويعتوره الوهنُ من بعض جهاته، فيفقد الاستواء، ويعود كالطريق الذي لم يعبَّد بعضُه سهلٌ وبعضه حَزْن، ولا تكاد القدم تطمئنُّ إلىٰ انتظامه مسافةً حتىٰ تعترضها الحُفَر والنُّقَر.

وتلك آفة التدريس؛ فإن المدرِّس من طول تحرِّيه أن ينزل إلىٰ مستوىٰ العقول التي يلقِّنها قد يهوي هو نفسُه إلىٰ هذا المستوىٰ بعد أعوام إذا قصَّر في الاطلاع أو كَسِل عنه.

ومن أجل هذا أقسمتُ ألا أقرأ من الكتب إلا أقواها وأسماها وأمتنَها. ومن هنا تشدُّدي في النقد تلك الأيام. ولا يزال تلاميذي يذكرون لي ما كانوا يكرهونه من صرامة أحكامي عليهم، وقسوتي في تقدير الدَّرجات لهم.

هذا ما كان من أمري مع «زينب»، فبقيتُ أجهلُها، بل نسيتُها كلَّ هذه السَّنوات، وألَّفتُ رواية أتممتُها منذ عام، ولا أزال أكرُّ إليها بالتنقيح والتهذيب، وأتلكَّأ غير مستعجل نشرَها؛ لأنها في ظني أول رواية مصرية، فما أجدرني بالعناية بها مخافة أن تولد ميتةً أو أن يجيء أول القصيدة كفرًا!

وظللتُ متعلقًا بهذا الوهم حتىٰ بدَّدته الطبعةُ الثانية من «زينب»، فحرمني الدكتور هيكل ما لعلِّي كنت أتعزَّىٰ به وأعتذر أيضًا لو ساء [رأيُ] القرَّاء في روايتي بعد نشرها.

وأهدىٰ إليَّ الدكتور هيكل بك نسخةً منها، فتقبَّلتُها شاكرًا، ولكنِّي لا أكتمُه ولا أكتمُ القرَّاء أني حِرتُ: أمن واجبي أن أغتبط بظهور الرواية المصريَّة، أم أتسخَّطُ فقدَ المزيَّة التي كنت أعتقد أنها مدَّخرةٌ لي، أعني أن أكون أنا كما كنت أتوهَّم أول روائيٍّ مصريٍّ بالمعنىٰ الصحيح؟

ولم تطل حيرتي؛ فقد سبقني هيكل بك، وتقدَّمني في هذا الطريق غيرُه أيضًا ممَّن لا يدانونه، ولا حيلة في ذلك، ولا معنىٰ للأسف من أجله، وفي وسعنا جميعًا الآن أن نتفع بما مهدوا، والإخلاصُ للأدب أسمىٰ وأجملُ وأجلُّ أيضًا من الإخلاص للنفس إذا صحَّ أن الأنانية الحمقاء من الإخلاص للنفس في كثير أو قليل، وعلىٰ أن التعزِّي لم يوصد بابه، ففي مقدور كلِّ امرئ أن يحدِّث نفسه فيقول: إن السَّبق وحده ليس هو المزيَّة، فقد يدرك اللاحقُ السَّابقَ ويفوقه أيضًا ويخلِّفه وراءه، لولا أن تقول: هيهات هيهات! لقد سُبِقْتَ والسَّلام! ولا خير في عزاءٍ هو بالوهم أشبه، وإلىٰ التغرير أقرب.

* * *

وقال في حديثٍ غيره[1]:

... وقد صدق الأستاذ العقَّاد فيما قال من أن صلتي به عرَّفتني بماكس نورداو وأشباهه، ولفتتني إلىٰ النقد العلميِّ الفلسفي؛ فظهر أثر ذلك في كتابتي، وكنت قبل أن ألتقي به أتَّقي أن أقرأ لكاتب أو شاعر معاصر؛ لأني كنت أضِنُّ بوقتي أن يضيع، وأتحرَّىٰ أن لا أقرأ إلا ما أثبت الزمنُ أنه جيِّد.

فلمَّا اطلعتُ علىٰ ما نقله الأستاذ العقَّاد من كتاب «الأكاذيب المقرَّرة في المدنية الحاضرة» لماكس نورداو، وسمعتُ شهادته له، أقبلتُ عليه مطمئنًّا، ففتح لي آفاقًا جديدة من التفكير والنظر والاطلاع.

ولكني بعد سنواتٍ طويلة انثنيتُ راجعًا إلىٰ ما يسمُّونه «الأدب الصِّرف»؛ لأني تبيَّنتُ أن النقد العلميَّ الفلسفيَّ ليس ميداني.

وما زلتُ إلىٰ اليوم أغيِّر منهجي في القراءة والكتابة كلَّ بضع سنوات، بل كلَّ بضعة شهور، ولو أن أحدًا رأىٰ ما عندي اليوم من الكتب لاستغرب أن يضمَّ مكانٌ واحد -ولو كان مكتبة تجارية- كلَّ هذا الخليط المتنافر!

وسببُ ذلك أني أمضي في القراءة والكتابة كما أمضي في الحياة علىٰ التجريب، ولكن علىٰ غير هدًىٰ أو نهج معيَّن، وكما أنه يتَّفق لي أن أكون سائرًا في الطريق فتأخذُ عيني مقهًىٰ جديدًا فأميلُ إليه وأقضي فيه ساعة، ثم آلفُه أو أنفرُ منه، كذلك أفعلُ حين أقرأ أو أكتب.

---

(١) «جريدة البلاغ» (٨ سبتمبر ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ١٧٧). واقتصرت من المقال على ما يتصل بالموضوع، وعنوان المقال في الأصل: «حول اعترافاتي»، وهو ردٌّ على مقال للعقاد في «جريدة الجهاد» (٤ سبتمبر ١٩٣٤) بعنوان «اعترافات المازني» يعلق فيه على ما جاء في مقال المازني في «جريدة البلاغ» (١سبتمبر ١٩٣٤) «عبد الرحمن شكري وكتاب رواد الشعر الحديث» وسيأتي في الكتاب بعنوان «ماذا أفدت من النقد».

وعندي لهذا دواعيه الخاصَّة بي والقاصرة عليَّ.

ومنها علىٰ سبيل التمثيل: أن ساقي انكسرت في عنفوان شبابي، ثم لم يُجْبَر ما هِيضَ منها[1]. ومن العجيب أن هذا وقع علىٰ إثر صدور الجزء الأول من ديواني، فذهب إيماني بالإنسان والخلود في الدنيا، وصارت الحياة فيما أعلم وأشعر وأكابدُ حوارًا طويلًا مملًّا بيني وبين القضاء والموت والأبد. ولو انكسرت ساقُ القارئ ولم تُجْبَر في بلدٍ لا يفتأ عُميانه يَعِيبون العَرَج لاستطاع أن يفهم كيف تتغيَّر الدنيا والحياة في نظر المرء في لحظة واحدة.

ولستُ أذكر هذا شاكيًا -معاذ الله- أو معتذرًا، كلَّا، وإنما أبيِّن بعض ما غيَّرني وأصارني هذا المخلوقَ الذي لا يرضىٰ عن نفسه.

---

(١) وهذا الحادث أحد حادثين كان لهما أثر كبير في مجرى حياة المازني، والثاني قراءته رواية «سَنين» أو «ابن الطبيعة» بعد إصابته بالحمى (وسيأتي الكلام عليها في مقالة «السرقات الأدبية»)، كما ذكر في جواب استفتاء «مجلة الهلال» (مارس ١٩٣٠)، ومما قاله فيه: «كان هذا في سنة ١٩١٤، فتغيَّرت الدنيا في عيني، وزاد عمري عشرِ سنواتٍ في لحظة، وأدركتني الشيخوخة في عنفوان شبابي، فاحتشمتُ وصدفتُ مضطرًّا عن مناعم الحياة وملاهي الدنيا وكل ما فيها من رياضة ومتعة حتى البريء من ذلك، وغمرت نفسي مرارةٌ كان يخيَّل إليَّ أني أحسُّها على لساني، وتعبت أعصابي وكلَّت».

بدون عنوان[1]

دخل عليَّ صديقٌ كريمٌ ذات يوم، فألفاني عاكفًا علىٰ كتاب جديد اسمه «الشوامخ - امرؤ القيس» أخرجه الدكتور محمد صبري[2]، وإلىٰ جانبي طائفةٌ من المراجع، فسألني: في نيَّتك أن تنقد هذا الكتاب؟

قلت: كلَّا، فقد كففتُ عن النقد من زمان بعيد[3]، وأصبحتُ معنيًّا بتصحيح أغلاطي أنا، فذلك أولىٰ بي وأحجىٰ.

قال: ما أرىٰ إلا أنك تنوي أن تخرج لنا كتابًا أو رسالة عن هذا الشاعر.

قلت: ولا هذا.

فتعجَّب وقال: إذن ماذا تصنع؟ ولماذا تحشد حولك كلَّ هذه المراجع؟!

قلت: الحقيقة أني بدأتُ منذ ثلاث سنوات أدرس الأدب العربيَّ ورجاله وعصوره وتاريخه.

فزاد عجبُه وقال: كيف تقول هذا وأنا أعرفك تقرأ الأدب العربيَّ منذ أكثر من ثلث قرن؟!

قلت: صدقت، ولكن هذه كانت قراءة المفتون، وكانت للمتعة. أما الآن، وقد جاوزت الخمسين، وشاب فَوداي، بل شاع الشيبُ في رأسي «كنار الحريق ذات الوقود»[4]، فقد عدتُ طالبًا صغيرًا يَدْرُس ليتعلَّم ويفهم.

---

(١) «مجلة المشرق» (كانون الأول - ديسمبر ١٩٤٤).

(٢) صدر عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤.

(٣) ثم نقده بعد ذلك في «جريدة البلاغ»، وضمن «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٤٨٠)، ولعل التاريخ المثبت في حاشية المقال (٣/ ٤٧٧) خطأ.

(٤) علامتا التنصيص من الأصل، يشير إلى الاقتباس من سورة البروج.

فضحك وقال: أمَا إن لك لأطوارًا!

وسألتني صحيفةٌ سيَّارة: ماذا تقرأ؟

فكان جوابي: أني أعيدُ درس الأدب العربي علىٰ نحوٍ منظَّم.

فاستغرب القرَّاء وكتبوا إليَّ يقولون: إني أضيعُ وقتي، وإنه لا داعي لهذا العناء الذي أتجشَّمه بعد أن فرغتُ من قراءة الأدب العربي.

فأمَّا أني فرغت من قراءة هذا الأدب، فغير صحيح؛ فما تتَّسع لهذا حياةٌ واحدة. وأما أني أضيع وقتي، فأبعدُ من الصِّحَّة.

ولا ريب أني قرأتُ كثيرًا، وأنفقتُ علىٰ ذلك جلَّ ما كسبتُ بعرَق الجبين من مال، وخيرَ شطرَي عمري، ولكني كنت أقرأ ما يروقني علىٰ غير ترتيب أو نظام.

وأذكر علىٰ سبيل المثال وللبيان أني بدأتُ بـ«ألف ليلة وليلة»، وجدتُ نسخة منها في مكتبة أخي عليه رحمة الله، فاستأذنته، فأبىٰ وزجرني، وكنت قد قرأتُ منها صفحاتٍ فسحرتني، فغافلته يومًا وسرقتها، وأقبلتُ عليها أقرؤها خِفية. وكنت ربما احتجتُ أن أدخل تحت السَّرير ومعي الكتاب، وفي يدي شمعة، فأنطرح علىٰ بطني، حتىٰ تفتقدني أمي فتخرجني من هذا المخبأ وهي تتعجَّب وتتساءل: لماذا تفعل هذا؟! اقرأ علانية، وماذا تخاف؟! وكانت لا تعلم أن النسخة محشوَّة بالقبَاحات المَزِيدة المدسوسة، وأن هذا سرُّ فتنتها لأمثالي من الغلمان. ولا أحتاج أن أقول: إن هذه لم تكن قراءة نافعة، وإني إنما كنت أجد فيها لذَّةً مستفادةً من موضوع القصص ومِلاءمته لسنِّ غلام حديث البلوغ.

ثم اتفق أن وقع في يدي «ديوان ابن الفارض»، ففرحتُ به، وانتقلتُ منه إلىٰ ابن نُباتة ومن إليه من أضرابه، غير أن صديقًا لي[1] كان أحكَم منِّي طبعًا وأسدَّ نهجًا

---

(١) هو الأستاذ الشاعر عبد الرحمن شكري، كما مرَّ في مقالة «الأدب وتحصيله» وما سيأتي في «ماذا أفدت من النقد».

صرفني عن هذا ووجَّهني إلىٰ الأدب العباسي، وزاد فأهدىٰ إليَّ نسخة من «ديوان الشريف الرَّضِي» وكانت مطبوعةً في الهند، وأغلاطها كثيرة، فأضنتني وكلَّفتني شططًا، ولكنها عوَّدتني الصَّبر، **وأفادتني لذَّة الاهتداء إلىٰ الصَّواب بعد الجهد والمشقَّة**، وصرتُ بعد ذلك أقرأ كيفما اتفق للعبَّاسيين والأمويين والجاهليين علىٰ غير ترتيب، وكان الذي يسعفني ويساعدني علىٰ الفهم وتكوين آراءٍ قريبة من الصِّحَّة أن دَرْسِي للأدب الإنكليزي كان علىٰ شيء من النظام.

ولكن الشكَّ خالجني منذ سنواتٍ في صحَّة آرائي في الأدب العربي ورجاله، وأشفقتُ أن أكون قد فهمتُ التطوَّر فيه علىٰ غير وجهه، ومن أجل هذا بدا لي أن أبدأ من البداية وأن أدرس الأدبَ العربيَّ وتاريخه درسًا جديدًا علىٰ ترتيب العصور، أي درسًا مقرونًا بتاريخ العرب ودولهم وأزمنتهم، وقد خرجتُ من ذلك بآراء جديدة أرجو أن أدوِّنها وأنشرها إذا مدَّ الله في عمري ولم يصرفني عن هذا الغرض صارف.

غير أني أراني أزداد تحرُّزًا وتهيُّبًا كلما ازددتُ دخولًا وتوسُّعًا، علىٰ أن الذي يعينني هو صحَّة الفهم وحسنُ الإدراك، لا أن أكتب وأنشر، وليت الذي زعم أني فرغتُ من قبل من كلِّ هذا يراني وأنا غارقٌ في هذا البحر اللُّجِّيِّ الطامي من الشعر والنثر والفلسفة والتاريخ والتفسير والحديث إلىٰ آخر ذلك إذا كان له آخر، إذن لأشفَقَ أن لا أطفو، ولما توهَّم أني فرغت، ولا جرىٰ بخاطره أن رجلًا واحدًا في حياة واحدة لا يُعطىٰ غيرها في الدنيا يمكن أن يفرغ! والله المعين، وبه التوفيق.

كهولتي خيرٌ من شبابي(١)

... وكنت في شبابي قليل الثقة بنفسي، علىٰ الرغم من غروري، فكنت أراجع الكتب أكثر ممَّا أراجع عقلي، أي أني كنت لا أفكِّر بعقلي ولا أنظر بعيني، بل أفكِّر بعقول غيري وأنظر بعيونهم.

ولهذا كانت شخصيَّتي مستسرَّة، وقلَّما تتبدَّىٰ، وكان الذي يتبدَّىٰ هو اطِّلاعي، أي ثمرة دراساتي وقراءاتي.

ولهذا اتُّهِمتُ بالسَّطو علىٰ آثار الأقدمين، وللتهمة وجه؛ لأن عكوفي علىٰ الكتب كان يبدو أثره فيما أكتب أو أنظم، ثم إني طوال عمري ضعيف الذاكرة سريع النسيان، فكان معقولًا أن تَعْلَق المعاني بذهني حتىٰ إذا كتبتُ شيئًا أو نظمت شعرًا وخطر لي بعض هذه المعاني توهَّمتها من «ابتكاراتي».

وقد تنبَّهتُ إلىٰ هذا الضعف لمَّا رأيتُ غير واحدٍ يتَّهمني بالسَّرقة الأدبية، فتحرَّزتُ جدًّا، وما أظنُّ الآن أن أحدًا يذهب إلىٰ أني أسطو علىٰ غيري، والحمد لله.

ذلك أني الآن لا أرجع إلىٰ الكتب إلا إذا كان الرجوع لا مفرَّ منه، للاهتداء بحقيقة علمية أو تاريخية أو ما يجري هذا المجرىٰ، ولا أعتمد إلا علىٰ عقلي وحده، ولا أتخذ من الكتب أصنامًا تُعْبَد، بل أقرؤها قراءة الناقد الذي لا يسلِّم إلا بما يقتنع به، فالمعوَّل أولًا وآخرًا علىٰ نظري أنا، أما ما أقرأ فقد أصبح كلُّه «محلَّ نظر» عندي، علىٰ خلاف الحال في شبابي، فقد كنت أتلقَّىٰ كلَّ ما أقرأ بالتسليم.

---

(١) «مجلة الهلال» (يناير ١٩٤٨). وتركت من أول المقال ما لا صلة له بما نحن بسبيله.

وعلَّة ذلك أني لم أجد من يوجِّهني ويرشدني ويثقِّفني ويفقِّهني. نعم، استفدتُ من إخواني [1] وتابعتهم في مجال الاطلاع، وتشجَّعتُ بهم، وأَعْدَوْني بغيرتهم وإخلاصهم، فمضيتُ أدبُّ وراءهم في الطريق القويم، ولكني لم أكن قادرًا كقدرتهم علىٰ التمحيص والغربلة والنَّخل، فنضجوا هم في شبابهم، ولم أشعر أني في سبيل النُّضج وعلىٰ الدَّرب إليه إلا في كهولتي، وما نضجتُ بعد! ولكني خيرٌ ممَّا كنت وأهدىٰ سبيلًا فيما أعتقد، وأقدرُ علىٰ التفكير المستقلِّ، وتلك نعمةٌ حُرِمتُها في الشباب.

لهذا ولغيره ممَّا لا يتَّسع المقام له أقول في غير تردُّد: إن كهولتي خيرٌ من شبابي. ولم لا؟ وما خيرُ هذا الشباب إذا كانت حيويَّته تتبدَّد كالسَّيل الذي لا تقام له السُّدود والخزَّانات للانتفاع به؟ ولماذا لا تَفْضُله وترجَح عليه الكهولة الناضجة التي تُحْسِن الانتفاع بكلِّ ذرَّة من الحيويَّة الباقية؟

* * *

وقال في موضع آخر في نحو هذا السياق [2]:

كنتُ شابًّا. فكيف كانت حياتي؟ وكيف كان الشعور بها؟ أردُّ عيني إلىٰ هذا الماضي، وأحدِّق، وأستشفُّ، وأستجلي، وأستوضح. ثم أهزُّ رأسي ولا يسعني إلا أن أقول: لا أدري!

كلُّ ما أدريه أني كنت محمولًا علىٰ متن تيَّارٍ قويٍّ، وكنت أقرأ، وأعمل، وأجدُّ وألعب، وأشتهي وأطلب أو أُقْصِر، ولكن بغير فهم صحيح أو إدراكٍ تامٍّ لما أنا فيه، أو لبواعثه، أو لمصائر الأمور.

كانت الكتب تُغْذِيني وتسحرني، فأنظر إلىٰ الدنيا بعيون أصحابها لا بعيني، وأحسُّها بقلوبهم لا بقلبي، وأتصوَّر حياتي وأقيسها علىٰ ما يروقني من صور الحياة في

(١) شكري والعقاد والسباعي.

(٢) «قصة حياة» (١٠٩، ١١١).

هذه الكتب، وأنتحلُ آمال أصحابها ومخاوفهم، وهِمَّاتهم وعزماتهم، ومُثُلهم العليا، وصور الكمال عندهم، وأوحي ذلك كلَّه إلىٰ نفسي، ثم أزعُمُني ندَّهم وقريعَهم، فأزهىٰ وأتكبَّر وأغترُّ؛ لأني أري نفسي كما رسمها خيالي الذي استمدَّ من هذه الكتب لا كما هي في الواقع، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحي هذه الكتب.

إلىٰ أن يقول:

فأنا لم أكن في شبابي أتلقَّىٰ وقعَ الحياة مباشرة، بل عن طريق الكتب، وكنت لهذا كالذي نوَّمه غيرُه تنويمًا مغنطيسيًّا، فرأيه، وشعوره، وعاطفته، وهواه، وأمله وخوفه، وحبُّه وبغضه، هو ما يُحْدِثه في نفسه إيحاء منوِّمه.

وقد شببتُ عن هذا الطوق، وما زال ولوعي بالكتب كما كان، ولكنه لم يبق لها شيءٌ من ذلك السِّحر القديم، فقد استطعتُ بفضل معاناتي للحياة أن أقِيَ نفسي وأجنِّبها تلك الفتنة، فأنا أنظر في الكتب وفي الحياة بعيني، لا بعين الكاتب أو الشاعر، وأحسُّ بقلبي لا بقلب سواي، وأتلقَّىٰ وقعَ الحياة منها لا من إيحاء الكتب، وأطلب الشيء لأني أريده وأراه جديرًا بالطلب، وأقيسُ قدرتي إلىٰ رغبتي، وأوازنُ جهد السَّعي وثمرته المرجوَّة، وأُقْدِم أو أُحْجِم بعد القياس المضبوط والموازنة الدقيقة.

* * *

وقال في موضع ثالث فيما تعلَّمه من دروس الحياة[1]:

وتعلَّمتُ ألا أكون أسير رأي أو كتاب؛ فإن مؤدَّىٰ هذا الأسرِ الإفلاسُ العقليُّ والعاطفي. وفائدة الكتب أن يقرأها الإنسانُ ويدرسها ويفكِّر فيها، ويضيف عقول أصحابها إلىٰ عقله، لا أن يظلَّ أسيرها.

---

(١) «أحاديث المازني» (٧٢ - ٧٣).

ولست أحتاج إلىٰ مثل هذه الوصية؛ لأني أنسىٰ ما أقرأ، والنسيان آفة، ولكن ضيرَه يسير. وكون المرء قد نسي شيئًا ليس معناه أنه لم ينتفع به، أو أن هذا الشيء اندثر وانمحىٰ؛ فإنه يبقىٰ وراء الوعي، وإن كان لا يطفو علىٰ السَّطح ولا تُلِمُّ به الذاكرة، فلا يسعفها حين تطلبه. والفائدة العقلية تحصل علىٰ الحالين، سواءٌ نسي المرء ما قرأ أم تذكَّره، كما تحصل الفائدة من الطعام وإن نسي المرء ما أكل، والمعوَّل علىٰ الهضم؛ فإن العقل ليس رفوفًا يُصَفُّ عليها ما يقرأ المرء أو يَدْرُس.

وقد لقيتُ غير واحدٍ في مصر وغيرها من الشرق والغرب تَروعُك كثرة محفوظهم، ولكني كنت إذا استطردتُ معهم إلىٰ البحث يدهشني عجزُهم عن التفكير السديد؛ فهؤلاء قد حفظوا كثيرًا، وزادت ذاكرتهم قوَّةً بالمِرَانة، ولكنهم لم يهضموا ما قرؤوا ولم يَثْقُفوا به، فصاروا أشبه بمكتبة متحرِّكة لا خير فيها لنفسها.

وما من أحدٍ يستطيع أن يحفظ كلَّ ما يقرأ، غير أن ما من أحدٍ يُعْيِيه أن يفهم ما يقرأ إلا إذا كان بليدًا غبيًّا، أو كان الموضوع من غير بابه، فيجيء فهمُه ناقصًا، وقدرته عليه محدودة.

والفهم هو المهمُّ، والرياضة العقلية هي التي عليها المعوَّل، وهي الغرض من قراءة الأدب ودرسه. وأعني بالرياضة العقلية تزويد المرء بالمعارف اللازمة، وتوسيع أفقه، وشحذ قريحته، وإرهاف حدِّها، وتعويده التفكير المستقيم، وتدريبه علىٰ التأمل والنظر.

* * *

وفي موضع رابع غير بعيد من هذا المعنىٰ يقول عن المتنبي[1]:

ولقد فقدتُ نسخة ديوانه أو بعتُها فلم أشعر بإلحاح الحاجة إليه، وكنت كلَّما نازعتني نفسي أن أشتريه أقول: ما ضرورة ذلك؟ أليس خيرًا أن يحيا المتنبي في

(١) «حصاد الهشيم» (٢٠٠).

نفسي من أن يعيش علىٰ رفٍّ في المكتبة؟ أترىٰ الغاية من الأدب هي اقتناء الكتب؟ لا. وليست هي أن يكون المرءُ كثيرَ الحفظ أو مدمن القراءة لما لا ينتفع به.

وحسبُ المرء من الكتب أثرُها في نفسه، وفعلُها في تهذيبها ورفع مستواها وصقلها. ولخيرٌ له أن يقرأ وينسىٰ لفظ ما قرأ، بل معناه أيضًا، ما دامت الفائدة قد حصلت. والنفسُ إذا كانت خِصبةً مستعدَّة تنمِّي البذرة التي غُرِسَت فيها، وليس يمنع النماءَ أن البذرة تحت التراب مدفونة.

في طريق الحياة[1]

كانت عادتي إلىٰ بضع سنواتٍ ألا أبرح بيتي إلا وفي يدي كتاب، وكنت لا أكاد أستقرُّ في «التِّرام» حتىٰ أفتح الكتاب وأقبل عليه وأنصرف عن الدنيا التي حولي حين أخرج للرياضة.

كنت أتخيَّر الطرق المهجورة، فأميل إليها؛ ليتسنَّىٰ لي أن أقرأ في كتابي وأنا آمن، وقلَّما كنت أقرأ مؤلفًا حديثًا أو كتابًا أو ديوانًا لست علىٰ يقين جازم من جودته، فكان علمي بالدنيا ومعرفتي بالحياة قاصرَين علىٰ ما يفيده المرء من الكتب، وكنت أشعر من أجل ذلك كأني مغرَّبٌ عن الناس، وأن الذي بيني وبينهم خرابٌ لا عمَار فيه.

وكنت أتصوَّر الحياة معنًىٰ لا ألمس له حقيقة، ولا أضع يدي علىٰ صورٍ لها محسوسة، وكان فهمي للحياة وإحساسي بوقعها عن طريق النظر في جوانب نفسي، وذلك لأني اعتدتُ أن أردَّ عيني عن النظر إلىٰ ما هو أمامي، وأن أديرها في سريرتي، وكانت تجاربي هي ما تمثِّله الكتبُ لإحساسي، وتُحْضِره لذهني، وتكْشِف لي عنه من وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم.

وعشتُ خير عمري لا أعرف حقيقة الفزع والهول، ولا السُّرور واللذَّة، وإنما أعرف ما يوصف لي من وقعِها، فكان قلبي أبدًا يخفق بالوهم علىٰ جناح الخيال، ولا يزال يفتنه سحرُ العواطف والخواطر المدوَّنة، وكنت أزهىٰ بذلك وأخادع نفسي فيه وأقول: وما حاجتي إلىٰ التجريب الشخصي لتتحرَّك فِيَّ هذه العواطف؟

وهبني جرَّبتُ وجرَّبت، فهل أطمع أن أجرِّب كلَّ شيء؟

---

(١) «مجلة الهلال» (مايو ١٩٣٠)، ثم في «سبيل الحياة» (٣٤-٣٦).

ومادام أن بي حاجة إلىٰ الكتب لتسدَّ لي النقص في تجاربي، فما لي لا أجعل هذه الكتب معوَّلي كلَّه ومعتمَدي في التجريب؟

إن الغرض من التجريب العاطفة والمعرفة، وليس أقدر من الكتب علىٰ إثارة تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشدَّ تحريكًا للنفس، وتجعلها -أي النفس- أتمَّ استعدادًا لقبول المؤثِّرات علىٰ اختلاف أنواعها ودرجاتها، فبحسبي ظاهرُ التجريب الذي تهيِّئه لي القراءة، وسواءٌ علىٰ كلِّ حال أن تؤثِّر في المرء الحقيقة الواقعة بالذات، أو يأتي التأثير من طريق آخر كالرموز اللفظية التي تمثِّل صفات هذه الحقيقة وتصوِّر وقعَها.

كذلك كنت، فما أغرب ما حدث! لستُ أحمل الآن الكتبَ معي حيث ما أكون، ولا أنا أغالي بقيمتها أو أستغني بها عن حقيقة التجريب الشخصيِّ، فقد ظلَّت الحياة تصدمني وترجُّني وتدفع في وجهي وصدري حتىٰ ردَّتني إليها، وفتحت عيني علىٰ مظاهرها، ثم أفقتُ من دهشتي وأجَلْتُ بصري في نفسي وفي الدنيا، ثم ذهبتُ أتساءل: كيف حدث هذا؟ لقد كانت قدمي ثابتةً وأنا أقطع طريقي في الحياة، ولم يكن يخالجني شكٌّ في دقَّة علمي بالطريق، وكفاية إحاطتي بطبيعته، فمن أين جاءت هذه الزَّحاليق؟ ماذا جرىٰ حتىٰ رحتُ أتدحرجُ وتتلقَّفني الصُّخور؟

وأردتُ أن أعرض علىٰ ذهني ما أمدَّتني به الكتب من الهداية، وأن أبسط تحت عيني المصوَّر[1] الذي رسمتُه لنفسي بمعونتها، فإذا الذي في رأسي من الكتب ضبابٌ، وإذا المصوَّر تتداخل دروبه ومسالكُه وتختلط حتىٰ لا سبيل إلىٰ التمييز بيَنها، وإذا ظاهرُ التجريب لا يغني عن التجريب، وتوهُّم الفهم ليس معناه الفهم الصَّحيح، وإذا بي قد شارفتُ الأربعين وما زلتُ في مبلغ علمي بالدنيا وفهمي للحياة وإدراكي لحقائقها طفلًا يمدُّ أصابعه إلىٰ الجمَرات يحسبها لعبةً أو طعامًا.

---

(١) الخريطة أو الخارطة.

وأنا الآن أعلِّم نفسي من جديد، وأعالج تنشئة ابني معي، كلانا طفلٌ يتخبَّط ويجرِّب، وكلُّ ما بيني وبينه من الفرق أن ورائي تجربةً مُرَّة لا تنفكُّ تزجرني عن الكرَّة إلىٰ مثل ما أوقَع فيها، وأن ذهنه جديدٌ لم يزحمه شيء، وأن نفسه صافيةٌ لا يشوبها رَنْقٌ[1] ولا كدَر، ووالله ما أدري وأنا أسير معه في الحياة ويدُه في يدي أيُّنا الذي يسيرُ بصاحبه؟! أو أيُّنا الذي يأخذ بيد رفيقه؟!

وكثيرًا ما يخيَّل لي إذ أراه مقبلًا عليَّ في الطريق وفي يسراه حقيبتُه التي يحمل فيها كتبه وكرَّاساته، كأنه يعالج أن يحلَّ مسألة حسابيَّة، أو يتذكَّر حقيقة جغرافية، فأصافحه وأقول له: فيم كنتَ تفكِّر؟

فيقول: لا شيء.

فأقول له: ليت هذا يكون صحيحًا. وماذا أبصرتَ في الطريق؟

فيكرر كلمة «لا شيء»، فأدعوه أن يرجع معي ويرافقني مسافة، وأحمل عنه الحقيبة تخفيفًا عنه وإنصافًا له، وأروح أَلْفِتُه إلىٰ أن الناس لا يحسنون السَّير في الطريق، وأبيِّن له بعبارة يسهل عليه فهمُها أن أكثر من نرىٰ في الطريق من عابريه تبدو عليهم مظاهرُ القلق والعجلة، حتىٰ الذين لا يدعوهم شيءٌ إلىٰ العجلة، ولا موجب لاضطرابهم أو قلقهم، كأنما يُعْدِيهم سواهم بذلك. وهناك آخرون يجتلي المرء في وجوههم ضربًا من الكسل المرذول، والفتور الثقيل، لا يدلَّان علىٰ سكون النفس، ولا ينمَّان عن استقرار واطمئنان. فهذان طرفان متناقضان تؤدِّي إليهما حالةٌ نفسية واحدة. كلا الفريقين مضطرب، ولكن واحدًا يجعله اضطرابُه كالذي يساق في حياته بالسِّياط، والآخر يفتِّره الاضطرابُ ويرخي أعصابه[2].

---

(١) الرنق: ترابٌ في الماء من القذى ونحوه.

(٢) للمقال بقية طويلة في تأمل أحوال الناس، واقتصرت على المقصود منه.

عندما بعثُ كتبي[1]

أراني في هذه الأيام لا أكاد أعرف لي رأيًا في شيء، لا لأني كففتُ عن التفكير، فلعل الأمر علىٰ خلاف ذلك، وعسىٰ أن أكون مسرفًا في النظر والتدبُّر وفي التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذي يعرض لي، وإنما ترجع حيرتي إلىٰ أن إطالة النظر تكشف لي كلَّ يوم عن جديد، وإلىٰ أن تدبُّر النواحي المختلفة تجعل الجزم عسيرًا، وتغري بالتردُّد، وتدفع إلىٰ الشك.

ومن طال وزنه للأمور وتقصِّيه لوجوهها وتأمُّله في البواعث والاحتمالات قلَّ بتُّه -وعمله أيضًا-؛ لأن العمل يراد منه الغاية، فلا بدَّ من المجازفة والتعرُّض لعواقب الخطأ من بعض النواحي. وكلُّ رجل عمل يضطرُّ إلىٰ الأخذ بالأرجح فيما يرىٰ، وإلا تعذَّر عليه العمل، بل استحال. ورجال الحرب والسِّياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة؛ لأن غايتهم ليست الاهتداء إلىٰ الحقيقة، بل بلوغ الغرض.

وكثيرًا ما أراني أسأل نفسي لفرط ما أرىٰ من تردُّدي وحيرتي: هل أصبحتُ غير صالح للعمل؟ ولا يسرُّني ذلك، فأروح أقول: إن قدرة النفس علىٰ التكيُّف لا حدَّ لها فيما أعرف، وإن العمل الذي يُحْوِج إلىٰ سرعة البتِّ والجزم بلا تردُّدٍ يضطرُّ المرء إلىٰ النزول علىٰ مقتضياته. وما أكثر ما تكون مواهب الإنسان كامنةً فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به!

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ١٩٩، ٢٦ أبريل ١٩٣٧)، ثم «في النافذة» (٨٩ – ٩٣). وعنوان المقال في الأصل «حيرة العقل»، واقتصرت منه على ما يتصل بالعنوان الذي وضعته.

وأنا مع طول تردُّدي بين الآراء أراني مع ذلك أتصرَّف في مواقف العمل بسرعةٍ وضبطٍ وإحكام، وليس هذا من الثناء علىٰ النفس، ولكنه من الواقع الذي أعرفه بالتجربة.

ومن طول حيرتي بين الآراء أصبحتُ أثق بخطئي ولا أثق بصوابي، وأقدِّر الضلال في كلِّ ما أنتهي إليه، ولا أطمئنُّ إلىٰ السَّداد فيه، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسي في كلِّ قضيَّة، وأنقض اليومَ ما أبرمتُ بالأمس، ولولا أني عجلٌ في حياتي لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأي مخافة أن أكون قد أخطأتُ الصوابَ فيه.

وأنا أعزِّي نفسي -لو أن في هذا عزاءً- بقول ويندل هولمز علىٰ ما أذكر: «إن الحقيقة كزهر النَّرد لها أكثر من وجهٍ واحد»، فإذا كنتُ قد رأيتُ وجهًا واحدًا دون سائر الوجوه فإن لي العذر إذا كان هذا كلَّ ما بدا لي، وأين في الناس من يرىٰ وجوه الحقيقة كلَّها من كلِّ جانب؟

ولهذه الحيرة عللُها المعقولة؛ فأنا قد وَرِثتُ آراء، وأفدتُ من مخالطة الناس آراء، واكتسبتُ من الاطلاع آراء، وكنت أسلِّم بما وَرِثتُ واكتسبتُ وأنا في سنِّ التحصيل، وكنت ربما كابرتُ بالخلاف فيما أخذته من بيئتي، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقَّاه بالإكبار والإقرار؛ لأني لم أجد من يهديني أو يرشدني، فلا البيت كان لي فيه هذا المُعِين، ولا المدرسة كنت أجدُ فيها هذا المعلِّم الحاذق المرشد.

وظلَّ احترامي للكتب علىٰ حاله حتىٰ احتجتُ في سنةٍ أن أبيعها[1]، وشقَّ عليَّ ذلك في أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التي كانت مرصوصةً فيها،

---

(١) باع المازني كتبه مرتين كما قال في جواب «المصوَّر» عن سؤال «ماذا يقرأ وكيف يقرأ»، مرة للحاجة إلى ثمنها، ومرة لضيق البيت بها! وانظر كلامه عن بيعها في «الأدب وتحصيله»، و«القراءة»، و«بين القراءة والكتابة»، و«زيتون في قرطاس من الشعر»، واقرأ إن شئت أيضًا ما كتبته عن ذلك في مقدمتي.

وظللتُ أيامًا أحسُّ كلَّما نظرتُ إلىٰ الرُّفوف التي خلت ممَّا كان عليها أني فقدتُ أقربَ الناس إليَّ وأعزَّهم عليَّ، وأشعر أني مُشْفٍ علىٰ البكاء إذا لم أحوِّل عيني عن هذه الرُّفوف الخالية. ولم يكن ما أتحسَّر عليه زينتُها، وما أضعتُه فيها من مالٍ خسرتُه بالبيع، وإنما كانت الحسرة علىٰ فقدان أساتذتي وإخواني. وبقيتُ بعد ذلك زمنًا لا أمرُّ بمكتبة عامَّة إلا أشحتُ بوجهي عنها من فرط الألم، وإلا أحسستُ أن يدًا عنيفة تلوي أحشائي وتحاول أن تقتلعَها. وكان من غرائب ما حدث أني لبثتُ أكثر من سنة لا أقتني شيئًا من الكتب؛ كأنما زهَّدتني الحسرةُ علىٰ ما ضيَّعتُ في كلِّ جديدٍ غيره.

ومن الغريب أن هذا هو نفسُ الإحساس الذي عانيتُه لمَّا توفِّيت زوجتي، فقد ظللتُ سنواتٍ لا أطيق أن أنظر إلىٰ امرأة، ثم فتَر الألمُ وخفَّت وطأته، كما هي العادة.

وكنت في خلال ذلك قد احتجتُ أن أنظر بعيني وأفكِّر بعقلي، فألفيتُني أشكُّ في كثيرٍ ممَّا كنت أسلِّم به ولا أكابر فيه، بل ما كان لا يخطر لي أن أعترض عليه. وتغيَّر الأمر، فبعد أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس صرتُ آخذها من الحياة بلا واسطة، وأعرضها علىٰ عقلي بلا مؤثِّر، فاعتدتُ الاستقلال في النظر، والحرِّية في التفكير، وخلا تفكيري وإحساسي شيئًا فشيئًا من تأثير الكتب وسواها، وبَرَزت نفسي بعد طول التضاؤل.

ثم أخذتُ أَرُوض نفسي علىٰ التماس الجوانب الأخرىٰ التي تخفىٰ في العادة، فصارت وجوه الحقيقة تتعدَّد فيما أرىٰ، وألِفْتُ ذلك حتىٰ صار هذا ديدني مع الناس، فإذا رأيتُ من صاحب لي ما يسوؤني حاولتُ أن أضع نفسي في مكانه، وأن أنظر إلىٰ الأمر بعينه هو، وأن أتمثَّل بواعثه وإحساساته، إلىٰ آخر ذلك، فينتهي الأمر في الأغلب بأن أعذِر ولا ألوم، ويذهب الألمُ أو الغضب أو غير ذلك ممَّا أثار صاحبي بما صنع.

بل ترقَّيتُ من هذا إلىٰ ما هو أرفع، فصار نظري إلىٰ الناس نظرًا إلىٰ مادَّة تُدْرَس، لا إلىٰ مخلوقاتٍ تُعَاشَر ويَصْدُر عنها ما يسوء أو يسرُّ، ولا شك أن الفعل الحميد يحسُن وقعُه في النفس، وأن السُّوء يؤلِم أو يغضِب، وليس يسعني إلا أن أتلقَّىٰ ما يكون من الناس بالحمد أو الذمِّ، وبالرضا أو السُّخط، ولستُ بإنسان إذا لم يكن هذا شأني، ولكني أعني أني لا أعجَل بالذمِّ والسُّخط، ولا أندفع مع أول الخاطر، بل أراجع نفسي وأُجِيلُ عيني في الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التي طالعتني في البداية، فيتحوَّل الموضوع من عملٍ أو قولٍ باعثٍ علىٰ الرضا أو الامتعاض إلىٰ مادَّة للتفكير، وتذهب عنه الصِّبغة الشخصية، فكأني أمتحنُ نظريَّةً ولست أزنُ صنعَ إنسان أساء أو أحسن.

ويخيَّل إليَّ الآن أني أعيش في معمل، فكلُّ ما ألقاه في الحياة من خيرٍ وشرٍّ، وما أجدني أو أجد سواي فيه من جدٍّ ولهو، أتناوله بالتحليل والبحث؛ لأستخلص منه ما يتيسَّر لي استخلاصُه من الحقائق، ثم أروح أقيسُه إلىٰ تجاربي الأخرىٰ وأقارن وأقابل، ولا أزال أفعل ذلك حتىٰ يهدُّني التعب، وقلَّما أهتدي، وكثيرًا ما أضلُّ، ولكني لا أسأم ولا أضجر؛ لأن هذا صار متعتي النفسية التي لا أعدِل بها متع الدنيا بعد أن وجدتُ نفسي وعثرتُ عليها تحت طبقات الكتب التي بعتُها، والحمد لله علىٰ ما كنت أتوجَّع وأذمُّ الدنيا من أجله، فلولا أني بعتُ هذه الكتب لما وجدتُ نفسي، ولكان الأرجح أن أظلَّ كالذي يعبد أصنامًا.

* * *

ثم قال بعد ذلك بثمان سنوات[1]:

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٢ أبريل ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤١٨). وعنوان المقال في الأصل: «في عالم الكتب، هذه الشجرة للأستاذ العقاد»، وتركت من أوله ما ليس متعلقًا بما نحن بسبيله.

... وأمامي وأنا أكتب هذا كتاب الأستاذ العقاد في «هذه الشجرة» وهو أول كتاب من نوعه أقرؤه بالعربية أو الإنجليزية اللَّتين لا أعرف سواهما من لغات هذا الإنسان، إذا جاز لي أن أدَّعي أني أعرفهما، ولا يتوهَّم القارئ أني أتكلَّف التواضع أو أمزح؛ فإن علمي بمبلغ جهلي بهما يزداد كلَّ يوم، **وقد غلبني الغرور في أيام الحرب الماضية، أو ركبني الجهل، أو ذهب عقلي، فبعتُ ما كان عندي من المراجع في اللغتين في جملة ما بعتُ يومئذ من كتبي، وظللتُ سنواتٍ طويلات المُدَد نادمًا علىٰ ما بعتُ من الكتب الأخرىٰ، ولم أندم علىٰ التفريط في هذه المراجع، وبعد هذا العمر الطويل تبيَّنتُ أن ظنِّي أن بي غنًىٰ عنها كان قلَّة عقل وسوء رأي، ولهذا اقتنيتُها مرَّة أخرىٰ بأضعاف أثمانها القديمة.**

وقد يضحك القارئ أني أقرأ كتبًا في النحو والصَّرف! إي والله!

وإني لأذكر أني لمَّا تقدَّمتُ للامتحان الشفويِّ في اللغة العربية في آخر سنة من سِنِي الدراسة بمدرسة المعلِّمين العليا، كانت لجنة الامتحان علىٰ ما أذكر مؤلَّفةً من المرحومين: الشيخ حمزة فتح الله، والشيخ عبد العزيز جاويش، وعاطف بركات بك، وأستاذ اللغة العربية في المدرسة أطال الله عمره، فقرأتُ من «مقدمة ابن خلدون» فصلًا ما زلتُ أذكر أوَّله، وهو «اعلم أن العدوان علىٰ الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها...» إلخ، فسألني الشيخ حمزة عن «العدوان» وفعلِه ومجرَّده ومَزِيده، وانتهينا إلىٰ صيغتَي الماضي والأمر للمثنَّىٰ من «اعتدىٰ»، وأن الأولىٰ اعتدَيَا بفتح الدال المهملة، والثانية بكسر الدَّال، فسألني رحمة الله عن الفتح والكسر ما علَّتهما؟

فقلت: كده.

قال: كيف تقول؟!

قلت: أقول: إني أنطق كما كان ينطق العرب قبل أن يعرفوا شيئًا اسمه النحو أو الصَّرف اللذَين أريد بهما تقويمُ الألسنة، وما دام نطقي صحيحًا فليس لك عليَّ من سبيل!

فغضب رحمه الله، وعَنُف الجدل، فقد أيقنتُ أن الرجل سيسقطني في الامتحان لا محالة، فقلت لنفسي: لأن أسقط بخِنَاقةٍ أكرمُ وأشرفُ من أن أسقط للجهل، غير أن الشيخ شاويش تدخَّل اتِّقاءً لسوء العاقبة، ونظر في ساعته والتفت إلىٰ الشيخ حمزة وقال: العصر وَجَبَ [1]يا أستاذ، فنهض الشيخ إلىٰ صلاته وانصرف عني، وعَجِل الباقون ليفرغوا من امتحاني قبل أن يعود، ولولا هذا الصَّنيع لرسبت[2].

كان هذا في سنة ١٩٠٩، وأنا الآن في سنة ١٩٤٥ أقرأ النحو والصَّرف، وأقضي كلَّ يوم ساعة أو بعض ساعة مع سيبويه والكسائي وإخوانهما، وأجد في ذلك لذَّة ومتعة عقلية أيضًا؛ لأنهم يمثِّلون فيما أرىٰ مذاهب تفكير لا مذاهب نحو.

---

(١) أي دخل وقت صلاة العصر ووجب أداؤها.

(٢) اقرأ إن شئت هذه الحادثة أيضًا في «قصة حياة» (٦٥)، و«أحاديث المازني» (٩٠)، و«الأعمال غير المنشورة» (١/ ٧٩).

رأيي في الكتب(١)

حضرنا ذات يوم اجتماعًا أدبيًّا حاضرتنا فيه الكاتبة النابغة الآنسة ميّ، فذكرت في خلال كلامها قصَّة طريفة عن رجلين أميَّين سأل أحدهما الآخر قائلًا: ما هو العلم الذي نسمع عنه؟ فأجابه الآخر ببساطة: إن هذه الحياة التي حولنا يضعونها في الكتب فتصير علمًا، والذين يقرؤون هذه الكتب يسمَّون علماء. وقد علَّقت الآنسة الكريمة على هذه الإجابة بقولها: إن هذا الأميَّ قد أصاب في تعريفه للعلم كلَّ الإصابة، فإن ما تحويه الكتب لا يخرج عمَّا في الحياة، ولا ينبغي أن يخرج عنها. وقد لفتت نظرنا بهذا إلى أهمية الكتب والصحف من حيث هي ممثِّلة للحياة أو لجانب منها.

وصادف أن اجتمعنا بالأستاذ الكبير **إبراهيم عبد القادر المازني**، فتحدَّثنا معه في هذا الموضوع.

فأخبرنا أنه كان في سالف عهده بالكتابة يُكْثِر العكوفَ بين مؤلفات كبار العلماء والأدباء، ويستشهد في مقالاته التي يدبِّجها بقلمه بآراء بعض هؤلاء المؤلفين، ثم ما لبث أن شرع يقرأ صفحات الحياة وما فيها من تجارب وعبر، فوجد نفسَه أمام صور حقيقية كانت تمرُّ بذهنه في عالم الوهم والخيال، فابتدأ ينقل من هذه الصُّور ما شاء له أدبه، ويودعها في مقالاته البليغة التي نطالع الحياة فيها ممثَّلة بما فيها من تربية وتجربة.

فقلت له: إذن أنت يا أستاذ تشجِّعنا على إهمال الكتب، وتضرب لنا مثلًا في الاعتماد على تلك التجارب والحوادث التي تمر بنا في الحياة للأخذ عنها والاعتبار بها.

---

(١) «مجلة كل شيء والعالم» (العدد ٢٣٥، ١٠ مايو ١٩٣٥). وتحت عنوان المقال: للأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني. ولم يُسَمَّ محرِّر المجلة.

قال: لا، فإنني لا أقول بإهمال الكتب، والاقتصار علىٰ ما في الحياة من صور وتجارب، وإنما أعني أن الكتب تمثِّل جانبًا من الحياة لا يكفي أن يفهمه الإنسان فهمًا حقيقيًّا إلا إذا عَجَم عودَه بنفسه وعرف حقيقة أمره؛ لأنك تعلم أن هناك فرقًا بين سماعك بالشيء وممارستك له، فالأول يعطيك صورة ذهنية فقط، أما الثاني فإنه يَقِفُك علىٰ الحقيقة الواقعة بما فيها من دقائق لا تتسنَّىٰ ملاحظتها في القراءة والسَّماع.

وهذا لا يحطُّ من شأن الكتب؛ لأن وظيفتها بهذا الاعتبار تكون دراسة الحياة والإنسان، وإمتاع النفس بالجمال والجلال، وتربية الإحساس، ثم هي تُطْلِعُك علىٰ ضرب من التجارب التي زاولها مؤلفوها، وتختلف في كلِّ كتاب باختلاف المؤلفين في مقدار الاستعداد للأخذ عن هذه التجارب والانتفاع بها.

ومن هنا تظهر قيمةُ الكتاب الذي يؤلِّفه بعض المؤلفين، فإنها لا تتوقَّف علىٰ كثرة التجارب ومبلغ استقصائها، بل تتوقَّف علىٰ قدرة المؤلف ودرجة استعداده وفنِّه، كالمكتشف الذي يهتدي إلىٰ حقيقة علميَّة أو آليَّة؛ فإنه لا يستقصي كلَّ التجارب لأجل أن يصل إلىٰ الاكتشاف المنشود، بل يعتمد في بحثه علىٰ بعض التجارب المنتجة التي توصله إلىٰ ما يريد.

ولذلك يجب أن يتخيَّر القارئ لنفسه الكتبَ التي يمتاز أصحابها بالاتزان والصحَّة في النظر والإدراك، ويجعل تقديرَه للكتب بهذا المقياس، وإذا لاحظ ذلك استطاع أن يفرِّق بين غثِّ الكتب وثمينها[1] في العلوم والآداب.

فقلت له: وأيُّ الكتب أنفع للقرَّاء: الكتب العلمية أم الكتب الأدبية؟

فقال: لا أستطيع أن أفضِّل لك نوعًا من الكتب علىٰ نوع آخر متىٰ كانت كلُّها تمثِّل ما في الحياة، واستوىٰ أصحابها تلك الصِّفات التي تتعلَّق بالاستعداد والفنِّ. غير أنني أقول لك: إن العالِم محصِّلٌ يختزن المعلومات، فكتبه أشبه بالحوض

(١) كذا في الأصل المطبوع، ولعله تحريفٌ سمعي، والذي يقابل الغثَّ (النحيف) هو السمين.

والخزَّان، أما الأديب فهو ينبوعٌ فنِّيٌّ يعطي ولا يأخذ، وهو عائشٌ بخياله، ولكنه قطعةٌ من الحياة يفهمها أحسن فهم، ويحسُّها أحسن إحساس، ويوجِّه قرَّاءه أسمىٰ اتجاه، وكتبه تحتوي علىٰ جميع هذه الصفات.

قلت: ذكرتَ العالم والأديب، فما رأيك في الفيلسوف أيضًا؟

فقال: أنا لا أحبُّ الفلسفة وإن كنت قرأتُ كتبها، ولا أميل إلىٰ أيِّ بحث فلسفيٍّ يتناول المادة وما وراء المادة، فكلُّ ذلك في مذهبي إضاعةٌ للوقت وإعناتٌ للذهن في غير جدوىٰ.

وقد حذفتُ من مطالعتي الآن جميع الكتب التي تتعلَّق بالفلسفة، وقصرتُ نفسي علىٰ غيرها ممَّا يتناول سائر العلوم والفنون علىٰ اختلافها، فأتخيَّر منها ما كان مفيدًا فائدة حيَّة، لأنتفع بها وأرجع إليها إذا شئت.

فقلت: ولكن ألا ترىٰ أن بعض الكتب مكرَّر للبعض الآخر، وأن كثيرًا منها يكاد يكون متشابهًا فيما ضمَّ بين دفَّتيه من أفكار وآراء، علىٰ حدِّ قول القائل:

ما أرانا نقول إلا معارًا ... أو معادًا من لفظنا مكرورًا

فقال: لا أعتقد أن هناك كتبًا مكرَّرة لأخرىٰ؛ لأن الطبيعة من شأنها التغيير والتجديد علىٰ الدوام، وما تراه اليوم ليس هو ما رأيته أمس، وأنت نفسك لست كما كنت منذ عام أو شهر أو شهرين، والطبيعة لا تزال دائبة التحويل في الإنسان وآثاره وفي سائر الحيوان والجمادات، ولا يمكن أن يتشابه شيئان في هذه الحياة تمام المشابهة، وإلا كانت الطبيعة سفيهةً تستحقُّ أن نأتي لها بالمجلس الحِسْبي ليحجُر عليها[1].

---

(١) لا يجوز نسبة ذلك إلى الطبيعة، وإن خُرِّج على وجه من المجاز بضرب من التكلف. والمجلس الحِسْبي (نسبة إلى الحِسْبة بمعنى الحِسَاب، وتنطقه العامة بفتح الحاء، انظر: «شموس العرفان بلغة القرآن» لعباس أبو السعود ٤٤، و«أزاهير الفصحى» له ١٩٧) يختصُّ بالنظر في شؤون الوصاية على القاصرين وإدارة أموالهم ومحاسبة أوليائهم.

وأظنُّ أنه لو حاول إنسانٌ أن يحاكي إنسانًا آخر في كتابه أو تأليفه أو في أيِّ عمل من الأعمال الأخرىٰ، فإنه لا يتسنَّىٰ له ذلك مهما أوتي من المهارة وقوة الملاحظة، ولهذا تجد في كلِّ كتاب ميزةً جديدةً وصبغةً تختلفُ عن الكتب الأخرىٰ التي أُلِّفَت في موضوعه، وهذه الميزة والصِّبغة ممَّا يزيد الثروة العلمية والأدبية، ويجعل للعناية بجمع الكتب وادِّخارها أهميَّة تعود علىٰ صاحبها وعلىٰ سائر المنتفعين بها باتساع دائرة التفكير، والاطلاع علىٰ كثير من صور الحياة المختلفة.

بين كتبي[1]

امتحان النفس

خمسةٌ وعشرون عامًا تقضَّت وأنا أقرأ، لم يفتني كتابٌ أستطيع أن أمدَّ إليه يدًا وأن أضعه تحت إبطي وأمضي به شاريًا أو مستعيرًا أو ... سارقًا! نعم، فقد سرقتُ مرَّة كتابًا[2]، وكنت يومئذ شابًّا في العشرين من عمري أنهزُ مع الغُوَاة كما يقول النُّواسِيُّ:

وأَسُومُ سرحَ اللهو حيث أساموا[3]

وكنت قد تخرَّجتُ قبل ذلك بعام في مدرسة المعلِّمين العليا، وصرتُ مدرِّسًا ولي مرتَّبٌ حسنٌ يكفيني أنا وأسرتي ويزيد علىٰ حاجتي لو أني عقَلت! وفي عصر يوم من أيام الصَّيف الحميدة -وما أقلَّها- كنت جالسًا في «مقهىٰ» أَلِفْتُه، أنظر إلىٰ الرائحين والغادين، أم ينبغي أن أقول: الرائحات والغاديات؟![4] في ثياب الصَّيف الشَّفَّافة، وأترقَّب مقدَم الأصفياء والخلصاء لنقوم إلىٰ النيل فنركَبه بجهل الشباب، وشاء حسنُ الحظ أو سوؤه -لا أدري- أن يبطئوا عليَّ، فضجرت، وقلت: أزجِّي الوقتَ بكوب من الجِعَة[5]، وكنت بها كَلِفًا ولها شِرِّيبًا، وكان إخواني يبالغون في

(١) «السياسة الأسبوعية» (١٢ و١٩ يناير ١٩٢٩)، ثم في «صندوق الدنيا» (٢٠٣ - ٢٢٠).

(٢) يبدو أنها مرَّتان! فستأتي حكاية أخرى في مقالة «سرقت لأصبح أديبًا».

(٣) «ديوان أبي نواس» (١/ ١٢٦).

(٤) سيقول في موضع آت: «فما كان هناك يومئذ بناتٌ يشغلن الجالس في المقهى بالنظر إليهن مقبلات ومدبرات»!

(٥) نبيذ الشعير. وفي مثل هذا يقول الطنطاوي في «الذكريات» (٢/ ٣٩٣): «على أني أحببت المازني، وكنت أطرب لأسلوبه وفكاهته وسخريته، وتأثرت به حينًا وحاولت تقليده، ولكن من أين لي خفّة روحه؟ وإنْ كان يؤذيني منه تهاونه بأمر دينه وكلامه عن شرب الخمر كأنه يتكلم عن شرب الشاي. وسواء لديَّ أشربها أم كان على طريقة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، فالمهمُّ عندي أثر ما يكتب الكاتب في نفوس القراء».

وصف حبِّي لها وولوعي بها، فيذكرون عنِّي أني لو كان كلُّ ما معي نصفُ ريال[1] لأنفقتُ تسعة قروش علىٰ الجِعَة ووهبتُ القرش الباقي للخادم السَّاقي وعدتُ إلىٰ بيتي ماشيًا، ولم يكن هذا صحيحًا، ولكن دَعْه إلىٰ سواه، ومتىٰ كان إخوان المرء إلا أظلمَ الناس له، وأقلَّهم تقديرًا لمزاياه، وأشدَّهم عمًىٰ عن فضائله وتجسيمًا لعيوبه؟!

وبينما كنت أكرَع من الجِعَة لمحتُ أستاذًا كان لي في مدرسة المعلِّمين، وكنت أجلُّه، وهو المستر ماركند -وأحسبه لا يزال في وزارة المعارف أو من يدري لعله رحل عنها-، فقمتُ إليه أحيِّيه، فقال لي بعد كلام -وكان يعرف حبِّي للكتب-: أحسبك لا تقرأ شيئًا الآن.

قلت: بل أقرأ كثيرًا.

قال: لا أظنُّ. لقد صرتَ موظفًا، وقلَّ أن يُعنىٰ الواحدُ منكم بتثقيف عقله بعد أن يترك المدرسة ويجد عملًا له.

فقلت: أؤكِّد لك أني لا أزال أوسِّع دائرة اطِّلاعي. لقد كنت أمس فقط أطالع كتاب «مائدة الإفطار» لويندل هولمز.

فافتَرَّ فمُه عن ابتسامة فيها من السُّخْر والأسف معانٍ، وحزَّ في نفسي أن أرىٰ في وجهه أنه لا يصدِّقني، وجَزِعْتُ، وودتُ لو أن معي في هذه الساعة كتابًا فأقول له: انظر، هذه هي الكتب لاتزال رفيقي وأنيسي وسميري، ولم أدرِ كيف أقنعه بخطأ اعتقاده، وآلمني أن يسوء رأيه فيَّ، فقلت: أقسم لك!

فوضع يده علىٰ كتفي وقال: لا تفعل. ومضىٰ عني[2].

---

(١) الريال يومئذ عملة من فضة تساوي عشرين قرشًا.

(٢) ستأتي القصة على نحو آخر في مقالتي «سرقت لأصبح أديبًا» و«الجيل الجديد»، ولعله نسي، وهو كثير النسيان. وقد ذكرها في مواضع أخرى من مقالاته. انظر: «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٥٨٢).

لم أطِق الجلوسَ بعد ذلك في المقهىٰ، و نسيتُ إخواني ولم أعد أشتاق أن أركب النيل، فهرولتُ إلىٰ المكتبة التي اعتدتُ أن أبتاع منها الكتب، وكان عمّالها يعرفونني، فهزُّوا لي رؤوسهم وتركوني أُجِيلُ عيني في الرفوف وأعلو وأهبط فوق السُّلَّم، فجعلتُ أنتقي من الكتب وأنتخِب، وقد عاودتني الحمَّىٰ، وتمنَّيتُ لو يمرُّ بي المستر ماركند، وعددتُ ما اخترتُ وحسبتُ ثمنه فإذا به أكثر ممَّا معي، وأعدتُ العدَّ والحساب مرَّة وثانية وثالثة، فكنت لا أراني يَنْقصُني في كلِّ مرَّة غير ثمن كتاب واحد هو -كما يشاء الحظُّ أن يكون- الجزء الأخير من تراجم «فلو طرخس» ولم يكن عندي، وعزَّ عليَّ أن أدع كتابًا واحدًا، وأحسستُ كأني متسامحٌ جدًّا، مقصِّرٌ غاية التقصير لأني سأخرج تاركًا كلَّ هذه المئات من الكتب علىٰ رفوفها دون أن أحملها معي!

وكان في وسعي ولا شكَّ أن أعتذر لصاحب المكتبة بقصور الموجود عن المطلوب، ولكنِّي تذكَّرتُ ما قرأتُ من تراجم «فلو طرخس» أن ليكرغ المشترع الأسبرطيَّ كان يجيز السَّرقة علىٰ أن لا يفتضح أمرُ السَّارق، فاذا افتضح وظهر أمره أوقع به أقسىٰ العقاب، ولم يخطر لي في تلك الساعة أن هذا لا يختلف عمَّا تقضي به القوانين والشرائع الأخرىٰ، ذلك أنها لا تبيح السَّرقة وتقسو في عقاب من ينكشف أمره، بل تمنع السَّرقة وتقول: من سرق عوقب بكذا، والنتيجة واحدة؛ لأن العقاب لا ينال علىٰ أيِّ الحالتين إلا من يظهر أمره، أما من يستطيع أن يخفي السرقة فهذا لا تصل إليه يدُ القانون.

ولا أطيل، حملتُ هذا الكتاب وحده في يدي كأنه كان معي قبل أن أجيء، ودفعتُ الباقي إلىٰ التاجر وأنقدته الثمنَ وخرجت، وهوَّنتُ فعلتي علىٰ نفسي بأن آليتُ أن أعود إليه في الغد بثمن ما سَرقت، وأستطيع أن أقول -ويستطيع القارئ أن يصدِّق- أني بررتُ ولم أحنث.

وأعود الىٰ ما استطردت عنه فأقول: أليس حقيقًا بمن يقضي مثل هذا العمر في القراءة والاطلاع أن يجلس ساعةً يحاسبُ نفسَه، وأن ينصب الميزان فيضع في كفَّة ما أنفق من حياة ومال وجهد، وفي كفَّة أخرىٰ ما اشترىٰ به كلَّ ذلك وما خرج به منه؟!

لم أكن قطُّ ممَّن يقرؤون لأني لا أدري ماذا أصنع غير ذلك. كلا! ما أردتُ من القراءة قتلَ الوقت وتزجية الفراغ، وإنما كان همِّي أن أستقطِر الكتبَ وأستخلص منها كلَّ ما يمكن أن تجود به، فإلىٰ أيِّ حدٍّ يا ترىٰ وَسِعني أن أحتفظ بما أتوهَّم أني فزتُ به؟ هل اختزنتُ شيئًا في هذا الرأس الذي كَدَدتُه وأجهدتُه كلَّ هذه السِّنين؟

وساورتني المخاوف لمَّا طاف برأسي هذا الخاطر، وخشيتُ أن أتبيَّن أني لم أكن إلا كالأنبوبة يُصَبُّ فيها الماء من ناحية ليخرج من ناحية أخرىٰ، وأقلقني أن يتَّضح أن القراءة لم تكن عندي إلا عادة، وأني لا أقرأ إلا لأني أجد فسحة الحياة كالأبد شاسعة الفراغ. إذن أكون قد أضعتُ عمري، وأنهكتُ أعصابي، وأضنيتُ نفسي في غير طائل. ولَخيرٌ حينئذٍ أن أبيع ما عندي من الكتب، وأن أتصدَّق بثمنها، وأن أغرم بلعب الطاولة. إن هذا يكون أجدىٰ إذا كنت لم أُفِد من الكتب ما تَهَبُ من الإيمان والشجاعة والبصيرة، وما تنبِّه من الإحساس والقلق والحبِّ والظمأ إلىٰ الجمال، أو إذا كنت علىٰ كلِّ ما جهدتُ لم أحيَ إلا نصفَ حياة.

لذلك عمدتُ إلىٰ كتبي المبعثرة علىٰ النوافذ والكراسي وتحت الأسِرَّة وفي أركان الغُرَف، فرتَّبتها وصففتها علىٰ رفوفها، ثم قعدتُ علىٰ كرسيٍّ أمامها، وشرعتُ أختبر نفسي وأبحث عمَّا في رأسي. ولكن كيف؟ ليس في وسعي أن أتناول رأسي في كفِّي فأفتحَه وأنظر ما فيه. وليت هذا كان ميسورًا، إذن لوَسِع المرء أن يتفقَّد كنوزه كلَّما قلق عليها، أو اشتاق أن يمتِّع عينه بمرآها، أو يجدِّد ادِّكاره لها، ولكن هذا مع الأسف لا سبيل إليه.

وخطر لي أن خيرَ ما أصنع هو أن أعقِد لنفسي امتحانًا، فجررتُ الكرسيَّ ودنوتُ به من الرفوف، ومددتُ يدي فتناولتُ كتابًا، وكان «مقالات إيليا الأولىٰ والأخيرة» لشارلز لام، ووضعته علىٰ رجلي، وقلت: والآن يا مازني أحضِر ذهنك، وتذكَّر آخر مرَّة خطر لك شيءٌ ممَّا قرأتَ في هذا الكتاب.

فرفع المازني عينَه إلىٰ السَّقف وزوىٰ ما بين عينيه وحدَّق في لا شيء، وحكَّ رأسَه ثم هزَّه آسفًا.

فقالت النفس: لا تيأس. افتح الكتابَ وأجْرِ عينَك في الفهرس وحاول أن تتذكَّر.

فتناول المازني الكتابَ وفعل كما أُمِر، وسرَّه وهو يقرأ العناوين أن يذكر بعض ما في المقالات، ولمَّا بلغ «أطفال الأحلام» ترك الكتابَ يسقط في حِجره، فسألته النفس: هل عاد إلىٰ الحياة شيء؟

قال: نعم. بلهجة الراضي.

فقالت النفس: دع ما تذكَّرتَ وهاتِ ما يثير في نفسك من الخواطر، هذا أهمُّ؛ فليست المزيَّة أن يكون العقلُ مخزنًا، وإنما المزيَّة أن يعود أقوىٰ وأفطنَ، وأن تنفتح العين، وتُصْقَل الروح وتعود أحسَّ وأذكىٰ وأقدر علىٰ الاستيعاب.

قال المازني: إني لأذكر الآن كيف كنت أفِرُّ في أول عهدي بالكتب من كارليل إلىٰ شارلز لام، وكنت أقول: إن أسلوب كارليل وعرٌ شاذٌّ، فأستريح إلىٰ لام كما يستريح المُصْعِد في جبل إلىٰ الرَّوض النضِير والنسيم الرقيق، وكنت أزعم أني أحبُّ من شارلز لام أسلوبَه، ولكني أعلم الآن أني مخطئ، وأني كنت أحبُّ منه روحَه ومزاجَه؛ ذلك أنه لا يطيلُ ولا يُكثِر ولا يَكُظُّ كلامه بالحُزون، ولا يتسامىٰ علىٰ القارئ، وهو خفيفُ الظلِّ، مخلص، يحبُّ الأدب ويُعْدِي القارئ بحبِّه هذا.

وقد صرتُ أعرف أن الذي يقول: إني أحبُّ كاتبًا لأسلوبه إنما يعني أنه يحبُّ فيه خصائصَ معيَّنة تطالعه من المادة التي يَسُوقها الكاتب، بل صرتُ الآن أتخذ في الحكم علىٰ الأسلوب نفسَ المعيار التي أتخذه في الحكم علىٰ الناس، أي أني لم أعد أكترثُ للتوافه التي يمكن إغفالُها ولا يمنع وجودُها أن يقوم الاحترام بين الصديقين.

فإذا رأيتُ أن أسلوبَ كاتب لا يدعوني إلىٰ الاحترام أيقنتُ علىٰ الرغم من كلِّ ما أفيدُ من اللذة والاستمتاع أن في مادَّته عيبًا، وأن السُّرور المستفاد من قراءته قصيرُ العمر.

فإذا أضحكني كاتبٌ ولم أجد أني خرجتُ منه بغير هذا الضحك تصوَّرتُ أني قضيتُ أسابيع مع رجل لا يكفُّ عن المزاح.

وإذا وقع من نفسي الكاتب، وراقني تفكيرُه، وأعجبتُ بمادته، ولكني لم أرضَ عمَّا يَعْتَوِر عبارته من الخشونة أو الضعف أو التقصير، فإني أجدني أفترض أن لي صاحبًا ذكيًّا طيبَ القلب ولكنه لا يفتأ يريق القهوة علىٰ الوسائد أو علىٰ الأبسطة، أو يسقط الأكواب فتتهشَّم، أو يصطدم بالزهريات فتتحطَّم، مثلُ هذا منه يكون من دواعي الأسف ولكنه لا يدلُّ علىٰ سوء السَّلوك.

وهكذا إلىٰ آخر ذلك.

وبعبارة أخرىٰ وجيزة أقول: إني أنظر إلىٰ الأسلوب نظري الىٰ الحياة، ذلك أن الأسلوب هو الكاتبُ أو صورةٌ من نفسه إذا شئت، وليس في وسع المرء أن يقسم الكتابة إلىٰ قسمين، فيقول: هذا هو الأسلوب، وهذه هي المادة. كلَّا، لا سبيل إلىٰ هذا؛ لأن المرء لا يستطيع أن يتصوَّر فكرةً إلا مفرغةً في طائفة من الألفاظ، وهذا القالب اللفظي الذي يُصَبُّ فيه الفكرة هو الذي نسمِّيه «الأسلوب»، فلا وجود للفكرة إذا عدمت اللفظ المعبِّر عنها، ولا وجود لفكرة معيَّنة إلا في قالب واحد من

الألفاظ، فإذا تغيَّر القالب تغيَّرت الفكرة تبعًا لهذا، فالفكرة تكون موجودةً بمقدار ما يتهيَّأ من العبارة عنها، وهي لا تعدُّ موجودةً إلا بالإعراب عنها، لا قبل ذلك.

وليس أوضح في بيان العلاقة بين المادَّة والأسلوب من مقال «أطفال الأحلام»، ومعروفٌ أن شارلز لام كان يحبُّ فتاة لم يَفُز بها ولم يَسْلَها، وأنه كان له أخٌ مات فحزن عليه، وأختٌ مجنونةٌ يرعاها ويسهر عليها، وأنه لم يتزوَّج قط، ولا حاجة إلىٰ القول: إنه لم يذق طعم الأبوَّة.

والقارئ لا يسعه إلا أن يحسَّ أن الأسلوب يتغيَّر تبعًا لتنقُّل الفكر والعاطفة، ويتلوَّن بلون الإحساس.

وفي هذا المقال يتخيَّل شارلز لام أن أطفاله -أطفال أحلامه- أحاطوا به ليحدِّثهم عن جدَّتهم، وقد تصوَّر أنه والدٌ وأن له أبناء تقرُّ بهم عينُه ويلتذُّ أن يحادثهم ويداعبهم، وما أحسبه رفَع قِبَل العيون هذه الصُّورة إلا ليعينك علىٰ تقدير شعوره بالوحدة، وإحساسه بكلِّ ما فاته في حياته وخسره في دنياه، ولكنه علىٰ هذا يُفِيض علىٰ كآبته وآلامه ثوبًا من الحُسْن، أو هو علىٰ الأصحِّ يُرِيك ما في الكآبة من جمال، وكفىٰ بهذا توفيقًا.

وكتوفيقه في هذا نجاحُه في تصوير أطفاله الذين يحلم بهم، وقدرته علىٰ وصف نزوعهم إلىٰ التقليد، واضطراب صدورهم الصَّغيرة بالمشاعر الكريمة، وسرعة تحوُّلهم من الحزن إلىٰ الفرح، وليس يسع القارئ إلا أن يذكر تصوير لام لجمال الطفولة كلَّما وقعت عينُه علىٰ طفل، وعلىٰ قدر اقتناع المرء بدقَّة التصوير وصدقِه يكون أسفُه حين يعلم أنهم من مخلوقات الخيال، وأن أمَّهم الجميلة الميتة التي يذَكرها كانت جميلة، وكان هو يحبُّها، ولكنها لم تكن قد ماتت حين كتب المقال!

وأحسستُ الرضا من نفسي عنِّي، فرددتُ الكتاب إلىٰ موضعه، وقلتُ للنفس في جرأة وثقة واغترار: نعم.

قالت النفس: لا تغتَرَّ، فما تزال في أول الطريق. خذ كتابًا آخر!

- ٢ -

زارني صديقٌ قرأ ما كتبته عن امتحاني لنفسي، فاستقبلتُه في المكتبة، وقلَّما أبرحها في هذه الأيام العصيبة، حتىٰ الطعام أتناوله فيها؛ إذ كنت أريد أن أفرغ من هذه الدَّعكة[1] بأسرع ما يستطاع، ليتيسَّر لي أن أستأنف الحياة والقراءة.

فلما دخل علي قلت: ماذا تريد؟

قال: جئتُ لأشهد هذا الامتحان الغريب، فهل لك اعتراضٌ علىٰ وجودي؟

قلت: لا اعتراض، ولكن ما جدواه عليَّ أو عليك؟ وما عسىٰ صَبْرُك علىٰ الجلوس والصَّمت ساعاتٍ طويلاتٍ لا أحسُّها أنا؛ إذ كنت أقضيها مُفَاتِشًا لنفسي؟

قال: هَبْني لجنةً لهذا الامتحان، تسمَع وتقضي بالحقِّ، وتعلِن حكمَها إلىٰ الناس.

فضحكتُ وقد خطر لي أنه لو أراد إخواني جميعًا أن يحتذوا مثاله ويشهدوا هذا الامتحان لانقلبت المكتبة... ماذا؟ حلقة درسٍ مثلًا، فقلت: إن الذي يعنيني والذي أباليه هو رأيي أنا في نفسي، وحكمي أنا عليها، لا رأي الناس أو حكمهم. وقد يثير الكتابُ في نفسي ذكرىٰ أو صورة، وقد تكون هذه الذكرىٰ فاترةً والصورةُ غامضةً أو مُلتاثةً وأقنعُ بها وأكتفي، حتىٰ ولو أعجزتني العبارة عن ذلك، فكيف تستطيع أنت أو سواك أن تقدِّر هذا وتَزِنَه؟

قال وقد بدا عليه الضجر: دع هذا، وقل ما هذا الذي في يدك؟

فصوَّبتُ عيني إلىٰ ما في يدي، والحقَّ أقول: إني كنت نسيتُه؛ لأني ممَّن يُذْهِلهم ما هم فيه عن كلِّ ما عداه، حتىٰ لا أستطيعُ أن أكتب أو أقرأ في وسط جحفلٍ مُتَلاغِط، ثم رفعتُ عيني إلىٰ وجه صديقي فأيقنتُ أنه لا ينوي أن يتزحزح، فوطَّنتُ النفسَ علىٰ احتماله، وعقدتُ العزمَ علىٰ الانتقام، فقلت: هذه رواية.

---

(١) الخصومة الشديدة.

قال: لمن؟

قلت: سؤالٌ سخيف. ألم أقل لك: إنك لا تصلُح أن تحلَّ محلَّ النفس في مثل هذا الامتحان؟!

فلم يَسُؤْه ذلك، وساءني أني عجزتُ عن إغضابه!

وقال: ألا تبيِّن لي كيف بدا سؤالي لك سخيفًا؟

فضجرتُ وقلت: أفي مدرسةٍ نحن؟ ألا تكفيك اللَّمحة الدَّالَّة؟ لقد كنت أظنُّك لبيبًا.

فلم ينهزم، وقال: لستُ أسألك لأستفيد، بل لأسبر غورَك.

قلت: يا لك من مغرور! ومن تكون قبَّحك الله حتىٰ تقول هذا؟ ماذا تعرف أنت؟

ولم أكد أقولها حتىٰ أسِفتُ ورجعتُ أعتذر له من حماقتي وسفاهتي، وذكرتُ صديقًا كان لي «عليه السَّلام»، وكان إذا آخذه أحدٌ بشيء أو لَفَته إلىٰ خطأ وقع فيه يقول له: رُحْ رُحْ ماذا قرأتَ أنت وماذا تعرف؟!

وأنا أزعم أني واسعُ الاطلاع، ومن حقِّ هذا أن يوسِّع الروحَ والصَّدر، وأن يفضي إلىٰ التَّطامن والتواضع، وأن يُشْعِر الإنسان ضآلتَه.

إن عالم الكتب أوقيانوس[1]، وليس القارئ إلا مغترفًا بالرَّاحتين من عُبَابه الزاخر، والذي يصلُ إلىٰ فمه أقلُّ ممَّا يتفلَّت من بين أصابعه، والذي يبلغ الحلقَ أقلُّ ممَّا يسيلُ علىٰ جانبي الفم، فما حقُّ من يغتَرُّ؟! أبأنَّه يستمدُّ من اللُّجَّة الطامية؟ فكيف لو أنه كان يُمِدُّها ويصبُّ فيها ويضيفُ إليها ويزيدُ عليها؟ بل كيف لو أنه كان «نِيلًا» طويلًا عريضًا جائشَ التيَّار، لا نُهَيْرًا صغيرًا ولا جدولًا ضئيلًا؟

(١) البحر المحيط.

لذلك أسِفتُ كما قلتُ فاعتذرت، وقلت: ليس الذي يعنيني من الرواية أن فلانًا أو علّانًا هو الذي كتبها، وإن كان اسمُ الكاتب المعروف بالتجويد والبراعة من دواعي الثقة وبواعث الاطمئنان إلىٰ أنَّ وقت القارئ لن يضيع في كلام فارغ، ولكنما الذي يعنيني هو هذا السُّؤال: هل أعانتني الرواية علىٰ فهم شيء أو اغتفار شيء؟

أو سؤال آخر كهذا مثلًا: هل استطاعت هذه الرواية أن تكشف لي عن وجوهٍ من الجمال لم أكن أراها أو أفطن اليها؟ أو هل أوقدَت لي نارًا يدفأ بها ما ابترد من الإيمان بشيء ما؟ أما الحكاياتُ فكالألفاظ في طريقنا جميعًا.

فهزَّ رأسَه كالموافق، وابتسم وهو يسألني: وماذا جعلَتكَ هذه الرواية تغتفِر؟

فعجبتُ له لِمَ لمْ يسألني عن الجمال الذي أرتئيه، أو الجلال الذي كشفت عنه، أو النار التي أوقدت.

وقلت: يا صاحبي، إن الامتحان يوشكُ أن ينقلب اعترافًا، وتوشك أنت أن تصبح قسِّيسًا.

فلم ينكُص وقال: ما أعرِفُك تنتظر القِسِّيسَ لتعترف له. فهاتِ ما غَفَرتَ.

قلت: غفرتُ لأبي.

قال: لأبيك؟! وقهقه حتىٰ كاد يسقط عن كرسيه.

فسألته: ماذا يضحكك؟ ألا تشركني معك؟

قال وهو يردُّ الضحك: أتغتفر لي اعترافي إذا أفضيتُ به إليك؟

فاشتقتُ إلىٰ المعرفة وبذلتُ له الوعدَ المطلوب، فقال: لم أكن أعرف أن لك أبًا. وأغرَبَ في الضحك مرَّةً أخرىٰ وأنا أكاد أتمزَّق من الغيظ.

ثم استوىٰ علىٰ كرسيِّه و بلع ريقه وقال: لستُ أقصد إلىٰ النكتة، وإنما أعني أني لا أقرِنك في ذهني بشخص آخر، ولستُ أذكر أني تصوَّرتك قطُّ طفلًا تحبو وتَدْرُج

وتَشِبُّ، طفلًا كسائر الأطفال من أبوين، لا تعجل، فلستُ أقصد أن أتماجَن عليك، كلَّا، ولعلَّ عذري أن أباك مات وأنت طفل، وأني عرفتك كبيرًا، وكثيرًا ما يخيَّل إليَّ حين تخطر ببالي أنك كنت أبدًا هكذا، إن وجهك لا يحدِّثني أنه كانت لك طفولة، وربما توهَّمتُك -وهي سخافةٌ كما تقول- مخلوقًا شيطانيًّا، عودًا نابتًا في صحراء الحياة من تلقاء نفسه ومن غير أن يزرعه زارع، مخلوقًا جاء إلىٰ الحياة بفعل الجوِّ مثلًا أو بحكم تفاعل العناصر الطبيعية. هذا ما عنيتُ، فهل تغتفر لي هذا؟

ولا أكتم القارئ أن إيضاحه لم يسؤني. ولقد حاولتُ أن أغضب، وتكلَّفتُ أن أعبِس فلم أستطع، وراقني -علىٰ الرغم مني- أن أتصوَّر أني مخلوقٌ شيطانِيٌّ يخرج إلىٰ الحياة من غير أن يكون مَدِينًا بوجوده لإنسانٍ ما، وبدا لي أن مِن الحِطَّة[1] أن أكون ابنَ أحد، أيْ فرعًا من شجرة غيري لا أنا أصلُها، بل ورقةً علىٰ بعض أُغَيصانها الصغيرة، وخُيِّل إليَّ أنه أشرفُ أن يكون الواحد هو أصلُ نفسه، وأن يكون آدم ثانيًا يخرج منه جنسٌ إنسانِيٌّ جديد، وابتسمتُ وقد تذكَّرتُ كلَّ ما كان من بلاهتي وغفلتي في الحياة، وجهلي بالدنيا، وكيف كنت أنظر إلىٰ كلِّ ما حولي معجبًا مفتونًا ووَجِلًا خائفًا متردِّدًا كما كان يفعل آدم علىٰ الأرجح، وقلت لنفسي: ما أصدَق من قال: إن المرء يعيد في نفسه سيرة الجنس الإنساني كلِّه، ويمرُّ مذ يُخْلَق إلىٰ أن يشبَّ بالأدوار المختلفة التي قطع الجنسُ مراحلها، فما أسرع ما يقطع المرء هذه المراحل التي قضىٰ فيها الإنسان آلافًا وآلافًا من الأجيال الطويلة والحِقَب المديدة!

وطال صمتي ووجومي، فنبَّهني صديقي إلىٰ وجوده، وأعاد عليَّ سؤاله، فقلت: لسِت مُحْنَقًا يا صاحبي، وإنك لأذكىٰ ممَّا كنت أظنك وأظرفُ أيضًا.

قال وقد ارتاح إلىٰ ثنائي عليه، وهشَّ لاستظرافي له: أفلا تحدِّثني ماذا غفرتَ لأبيك؟

---

(١) نقصان المنزلة.

قلت: أن جاء بي.

ويظهر أن هذا آخر ما كان ينتظر، وكأني به كان يتوقَّع أن أقصَّ عليه حكايةً ممتعة، فقال: إنك تخيِّب الأمل.

قلت: إن الحياة جميلةٌ فاتنةٌ رائعة. هذا ما أعني، وليست كما يهمِس اليأسُ حين تَخُور النفس وتفتُر، ولهذا اغتفرتُ لأبي أن زلَّ بي.

قال: وقسوة القدر؟

قلت: لا قسوة ولا شبهَها. إن للحياة قانونًا لا تملك أن تخالفه، ولو أن الحياة تنطق لشكَت إلينا اضطرارها إلىٰ التزام هذا الآيين[1] وتحرِّيها مقتضياته في كلِّ ما دقَّ وجَلَّ، ولكن الحياة -علىٰ كلِّ نطقِها في مظاهرها- خرساء لا تشكو ولا تتبَرَّم. وتصوَّر أن قوانين الحياة تغيَّرت تبعًا لشهوات كلِّ إنسانٍ وأهواء كلِّ نفس، أتراها كانت تعود أرحمَ وأرأف؟

قال: لا أظن!

قلت: إذن لتحطَّمَت الدنيا، بل الكون كلُّه، ولفقدَت الحياة سحرَها، ولخسرت النفسُ هذا الإحساسَ بها. وليس يشكو قسوة القدر إلا الذي يكون شعوره بنفسه أطمَّ وأقوىٰ من شعوره بالحياة والدنيا، أو الذي يتوهَّم أن الدنيا خُلِقت له وليس هو مخلوقًا للدنيا. كلَّا، ليست الحياة ظالمة، ولا القدر قاسيًا، وإنهما لرحيمان، ولقد أوتي كلُّ مخلوق القدرة علىٰ التكيُّف، ففي وسعه أن يكون وفقَ مطالب الحياة، وهذا يعادل عندي ما يبدو لنا من صرامة الحياة وعنَت المقادير. نعم، كانت تكون صارمةً لو كنَّا جامدين لا نملك التحوُّل، ولا نستطيع التكيُّف حسب ما تقضي به ظروفُ العيش.

---

(١) الآيين: القانون. (المازني)

قال: ولكن في لهجتك مع ذلك أسفًا ومرارةً لا يتجاوبان مع فكرة الهَشِّ إلىٰ الحياة والافتتان بها.

قلت: الأسف علىٰ ما أنفقتُ من عمري في قراءة كتب هؤلاء المخرِّفين من السَّاخطين علىٰ الحياة والناقمين منها أنها لم تنزل علىٰ مشيئاتهم، وأما المرارة فلأني لم أفطن إلىٰ هذا إلا بعد أن ولَّىٰ الشباب وذهبت القدرة علىٰ الانتفاع بالعيش.

قال: ألا ترىٰ أن هذا من سُخْرِ الأقدار؟

قلت: ماذا؟

قال: أن تكون الحياة مدرسةً يقضي المرء حياته في التعلُّم فيها حتىٰ إذا حَذِق الدرسَ كان العمر قد تقضَّىٰ فلا خير فيما تعلَّم.

قلت: قد كان هذا رأيي أيضًا، ولكني صرتُ لا أدري، وكيف يمكن أن يكون الأمر علىٰ خلاف ذلك ما دام المرء لا يصدِّق إلا نفسَه، ولا يتعلَّم إلا من تجاربه هو؟ والشبابُ غير الشيخوخة، الشبابُ هو وقتُ فيضان الحياة، فهل تستطيع أن تقيم السُّدود في وجه السَّيل الجارف والفيضان الطامي؟ إنه يهدمها ويأتي عليها ويبعثر نفسَه ويبدِّدها في الجبال وعلىٰ السُّهول، ويقذف معظمه في البحر الذي لا يزيد به ولا يحتاج إليه، حتىٰ إذا أنفق هذا الفيض هدأ واستقرَّ وأمكن أن تفيد السُّدود وتنفع الحواجز، كذلك الشباب يا صاحبي.

قال: وهل في هذا عزاء؟

قلت: عزاء؟ أيُّ عزاء؟ إني لم أكن أبيِّن وجه التأسِّي، وإنما كنت أقول: إن قانون الحياة واحد، وإنه لا يحابي، وإنه يستوي حياله أن يكون الشيء إنسانًا أو حيوانًا آخر أو نباتًا أو جمادًا أو غير ذلك إن كان هناك غير ذلك.

قال: ألم يأنِ أن تُرْفَع الجلسة؟

قلت: آن ذلك جدًّا.

ونهضنا إلىٰ الحديقة، فسألته وأنا أناوله زهرة: كيف كان ما شهدتَ من الامتحان؟

قال: لا أدري، سوىٰ أني خرجتُ من مجلسه بنفسٍ مُرَّة.

قلت: إني أحاول أن أواجه الحقائق لا أكثر.

قال: وفي سبيل ذلك تعالج أن تتجرَّد من الإنسانية، تقوِّض بنيانك بيديك لتستطيع أن تقول لمثلي: انظُر، إني كنت مبنيًّا من آجُرٍّ هذا صنفُه ولونُه. يا صاحبي، لَأَنْ تزداد كلَّ يوم جهلًا خيرٌ من أن يزداد علمك بما في نفسك علىٰ هذا النحو. إن الميزان الذي ينصِبه الناسُ بعضهم لبعض علىٰ ما فيه من الخطأ الفاحش أرحمُ جدًّا من هذه البوتقة التي تذيبُ فيها نفسَك لتتبيَّن الصَّافي من معدنها. لا يا صاحبي، خُذ الحياة كما تجدها -كيفما اتفق- بابتسامة سُخْرٍ واستخفاف إذا شئت، أو ابتسامة رضًا وارتياح إذا قَدِرت، ولكن هذا الذي تصنعه... أوه! كلَّا، الحياة أهون من ذلك.

الكتب والنقص[1]

ولا يخلو كتابٌ ما من نقص، ولو خلا -وتلك مرتبةٌ لا تنال- لما كان إنسانيًّا، ولكان خليقًا بقارئه أن يحسَّ أن صاحبه ليس من بني الإنسان، وأن ينظر إليه نظرةً فيها رهبة، وأن يستوحش من جانبه.

بل أنا أذهب إلىٰ أن من **البواعث الخفية علىٰ الإعجاب أن يفطن القارئ إلىٰ مواضع النقص ومواطن الضعف**، وأن يحسَّ ولو إحساسًا غامضًا أن الكتاب من الكتب علىٰ جلال قدره وعِظَم شأنه وندرة مثله وعجزِ الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه لا يخلو من زلَّاتٍ وعثرات، ووهنٍ هنا وسقوطٍ هناك، أو إسفافٍ أو خمولة، أو قصورٍ أو تقصير، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرىٰ ويلحق به.

وهذا الشُّعور -ولك أن تقول: هذه الثقة من القارئ بأن الكتاب لا يبرأ من العيوب والمآخذ، حتىٰ ولو كان يُعْيِيه أن يبيِّنها ويضع إصبعَه عليها- يحفظُ له احترامَه لذاته، أو يستبقي له القدرَ اللازم لحياته من الغرور، ويُشْعِره أن الكاتبَ مهما سما قريبٌ منه وإنسانٌ مثله، فيَهُون عليه أن يُولِيَه الإكبار الذي يستحقُّه دون أن يشعر بغضاضةٍ من ذلك علىٰ نفسه.

ومن هنا كان شرُّ الكتب الإنسانية أو أشدُّها استفزازًا للنفس واستثارةً لسخطها ذاكِ الذي يُشْعِر القارئ بهوانه، ويُبْرِز له مبلغ ضَعَتِه وضآلته. وليست ثورة القارئ علىٰ الكتاب الذي يكون من هذا القبيل إلا مظهرًا من مظاهر الدفاع عن النفس!

---

(١) «مجلة الكتاب» (نوفمبر ١٩٤٥). والمقالة في الأصل نقدٌ لكتاب «الأمير حيدر» للأستاذ إبراهيم جلال بك، واقتصرت منها على ما يتصل بالعنوان الذي وضعته.

أقول هذا علىٰ سبيل البيان، لا الاعتذار، ومن أجل هذا كان مذهبي في النقد أن أنظر إلىٰ جملة ما في الكتاب من الإحسان مَقِيسَةً إلىٰ جملة ما فيه من العيب، فإذا أربىٰ الإحسانُ علىٰ الإساءة تقبَّلتُه وتجاوزتُ عمَّا فيه من نقصٍ أو مأخذ، وإلا رفضتُه، فهو ميزانٌ يُنْصَب، وأيُّ كفَّتيه رجَحَت أخذتُ بها. وهذا في مذهبي هو العدل الميسور في وزن الآراء والأعمال والحكم عليها.

ولهذا لا أتردَّد في الثناء علىٰ «قصَّة الأمير حيدر» علىٰ الرغم ممَّا فيها من بواعث المَلَال، ومن التكلُّف المتعمَّد علىٰ الأرجح، ومن الهفوات القليلة، والهَنَات المفردة، ومن قلَّة العناية بالتنويع، أو قل إذا شئت: ضعف الخيال، ومن كثرة الحشو وكَظِّ الكتاب بما كان يحسُن الاستغناء عنه لولا ما قصَد إليه المؤلف؛ فإن الحسنات بعد كلِّ هذا التقصِّي أرجحُ كفَّة.

حظوظ الكتب[1]

تلقَّيتُ كتابَي الآنسة ميّ «الصَّحائف» و«ظلمات وأشعَّة» في ساعة نحس! وكنت قد باعدتُ بيني وبين الأدب وطلَّقتُه ثلاثًا، أو على الأصحِّ فترتُ عنه وضَعُفَت عندي بواعثُه، ثم قلبتُ القضيَّة، وعكستُ المسألة، وحمَّلتُ الأدبَ عَيبي، وزعمتُه أصلَ البلاء والدَّاء العِياء، وإذن فالنَّجاء منه النَّجاء!

وفي الكتب، كما في الناس، المَجْدُودُ[2] والمنحوس، والمَوْمُوق[3] من القلوب والبغيض الى النفوس، وما أصدق قول الرَّصِيف القديم إذا نقلتَ معناه إلى الكتب:

عِشْ بجَدٍّ فلن يضرَّك نَوْكٌ ... إنما عيشُ من ترى بالجُدُودِ[4]

وهي تلقى من تصاريف الأيام وانتقال الأحوال مثل ما يلقى كتَّابها وقرَّاؤها -وغير كتَّابها وقرَّائها- سواءً بسواء.

فكم من كتاب جليل لازمه الخمول، فكأنه حين خرج من المطبعة سقط في جُبٍّ! وكم من مؤلِّفٍ قيِّم عبر «هولاكو» على جثَّته[5]، وأفاض روحه في وثبته!

---

(١) «جريدة الأخبار» (١٢ أبريل ١٩٢٤)، ثم في «حصاد الهشيم» (٢٦٨)، وهو جزء من مقالة «الواجب»، والعنوان من صنعتي.

(٢) المحظوظ.

(٣) المحبوب.

(٤) من أبيات لأبي محمد اليزيدي يهجو شيبة بن الوليد، في «الحماسة» للبحتري (٣٢٦)، و«الجليس والأنيس» (٤/ ١١٧) وغيرهما، وتمام تخريجها في «شعر اليزيديين» (٤٥)، و«اليزيديون أخبارهم وأشعارهم» (٩٣). والنّوك: الحمق. والجَدُّ: الحظ، وجمعه: جدود.

(٥) يشير إلى نكبة التتار.

فليس الناسُ وحدهم يموتون، ولكن هي الكتب أيضًا تحيا وتموت، وتطولُ آجالها وتَقْصُر، وتبيتُ جَمِيعةً وتصبح مفرَّقة.

ويا رُبَّ كتاب أخملَ آخرَ كما يخملُ الرجل، وقد يجني الفضلُ علىٰ الكتاب جنايتَه علىٰ الإنسان، وتسيء إليه صراحتُه، وتُكْسِده رجاحتُه، ويَقْعُد به ثِقَل آرائه المُعْوِصة، وتؤخِّره دقَّة أفكاره الممحِّصة.

وامض أنت في القياس إذا شئت، واعكس الصُّورة إذا أحببت، فلن تُلْفِيَها إلا طِبق الأصل.

القراءة[1]

-١-

لما دعاني صديقي الأستاذ يعقوب فام[2] إلىٰ إلقاء هذه المحاضرة، سألته: متىٰ موعدها؟ فقال: ٣١ يناير، وكنا يومئذٍ في بعض ديسمبر، فقلت: يفرجها ربُّك، وعسىٰ أن يحدث شيءٌ يُشْغِل الناسَ عني، فتُزلزَل الأرض أو تسقط السماء عليها كسفًا، أو أجد مالًا فأخرج من هذا البلد الذي يحبُّ الكلام، وفي أقلَّ من شهر تتغيَّر الدنيا وتتبدَّل الأرض غير الأرض، وعندي اقتراحاتٌ شتىٰ علىٰ القَدْر كلٌّ واحد منها كفيلٌ بأن يريحني ويرضيني.

ونسيتُ المحاضرة وموعدها حتىٰ دنا يومها، فأذكرني به، فقلت: جاءك الموتُ يا تارك الصَّلاة! أليس في الدنيا ذاكرةٌ تخون صاحبها غير ذاكرتي؟! ألا مفرَّ إذن من هذه المحاضرة؟!

وكان لا يزال هناك بضعة أيام باقية، فتركتُ التفكير في هذا؛ لأني من الذين تستغرقهم اللحظة الحاضرة، فيذهلون عمَّا عداها ممَّا كان قبلها أو ما عسىٰ أن يجيء بعدها، فإذا كنت آكل فهمِّي هو الطعام ولا أُعنِّي نفسي وأنا أتناول منه بما بذلتُ في سبيله من مالي وعافيتي، ولا بما لعله يجرُّ عليَّ من كِظَّة[3] أو تُخمة، وإذا كنت أقرأ أو أكتب فذاك شُغلاني، وليس لي عقلٌ يرتدُّ إلىٰ ما كان قبل دقائق، أو يمتدُّ إلىٰ ما

---

(١) خلاصة محاضرة ألقاها المازني في دار جمعية الشبان المسيحيين بالقاهرة، ونشرت في «جريدة البلاغ» (٢ و٩ فبراير ١٩٣٥)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ١٨٧).

(٢) كاتب مصري مشتغل بالتربية والفلسفة، سكرتير جمعية الشبان المسيحيين.

(٣) البطنة وما يعتري الإنسان من امتلاء الطعام، كَظَّه الطعامُ إذا ملأه حتى لا يطيق النفَس.

يمكن أن يكون فيما بعد، وإذا كنت ألهو وأعبثُ فألفُ سلامٍ علىٰ الجدِّ والوقار والاحتشام، وإذا كنت أجدُّ راع الناسَ وجهي من مسافة ميل، وهكذا في غير ذلك.

وصرنا في يوم الأربعاء، ولم يبق بيني وبين المحاضرة إلا أربعٌ وعشرون ساعة خبيثة طائشة تذهبُ تعدو بسرعةٍ خَطِرة لا يقرُّها في هذه الدنيا قانون. فقلت: ألزمُ بيتي هذه الليلة لأفكِّر فيما ينبغي أن أقوله وأنفع به الناس؛ فإنَّ بهم ظمأً إلىٰ دمي -أعني إلىٰ علمي وفضلي وأدبي-، وأدرتُ الفونغراف[1]، فما لِمَا يذيعه الراديو في مصر أيُّ قيمة، والموسيقىٰ التي نسمعها منه بليدةٌ تفتِّر الجسم والنفس وتغري النعاسَ بالجفون والتثاؤبَ بالأشداق، وأنا بي حاجةٌ إلىٰ أصواتٍ قوية قادرة علىٰ تحريك النفس وابتعاثها وإنعاشها وتقليب ما في أعماقها كما تُثَار الأرض بالعَزْق[2]، وليس أصلحَ لهذا ولا أقدر عليه من فاجنر وباخ وأضرابهما.

وقد تعجبون كيف يتاحُ لي أن أفكِّر وأستمع في وقتٍ معًا إلىٰ هذه الأصوات؟!

فاعلموا أمرين:

الأول: أن لي قدرةً علىٰ التفكير والكتابة والقراءة في حمَّام بلا ماء، ومهما بلغت الضجَّة حولي فإني لا أسمعها ولا أباليها، ولكن الشرط في ذلك ألا يجرَّني أحدٌ إلىٰ الحديث أو الملاحاة، وألا يوجِّه إليَّ كلامًا، فإذا لم يكلِّمني أحدٌ فإن في وسعي أن أنصرف إلىٰ ما أنا فيه، وأن أذهَل عمَّا عداه كأنه غير موجود.

والثاني: أن الموسيقىٰ القوية تحدِث أثرها في النفس وإن كنتَ غير متنبهٍ إليها، وأنا أريد أن أحرِّك نفسي وأزخَر تياراتها وأثير عُبابها، لعلَّ شيئًا كامنًا في أعماقها يتقلقَل ويتزحزح عن موضعه فأحسُّه، أو يبدو لي فأظفر به وأتفضَّل به عليكم.

---

(١) جهاز يخرج الأصوات المسجلة على أسطوانات خاصة بإبرة وسمَّاعة.
(٢) شقُّ التربة بالفأس.

ولكنَّ ضيوفًا زاروني في تلك السَّاعة فلم يعد يجديني لا باخ ولا بيتهوفن ولا فاجنر ولا كلُّ من خلق الله ومن لم يخلق من نوابغ هذا الفن، وأنا كما لا تعلمون مصابٌ بكثرة الأطفال، وكثرة الضيوف والزوار، فخطبي جسيم، وبلائي عظيم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

واستقبلتُ الزوَّار بلطفي المعهود وكرمي المشهور، وقلت لنفسي: إن الله قد عوَّدني السَّتر وأن لا يفضحني، فلأنسَ هذه المحاضرة الآن، فلا يزال يومٌ باقيًا، وفيه يخلق ربُّك ما لا تعلم.

وبهذا وأمثاله عزَّيتُ نفسي وعلَّلتها وأعنتها علىٰ الكسل كما هي عادتي، فإني لا أفعل الشيء إلا في آخر ثانية من آخر دقيقة من آخر ساعة، فلا آكل إلا بعد أن أشفِي علىٰ الموت جوعًا، ولا أشرب ماءً إلا إذا عَصَب ريقي[1] ونشف لساني وتدلىٰ كلسان الكلب، ولا أكتب حرفًا من مقال في «البلاغ» إلا بعد أن يفرغ العمَّال من صفِّ الأوراق التي في أيديهم ويقفوا منتظرين، فيبعث إليَّ رئيسهم بواحدٍ ثم بثانٍ ثم بثالثٍ وأنا أعِدُ كلًّا منهم خيرًا، وأؤكد لهم جميعًا أني سأكتب «حالًا»، وأروح أتلكَّأ، فيوفِد إليَّ جمعًا منهم -ثمانية أو عشرة- يدخلون عليَّ وفدًا محتجًّا أو مظاهرةً ساخطة، فأتساءل -في سِرِّي- عن قانون التَّجمهر ماذا صنع الله به؟! ولماذا لا تنفِّذه الحكومة؟!

وفي كل صباح تنشبُ في البيت معركةٌ تدقُّ الساعة سبع دقَّات، فأسمع نقرًا علىٰ الباب، فأستعيذ بالله وأتناوم -أعني أتصامَم-، فيتكرَّر الدقُّ ويعلو، فأصيح: نعم، ماذا إن شاء الله علىٰ الصُّبح!

فيقول الصَّوت: قُم.

---

(١) جفَّ ويبس.

فأقول مغالطًا: الساعة السادسة فلماذا أقوم من الفجر؟!

فيقول الصَّوت: بل هي السابعة، فقُم ولا تكسل.

فأقول: لم أسمع إلا ستَّ دقَّات.

فيقول الصَّوت: بل دقَّت سبع مرات.

فأؤكِّد أنها ستٌّ، ويؤكِّد الصوت أنها سبع! فأقول: إذن فلننتظر حتىٰ نسمع دقة الساعة الآتية.

فتفتح زوجتي الباب وتقول: ألا تنوي أن تقوم؟!

فأقول محتجًّا علىٰ هذا الإزعاج: لماذا بالله أقوم واليوم يوم جمعة؟!

فتقول: إنه الثلاثاء لا الجمعة!

فأقول: بل هو الجمعة، علىٰ كلِّ حال قد اختلفنا، وقد قالوا: إن اختلاف الفقهاء رحمة، وكذلك أرىٰ اختلافنا، فدعيني حتىٰ يجيء زائرٌ من الزوَّار الكثيرين فنسأله عن يومنا هذا ما هو؟

فتقول: كلُّ يوم عندك يوم جمعة؟! هيه!

فأقول: يا ستِّي لقد اختلفنا، ويجب أن ننتظر ثالثًا يجيء فيقضي بيننا بالحق.

فتقول: طيب. سأجيء بمن يقضي بيننا. وتجيء بالأطفال وتساعدهم علىٰ جرِّي من رجلي، وإنزالي عن السرير، وإدخالي في الثياب، ودفعي إلىٰ الباب، وهي تقول: لم أر أشدَّ منك كسلًا عن السعي لرزق أولاده.

فأخرج إلىٰ الطريق وأنا أقول لنفسي: ولماذا لا يسعون هم لرزقهم؟! لقد قرأتُ في الكتب أن الضرورة أمُّ الاختراع، وأن الحاجة تفتق الحيلة، ولستُ أرىٰ حاجة

هؤلاء الأولاد الملاعين إلىٰ الرزق تفتق لهم إلا حيلةً واحدةً أو اختراعًا واحدًا هو كيف يُكْرِهونني علىٰ العمل والسَّعي وهم قعودٌ ينعمون بالراحة وأُحْرَمُها.

ولكن شيئًا واحدًا لا أتلكَّأ فيه أو أؤخِّره إلىٰ آخر لحظة، وذلك هو السَّفر؛ فأنا كلَّما سافرتُ أذهب إلىٰ المحطة قبل الموعد الذي يقوم فيه القطار بيوم كامل علىٰ الأقل، والسرُّ ليس به خفاء، ذلك أن السفر منجاةٌ من العمل، والغائبُ عذره معه، كما تقول الأمثال.

ولم يفتح الله عليَّ بشيء -أعني بكلام أقوله لكم وأنفعكم وأسُرُّكم به-، فجئتُ وفي مأمولي أن يحدث أحدُ أمرين: أن أضلَّ الطريق ولا أهتدي إلىٰ مكان هذه الدار، فينهض لي العذرُ فيما بيني وبين نفسي علىٰ الأقل، وأنا كما تعلمون - أو لا تعلمون- أجهلُ الناس بجغرافية الشوارع. والثاني: أن يمنعني الواقفُ بالباب ويردَّني عن الدخول كما ردَّني بوَّابُ المدرسة السعيدية الثانوية عن دخولها وأنا مدرِّسٌ بها لظنِّه أني تلميذٌ متأخر، فلولا أن أدركني الأستاذ الهواري وكان موظفًا معنا فيها لضاعت علىٰ التلاميذ في ذلك اليوم دروسي النفيسة.

غير أني لم أضلَّ ولم يصدَّني أحدٌ أو شيءٌ عن بابكم، وإنما رأيتُ في الطريق علىٰ مسافة أمتارٍ من الدار صناديقَ كثيرة تسدُّ جانبًا من الشارع، فدنوتُ من الرجل الذي يدحرجها عن المركبة إلىٰ الأرض وقلت له: لماذا لم تسدَّ الطريقَ كلَّه يا أخي؟ فظنَّ أني أتهكَّم عليه أو أسخر منه، فصرفني بكلمة وإشارة.

وها أنا ذا قد بيَّنتُ لكم عذري، فإذا شئتم أن تتفضَّلوا علىٰ هذا العاجز، وتُكْرِموا أديبَ قومٍ أصفىٰ[1] فهيَّا بنا إلىٰ الطريق، وكفىٰ الله المؤمنين الثرثرة، وإلا فلا ذنب لي، بل الذنبُ لمن اختارني للكلام، وعيَّن لي الموضوع، ولم يترك لي أيَّ رأي فيما

---

(١) انقطع ولم يستطع قول شيء. أصله من أصفى الحافر (الذي يحفر) إذا بلغ الصَّفا (الحجر) فلم يستطع الحفر.

أستطيع أن أقوله، ومن سوء الحظ أنه اليوم -كما علمتُ وأنا مقبل- مريض، أو لعله هاربٌ متخفٍّ، وإلا لكان لي معه حسابٌ طويل.

سألتُ نفسي وأنا مقبلٌ علىٰ هذا المكان: لماذا تقرأ يا ترىٰ؟

وبعد أن أطرقتُ قليلًا، وقطَّبتُ طويلًا، وأفزعتُ بهيئتي الراكبين معي في التِّرام قلتُ في جواب هذا السؤال: والله يا مازني إنك لسخيف! ولماذا لا تسأل لماذا تتكلم ويستمع بعضنا إلىٰ بعض؟ إن هذا من ذاك! فنحن نتكلَّم لأن بنا حاجةً إلىٰ الإعراب عمَّا في نفوسنا أو رؤوسنا، والإفضاء بشعورنا، وبيان خوالِجنا، والترفيه عن أعصابنا، أو التظاهر بذَلاقة ألسنتنا، وسعة معارفنا، وعِظَم إحاطتنا وذكائنا، ويصغي بعضنا إلىٰ بعض، ويجد في ذلك متعة؛ لأن الإنسان فضوليٌّ أو قولوا إذا شئتم: لأنه محتاجٌ إلىٰ المعرفة يتطلَّع إليها ويطلبها، بل أصحُّ من هذا كلِّه أنه لا يستطيع أن يتكلَّم إلا إذا سمع.

والكتابة كالكلام، بل هي فنٌّ مهذَّبٌ منه، والقراءة كالسَّماع، وكلُّ ما هنالك من الفرق أن هذا نطاقٌ ينتظم الإنسانية كلَّها، وإن ذاك محصورٌ في نطاقٍ ضيِّق؛ لأن القراءة ليست في متناول كلِّ واحد، والموضوعات قد تكون أعوصَ من أن يقوىٰ عليها كلُّ قارئ، والمرء لا يستطيع وحده أن يَعْلَم كلَّ علم، ويفكِّر كلَّ فكر، ويحسَّ كلَّ إحساس، ويجرِّب كلَّ حالة، ويكابد كلَّ امتحان، فلا غنىٰ به عن الاطلاع علىٰ ما عند الغير؛ ليكمل نقصه، ولو وسعه أن يستغني لاستغنىٰ، ولكن ذلك لا سبيل إليه.

ومزية الكتب أنها تعطيك الخلاصة، وتعفيك من عناء التجريب ومشقة الامتحان وعذاب المعاناة، والقارئ لا يدري ماذا كلَّفت صاحبَها الأبياتُ القليلة من الشعر أو السطور المعدودات من النثر، وذلك من حسن الحظ؛ فإن المرء ليعجز أحيانًا عن احتمال ما يكابد، فكيف لو كان عليه أن يحتمل فوق ذلك معاناة الناس جميعًا؟! وعلىٰ أنه حتىٰ حين يعرف ذلك ويطلع عليه لا يحسُّه كما يحسُّه صاحبه،

ولعله حين يقف عليه يحمد الله في سرِّه علىٰ النجاة من مثل ذلك، ومِن هنا تجد المرء يسمع بمصائب الغير ولا يكاد يتحرَّك لها.

ولا شكَّ أنكم جميعًا من هواة القراءة، ولكني لا أدري كيف تمضون في ذلك، وأيَّ نهج تنهَجون، أما أنا فقد **وضعتُ لنفسي ثلاث قواعد**، ولست أذكر متىٰ بدأت أقرأ، فقد كانت البداية وأنا صغيرٌ جدًّا، غير أن هذه القراءة الأولىٰ لا قيمة لها إلا من حيث أنها دليلٌ علىٰ الميل، ولم تكن لي فيها قاعدةٌ ولا نهج، وإنما كنت أقرأ كلَّ ما تصل إليه يدي من الطيب والخبيث، فلمَّا كبرتُ قلتُ لنفسي: إن العمر أقصر من أن يتسع للاطلاع علىٰ كل كتاب، ولو أني أردتُ أن أحيط حتىٰ بأسماء الكتب من قديمة وحديثة لقصَّرت، فكيف لو أني أردتُ أن أقرأها، فلا مفرَّ من الاختيار.

وقد رأيتُ **أن أقتصر علىٰ الجيِّد الموثوق بجودته**[1]، وإذ كنت طالبَ أدب فقد آليتُ لا أقرأ إلا ما أكون علىٰ يقين جازم من جودة مادته وجودة أدائه، فإذا وقع لي كتابٌ جيدُ المادة ولكنه سخيفُ الأداء أو ضعيفُه رميته وانصرفتُ عنه. وقد أتسامح إذا جاء أداؤه دون مادته، ولهذا يندر أن أقرأ كتابًا مترجمًا؛ لأني أوثر أن أقرأ الأصل إذا تيسَّر ذلك، ومن أجل هذا أيضًا أقللتُ من قراءة الحديث حتىٰ أملأ جعبتي من القديم الذي أطمئنُّ إلىٰ جودته.

والقاعدة الثانية: أن أقرأ ولا أكلِّف نفسي عناء الحفظ، وقد أعجبني قول قائل في «العمدة» لابن رَشِيق، أو «الصناعتين» لأبي هلال العسكري، أو لا أدري في أيِّ كتاب آخر ما معناه: إن علىٰ طالب الشعر أن يحفظ عشرة آلاف بيت ثم فلينسَها بعد ذلك[2]، والغرض من ذلك أن تحصل الفائدة من غير أن يتقيَّد المرء بالمعاني أو

---

(١) هذه هي القاعدة الأولى.

(٢) لم أجد الخبر على ذيوعه وشهرته. وفي معناه ما يحكى عن خالد بن عبد الله القسري أنه قال: حفَّظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسَها، فتناسيتها، فلم أُرِد بعد ذلك شيئًا من الكلام إلا سَهُل عليَّ. انظر: «عيار الشعر» (١٥)، و«البصائر والذخائر» (٧/ ٩٧)، و«نضرة الإغريض» (٣٩١).

القوالب التي صُبَّت فيها المعاني، فيجيء الأسلوب طبيعيًا بريئًا من التقليد، منزَّهًا عن الاقتياس أو الاقتباس، فأما الحفظ فلا قدرة لي عليه، أو لعل لي قدرةً ولكني كسولٌ جدًّا أو حكيمٌ جدًّا، فإن الوقت الذي يضيع في الحفظ أولىٰ أن يضيع في قراءة شيء جديد.

ولم أتكلَّف مراعاة هذه القاعدة؛ لأني سريع النسيان، حتىٰ ليكبر في وهمي أني سأنسىٰ اسمي يومًا ما -أي أنسىٰ نفسي وشخصيتي وحياتي، ويمحىٰ كلُّ ما هو مسطورٌ في اللَّوح-، وعندي كتبٌ كثيرةٌ قرأتها مراتٍ عديدة، فكانت في كلِّ مرَّة جديدةً وكأن لم يسبق لي الاطلاع عليها، وهذا من فضل الله عليَّ؛ فإني أعجز في أحيانٍ كثيرة عن شراء كتب جديدة فأكرُّ إلىٰ ما عندي وأتناول منه وأقرأ، فكأني اشتريته قبل ساعة، وأقلب الصَّفحة وأنا أقرأ فأنسىٰ ما فيها، ويكون الكتابُ قصَّةً فإذا لم أفرغ منها في جلسة واحدة نسيتُ الحكاية واحتجتُ أن أبدأ من البداية. وهذا عجيب؛ فقد كان أبي وأمي من أقوىٰ الناس ذاكرة، ولكنه لا ضير من ذلك، لأنه لا يضيع شيءٌ في الحقيقة، وإن كان يختفي عن العين وراء الوعي أو لا أدري أين، وفائدة التحصيل تحصلُ علىٰ كلِّ حال، وإن كان المرء لا يعرف ذلك أو لا يشعر به ويدركه[1].

---

(١) وقال مرة: «وما قرأت كتابًا إلا نسيت ما فيه، نسيته جملةً وتفصيلاً، حتى اسمه واسم كاتبه، وقد أعود إليه فكأني ما قرأته ولا سمعتُ به، فهو في كل مرة أعود فيها إليه جديد، ولو كُنت قرأته عشر مرات، وهذا نافع؛ لأن فيه اقتصادًا. وكم من كتاب اشتريته ثم نسيت أين وضعته، ثم يتفق أن أعثر عليه فأقف مستغربًا متسائلًا: أتراني قرأتُ هذا الكتاب من قبل أم لم أفتحه؟ على كل حال الأمران سيَّان، توكلنا على الله! وأحسب هذا يجعل العلم والجهل سيَّين، ولولا أني أعرف أن ما أقرأ لا يضيع، وإنما يختفي، لأغراني ذلك بالانقطاع عن القراءة؛ لقلة ما يبدو لي من فائدتها المحسوسة». «أحاديث المازني» (١١٦).

ونحو ذلك قوله عن نسيانه في مقال «عيوبي» بمجلة الهلال (مارس ١٩٤٣): «وأقرأ الكتاب، ثم أنساه، ثم أراه على رفِّه فأستغرب، وأتساءل: متى اقتنيته؟! وأعود إليه فكأني اشتريته الساعة، وكأن عيني ما وقعت عليه من قبل».

والقاعدة الثالثة استخلصتها عن كتاب لبوسنت اسمه «الأدب المقارن»، وهو يذهب فيه إلىٰ أن ومضات العبقرية الحقيقية لا تظهر من آثار الفنان، بل من آراء الناقد، وعنده أن الفنان -الكاتب أو الشاعر أو غير ذلك- يعيش في عالم من خياله محدودٌ بحدود شخصيته وأحواله وظروفه، ويتوهَّم أنه مُلْهَم، فلو أنه أكل من شجرة المعرفة، وفتح عينيه علىٰ حدود النطاق الذي يعيش فيه، لفقد القوَّة والسِّحر اللذين أفادهما من توهُّم الإلهام. أما الناقد فنظرته أعمُّ وأشمل، وهو لا يفتأ يقارن بين ضروب الأدب المختلفة، ويقابل بعضها ببعض، ويحلِّق فوقها جميعًا، وينظر إليها من قريبٍ فيراها مفرَّقة، ومن بعيدٍ فيراها جملة، فهو لهذا أرحبُ من الفنان أفقًا وأبعدُ مطارحَ نظرٍ وفكر، وإذا كان الإلهام ينقصُه فإن السموَّ والدقة والإحكام والإحاطة بعض ما يستفاد منه.

وهذا الرأي فيه صوابٌ وخطأ، فهو ليس بصواب علىٰ إطلاقه ولا بخطأ علىٰ إطلاقه، وقد أفادني أني سألت نفسي بعد أن قرأتُ هذا الكتاب: **ما هي غايتك؟ وأجبتُ نفسي بأن غايتي أن أكون شاعرًا عظيمًا وناقدًا حصيفًا، ولمَّا عيَّنتُ الغاية سَهُل أن أرسم الطريق**، فأقبلتُ علىٰ دواوين الشعراء، وعلىٰ الكتب التي رجوتُ أن أستفيد منها فلسفة النقد خاصَّة والأدب عامة.

وصحيحٌ أني أخفقتُ في الغايتين، فنفضتُ يدي من الشعر، ثم كففتُ عن معالجة النقد، وملتُ شيئًا فشيئًا إلىٰ طريق جديد، ولكن هذا الإخفاق لا قيمة له، وهو نتيجة الخطأ في درس النفس والوقوف علىٰ استعدادها، والحياة تجارب، ومن المحال أن يتوقَّىٰ المرء الخطأ والغلط والضلال، والنفسُ شيءٌ مهولٌ جدًّا، وإن كان مختزلًا في هذا الجرم الضئيل، والمهمُّ أن يعدل المرء عن الضلال متىٰ فطن إلىٰ ذلك، وأن لا يلجَّ فيه كِبْرًا أو عنادًا أو كسلًا أو يأسًا.

يبدو لي من وجوهكم -أعني من ألوانها ومن النظَّارات التي علىٰ عيون الكثيرين منكم- أنكم من هواة القراءة أو علىٰ الأقلِّ من هواة الكتب، ولستُ أرىٰ فرقًا بين من يكنِز المال أو يجمع طوابع البريد أو السجَّاد النفيس أو الخزف الثمين وبين من يَكْلَفُ بجمع الكتب أو بقراءتها، والشَّرَه واحدٌ وإن اختلفت مظاهره.

وأنا أعرف ناسًا يجمحُ بهم هذا الهوىٰ جماحًا عجيبًا، ومنهم من لا يتردَّد في سبيل إرضاء هذه الشهوة في أن يتلصَّص ويسرق، ولعلكم سمعتم بالأغنياء الذين يُغَافِلون باعة الطوابع ويسرقونها، ولو شاء أن يشتريها لما أعجَزه ذلك، علىٰ أن من هواة الكتب من يفعل شرًّا من هذا.

ولي قريبٌ ما دخَل بيتي قطُّ إلا سطا علىٰ كتاب، ومن غريب أمره أنه يحمل الكتابَ ويمضي به، فإذا عاد ووجدني اشتريتُ نسخةً أخرىٰ منه مدَّ إليها يده ودسَّها في جيبه أو تحت ثيابه وخرج! وقد سرق منِّي ثلاث نسخ من الجزء الأول من «ديوان ابن الرومي»، وكانت تكفيه -لو عَقَل- نسخةٌ واحدة، ولكنَّ الأمر في هذا ليس أمرَ عقل.

وأغربُ من ذلك أنه يكدِّس هذه الكتبَ في صندوقٍ ويخفيه في غرفة مظلمة منحدرة في الأرض في بيته، لا تدخلها الشمسُ ولا ينفذ إليها الهواء، ولا يعيش فيها وينعَم بالرطوبة والظلام إلا الجرذان والوطاويط والهوامُّ.

وما لي أمثِّل بقريبي وأنسىٰ نفسي؟! كانت عندي منذ نحو خمس وعشرين سنة ثلاثُ طبعاتٍ مختلفة من شعر شكسبير:

الأولىٰ في مجلدٍ واحد، وحرفُها دقيقٌ جدًّا، فهي لا تُقرأ، ولا أدري لماذا اشتريتها؟!

والثانية في ثلاثة أجزاء، وحرفُها أكبر، وقراءتها أيسر، ولكن ينقصها الشرح، ولم أكن أستغني عنه في ذلك الوقت.

والثالثة في أجزاء كثيرة بعدد الروايات، وفي واحدٍ منها أغاني شكسبير، وهي خيرُ الطبعات وأصلحُها؛ لوفاء الشرح والتعليق.

فاتفق أن ذهبتُ إلىٰ مكتبة ديمر وكانت في بناء فندق شبرد[1]، وأخذتُ أقلِّب الكتبَ علىٰ عادتي، وأنظر إليها وهي علىٰ رفوفها، وأشاور نفسي أيها أبتاع وأيها أتركُ إلىٰ حين، فوقعت عيني علىٰ كتيِّب صغير مجلَّد بالمخمل فيه أغاني شكسبير، فافتتنتُ به ولجَّت بي الرغبة في الاستحواذ عليه، ولو شئتُ لاشتريته ولو نسيئةً إذا أعوزني المال؛ فإن صاحب الدكَّان وعمَّاله يعرفونني، وأنا أنفق في دكَّانهم كلَّ أول شهر أكثر ممَّا أنفق علىٰ بيتي، غير أني لم أشتره، بل دسستُه في جيبي ثم خرجتُ به وبما ابتعتُ غيره، ولا أدري أرآني وتغاضىٰ عاملُ المكتبة كرمًا وتسامحًا، أم لم يرني، فلمَّا صرتُ في الطريق خجلتُ، فوقفتُ مترددًا، ثم عدتُ فرددتُ الكتاب!

ولعلَّ منكم من يشكُّ في صدقي، ولكني لستُ مضطرًّا أن أكذِب؛ فقد مضىٰ أكثر من ربع قرن علىٰ الحادثة، فلا خوف من النيابة والشرطة، وأظنُّ صاحبَ المكتبة قد انتقل إلىٰ عالم آخر، فلا مجنيَّ عليه في دنيانا[2].

ولكني لا أقتني الكتب لأرصَّها وأزيِّن بها داري، بل لأقرأها، وهي عندي خيرٌ من الصَّديق والقريب، وأحبُّ إليَّ من الزوجة والأبناء، وحسبي من بواعث الرضا عنها والإيثار لها أنها تعطيني ولا تأخذ إلا من وقتي الضائع علىٰ كلِّ حال، والأملُ فيها لا يخيب، والثقة بها لا تكون إلا في موضعها، ولا خوفَ من كذب أو خداع أو عذرٍ أو نفاق، وقد تعلِّمك الخطأ ولكنها لا تفعل ذلك عامدة، وصداقتها لا تفتر، ووَدُّها لا يَحُول، وإن مللتَها وجفوتَها واعتضتَ منها بسواها.

---

(١) من فنادق القاهرة التاريخية أسسه الإنجليزي صموئيل شبرد سنة ١٨٤١.

(٢) سيأتي خبر هذه الحادثة في مقالة «سرقت لأصبح أديبًا».

وللكتب شأنٌ غير شأن «المُوْدَه»[1]، فليس كلُّ جديدٍ فيها بخيرٍ من كلِّ قديم، ولا يكون الناسُ له من أجل ذلك أطلب، وفيه أرغب.

وما عدتُ إلىٰ كتاب قطُّ إلا استعدتُ الخواطر والخوالج التي لا سبيل إلىٰ استعادتها بغير هذه الوسيلة، فأتذكَّر الوجوه التي كنت أراها إذا أرفع عيني عن الكتاب، والمكان الذي كنت فيه، والجوَّ والمناظر التي أحاطت بي، وما وقع في نفسي من الكتاب ومن ذلك كلِّه.

وفي هذا التذكُّر جمعٌ لما يتفرَّق من شخصيتي ويتبعثر علىٰ الأيام، وينسىٰ المرء الزمن، وتمحىٰ السِّنون التي مضت وانقضت من لوح العمر، ويرتدُّ المرء شابًّا كما كان، ويتحقَّق ما تمنَّاه بعض الحكماء من أن يرجع شابًّا ومعه تجاربُ شيخوخته.

وصحيحٌ أن الشباب مزيَّته أنه ليس مثقلًا بعبء التجارب، وفضله أنه غَرِيرٌ يُقْدِم ويُقْبِل ويقتحم ويتطلَّع ويفيض أملُه علىٰ الدنيا ويرقرقه في الحياة؛ لأن عباب الحيوية زاخر، وتيَّارها دافق، وسيلها العَرِم، ويغترُّ الحَدَثُ بذلك ويتوهَّم أن الينبوع لا ينضب، ويحسب أن المنبع لا يشحُّ، ويظنُّ أن صلته به لا تنقطع، واستمداده منه لا ينتهي، فينفق وينفق حتىٰ تذهب السَّكْرة وتجيء الفكرة، فيحسُّ بالجفاف، ويدرك أن العَين قد نشف، وأن الشيخوخة قد أدركته -أعني المرء لا العَين- فيحتاج إلىٰ التخييل، فلا يلقىٰ كالكتب عونًا علىٰ ذلك، فإذا أقبل عليها وقف الزمنُ بل ارتدَّت عقارب الساعة، ورجع هو بارتدادها يافعًا ينظر إلىٰ الدنيا والحياة بعينِ جِنِّيَّة الإنسان[2].

---

(١) الموضه moda بالإيطالية، وكان الأدباء يكتبونها بالدال كما تنطق في التركية، ثم فشا رسمها بالضاد.

(٢) قال المازني في إحدى قصائده:

يلحظ الأرض والسموات والنا ... سَ بعيـنِ جنيَّـة الإنسانِ

أخذه من قول الشريف الرضي:

ينظر الدهر بعد يومـك والنا ... سَ بعينٍ وحشيَّـة الإنسانِ

ولكن هناك فرقًا بين تحصيل المرء في شبابه وتحصيله في كهولته، وأنا اليوم أقرأ ولعلي أعظم شرهًا ممَّا كنت في صدر حياتي، غير أني أحكِّم عقلي لا إحساسي كما كنت أفعل أيام كانت كلُّ كلمةٍ زهرة أو درَّة، وكنت أعبُّ من جدول المعرفة الذي كان يغريني ولا يسخر مني كما يسخر نهر الحياة، فأنا الآن أنظر إلىٰ الجودة وأطلبها وأقدِّر مبلغها، ولا أحفِل الوقعَ الذي يكون للكتاب في النفس، ولستُ أستجيد ما كنت أغالي به في حداثتي من أمثال «آلام فرتر»، وهذا طبيعيٌّ مع ارتفاع السِّنِّ، واتساع أفق النفس، ونضج العقل، واعتياد الأناة في النظر والحكم.

وفي وسعي أن أقول -وفي وسعكم أن تصدِّقوا- أني لا أهتزُّ ولا أطربُ الآن ولا يستخفُّني شيءٌ من الشعر أو النثر، ولا يقوىٰ علىٰ إخراجي عن طوري كلامٌ بالغًا ما بلغ من القوَّة والجمال، وكنت إذا أعجبتني أبياتٌ من الشعر دَهْوَرْتُها بلساني[1] في شِدْقي، فالآن أتناول الديوان من شعر الشاعر فأعبُره بعيني[2] وأنتقل من قصيدة إلىٰ قصيدة وأقلب صفحةً بعد صفحة، وقد أتخطىٰ صفحاتٍ أطويها جملةً ولا أكاد أقفُ عند شيء أو أقرأ من القصيدة إلا بيتًا هنا وبيتًا هناك، وكلمةً في أول الصفحة وجملةً في آخرها، ولا يكاد يستوقفني شيءٌ إلا إذا كان بالغًا غاية الإحكام ونهاية الجودة، وهيهات!

وبين تحصيل جيلنا وتحصيل جيلكم فرقٌ كبير، فنحن كنَّا -وما زلنا- نُقْبِل علىٰ الكتب جادِّين مصمِّمين، أما جيلكم فيتناولها مستخفًّا وبأطراف البنان، وينشُد اللَّهو وتزجية الفراغ والتسلِّي لا المعرفة والاطلاع، ونحن كنَّا نغرَق في هذا البحر الزاخر إلىٰ أذقاننا، وأنتم تقفون علىٰ السَّاحل تنظرون وتسخَرون قانعين بثبات الأرض تحت أقدامكم، مستخفِّين بعقول الذين يُلْقُون بأنفسهم في اللُّجَّة.

---

(١) دَهْوَر الشيءَ جمعه وقذف به في مهواة.

(٢) عَبَر الكتابَ عَبْرًا: تدبَّره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته.

وأضرب لكم مثلًا لجدِّنا، ومثلًا لِهَزْل جيلكم.

لمَّا سرتُ علىٰ الدَّرب -أعني لمَّا نهجتُ في القراءة نهجًا منظَّمًا شرعتُ أدرس كتاب «الأغاني»، وهو علىٰ حلاوته طويلٌ مملٌّ، فكنت أجد فيه البيتين أو الثلاثة للشاعر، وكثيرًا ما يسقِط المؤلف أبياتًا أخرىٰ بينها، أو يوردها علىٰ خلاف ترتيبها في ديوان الشاعر، فقلتُ: أرجع إلىٰ دواوين الشعراء، فجمعتُ ما وسعني جمعُه من ذلك، ومن ليس له ديوانٌ مطبوعٌ اعتمدتُ في مراجعته علىٰ دار الكتب، فكنت لا أجد في كتاب «الأغاني» شعرًا إلا راجعته في ديوان الشاعر كلَّما تيسَّر ذلك، والذين يعرفون «الأغاني» يعلمون أنه ما من صفحة فيه تخلو من الشعر، ولهذا آثرتُ أن تكون نسخة «الأغاني» التي عندي ورقًا غير مجلَّد، فوضعتُ بين كلِّ صفحتين ورقًا أبيض دوَّنتُ فيه الأبيات التي اهتديتُ إلىٰ أصولها منقولةً عن دواوين أصحابها أو عن غير «الأغاني» من كتب الأدب، وكلَّما فرغت من جزء من «الأغاني» جلَّدتُه وفيه هذا الورق الذي كتبتُه في مواضعه، ثم شاء الله أن أحتاج إلىٰ بيع مكتبتي، فكان الكتابُ الذي ثمنه وهو جيِّد نصف جنيه يباع بخمسة قروش أو أقل، إلا نسختي من كتاب «الأغاني» فقد كنت اشتريتها بمئة قرش وخمسة قروش (طبعة الساسي)، فبعتها بسبعمئة وخمسين قرشًا، أي بسبعة أضعاف ثمنها، وقد قصصتُ عليكم ذلك لتعرفوا ماذا تجشمت في قراءة «الأغاني».

ولما وقع في يدي كتاب «أصول الأنواع» لدارْوِين، سهرتُ فيه الليل كلَّه، علىٰ وعورته وتعويصه واستعصائه علىٰ مثلي، فلم أذهب إلىٰ المدرسة في اليوم التالي، وكنت يومئذ طالبًا في مدرسة المعلِّمين العليا، وكان هذا الغيابُ يتكرَّر كلَّما صار في يدي كتابٌ جديد، فدعاني الناظر إليه وكانَ المرحوم إسماعيل باشا حسنين ونصَح لي أن أواظب، وأعربَ لي عن استعداده لمنحي إجازة خمسة عشر يومًا دفعةً واحدةً علىٰ أن أثابر بعد ذلك وأواظب علىٰ الحضور، فشرحتُ له سببَ الغياب، وبيَّنتُ له أني لا أتخلَّف عن الدروس لألعبَ، فهزَّ رأسَه ولم يقل شيئًا وتركني لرأيي.

أما الجيل الحاضر فلا أحسبه يَجِدُّ في القراءة هذا الجِدَّ، ولستُ أعرف له صبرًا يستحقُّ الذكر علىٰ التحصيل، وإنك لتسأل أيَّ صاحب مكتبة فيقول لك: إن الكتب الخفيفة تَرُوج في مصر دون الأقطار الشرقية الأخرىٰ، وإن الكتب الجِدِّيَّة تَرُوج في هذه الأقطار دون مصر، ولا أظنكم تجهلون أن الحياة ليست هزلًا صِرفًا ولا جِدًّا بحتًا، وإنما هي مزيجٌ من هذا وذاك، والذي لا يُحْسِن أن يَجِدَّ لا يُحْسِن أن يَهْزِل، وفي وُسْع الإنسان أن يعبث ويلهو كما يشاء ويلعب ما استطاع من غير أن يهمل الجدَّ أو يجور علىٰ وقته، ولستُ قدوةً لأحد، وإني لآخِر من يصحُّ أن يتَّخذوا مثالًا يحتذىٰ، ولكني مع ذلك أذكر لكم أني استطعتُ أن أفرد للجدِّ الصَّارم وقتًا كافيًا وللهزل وقته بلا تقتير، فأنا أعمل كالثور الذي يُدِير السَّاقية، ولا أكاد أذوق للرَّاحة طعمًا، حتىٰ إذا فرغتُ من ذلك وتشهَّدتُ أرسلتُ نفسي علىٰ سجيَّتها فضحكتُ ولهوتُ ولعبتُ كما لا تحسنون والله أن تفعلوا؛ لأني قسمتُ حياتي قسمةً عادلة.

أما ماذا تقرأون؟ فمسألةٌ يرجع الأمر فيها إلىٰ الغايات، ولكني أوجز فأقول: إن القاعدة هي الآداب، وليكن المرء طبيبًا أو مهندسًا أو سياسيًّا أو غير هذا وذاك، فإن الواجب أن يبدأ بالاطلاع علىٰ الأدب اطلاعًا كافيًا؛ لأن الأدب هو تفسير الإنسان للحياة، وهو يعمِّق النفس، ويوسِّع الأفق؛ فلا غنىٰ بأحدٍ عنه، إلا إذا كان يريد أن يستغني عن فهم الحياة ... إلخ إلخ.

حاشية: هذه خلاصة المحاضرة، وأظنُّ أني قلتُ كلامًا كثيرًا أجملَ من هذا وأحلىٰ وأحكَم، ولكني نسيتُه، فمن فاته من القراء شيءٌ فلا يَلُمْ إلا نفسَه، فقد كان في وسعه أن يسمعني في ساعة الإلهام!

ماذا تقرأ؟ ولماذا تقرأ؟[1]

دعوة إلى كل قارئ وقارئة في مصر والشرق العربي

منذ عشرين سنة كنت مدرسًا في المدرسة السَّعيدية الثانوية، وكان وكيلها يومئذ الأستاذ عبد الفتاح بك صبري -وكيل وزارة المعارف الآن-، فاتفق يومًا أن جلسنا نتحدَّث علىٰ الطعام إذا كانت ذاكرتي لم تخنِّي، والحديث -كما يقولون- شجون، فاستطردنا إلىٰ تربية الإرادة وحاجة المعلِّم إلىٰ ضبط النفس، فقال لي: إنه قرأ «القاموس المحيط» للفيروزبادي من ألفه إلىٰ يائه، وإنه حمَل علىٰ نفسه وراضَها علىٰ هذا العنت، وهو رجل يقرأ غير «القاموس» وبغير هذا الباعث، ولا يهمل أن يتعهَّد نفسَه بالتثقيف وذهنَه بالاطلاع، وقد كان اتصالي به وأنا مدرِّسٌ أعْودُ عليَّ وأنفع لي من كلِّ ما خرجتُ به من مدرسة المعلِّمين العليا في ثلاث سنوات، ولكن هذا ليس موضوعنا، فلنُقْصِر.

وقد عرفتُ بعد الحرب شابًّا لا يقتني أو يقرأ إلا دوائر المعارف أو الموسوعات، وقد سألته عن الدافع إلىٰ ذلك، فأخبرني أن هذه الموسوعات تشتمل علىٰ خلاصة معارف الإنسان، وأنه لمَّا كانت فسحة الأجل قصيرة، وفرصُ الفراغ من أعماله التي يزاولها لكسب قوته قليلةً ضئيلة، ولمَّا كان مع ذلك يشعر بشَرَهٍ عقليٍّ إلىٰ المعرفة، ورغبة ملحَّة في الفهم، فقد اجتزأ بدوائر المعارف من عامَّة وخاصَّة، وبودِّه لو تيسَّر له أن يقرأ كلَّ ما سطَّرت يدُ الإنسان.

وكان جوابُ صديق واسع الاطلاع عما سألته عنه من الباعث له علىٰ القراءة وجيزًا، ولكنَّه لا يخلو من الصِّدق والسَّداد، فقد قال: إنها عادةٌ سيئةٌ كالتدخين، وقد

(١) «السياسة الأسبوعية» (٣ مايو ١٩٣٠)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ١٤١).

خطر لي بعد أن تركته أنه ربما كان قد اطَّلع علىٰ مقالٍ لبرنارد شو عن القراءة يذهبُ فيه إلىٰ رأي غريب، ذلك أنه يشير بأن يقرأ الناسُ كلَّ ما هو حافلٌ «بالدَّم والرعد»، يعني بذلك ما يصوِّر بواعثَ السُّوء ويَصِفُ أعمال الشَّر، وهو يزعم أن الإنسان يفني غرائز السُّوء الطبيعية في نفسه بالاطلاع علىٰ ذلك ويستنفدُها فيه، فلا تتَّخذ صورة العمل المسيء إلىٰ الجماعة، ومن أجل هذا ينبغي ألا يقرأ الناس الكتبَ الزاخرة بالغايات السَّامية و المساعي الحميدة؛ لئلا يستنفدوا في القراءة نزعاتهم إلىٰ الخير، فتُحْرَم الدنيا أعمالهم الطيبة.

والذي عناه صديقي بقوله: «إنها عادة سيئة» أنها تشجِّع الكسلَ العقليَّ؛ لأنه أسهلُ علىٰ المرء في رأيه أن يتلقَّىٰ عصارة ذهن آخر من أن يكدَّ هو ذهنه بالتفكير. وعنده أنه لو كان أقلَّ من الاطلاع أو لم يَكْلَف به قطُّ لكان نضجُه العقليُّ أتمَّ.

ولست أوافق صديقي، وإني لموقنٌ أن الجنسَ الإنساني يشفي علىٰ الهلاك إذا فقَد كنوز الآداب والفنون والمعارف، وبعبارة أوجز وأشمل: إذا فقَد الكتب؛ ذلك أن التفكير مرتبطٌ بفنِّ الكتابة، وأداة التفكير هي الألفاظ، والألفاظ رموزٌ للصُّور التي تحصُل في الذِّهن، وكلُّ تقدُّم اجتماعيٌّ أكثر مما هو فردي، فلا بد لأيِّ مقدار من التقدُّم من وسيلةٍ لإذاعة نتاج العقول لإيقاظ النفوس وابتعاث الجهود، وعلىٰ قدر وفاء أداة الإذاعة بالحاجة يكون مقدار التقدُّم في حياة الإنسان.

وغيرُ صحيح أن الاطلاع يفتِّر نشاط العقل، ويعوِّده الكسل عن التفكير، وإنما الصَّحيح أن الذي يفعل ذلك هو القراءة السَّطحية التي يراد بها تزجية الفراغ وقتل الوَقت، والصَّحيح أيضًا أن القراءة اقتصاد، فنحن نتلقَّىٰ ما سبق غيرُنا إلىٰ الكشف عنه والهداية إليه، ونستغني بذلك عن الابتداء من جديد، ثم نستأنف السَّير من حيث وقفوا ونشقُّ لأنفسنا طريقًا جديدًا.

ومِن بين من أعرفهم من يقرأ لأنه يحبُّ الحياة، والقراءةُ فيما يُحِسُّ تطيل حياتَه وتوسِّع رقعتَها وترحِّب آفاقها. وهو يقرأ عن الأفلاك؛ لأنه يحبُّ أن يسبح بخياله بين النجوم، ويقتحم صحراوات الفضاء المرعبة التي تكتنفها، ويقرأ عن طبقات الأرض؛ ليتعقَّب حياتها علىٰ مدىٰ الأدهار، وهكذا.

ومنهم من يقرأ طلبًا للَّذة المستفادة من الاطلاع علىٰ خواطر الناس وآمالهم ومطامحهم وأوهامهم وأحلامهم، أو لأنه يجد فيما يقرأ تعبيرًا أتَمَّ وأوفىٰ عمَّا يضطرب به صدرُه هو ويدور في نفسه وتنقصُه القدرة علىٰ تصويره.

وآخرون يقرؤون ليكونوا أقدر علىٰ اكتساب رزقهم، أو لأن القراءة عندهم من ضرورات الحياة، والحياة لا تطاق بغير الكتب، أو لأن لهم رغبةً ملحَّة في معرفة الحياة وفهمها بكلِّ ما انطوت عليه من عواطف وتجارب، أو لأنه يريد أن يعلَم كيف يتلقَّىٰ الناسُ الحياة، ويواجهون مسائلها، ويعالجون مصاعبها وشدائدها، ويشقُّون طريقَهم فيها إلىٰ غاياتهم المختلفة.

فهذه أمثلةٌ قليلةٌ للبواعث علىٰ القراءة والاطلاع، وبديهيٌّ أن لكلِّ إنسان باعثَه الخاصَّ، وأن البواعث تكاد تكون بعدد الناس مهما بلغ من تشابهها وتقاربها، فهذا يَنْشُد التسلية، وذاك يُرِيغ[1] المعرفة، وواحدٌ يَسْتَلْهِمُ الكتب، وثانٍ يطلب سعة الروح، وثالثٌ يعدُّ القراءة ضربًا من التجريب، ورابعٌ يشتاق أن يعرف هذه الحياةِ ما هي؟ وآخرون يدفعهم إلىٰ القراءة نشاطُهم العقليُّ، وثَمَّ من يفيضون علىٰ القصيدة أو الرواية أو المقالة من عواطفهم، ويُفْرِغون علىٰ ما يقرأون صبغة شخصيَّتهم، ويخرجون بما لعلَّ الكاتب أو الشاعر لم يحلم به أو لم يفكِّر فيه ولم يقصد إليه، فهم مدفوعون إلىٰ القراءة بغريزتهم المبدعة غير المهذَّبة، وفريقٌ يقرأ ليهرب من حقائق الحياة، وهناك من يقرؤون ليكون إدراكهم لهذه الحقائق أدقَّ وأعمق، ومن

---

(١) يطلب.

الناس من تجذبه رواية الحياة الفردية، ومنهم من تسحره رواية الحياة العامة، وهكذا إلىٰ آخر ذلك إن كان له آخر.

واختيار الكتب راجعٌ إلىٰ الباعث النفسيّ:

فالذي يعدُّ العصرَ مثلًا لا أكثر من ملعب للأفراد الممتازين الذين يظهرون فوقه يؤثِر كتبَ التراجم علىٰ كتب التاريخ. والذين لا يَعُدُّون هؤلاء الأفراد الممتازين أكثر من تعبيرٍ حيٍّ عن عصرهم يميلون إلىٰ التاريخ. والذي تفتنه رنَّة الكلام وجَرْس العبارة يكبُّ علىٰ رسائل البلغاء وأساتذة الصِّناعة. والذي يطلب تصوير الشخصيَّات، ورسم معالمها الكبرىٰ، وظلالها الدقيقة، وفعلَ العاطفة، وتعارض المصالح، ومصاير الأشياء، يُقْبِل علىٰ القصص والروايات وما هو منها بسبيل.

وقد خطر لي أن أسأل القراء: ماذا يقرؤون؟ ولماذا يقرؤون؟ وهما سؤالان لو أُلقيا قبل عشرين عامًا لمَا ظفرتَ بعشرين جوابًا، فقد كانت دائرة الاطلاع والتحصيل المستقلَّين محصورةً ضيِّقة، وكانت المكاتبُ التي تبيع الكتب قليلة، ولستُ أعرف أنه كانت بالقاهرة غير مكتبة واحدة أجنبية -ألمانية- نشتري منها ما نشاء، ولم تكن ثمَّ بدار الكتب المصرية عناية، ولا كان الإقبال عليها يستحقُّ الذِّكر، فالآن يجد الإنسانُ المكاتبَ في طريقه أينما سار، والمدارس تنشئ المكاتبَ للتلاميذ وتشجِّعهم علىٰ الانتفاع بما فيها، وإن كانت برامج التعليم لفسادها واكتظاظها تصرفهم عنها، ومجالس المديريَّات تقيم المكاتبَ العامة، فالسُّؤال الآن يُلقَىٰ علىٰ جمهورٍ عظيم.

وقد لوحظ أن مصر أقلُّ إقبالًا من بلاد الشرق الأخرىٰ علىٰ الكتب الجِدِّيَّة، وأضألُ طلبًا لها ورغبةً فيها، وقد تكشِف الإجاباتُ التي أتوقَّع أن تَرِدَني عن حقيقة ذلك أو عن سرِّه.

ولا يُحْجِمْ أحدٌ عن الإجابة لأنه يتوهَّم أن الباعث له علىٰ القراءة عاديٌّ أو لا يستحقُّ أن يبعث به إليَّ؛ فإن ما يظنُّه تافهًا قد لا يَعُدُّه غيرُه كذلك، ثم إنه مهما بلغ في رأي صاحبه من التَّفَه خليقٌ أن يكشف عن بعض ما يَغْمُض من النفس الإنسانية.

فليفكِّر كلُّ قارئ فيما يقرأ، وليحاول أن يَسْبُر غورَ نفسه، وأن يتبيَّن حقيقة الدافع الذي يغريه بالاطلاع، وليكتبْ ذلك بأوجز ما يستطيع، وليبعثْ به إليَّ لأنشره بتوقيعه إذا شاء، أو غفلًا من التوقيع إذا أراد ذلك.

وأخلِقْ بأجوبة للقرَّاء أن تتألَّف منها مجموعةٌ قيِّمةٌ ليس أجدىٰ منها ولا أعونَ علىٰ الوقوف علىٰ ذوق الأمَّة ومعاييرها الأدبية.

وعلىٰ أن للإجابة مزية أخرىٰ فردية، هي أنها تساعد كلَّ قارئ علىٰ التفكير في نفسه، وعلىٰ صوغ فلسفته الخاصَّة في القراءة والعبارة عنها، أي علىٰ صوغ فلسفته الخاصة في الحياة نفسها ومذهبه فيها، وليس هذا بالربح القليل.

والأسئلة التي أريد الإجابة عنها -كلها أو بعضها- من كل قارئ وقارئة في مصر وغيرها هي هذه:

ماذا تقرأ؟ أو بعبارة أخرىٰ: أيَّ نوع من الكتب تراه أشدَّ استيلاءً علىٰ هواك؟

ولماذا تقرأ؟ وبعبارة أخرىٰ: ما هي البواعث التي تحسُّ أنها تدفعك إلىٰ القراءة، والغاية التي تنشدها من وراء ذلك؟

وأخيرًا: هَبْكَ سُئلتَ أن تَقْصُر اطلاعَك علىٰ عشرين كتابًا تختارها من أية لغة وأيِّ عصر، فأيَّ عشرين كتابًا تنتخِب؟

وليس من الضروريِّ أن يكون الجوابُ شاملًا للأسئلة كلِّها، ولا من المحتَّم أن يذكر المرء أسماء عشرين كتابًا إذا كان لا يَرُوقه غير عشرة أو سبعة أو أقلَّ أو أكثر، ولمن شاء أن تُنْشَر إجابتُه أو تطوىٰ، وأن تذيَّل بتوقيعه أو يهمل التوقيع أو يرمز بأيِّ حرفٍ أو اسم.

وإنما الذي نريده هو الجواب الذي يستطيعه القارئ، كائنًا ما كان هذا الجوابُ والرأيُ الذي يشتمل عليه؛ لأن الغاية التي نرمي إليها هي -كما ذكرنا- أن نُعِين كلَّ قارئ علىٰ الإحاطة بغاياته وبواعثه، وأن نتعاون علىٰ فهم ذوق الأمة، والاهتداء إلىٰ مقاييسها الأدبية، والوقوف علىٰ اتجاه نفسيتها ونوع فلسفتها.

وسيتاحُ لنا فيما نرجو ونحن ننشر ما نتلقَّىٰ من الردود أن نعقِّب عليها بما يعنُّ لنا من الآراء إذا عنَّ لنا رأيٌ مخالفٌ أو استدراكٌ أو ملاحظةٌ نعزِّز بها الرأي، أو ننقضه ونصحِّحه، أو نؤيِّده[1].

---

(١) نشر المازني في العدد التالي من «السياسة الأسبوعية» (١٠ مايو ١٩٣٠) جملة من ردود القراء التي وصلته وما اختاروه من الكتب، وقال في مطلع المقال:

«لمَّا هممتُ بالكتابة في هذا الموضوع كان أول ما جرى في خاطري أن أبيِّن البواعث التي تحفزني إلى القراءة، وأن أحاول أن أصفَ الوقع الذي أجده في نفسي لِمَا أقرأ، وكان في مرجوِّي أن أستطيع أن أخرج من هذا الخصوص إلى العموم، أي أن أهتدي إلى نظرية أو فلسفة عامة للقراءة الذكية، ولكني قلت لنفسي: إن البواعث تختلف باختلاف الناس، فمن الغرور أن أتخذ من نفسي وحدها مقياسًا عامًّا، ومن العسير على كل حال أن يأمن المرء الشَّطط والغلط حين يحاول التعميم، فلأْشرك القراء معي؛ فإن ذلك أهدى لي ولهم وأعونَ على بلوغ ما نريد. وكان أكبر ظنِّي حين ألقيتُ أسئلتي أن لن أفوز بأكثر من قطرات، فإذا أنا قد تلقَّفتني عاصفة، وأخذني هاضبٌ سَحَّاحٌ من الردود غرقتُ في طوفانها، فاستصرختُ إخواني واستغثتُ بهم، وبعد لأْيٍ ما استطعتُ أن أرتِّب ما تلقَّيتُ في بضعة أيام، وأن أختار منه لهذا العدد من السياسة الأسبوعية ما يراه القراء فيما يلي».

ولم أر من المناسب إثبات تلك الردود؛ لئلا يطول الكتاب بغير كلام المازني، ولأنها إنما تصوِّر بواعث أولئك القراء وثقافاتهم وأذواقهم واهتماماتهم المعرفية، وليس ما اختاروه من الكتب مما تصلح قراءته لكل أحد.

ماذا أقرأ؟ ولماذا أقرأ؟[1]

ولماذا ألقيتُ علىٰ القراء هذه الأسئلة عمَّا يقرأون؟ ولماذا يقرأون؟ وما هي العشرون كتابًا التي يختارها كلٌّ منهم إذا اقتصرت مطالعته علىٰ هذا القدر؟

هذا ما يسألني عنه كثيرٌ ممَّن يتفضَّلون عليَّ بإجاباتهم.

وردِّي بإيجاز: أن مستوىٰ التعليم والتربية في مصر واطئٌ جدًّا، وأن معاهدنا العلمية -حتىٰ الجامعة- لا تخرج ذلك الطراز من الشُّبَّان الذي نطلق عليهم وصفَ «المثقفين»، وأن ما يعرفه السَّواد الأعظم من المتعلِّمين عن الأدب والفنون والعلوم سطحيٌّ، وأنه قلَّ من بينهم من يبدو منه دليلٌ علىٰ تلك الحكمة الصَّحيحة التي يكون مبعثها النظر الواسع السَّامي إلىٰ الحياة.

فالطلبة يقضون الأعوام الطويلة في التعلُّم، ثم يخرجون وهم لا يمتازون في أذواقهم ونزعات نفوسهم عن الجماهير، أو يَفْضلونها بسموٍّ في نظرتهم، أو رحبٍ في آفاقهم، أو بعدٍ في غاياتهم.

والواقع أننا نضيع أعمار أبنائنا في مدارس لا تعلِّم شيئًا، وننفق أموالًا طائلة علىٰ تربيةٍ لا تربِّي أحدًا؛ لأن التعليم عندنا قد يُكْسِب الشابَّ مهارةً أو طلاقة في اللسان، أو يحشو له رأسَه ببعض المعارف التي تفيده في معيشته المادِّية، ولكنه لا يفضي إلىٰ تغييرٍ في روحه، أو ينقله إلىٰ حالة نفسيَّة أرقىٰ وأسمىٰ، أو يصيِّره رجلًا آخر له معايير جديدة في الحياة، وكلُّ ما يتعلَّمه لا يؤثِّر في روحه ولا يصل إلىٰ قرارة نفسه؛ لأن كلَّ ما يتلقَّاه لا يعدو أن يكون أداةً توضع في يده أو سلاحًا يقلَّده، والأداة والسِّلاح -ككلِّ أداة

---

(١) «السياسة الأسبوعية» (١٧ مايو ١٩٣٠)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٥٧٠).

أو سلاح- شيءٌ أجنبيٌّ عن النفس، يلقىٰ ويُطرَح بعد مزايلة المدرسة أو بعد الفراغ من العمل، ويعود المرء بعد إلقائه واحدًا من السَّواد كلُّ ميزته سلاحُه المطروح.

فهذا التعليم الذي لا غاية له إلا إعداد المرء لبيع السِّلع، أو القدرة علىٰ الجدل أمام المحاكم، أو وصف الأدواء للعلل، أو وضع الرسوم للبُنىٰ، أو غير ذلك ممَّا يجري هذا المجرىٰ = هو الذي أريد أن أوقظ النفوس إلىٰ وجوب مجاوزته بالاطلاع الخاصِّ، ما دام أن معاهدنا العلمية تقتصر عليه ولا يسعها أن تَعْدُوه، وما من شكٍّ في أن المجتمع لا يستغني عن التجارة والصِّناعة والمحاماة والطبِّ وما إلىٰ ذلك، ولكنَّ قصرَ الغاية من التعليم علىٰ هذه الدائرة المحدودة يَسْفُل به جدًّا.

فأنا أرجو بهذه الأسئلة التي ألقيتها أن أشجِّع ...[1]، وأن أغريَ القراء بمعالجة هذه العوالِم التي تركتها المدارس موصدةً في وجوههم وتركتهم جاهلين أمرها، وأن أستحثَّهم علىٰ نشدان حياةٍ أوسع وأكثر ألوانًا وأفتن صورًا، بل أنْ أبعثَهم علىٰ إبراز شخصيَّاتهم الدفينة في نفوسهم، وإخراج مواهبهم الكامنة؛ فإن من حقِّ كلِّ إنسان متعلِّم أن يكون نظره أسدَّ وأنفذ، وتفكيره أسلمَ وأوضح، وإحساسه أعمقَ وأدقَّ؛ ليتسنَّىٰ له أن يكون مخلصًا لنفسه، جريئًا في غير وقاحة، مُرِيغًا[2] للكمال في غير عجرفة أو خيلاء.

وقد قرأتُ للمستر هالدمان جولياس -الناشر الأمريكي الشهير- قصَّةً رواها عن سجين محكوم عليه بالإعدام، قال:

«جميس ستيوارد سجينٌ في سجن سنت لويس ينتظر إنفاذ حكم الإعدام فيه بعد عَشرين يومًا، وقد أراد أن يقرأ في هذه الأيام الباقية له عشرين كتابًا، فاختارها وبعث

---

(١) بضع كلمات ساقطة من الأصل المتاح ولكنها لا تعيق فهم الجملة، كما يقول الدكتور عبد السلام حيدر في تعليقه على «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ١٦٢).
(٢) طالبًا ومريدًا.

يطلبها، ولم يكن ثَمَّ وقتٌ يُضَاع؛ فإن كلَّ ما له في هذه الحياة عشرون يومًا، وهو يروم أن يقرأ فيها عشرين كتابًا قبل أن يخنق حبلُ الجلَّاد كلَّ شعور، ولكن الحظَّ قسا علىٰ جيمس ستيوارد؛ فقد حدث أن تباطأت شركة هالديمان جولياس عدَّة أسابيع في إرسال ما يطلب الناسُ منها في جملتهم هذا السَّجين، وشاءت المقادير أن سُجِّل طلبُ جميس ستيوارد في ملفَّات الشركة في نفس اليوم المعيَّن لإعدامه.

ولا شكَّ أنَّ هذا مأساة، وأنَّ سَخَر المقادير كان فيها مرًّا، وماذا عسىٰ أن تفعل الشركة الآن: أترسل العشرين كتابًا إلىٰ أسرته لتقرأ ما حالت الأقدار بينه وبين النظر إليها، ولتمضي عنه العزم الذي خنقه الجلَّاد؟

ولكن في الأقدار علىٰ سَخَرها رحمة، فقد حدث أن المحكمة العليا في ولاية ميسوري -لأسباب يطول شرحها- أرجأت تنفيذ الإعدام ستين يومًا. هذا ظاهر القصة أو هيكلها المجرَّد، أما باطنها فيكشف عنه كتابُ السَّجين إلىٰ الناشر وأسماء الكتب التي طلبها. وهذا نص الرسالة:

طيُّ هذا ريالٌ وعشرون سنتيمًا، وهو ثمن الكتب المبيَّنة علىٰ الصَّفحة الأخرىٰ، وأنا سجينٌ في سجن سنت لويس محكومٌ عليه بالإعدام، وقد كان موعد الإعدام ٢٦ يناير سنة ١٩٢٣، ولكنه أرجئ ستين يومًا، فصار موعده ٢٧مارس، فهل لكم أن تعجِّلوا بإرسال هذه الكتب لتتيسَّر لي مطالعتها؟ وقد لبثتُ شهرًا أعالج الحصول علىٰ المبلغ اللازم ثمنًا لها، وهذا ما وسعني، وفي مرجوِّي أن تكفي العشرون سنتيمًا أجرةً للبريد، وإني بريءٌ من الجريمة التي حُكِم من أجلها عليَّ بالإعدام، ولكنه اتفق لي أن كنت موجودًا في مدينة هركيلينيام ليلة إطلاق الرصاص، فقُبِض عليَّ وأنا غريب، وصدر الحكم بالإدانة، ورجائي المبادرة إلىٰ إرسال الكتب بأسرع ما في وسعكم، وتفضَّلوا...» إلخ.

والآن: ما هي العشرون كتابًا التي يشتهي أن يقرأها محكومٌ عليه بالإعدام في عشرين يومًا هي كلُّ ما بقي من حياته؟! إلىٰ أية ناحية أو نواحٍ عجيبة يتَّجه عقلُ إنسان علىٰ رأسه هذا القضاء المبرم؟!

هذه -علىٰ كلِّ حال- أسماء الكتب التي طلبها جيمس ستيوارد:

١. الأغلاط الشائعة في كتابة اللغة الإنجليزية.

٢. كيف تحب؟

٣. كتاب مترادفات.

٤. محاكمة سقراط وموته.

٥. أمثال الصِّين.

٦. النساء ومقالات أخرىٰ، بقلم ماترلنك.

٧. القبلة وقصص أخرىٰ، تأليف تشيكوف.

٨. إحدىٰ ليالي كليوباتره، تأليف جوتييه.

٩. ديوان الشاعر «بو».

١٠. نشوء الحب، تأليف إلن كي.

١١. معجم للقوافي.

١٢. الهيبنوتزم[١].

١٣. التحليل النفسي أو مفتاح السلوك الإنساني.

---

(١) النوم العصبي أو التنويم المغناطيسي.

١٤. فلسفة الحياة الصِّينية.

١٥. حقيقة البوذية.

١٦. نظرية البعث.

١٧. فلسفة الحياة البوذية.

١٨. ما قال عظماء الرجال في المرأة.

١٩. ما قال عظميات النساء في الرجل.

٢٠. آخر أيام محكوم عليه بالإعدام لفيكتور هيجو.

أليست هذه مجموعةً مدهشة؟!

أليست إرادة الحياة أول ما تَشِي به وتدلُّ عليه؟!

ولا غرابة في الرغبة في قراءة «آخر أيام محكوم عليه بالإعدام»؛ فإنها رغبةٌ لها علَّتها القوية ومناسبتها الواضحة.

ومن السَّهل أن يفهم المرء لماذا يحبُّ هذا السَّجين أن يعرف كيف تلقَّىٰ المحكوم عليه الموت فيما تخيَّل هيجو. قد يكون نفسَ الباعث هو الذي ساقه إلىٰ طلب «محاكمة سقراط وموته».

وبعض الناس حين يدنو أجلهم يميلون إلىٰ البحث في فلسفة الحياة، فلا غرابة في شوق الرجل إلىٰ الاطلاع علىٰ فلسفتي الصِّين والهند.

والحرصُ علىٰ النفس، والرغبة في البقاء، ملموسان من اختيار كتاب «نظرية البعث».

ومن الجليِّ أن السَّجين أميلُ إلىٰ فلسفات الشرق، ولعله يشعر لسبب من الأسباب أنها أضوأُ وأبعثُ علىٰ الأمل فيما يتعلَّق بالحياة والموت.

وقد يكون اختيار كتاب في تحليل النفس راجعًا إلىٰ رغبته في فكِّ العُقَد التي انتهت إليها حياتُه، وفي سبر غور البواعث التي جعلت الناسَ يحمِّلونه تبعة جريمة لم يرتكبها.

وهنا نقف؛ فما في وسعنا أن نعلِّل اختيار بقيَّة الكتب، إذ ماذا يدفع هذا السَّجين الذي ينتظر الموت المحتوم إلىٰ قراءة كتاب في «نشوء الحبِّ»؟ وأغربُ من هذا وأدعىٰ إلىٰ الدَّهشة انتخابه كتاب «كيف تحبّ»؟ إن موضوع الحبِّ يجتذبه إليه ويفتنه حتىٰ وهو واقعٌ في ظلِّ المشنقة.

وتأمَّل طلبه مقالات ماترلنك، وقصص جوتييه وتشيكوف.

وما حاجته إلىٰ التنويم المغناطيسي؟ أتراه يحسُّ أن قوَّة خفيَّة قد لوت حياته وشوَّهتها؟

علىٰ أن هذه كتبٌ قد لا يتعذَّر تعليل الرغبة فيها إذا أطال المرء الفكرة أو بحث عن علاقتها بغريزة الحياة وإرادتها، ولكن ماذا عسىٰ أن نقول في «الأخطاء الشائعة في كتابة اللغة الإنجليزية»، وكتاب «المترادفات» و«معجم القوافي»؟! إنه رجلٌ بينه وبين الموت عشرون يومًا، فغير مفهوم أن يحبَّ أن يتعلَّم التقفية، وأن يكثِر من الألفاظ المترادفة، وأن يجتنب الأخطاء النحوية، ذلك أن هذه كتبٌ تُطْلَب للإعداد الفنِّي، ولحياة تتَّسع وتطول ويحتاج صاحبها إلىٰ الثروة اللغوية، فليس أبعث علىٰ الدهشة من الاستعانة بمثل هذه الكتب علىٰ الاستعداد للموت!

ثم يجيء فوق هذا «ما قال عظماء الرجال في المرأة»، و«ما قال عُظْمَيات النساء في الرجل».

كلا! لن أحاول استجلاء البواعث التي دفعت هذا الرجل إلىٰ اختيار هذه الكتب العشرين قبل موته بعشرين يومًا، ولكني أقول مخلصًا: إن اختياره حسن، وإنه رجلٌ جديرٌ بالحياة، وأهلٌ للعفو الذي فاز به.

وقد عرف القراء الآن لماذا قصَرتُ عدد الكتب علىٰ عشرين؛ فقد كانت في رأسي هذه القصَّة وأنا أضع السُّؤال وألقيه علىٰ القراء.

بمثل هذه الرُّوح يستقبل جيمس ستيوارد الموتَ المقضيَّ به عليه وهو بريء، وبهذه العدَّة الذخيرة يخطو إلىٰ حبل المشنقة، فعلىٰ أيِّ نحوٍ ينبغي أن يكون استقبال الحياة؟!

ماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟[1]

لكل أديب من الأدباء غرامٌ بنوع معيَّن من الكتب يفضِّل قراءته أكثر من غيره، كما أن لكلٍّ منهم طريقة خاصَّة في القراءة، فبعضهم يتطلَّب «جوًّا» خاصًّا، وبعضهم يقرأ في أي مكان في الشارع أو المقهىٰ أو الحمَّام! وقد سألنا طائفة من أدبائنا المعروفين أن يحدِّثونا عمَّا يقرؤون وكيف يقرؤون.

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني:

كنت أقرأ من قبل الأدب العربيَّ وآثار الفكر الإسلامي، وباللغة الانجليزية الأدب الكلاسيكي، وأُعنىٰ فيما عدا ذلك بالآداب الألمانية والروسية، والفرنسية إلىٰ حدٍّ ما؛ فلستُ أحبُّ الأدب الفرنسيَّ، ورأيي فيه أنه فصيحٌ بليغ، ولكنه ليس عميقًا كالآداب الأخرىٰ.

وقد شرعتُ منذ بضع سنواتٍ أعيد دراسة الأدب العربيِّ علىٰ نحوٍ منظَّم[2]، أما الآداب الأخرىٰ فأُعنىٰ منها الآن بالحديث علىٰ الأكثر؛ لأن الضرورة تقضي بتتبُّع التيارات الجديدة، ويعنيني منها علىٰ وجه الخصوص: فنُّ القصَّة، والمباحث الاجتماعية.

أما السياسة والحرب، فلا أقرأ منهما إلا ما يقتضيه عملي، ويستوجبه فهمُ الحوادث.

---

(١) «مجلة المصوَّر» (العدد ١٠١١، ٢٥ فبراير ١٩٤٤)، بعنوان: أدباؤنا ماذا وكيف يقرؤون.

(٢) انظر جوابه لمن استغرب منه ذلك في مقالة «بدون عنوان»، وما سيأتي في «زيتون في قرطاس من الشعر».

وليس لي طريقةٌ خاصَّة، أو وقتٌ خاصٌّ للقراءة، فكلُّ وقتٍ صالحٌ لذلك، وكلُّ مكان أستطيع فيه القراءة ولو كان حمَّامًا بغير ماء!

وأنا علىٰ خلاف غيري لا أدوِّن ملاحظاتٍ ولا أضع علاماتٍ علىٰ الكتب، ولهذا تظلُّ كتبي محتفظةً بجِدَّتها.

وقد بعتُ ما اقتنيتُ منها مرتين: مرَّة بخسارة جسيمة، والثانية بدون خسارة، بل بربحٍ إذا صدق ظنِّي؛ فإني لا أُعنىٰ بالحساب ولا أحسنه. وكان الداعي إلىٰ البيع في المرَّة الأولىٰ الحاجة إلىٰ ثمنها، أما في الثانية فكان الباعث ضيق البيت بها.

سرقتُ لأصبح أديبًا[1]

حدَّثني بعض الزملاء قال: إن الأدباء الشُّبَّان يزعمون أننا نحن «الشيوخ» كما يسمُّوننا نسدُّ في وجوههم كلَّ الفِجَاج! فتبسَّمتُ وقلتُ لنفسي: يظهر أن شياطيننا مَرَدة، وشياطينَهم صبيةٌ صغارٌ لا يزالون يلعبون في «الحارة» ويهملون اكتساب المعرفة والتجربة والحِنكة!

وأتكلَّم جادًّا فأقول: إني تذكَّرتُ كيف كنت وأنا غضُّ السِّنِّ صغيرُها، وكيف كان يُخْجِلني حتىٰ أن أمرَّ علىٰ مقهىٰ، فأنزل عن الرَّصيف إلىٰ الشارع! وكيف كنت أحيي الليلَ بالسَّهر وأنا عاكفٌ علىٰ قراءة كتب عويصة مثل «أصل الأنواع» لدارْوِين، وعلىٰ طبعة سخيفة ولكنها رخيصة -وتلك كانت مزيتها يومئذ- لكتاب «الأغاني» تكاد تعصف بالعقل، وعلىٰ طبعة هنديَّة أهداها إليَّ صديقٌ كريمٌ لديوان الشريف الرَّضِي محشوَّة بالأغلاط والتصحيف والتحريف.

وتذكَّرتُ كيف كنت أنفق نصف دخلي علىٰ اقتناء الكتب، وكان موظفو مكتبة ديمر يعرفونني ويأتمنونني لكثرة ما أشتري منهم، وهو في كلِّ شهر فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافلتهم وسرقتُ طبعة «جَيب» لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعةٌ كاملةٌ منها بشروحها وتفاسيرها، ولا خوف من الاعتراف بهذه الجريمة، فقد سقطت بمضيِّ المدة، ثم إنها جريمة طالب معرفة، لا جريمة طامع في مال!

وكنت كثير الغياب في مدرسة المعلِّمين؛ لأني كنت أسهر إلىٰ الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم، ثم أنام، فأتخلف، فدعاني ناظر المدرسة المرحوم إسماعيل

---

(١) «جريدة أخبار اليوم» (٤ سبتمبر ١٩٤٨)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٧٠٥).

حسنين باشا -عليه ألف رحمة- وقال لي: يا بني، إنك حمارٌ في العلوم الرياضية، وأنا أخشىٰ عليك الرُّسوب، ولا ألومك علىٰ التخلُّف ما دام هذا عذرك، فخذ إجازة خمسة عشر يومًا واقرأ ما شئت، ثم واظب بعد ذلك علىٰ الحضور.

وكان أساتذتنا يحضُّوننا علىٰ القراءة.

وتخرَّجتُ وصرتُ مدرِّسًا في مدرسة ثانوية، واتفق يومًا أن كنت في مقهىٰ فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية وكان معي كتاب «الشاعر علىٰ مائدة الإفطار» لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه، فما كان هناك يومئذٍ بناتٌ يشغلن الجالس في المقهىٰ بالنظر إليهن مقبلاتٍ ومدبرات، فمرَّ أستاذي في الأدب الإنجليزي، فنهضتُ لتحيَّته، فقال لي بعد كلام: لقد أصبحتَ موظفًا، وأكبر ظنِّي أنك انصرفتَ عن القراءة والاطلاع، فأريتُه الكتاب، فربَّت علىٰ كتفي وقال: هذا ما أرجو أن تظلَّ تقرأ وتقرأ ولا تشبع، وأن تحرص دائمًا علىٰ أن تضيف عقولًا إلىٰ عقلك، فقلت في سرِّي: هذا مثل كلام الجاحظ الذي ما ترك في زمانه شيئًا يقرأ إلا قرأه، وقد مات حين سقطت عليه كتبه!

وكنت أكتب، وأنظم الشعر، وأحاول النشر، ولم يكن ثمَّة سوىٰ جريدتين تشجِّعان الأدب هما «الدستور» لفريد وجدي بك و«الجريدة» للطفي السيد بك، وكنَّا نفرح حين يُنْشَر لنا شيء، وإن كنَّا لا نتقاضىٰ عليه أجرًا، فما كان يخطر لنا الأجرُ علىٰ بال.

ونظمتُ قصيدةً طويلة قلتُ أنشرها في «اللواء»، فلبثتُ ثلاثة أسابيع أسعىٰ وأرسل الشفعاء والوسطاء حتىٰ نُشِر نصفُها!

وكنَّا نطبعُ الكتبَ علىٰ نفقتنا، ونودِعها المكتبات «أمانات»، ويتكفَّل الإخوان بتوزيع بعضها مجاملةً ومساعدة، ومن ألطف ما يروىٰ أن أحد إخواننا طبع كتابًا وأودع نسخًا منه مكتبة، ثم مرَّ بعد شهور بالمكتبة يسأل عمَّا بِيع من كتابه فطلَب صاحبُها الإيصال، فقدَّمه إليه، فدسَّه في فمه وبلعَه!

وأصبحتُ أديبًا معروفًا تستكتبه صحفٌ شتىٰ، واسمه يظهر كلَّ يوم، وكنت أكتب وأنشر منذ سنة ١٩٠٧ ومع ذلك بعتُ أضخمَ كتاب لي -وأحسنَ ما كتبتُ في رأي بعض الزملاء- في سنة ١٩٢٤ بثلاثين جنيهًا، وقد طُبع الكتاب ثلاث مرات، ولكنَّ هذا كلُّ ما أفدتُ منه، ويقول المثل العامي: «يكفيني نَعِيرُها» أي السَّاقية، وإن لم يخرج منها ماء! وقد كفاني نَعِيرُها فعلًا.

وفي سنة ١٩٢٩ تفضَّل ناشرٌ فطلب أن ينشر لي «صندوق الدنيا»، وهو أروجُ كتبي، فقبلتُ وطُبع الكتاب ونَفِد ولم أقبض من ثمنه ملِّيمًا واحدًا!

وفي سنة ١٩٣٠ طلبَت مني «مجلة الهلال» مقالًا، فلبَّيت، وبعد أيام تلقَّيتُ رسالة مسجَّلة فيها «شيك» بخمسة جنيهات، وكنت وحدي في غرفتي، ومع ذلك احمرَّ وجهي خجلًا -أو شعرتُ أنه أحمر-، فقد كان هذا أول أجرٍ علىٰ مقالٍ أدبيٍّ، وكان قد تقرَّر في نفسي أن الإنتاج الأدبيَّ لا يباع، ولا يُطْلَبُ به الربح.

أريد أن أقول: إنَّ طريق الأديب طويلٌ وشاقٌّ، وإنَّ كلَّ[1] خطوة فيه تتطلَّب منه كفاحًا وصبرًا، وإن الذين يُعَدُّون شيوخًا فيه إنما صاروا كذلك لا بارتفاع السِّنِّ، بل بأنهم يَعُدُّون أنفسَهم تلاميذ لا تنقضي حاجتهم إلىٰ الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما، وبالنظر والتأمل ومحاولة الإدراك الصَّحيح.

وهل يستطيع أحدٌ أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لا بدَّ له من غذاء.

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: وأن ظل.

هل يحفر الشيوخ قبورهم بأيديهم[1]

لا أدري ماذا دها شبَّان هذا الزمان؟ الدنيا كلُّها تجدُّ وهم يلعبون، وتكدُّ وهم يتمطَّون ويتثاءبون، وتسعىٰ وتدأبُ وتتشدَّد وهم يريدون أن يكتفوا بأن يفتحوا أفواههم لتملأها لهم الملائكة بما يشتهون!

حدَّثني بعض الإخوان قال: إن روحًا عجيبة تسري بين الشبَّان، من مظاهرها قولهم: إن الشيوخ يسدُّون في وجوههم كلَّ فَجٍّ، وأن عليهم -أي علىٰ الشيوخ- أن يفسحوا لهم ويتنحَّوا عن طريقهم!

فلم أفهم المراد أهو أن يحفروا قبورهم بأيديهم قبل أن يوافيهم الأجل، ويئدوا أنفسهم فيها، وعليهم أكفان من رغبة الشباب في زحزحتهم عن ميادين الحياة؟! وماذا ترىٰ يمنع الشباب أن يستولوا هم علىٰ الميادين بما أوتوا من حيوية وعلم وذكاء وابتكار؟! هل يسع شيخًا بالغًا ما بلغ من الاقتدار أن يمنع شابًّا أن يبلغ بمجهوده حيث يريد أو حيث يستطيع؟!

قال صاحبي الذي روىٰ لي [2]هذا الذي كنت أجهله، والذي أرجو أن لا يكون صحيحًا: إنهم يحسدون الشيوخ ويَنْفِسون عليهم ما استطاعوا أن يوفَّقوا إليه، ويريدون أن يخطفوا الثمرة التي لم يغرسوا شجرتها ولم يتعهَّدوها.

قلت: ليس هذا بحسد، وإنما هو كسل، والكسل جهل، والجهل عجز، وماذا يستطيع الجاهل أو المقصِّر في حقِّ نفسه وحقِّ الجماعة عليه، وحقِّ الحياة نفسها، في عالم أصبح كلُّ ما فيه يقوم علىٰ دعائم من العلم الصَّحيح؟

---

(١) «جريدة أخبار اليوم» (٢٨ فبراير ١٩٤٨)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٦٨٥).

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: في.

وفكَّرتُ في هذا الذي حدَّثني به الصَّديق، وأدرته في نفسي، فقلت: إنه لا شكَّ في أن بشبابنا كَلًّا أو سمِّه فتورًا إذا شئت عن التحصيل، وعن حشد الأُهْبَة التي لا غنىٰ عنها لمن يريد أن يشقَّ لنفسه طريقًا في الحياة.

ولم يكن جيلنا كذلك؛ فقد كنَّا نستقلُّ ما نتلقَّاه من الدروس، ونعكف علىٰ القراءة غير مكلَّفين، ونقتصد من مصروفنا الضئيل ليتسنَّىٰ لنا أن نشتري كتابًا نقرؤه.

وكنَّا نتبادل الكتب بعد قراءتها؛ لقلة المال في أيدينا.

وأتذكَّر أني في مدرسة المعلمين اشتريتُ كلَّ ما وسعني شراؤه من الكتب في التربية وتاريخ رجالها، فلمَّا رآها معي الأستاذ قال لي: ما دمتَ تقرأ هذه الكتب فلا حاجة بك إلىٰ مذكِّراتي؛ فإن هذه هي التي أرجع إليها وأعتمد عليها في دروسي. فخجلت، وأظهرتُ له العناية بمذكِّراته، وكانت جديرة بذلك.

وأنا أقول: إني أزداد كلَّ يوم جهلًا، فيظنُّ الذين يسمعون مني هذا أني أتكلَّف التواضع، وليس هو من التواضع في شيء؛ فإنه الحقيقة لا أكثر ولا أقل، ذلك أن الإنسان كلَّما توسَّع في القراءة، أو إذا شئتَ كلَّما زاد علمه، ازداد شعوره بالجهل، أي بالبون الشاسع بين القليل الذي يعرفه والكثير -بل المَهُول- الذي يجهله.

وأنا أكتب منذ سنة ١٩٠٧، أي منذ أربعين سنة، وزاولتُ التعليم، ثم الصِّحافة، وصارت لي فيها شهرة، وتولَّيتُ رياسة التحرير في صحفٍ مختلفة، ومع ذلك ظللتُ إلىٰ سنة ١٩٣٠ لا أفيد من أدبي مالًا! وكان ما يُنْشَر لي في باب الأدب يُعَدُّ «فوق البيعة»، وكان نشرُه -بغير أجر- يُحْسَبُ علينا لا لنا، أي أنه تفضُّلٌ من الناشر، ومنَّةٌ تُذْكَر له فتُشْكَر، وبعض كتبي لم أربح منه مليِّمًا واحدًا، وبعضه كان نشره نكبةً تغري بالضحك، وشرُّ البليَّة ما يُضحِك كما يقولون.

ولم أكن وحدي الذي عانىٰ ذلك، وما أظنُّ أن حياة إنسان تخلو من المصاعب والمتاعب والمشقَّات في بدايتها، وما أكثر ما تطول هذه البداية، وتمتدُّ إلىٰ آخر

العمر، فتكون نهايتها هي النهاية والخاتمة لكلِّ شيء! وما أقلَّ الذين يولدون وفي أفواههم ملاعقُ من الفضة أو الذهب! وما قال أحد: إن الحياة فردوسٌ أو ملهىٰ. وكلُّ إنسان يقول لك: إنها ميدان عمل مُضْنٍ. وكلُّ عمل لا بدَّ له من أداة تظفر بها بعد عناء وتتقنها وإلا فالخيبة المرَّة هي المآل، أما من يعتمد علىٰ الحظِّ فما أشبهه بغافل أو سكران يستند إلىٰ خيال شجرة!

علىٰ أني راجعتُ نفسي، فقلت: إن الشبَّان مجنيٌّ عليهم في هذا الزمان، فالذنب -إذا أردت الحقَّ- ليس ذنبهم، ولماذا لا نعذرهم إذا تعجَّلوا وزهدوا في التحصيل وملُّوا إتقان الأداة، وهم يرون منذ شبُّوا من الطوق أمثلة شتَّىٰ تعدُّ بالآلاف للنجاح بغير فضل أو حقٍّ؟ ولماذا تلومهم وهم يشعرون بثِقل وطأة الحياة، ويتلفَّتون فلا يجدون معينًا، ولا تقع أعينهم علىٰ منصِف؟ وما لهم لا يسأمون ولا يحاولون قطف الثمار وهم يُلْفُون أنفسهم بين أعمال حرَّة يحتكر معظمَها غيرُ المصريين وأعمال حرَّة أخرىٰ مصريَّة لا تخلو من عيوب الوساطات والشفاعات، ولا تجعل الجزاء علىٰ قدر الاجتهاد، وحكومات غافلة مستخفَّة بمعاني العدل والحق، مقصِّرة في الإصلاح، مكتفية بفرحتها بأبَّهة الجاه والسلطان؟ ولماذا لا يكسلون ويفتُرون عن التحصيل الجدِّيِّ وأسلوب التعليم في المدارس يغريهم بذلك ويشجِّعهم عليه؟

ولا أحبُّ أن أطيل، وحسبي أن أقولها كلمةً موجزةً صريحة: إن عيوب شبَّاننا كثيرة، حتىٰ إن المرء ليسأل الله السَّلامة لهذا البلد، ولكننا نحن الشيوخ مسئولون عمَّا انتابهم؛ فقد أفسدناهم؛ لأن أساليب التربية والتعليم فاسدة، ولأن الشابَّ يتلفَّتُ فلا تقع عينُه[1] إلا علىٰ فسادٍ في كل ناحية. وقل لي بالله: أين يجد الشابُّ القدوة الحسنة الصَّالحة؟

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: عينيه.

والمعوَّل مع ذلك، وعلىٰ الرغم من ذلك، علىٰ هؤلاء الشبَّان الذين أفسدناهم، وسيكون الأمر كلُّه إليهم يومًا ما، فعليهم أن يوطِّنوا أنفسهم علىٰ ذلك، وأن يتهيَّؤوا لهذا اليوم ويعدُّوا له عدَّته، ليكونوا أهلًا لما سَيُوكَلُ إليهم، وليست العدَّة أن يكسلوا ويستعجلوا، وإنما العدَّة أن يتقن كلٌّ واحدٍ أداته، وأن يدرك أنه مستقبلُ أمَّة، وأن الأمر ليس أمر لقمةٍ قد تبطئ علىٰ الفم، أو تكون غير سائغة، فستجيء اللقمة المشتهاة في أوانها، والصَّبر كما يقولون طيِّب، وأطيبُ منه وأكفلُ بالنجاح الجِدُّ والكَدُّ.

الجيل الجديد[1]

زارني منذ بضعة أيام عددٌ من شبَّان هذا الزمان، فنظرتُ إلىٰ ثيابهم الجميلة وتفصيلها المحبوك علىٰ قدودهم الممشوقة، وتحسَّرت علىٰ أيامنا. وكان بينهم واحدٌ يلبس بنطلونًا قصيرًا، فقلت له: أتلبس هذا عادة؟

قال: نعم. سْبُور[2].

قلت: في أي مدرسة أنت؟

قال: في الخديوية.

قلت: اسمع، أنا أيضًا كنت تلميذًا في المدرسة الخديوية، ولا أذكر أني رأيتُ فيها -في تلك الأيام- تلميذًا يلبس بنطلونًا قصيرًا، لا أدري لماذا؟ ربما كانت الروح «الاسْبُور» تنقصهم في تلك الأيام! ولكني أعرف أيضًا أني في صغري كنت لا أقبل أن ألبس هذا البنطلون القصير، كان أخي الأكبر يأخذني قبيل افتتاح المدارس إلىٰ محل «ماير»، وكان أشهر محلَّات الثياب في تلك الأيام، فيعرض عليَّ البائع أمثال هذا البنطلون، فأقول لأخي: هذه سراويل لا بنطلون! وآبىٰ كل الإباء أن أتخذها، وأصرُّ علىٰ البنطلون الطويل، فيضحك أخي ويقول للبائع: هاتِ له بنطلونًا طويلًا، إنه يريد أن يكون رجلًا ويحسُّ أنه رجل، فلا داعي للتنغيص عليه.

وأنا أفهم أن تلبس هذا القصير حين تلعب، ولكن الحياة ليست كلَّها لعبًا، فيها ساعاتٌ للعمل والجدِّ علىٰ ما أظنُّ.

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٠٩، ٥ يوليو ١٩٣٧).

(٢) رياضة spor.

فقال أحد زملائه: إنه لا يزال صغيرًا.

قلت: لا أدري. لقد كنت أنا أيضًا صغيرًا لمَّا كنت أرفض ارتداء هذا البنطلون. كنت في التاسعة من عمري يومئذ، وأحسب أن من كان في التاسعة جديرٌ بأن يسمَّىٰ صغيرًا. وليس للإحساس بالرجولة وقتٌ معيَّنٌ أو سنٌّ مخصوصة. فمتىٰ تريد يا صاحبي أن تشعر أنك رجل؟!

والتفتُّ إلىٰ إخوانه وقلت لهم: ليت واحدًا منكم يقول لي: كيف تقضون يومكم؟

فتردَّدوا، وصار واحدٌ منهم يبتسم، وثانٍ يفرك يديه، وثالثٌ يتمتم بكلام غير مسموع.

فقلت لهم: أنا أصف لكم كيف كنَّا نقضي اليوم في حداثتنا.

كان بيتنا في ذلك الوقت عتيقًا جدًّا، وله فناءٌ واسعٌ كبيرٌ فيه شجرة جُمَّيْز ضخمة، وكان في الفناء «حاصلٌ»[1] رحيبٌ فيه أيضًا بئر، فكنت أستيقظ في الساعة الخامسة صباحًا صيفًا وشتاءً، فأنحدر إلىٰ هذا «الحاصل»، وأدلي دلوي في البئر، فأملؤه وأصبُّه علىٰ بدني، بعد خلع ثيابي طبعًا. كان هذا يقوم عندي مقام «الدُّوش» في أيامنا هذه؛ فقد كان الماء يُحْمَل إلىٰ البيوت في القِرَب علىٰ ظهور السَّقَّائين، لا في الأنابيب كما هو الحال اليوم.

ثم أصعد إلىٰ المسكن، فأفطِر، وأتناول كتابًا وأقرأ حتىٰ يدنو موعد المدرسة، فألبس ثيابي بسرعة، في دقيقة واحدة بلا مبالغة، وما زلتُ الآن قادرًا علىٰ ارتداء الثياب في مثل هذا الوقت القصير، أي في دقيقة، وأحسب أني لو عملتُ في فرقة تمثيلية لأدهشتُ المتفرِّجين بسرعة اللُّبس.

---

(١) مخزن.

ما علينا. إنما ذكرتُ هذا لأني رأيتُ كثيرين يضيعون ساعاتٍ في ارتداء الثياب، يقفون أمام المَرايا ويتأمَّلون أنفسهم في صِقَالها من الخلف والأمام ومن اليمين والشمال، كأنهم سيعرضون في مسابقة للجمال، أو كأن أهمَّ عمل للإنسان في هذه الحياة هو أناقة الملبس وحسنُ البِزَّة وجمال الهندام، إذا مالت ربطة الرقبة نصف ملليمتر كان هذا عيبًا فظيعًا، وإذا كانت هناك ذرَّةٌ واحدة من التراب علىٰ نعل الحذاء خربت الدنيا وقامت القيامة في البيت علىٰ الخادمة المهمِلة! ما علينا كما قلت.

ثم أذهب أجري إلىٰ المدرسة، أجري بالمعنىٰ الحرفي؛ لأني كنت أقرأ، فلم أجعل بالي إلىٰ الوقت وموعد المدرسة. وما أكثر ما كنتُ أجري وفي يدي ربطة الرقبة، فلا يتيسَّر لي أن أضعها حول رقبتي إلا في الصفِّ أو في المكتب.

ولو تخلَّفتُ عن المدرسة لما كان في ذلك بأسٌ ولا منه ضير؛ فقد كنت أنا وليَّ أمر نفسي، ولكنَّا نحبُّ المدرسة، وكانت لنا رغبةٌ في التعلُّم، وينقضي اليوم المدرسيُّ فنكرُّ راجعين إلىٰ بيوتنا، ثم نخرج للرياضة والنزهة والترويح عن النفس ساعةً أو ساعتين.

وأذكر لكم شيئًا. كنَّا ثلاثة أو أربعة لا نكاد نفترق، ولم نكن في مدرسة واحدة، ولكنَّا كنَّا نلتقي بعد المدرسة في بيت أحدنا، ومعنا كتبنا أو بعضها، فنتبادل الدُّروس التي تلقَّيناها في يومنا، ثم نمضي إلىٰ قصر النيل أو غيره علىٰ أرجلنا، فإذا كان اليوم خميسٌ ركبنا زورقًا علىٰ النيل، وكان أبو أحدنا رجلًا فيه شذوذ[1]، فكان يتَّفق أن يجيء إلىٰ بيتي ويقف في الفناء الرَّحيب تحت الجُمَّيزة ويصفِّق، حتىٰ إذا شعر أن أحدًا أطلَّ من النوافذ العليا كفَّ عن التصفيق، وانطلق يصيح: «يا أهل عبد القادر[2]»،

(١) اختلال في حالته العقلية.

(٢) يريد صاحبنا إبراهيم المازني، وهو إبراهيم بن محمد بن عبد القادر، وكان بعض الناس يناديه باسم جدِّه، ومن الطريف أنه كانت ترده أحيانًا دعوات باسم «عبد القادر المازني»، فلا يلبيها ويقول: المدعو جدِّي لا أنا! والأطرف من ذلك أنهم أرادوا تكريمه بعد وفاته فسمَّوا شارعًا في القاهرة «شارع عبد القادر المازني»! انظر: «الأعلام» (٥/ ٢٥٦).

حُوشُوا ابنكم عن ابني، أفسدَ أخلاقه وعلَّمه السَّهر إلىٰ السَّاعة اثنين»، فيخيَّل لمن يسمعه يصيح أننا نسهر إلىٰ الساعة الثانية صباحًا، أي بعد منتصف الليل، ولكنه كان يعني الساعة الثانية بالحساب العربي، أي العشاء أو بعد ذلك بقليل.

فقال أحد الشبَّان: لم يكن في أيامكم سينما ولا غيرها من الملاهي التي تضيع الوقت.

فقلت: إن اللهو ميسورٌ في كلِّ وقت، وطالبه لا يعدمه في أيِّ مكان أو زمان، والمهمُّ هو إرادة اللهو لا اللهو في ذاته، وأنا أراكم تريدون الحياة كلَّها لهوًا لا جدَّ فيها ولا عمل.

وهذا هو الفرق بيننا وبينكم؛ فقد كنا ندرك أن للَّهو ساعاتٌ لا ينبغي أن نَعْدُوها، أما أنتم فلا يكاد الواحد منكم يدرك أن للعمل وقتًا أو أن العمل واجب. تريدون اللقمة ممضوغةً بل مهضومةً قبل أن تضعوها في أفواهكم، بل أنتم لا تريدون أن تكلِّفوا أنفسكم عناء بلعها وازدرادها!

من منكم يُعنىٰ بأن يفتح كتابًا غير كتب المدرسة؟ لقد كنَّا نذهب إلىٰ المكاتب، ونبحث فيها عمَّا نريد من الكتب، وأنتم تنشر لكم الصُّحف إعلاناتٍ مشوِّقة مرغِّبة مغرية عن الكتب فلا يخطر لأحدكم أن يشتري منها كتابًا، حتىٰ كتب المدرسة لا تقرؤونها، وشكواكم أبدًا من الامتحان وصعوبته، وسعيكم دائمًا إلىٰ التسهيل والتخفيف والرأفة، وما أحسبكم تطلبون إلا أن تُعْطوا الشهادات بلا امتحان، والوظائف بلا استحقاق!

وقد سمعتُ بعضهم يقول: إن الجرائد والمجلَّات تشغل الطلبة في هذه الأيام عن الدَّرس والتحصيل، وأعتقد أن هذا كلامٌ فارغ، فقد كانت في أيامنا جرائد ومجلَّات كنَّا نقرؤها جميعًا، «اللواء» و«المؤيد» و«الجريدة» و«المقطم»

و«الدستور» و«الهلال» و«المقتطف»، بل كنَّا نذهب إلىٰ دار الكتب لنقرأ فيها المجلَّات القديمة مثل «الضياء» و«البيان» لصاحبهما المرحوم اليازجي.

وكذَّابٌ من يقول: إنكم تقرؤون الصُّحف، فما تقرؤون فيها حين ترونها إلا أخبار الامتحان والإضراب والمظاهرات السَّاعية إلىٰ الوزارات تستجدي النجاح. وما تقرؤون إذ تقرؤون إلا المجلَّات الهَزليَّة؛ لأن حياتكم هزلٌ بحت.

فقال أحدهم: إن الحركة الوطنية هي المسؤولة عن انصراف الطلبة عن التحصيل.

فلم يقنعني قوله هذا، وبيَّنتُ له أن الحركة الوطنية كانت أيضًا في أيامنا، بل كانت في ذلك الوقت أحمىٰ، وكان مصطفىٰ كامل يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته اليومية، ولكن قراءة المقال أو سماع الخطبة لا يستغرق اليوم كلَّه، ولا يستنفد الجهد أجمعَه.

وقد كانت هناك في أيامنا جمعياتٌ أدبية شتَّىٰ، وكنَّا نُعنىٰ بأن نشهدها كلَّها. ولو أن جمعية أدبية قامت في زماننا هذا لما حضرها إلا مؤسِّسوها، وحتىٰ هؤلاء في مواظبتهم علىٰ الحضور شكٌّ كبير. وفي كلِّ أمة صحفٌ ومجلَّاتٌ وأمورٌ تشغل أبناءها، وما أظنُّ أن أحدًا سيدَّعي أن مشاغلنا أكبر من مشاغل الشعب البريطاني أو الألماني أو الفرنسي، ومع ذلك لا نرىٰ هذه البَلادة المخيفة والانصراف الموئس عن الجدِّ.

وقصصتُ عليهم قصَّة، فقلت: إني بعد أن تخرَّجتُ من مدرسة المعلِّمين العليا، وأصبحتُ مدرسًا، اتفق يومًا أن كنت جالسًا في مقهًىٰ بميدان قصر النيل -ميدان الإسماعيلية الآن- وكان معي كتاب «حديث المائدة» لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه حديث الشاعر علىٰ المائدة، فمرَّ بي إنجليزيٌّ كان معلمًا لي في مدرسة المعلِّمين، فخفَفْتُ إليه وحيَّيته، فقد كنت أحبُّه، فكان أول ما قاله لي: أظنُّ أنك لا تقرأ شيئًا في هذه الأيام.

فسألته عن سبب هذا الظنِّ القبيح بي، فقال: ألستَ مدرسًا وموظفًا، ولك مرتَّبٌ تتقاضاه في آخر كلِّ شهر؟ فما حاجتك إلىٰ القراءة؟! وكان يتهكَّم.

ولو أني شئتُ لما عبأتُ بسوء رأيه هذا، ولكنَّه شقَّ عليَّ أن يتوهَّم أني ما كنت أقرأ إلا طلبًا للشهادة ورغبةً في الوظيفة، فرجعتُ إلىٰ حيث كنت قاعدًا وعدتُ إليه بالكتاب الذي كنت أقرأ فيه، ودفعتُ به إليه وقلت له: اسألني إذا شئت، امتحنِّي! نعم، فإني مستعدٌّ.

فابتسم، وقال: إنما كنت أمزح؛ لأحثَّك علىٰ المواظبة علىٰ الاطلاع، وإني لأعرف أنك تحبُّ التحصيل للتحصيل.

ففرحتُ بهذا جدًّا، وعدتُ إلىٰ مجلسي مسرورًا مغتبطًا بحسن رأي أستاذي.

وقد لقيتُه بعد ذلك بسنواتٍ طويلات المُدَد في إنجلترا وكنت أهمُّ بالعودة وأتزوَّد من مكتبة هناك، فقال لي: أراك لا تزال تقرأ!

قلت: إن لنا مثلًا يقول: «إن الزَّامِر يموتُ وأصابعُه تلعَب»، صار الأمر عادةً يا سيدي، لا أستطيع أن أنام إلا إذا قرأتُ شيئًا، لا لأنام؛ فإن الكتب لا تُنِيمني، بل لأحلِّق في سماء الفكر، وأرتفع لحظةً عن هذه الأرض.

فاعتذر أحدهم بأن الدروس كثيرة، وأنها مضنية. وهذا صحيح؛ فإنها أكثر ممَّا ينبغي، ولكني قلت لهم: إن دروسنا كانت أقلَّ وأفرع[1]، وكان أمرها أهون، ولكن الذي كنَّا نقرؤه من تلقاء أنفسنا بلا حثٍّ أو حضٍّ كان أضعاف أضعاف ما تتبرمون منه. لقد كان أحدنا يقرأ في الليلة الواحدة كتابًا! من منكم يعرف أن لداروين كتابًا اسمه «أصل الأنواع»؟ أو من منكم يعرف اسم داروين؟ لقد قرأتُ هذا الكتاب الجافَّ في صدر أيامي، وقرأته بلا معين، وحطمتُ رأسي به، وما أكثر ما حطمتُ رأسي بأمثاله!

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب بالغين المعجمة.

الحقيقة أنكم قومٌ -ولا مؤاخذة- فارغون، وأنتم الذين سيكون في أيديكم زمام هذا البلد المسكين.

ولا أعرف لماذا زارني هؤلاء الشبَّان؟ ولكني أعرف أنهم انصرفوا راضين علىٰ الرغم من هذه العَلْقة!

في سبيل كتاب[1]

هل أقرأ ما أحبُّ أنا من الكتب، أو ما يحبُّ الناسُ أو يريدون أن أقرأ؟!

في هذا كنت أفكِّر، وبه كنت أعنِّي نفسي وأنا سائرٌ بعد المغيب في أزقَّة ضيِّقة في حيٍّ قديم، وكنت قد بعثتُ بكتاب «النثر الفني»[2] وبطائفة أخرىٰ من الكتب التي جاءتني إلىٰ ورَّاقٍ يجلِّدها حفظًا لها من التَّلف وضنًّا بها علىٰ البَوار، وأبطأ الرجلُ عليَّ، وطال انتظار صاحبي الدكتور زكي مبارك أن أتناول كتابه الضخم بما هو أهله من العناية، وأنا كلَّما لقيتُه أكرِّر له الوعدَ أني لا محالة فاعل، وأن الكتاب عند من يجلِّده لتسهُل قراءته، ولأستغني عن تمزيق ورقاته، وإفساد شكله، ثم لم يبق بدٌّ من استرداد الكتاب وقراءته والفراغ منه وأمري إلىٰ الله.

كانت الشمس قد مالت للمغيب، فتوكَّلتُ علىٰ الحيِّ الذي لا يموت كما فعل «كولمب»[3] علىٰ التحقيق، وخرجتُ أبحث عن دكَّان هذا الرجل كما خرج سَلَفِي العظيم يَنْشُد الدنيا الجديدة التي كانت تتراءىٰ له في أحلامه وخيالاته، وكلُّ ما بيننا من الفَرق أني كنت علىٰ يقين من أن الدنيا التي أبغيها عتيقةٌ جدًّا، وأنه هو ودَّع زوجَه وأولاده وجيرانه قبل أن يتحمَّل أو يُبْحِر سِيَّان، وأني كنت أحمق مغرورًا فلم أودِّع أحدًا، فلولا أن الله لطف بي في قضائه لفارقتكم يا أبنائي الصِّغار المساكين دون أن تفوزوا من أبيكم الطيَّاش بقُبلة وداع! فالحمد لله علىٰ كل حال.

---

(١) «جريدة البلاغ» (١٨ مارس ١٩٣٤)، ثم في «خيوط العنكبوت» (٢٩٧ - ٣٠٤) والعنوان منه، وعنوانه في الجريدة: «كتاب النثر الفني وما أصابني في سبيله». وللمازني بضع مقالات عن الكتاب. انظر: «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٢٩٥- ٣٢٢).

(٢) لزكي مبارك.

(٣) كريستوف كولمب، أو كريستوفر كولومبوس، الرحالة الإيطالي البحَّار الذي ينسب إليه اكتشاف «العالم الجديد» أمريكا، توفي سنة ١٥٠٦م.

ولا شكَّ أن القارئ قد أدرك أني لم أكن أعرفُ أين دكَّان هذا الورَّاق، وأني كنت لجهلي مكانَه أتخبَّط وأسير علىٰ غير هدًىٰ، علىٰ أن الحقيقة أني كنت أعلم أن الدكَّان في حيٍّ «...»[1] وهو كما لا يعرفُ سكَّان «جاردِن سِيتي» و«هليوبوليس»[2] من الأحياء القديمة التي تمتاز شوارعها بأنها تظلُّ تَضِيق علىٰ الأيام حتىٰ تتلاصق فيها البُنَىٰ المتقابلة، فيستغني الناسُ عن الأبواب، ويدخلون البيوت من النوافذ والشبابيك، وقلَّما يخرجون بعد أن يدخلوا.

ولكن أين في هذا الحي؟! هذا ما كنت أجهل، علىٰ أني قلت لنفسي: إن الاهتداء إلىٰ موقعه لن يكون متعذِّرًا، ولا ضير علىٰ كلِّ حالٍ من ارتياد هذا الحيِّ؛ فإن لي فيه معاهد، وفي ذهني له صور، وقد بهتت ألوانُها، فيحسُن أن أجدِّدها وأصقلها وأُحْيِيها.

وكنت أنا أدخل من زقاقٍ وأخرج من زقاقٍ أفكِّر كما قلتُ في أن أشتري الكتابَ لأقرأه، فيصرفني عنه أن صاحبًا لي يريد -أو يتوقَّع مني- أن أقرأ كتابه هو، وأن من حقِّ الصَّداقة أن أقدِّمه علىٰ ما عداه.

وكنت وأنا سائرٌ أوافق أصدقائي أحيانًا، وأسخط عليهم ولا أكتفي بمخالفتهم أحيانًا أخرىٰ، وكان رأيي في ذلك يختلف تبعًا لحالة السَّير؛ فإذا استقام ولم تعترضني الأوحال والزَّحاليق قلت: إن أصدقائي علىٰ حقٍّ وإن كتبهم أولىٰ بالتقديم وأحقُّ بالتعظيم، وإذا زلَّت قدمي أو غاصت في الطين، أو تفضَّل عليَّ بعض السُّكَّان فأمطروني بما بقي في «السُّلطانية»[3] من مَرَق الفول النَّابت ممزوجًا بالمخلَّل دعوتُ الله أن يُغْرِق هؤلاء الأصدقاء في بحرٍ طامٍ لا قرار له من مَرَق الفول النابت والمخلَّل تسبَح فيه قرونٌ من «الشَّطَّة» في حجم الحيتان العظيمة تنحشِر بين جفونهم وفي حلوقهم وتنعصِر فيها.

---

(١) كذا وضع المازني نقاطًا موضع اسم الحي، وهو من أحياء القاهرة القديمة كما قال.

(٢) من الأحياء الجديدة في القاهرة يومئذ.

(٣) وعاء يوضع فيه الطعام.

وسئمتُ زحاليقَ الطِّين ومطرَ المَرَق الكاوِي، وثَقُل عليَّ السَّيرُ في هذه السَّراديب، ومزَّق ثيابي التمسُّحُ بالجدران، وإن كان ذلك ألطف وأخفَّ محملًا ممَّا يسقط علىٰ رأسي من النوافذ ويأبىٰ إلا أن يدخل في عيني ويتسرَّب إلىٰ حلقي -لا أدري كيف؟- ويقطر علىٰ صدري تحت ثيابي، فقلتُ أسأل بعض السابلة، ولكن الطريق -أعني السِّرداب- كان خاليًا، فلو أنه كان عريضًا واسعًا لكان أصلحَ ما يكون للسَّيَّارات التي يركبها شياطينُ الشُّبَّان ويَمْرُقون بها كالسِّهام أو القذائف.

وكان هذا -أي خلوُّ الطريق- عجيبًا؛ فإن هذه الأحياء مكتظَّةٌ بالناس، وهم يعيشون فيها كالسَّرادِين في العُلَب، وابتسمتُ وأنا أقول لنفسي: إني القائد الذي غزا قومًا ودخل مدينتهم ففرُّوا من وجهه، ولاذوا بالبيوت يختبئون فيها ويحتمون بجدرانها، وكما يحدث في هذه الحالة أن يقذفَ بعض المختبئين جيشَ القائد الظافر بما يكون معهم من أدوات الهلاك؛ لأن نفوسَهم لم تَخْلُد إلىٰ الهزيمة، ونارَ غيرتهم علىٰ وطنهم لم تخمد وقدتُها، كذلك أنا في هذا الحيِّ بطلٌ غازٍ يهرب من ملاقاته صناديدُ الحيِّ، و ترشُّه نساؤهم بمَرَق الفول والمخلَّل، فالحمد لله علىٰ الجهل -أعني جهل أعدائي-، فلو أنهم كانوا يعرفون شيئًا يسمِّيه الذين يعلمون «حامض الكبريتيك» ... أووف...!!

واستعذتُ بالله من هذا الخاطر، وحثثتُ خُطَاي، ومال الزُّقاقُ بغتةً في هذا الظلام فمِلتُ معه ولكن بعد أن صدَّني جدارٌ وألقاني في أحضان جدارٍ آخر، ورمىٰ بي هذا علىٰ صدر رجلٍ أو علىٰ الأصحِّ علىٰ شعر صدره، ودخلت شعراتٌ أو أشواكٌ من هذه الغابة في عيني وأنفي وفمي، وانغرزت في جبيني وخدِّي، وكتمت أنفاسي، فأسرعتُ فارتددتُ اتقاء الاختناق، ولكني علىٰ فرط سرعتي لم أَتَّقِ الشتمَ واللعن والسِّباب المبتكر، فوقفتُ ألهث وأنا ذاهلٌ، فما سمعتُ شيئًا أبرع من هذا في بابه، وكان الرجل يَهْضِبُ به[1] ولا يكاد يبلعُ ريقَه، فأذكَرني الزَّامِرَ الذي ينفخُ في

(١) هَضَبَ في الحديث: إذا اندفع فأكثر.

مزماره، وقد انتفخ شِدْقاه وصارا كالبطِّيختين علىٰ جانبي وجهه، وهو لا يكفُّ عن النفخ، ولا ينقطع صوتُ المزمار، ولا يبدو عليه أنه يتنفَّس، فلولا خوفي أن يستقلَّ لي السِّباب -علىٰ حسن ابتكاره فيه ووضوح أستاذيَّته في ابتداع معانيه- وأن يلجأ إلىٰ ما هو أعنفُ لطَرِبْت.

ولم يخطئ ظنِّي، فقد دنا مني الرجل، وأمامه هذه الطلائع -أعني ما علىٰ صدره من الشَّوك الحديد-، وقال وهو يحرِّك ويقلِّب تحت عيني كفًّا كالرغيف: فاكر نفسك إيه؟ هيه؟ كرة؟ سكران حضرتك؟ انطق!

فلم تعجبني نظراته، بل لم يعجبني شيءٌ فيه، ولستُ أذكر أني رأيتُ إنسانًا غيرَه كلُّ ما فيه بغيضٌ من فرعِه إلىٰ قدمه، وكان حافيًا وعلىٰ رأسه لبدةٌ سمراء، وعلىٰ بدنه جلبابٌ أزرق أو لعله أسود، وعلىٰ خصره -إذا جاز أن يسمَّىٰ هذا خصرًا- حزامٌ خيِّل إليَّ أنه حبلٌ غليظ، فظننتُه حمَّالًا، وخطر لي أن أتألَّفه وأسترضيه وأغريه، فقلت: إني أبحث عن حمَّال.

فقال: حمَّال؟! حمَّال يعني إيه؟!

فاستدركت: يعني شيَّال.

قال: شيَّال يا ابن بنت اللي ما شالت علىٰ...، ولم يتمَّها، أو لم أسمع أنا الباقي؛ فقد مرقتُ من تحت إبطه وذهبتُ أعدو وأدور مع الزُّقاق كما يدور، وأنا الآن كهلٌ بطيء الحركة لكنِّي كنت في ذلك الوقت أفرُّ ممَّا هو أشنع من الموت، أي من أن يَعْجِنني الرجلُ بأوحال الزُّقاق فيرجع المازني قبل الأوان طينةً كالتي خُلِق منها مع الأسف.

ولمحتُ طفلًا يلعب، فاتَّأدتُ حتىٰ بلغتُه، ووقفتُ أستريح وأسأله: هل لك يا بنيّ أن تدلَّني علىٰ دكان مجلِّدٍ اسمه...؟

فترك الصبيُّ لعبتَه وقال لي بأدب واحترام: في آخر الحارة الثانية علىٰ الشمال. وابتسم، فشكرتُه، ثم كرَّرتُ له الشكر، وقد حَسُن في نفسي وقعُ هذا الأدب بعد خشونة ذلك الفحل الغليظ، وهممتُ بأني أضع في يده قرشًا، ولكني لم أجد قروشًا، فاستكثرتُ ما فوق ذلك، وعُذْتُ بالحزم، واستأنفتُ السَّير.

ولم أكد أقطع ثلاثة أمتار حتىٰ صكَّ ظهري حجر، فكدتُ أقع منكبًّا علىٰ الأرض، وصرختُ من الألم، فقد أصاب الحجرُ عظمة الكتف اليمنىٰ، ودُرْتُ فإذا بالصبيِّ الذي غرَّني أدبُه وكاد يغريني بالجود يعدو داخلًا في الزقاق، وأذهلني وأطار صوابي هذا السُّلوك، قبل ثوانٍ قليلة كان هذا الغلام مثالَ الرِّقَّة والظَّرف والأدب، وهو الآن شرٌّ مجسَّد يفسد الحسنة التي أسلفها بالسيئة التي أعقبتها، فانطلقتُ أعدو وراءه وما في رأسي عقل، ولا في نفسي إلا أني أريد أن أذبحه وأشربَ من دمه، ولو أني فكَّرتُ قليلًا لجريتُ في طريق آخر، ولكن هكذا قُدِّر فكان.

وأدركتُ الغلام، فقد كان حَنَقي يسعفني بالمَدَد كلَّما فترت قُوَاي، ولكمتُه لكمتين، ثم حملته وضربتُ به الأرض، وأحسستُ أني شفيتُ غليلي، فرفعتُ عنه يدي وانكفأت راجعًا، ورحتُ أمشي علىٰ مهل وقد رضيتُ عن نفسي وعن الدنيا، ولكني لم أبلغ حيث كان الغلام يلعبُ حينما سألته حتىٰ رأيتُ شابًّا يتلقَّاني بهذا السُّؤال: عمل إيه الولد حتىٰ تضربه؟

ولم يكن الشابُّ ممَّن يحقُّ لي أن أخاف [منه]، غير أني مع هذا لم أرتح إلىٰ سؤاله، وعددتُه فيما بيني وبين نفسي فضولًا غير لائق، فعدَّلتُ الطربوش ومسحتُ العرق عن وجهي بمنديل ومضيتُ ولم أجبه. وقد سرَّني أني أظهرتُ هذه الشجاعة، وأني رُعْتُه بالثبات، وقابلتُ فضوله بالاحتقار، غير أن سروري لم يطل به العمر فقد شعرتُ أن إنسانًا يمشي إلىٰ جانبي، فنظرتُ إليه بمؤخر عيني فإذا به الشابُّ الذي أهملته، فتنبَّهتُ إلىٰ وجوده، وأدركتُ أنه يتكلَّم، وسمعتُ ألفاظًا فهمتُ منها أن

نيَّته معقودةٌ علىٰ الشرِّ لسبب ما، فقلتُ أحدِّث نفسي: وماذا يخيفني منه؟ إنه شابٌّ صغيرٌ علىٰ كلِّ حال، وقد يكون أقوىٰ مني ولكني أستطيع أن ألجأ إلىٰ حِيَلي القديمة أيام طفولتي فألقي في عينيه ترابًا مثلًا، فيعمىٰ، ثم أضرب أنفه بجُمْع يدي ضربةً قويةً تُجْهِز عليه، ثم أتركه و أمشي متَّئدًا، وعلىٰ كلِّ حالٍ يجب أن أحتفظ بوقاري وأُكْرُومَتِي[1] واتِّزان أعصابي؛ فإن للمظهر أثرًا بليغًا في نفس الخصم الذي تحدِّثه نفسه بالعدوان.

ورميتُ إليه نظرة أخرىٰ، فرأيت عضلات وجهه متصلِّبة، وعينه تقدح نارًا، فنسيتُ ما أوصيتُ به نفسي وذهبتُ أعدو كالغزال!

ووقع طربوشي علىٰ الأرض، فلم أحفِله، وهل هذا وقتُ العناية بالطرابيش؟! ثم إن تَقَلْقُلَ الطربوش علىٰ رأسي واضطرابَ حركته إلىٰ الأمام والخلف وإلىٰ اليمين والشمال كان يعطِّلني ويمنع سرعتي أن تبلغ الغاية، وكان الشابُّ قد فاجأه انطلاقي فوقف لحظةً وهو مبهوت، فيظهر أن ذكاءه لم يكن كنظرته حدَّةً، ثم رأىٰ الطربوش يسقط فجرىٰ إلىٰ حيث وقع من الأرض وأقبل عليه يركله برجله اليمنىٰ ثم باليسرىٰ، ثم داسه في الوحل بكلتيهما، ولمَّا فرغ من ذلك عاد إلىٰ مطاردتي.

وكنت قد تعبتُ ونَهَجْتُ[2] وخذلتني رجلاي، وانقطعت أمدادُ الخوف والحنَق جميعًا، فرأيتُ بابًا مفتوحًا فولجته بغير استئذانٍ إلىٰ فناءٍ وسيع تحيط به غرفٌ كثيرةٌ لبعضها نوافذ قريبةٌ من الأرض، وكانت إحداها مفتوحة، فقفزتُ إليها وسقطتُ علىٰ أرض الغرفة وبَرَكت، فلما استرحتُ وانتظمت أنفاسي عاودني الأمل، واشتقتُ أن أعرف ماذا صنع الشابُّ بعد أن اختفيتُ في هذا البيت، فرفعتُ رأسي حتىٰ صارت عيناي علىٰ حافة النافذة، فأبصرتُ الشابَّ اللعين في وسط الفناء، وشرٌّ من ذلك أنه

---

(١) فعلتي الكريمة.
(٢) تتابع نفَسه من الإعياء.

أبصرني أيضًا، فهممتُ بأن أرتدَّ، ولكن الخوف ألهمني أن أغلق مصراعَي النافذة، وثابت إليَّ نفسي بعد ذلك، فأقبلتُ علىٰ الغرفة أجيل فيها عيني وأنظر أين بابها؟ وإلىٰ أين يفضي؟ وكيف يكون المخرج من هذا المأزق الجديد؟

وكان الظلام شديدًا في الغرفة، فأشعلتُ عودًا من الكبريت، واهتديتُ به في طوافي إلىٰ مصباح غازٍ فأوقدته، ورأيتُ أن للنافذة ستارًا كثيفًا فأسدلتُه، ووجدتُ سريرًا فقعدتُ عليه أفكِّر وأدخن سيجارة لعل الله يفتح عليَّ بحيلة أنجو بها.

ولم يفتح عليَّ بحيلة، ولكنه فتح عليَّ الباب ودخل منه شيخٌ وقورٌ أبيض اللحية وعلىٰ رأسه عمامةٌ كبيرة، فتنفَّستُ الصُّعداء، وحمدتُ الله علىٰ أن الداخل شيخٌ هَرِمٌ وليس بشابٍّ مفتول الذراعين، وقلت: إن متاعب التحقيق والحبس أهونُ من عَلْقة[1]، ورأىٰ النور ورآني، فوقف ويده علىٰ الباب وقال:

من أنت؟ ماذا تصنع هنا؟ انطِق!

فتذكَّرتُ الحمَّال أو من ظننته حمَّالًا، وقلتُ وأنا أتكلَّف الابتسام:

أوكلَّما خاطب إنسانٌ إنسانًا في هذا الحيِّ يقول له: انطِق؟

قال وهو لا يبرح مكانه:

نعم انطق بسرعة، ماذا تصنع في بيتي؟

لا تخف؛ إني هارب، هذا كلُّ شيء.

فلم يفهم، وقال: وأنا ما لي؟ ماذا تصنع في بيتي؟

فسرَّني إصراره علىٰ أن يسمِّي الغرفة بيتًا، وسألته: هل هناك غرفٌ غير هذه؟

قال: ألا تريد أن تقول من أنت؟ وماذا تصنع هنا؟ حسنٌ، سأغلق الباب وأدعو البوليس.

---

(١) الضرب.

قلت: يا صاحبي، لو كان في هذا الحيِّ رجلٌ واحدٌ من رجال البوليس لما رأيتني في غرفتك.

قال: طبعًا.

قلت: لا تغلط؛ فلستُ أعني ما فهمت.

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أني قطعتُ الكرة الأرضية في حيِّكم هذا عَدْوًا، فلم تأخذ عيني واحدًا من رجال البوليس ولا خفيرًا.

قال: ولهذا دخلتَ مطمئنًّا؟ هيه؟

قلت: علىٰ العكس، دخلتُ وأنا فزعٌ جدًّا.

قال: طبعًا، طبعًا، ولماذا دخلت؟

قلت: إني منذ ساعة أريد أن أفهمك أني هاربٌ من وجه شقيٍّ لعينٍ يتعقَّبني طالبًا دمي، ولم أسترح أو أشعر بشيءٍ من الاطمئنان إلا عندك.

قال: وكيف دخلت؟ إن الباب موصد.

قلت: هذه حكايةٌ طويلة، شققتُ الحائط ودخلت...، وفي هذه اللحظة سمعنا مثل صوت القنبلة، وكان السِّتار مُسْدَلًا فلم ير الشيخ شيئًا، ولم يفهَم، أما أنا فأدركتُ أن صاحبي طال انتظاره أن أخرج، وملَّ، وأراد أن يَفْثَأَ غيظَه[1] فتناول حجرًا وقذف به النافذة فتكسَّر زجاجها.

فقلت: أسمعت؟

قال: ما هذا؟

---

(١) يكسر حدَّة غضبه.

قلت: تحطَّمت نافذتك. دخلتُ منها وأغلقتها ورائي، ووقف متربِّصًا لي راصدًا في الفناء، فلما لم أخرج رمىٰ الزجاجَ بحجر.

وأراد الشيخ أن يدنو من النافذة ليرىٰ ما أصابها، ولكن بقيةً من الحذر ردَّته، فسأل: هل يعني أنت لست لصًّا؟

فضحكتُ وقلت: كيف أكون لصًّا وأنا كما ترىٰ؟

وكأنما أقنعه هذا، إن كان لم يقنعني أنا، فسار إلىٰ النافذة ونحَّىٰ السِّتار ووقف يهزُّ رأسه.

فقلت: سأؤدِّي لك ثمن هذا الزجاج؛ فإن الذنب لي، التَّبعة عليَّ، والآن ماذا تقترح؟

فالتفت ولم يتكلَّم، فقلت: ألا تفهم؟ إني أريد أن أنجو من هذا الشرير الذي تعقَّبني، فكيف تشير؟

فخفتُ أن يعاوده الشكُّ في أمري، فعرَّفته بنفسي وقصصتُ عليه قصَّتي، وشربتُ عنده قهوةً، وخرج معي، وأبىٰ أن يأخذ للزجاج ثمنًا.

وكان أول ما فعلتُ بعد نجاتي أن اشتريتُ طربوشًا، أما «النثر الفني» وغيره من هذه الكتب المؤذية فبقيَت عند الورَّاق، وستبقىٰ عنده إذا لم يجئني هو بها ولم يحملها هو إليَّ، فإني أحوَجُ إلىٰ سلامة عظامي من أن أعرِّضها للدَّقِّ والتهشُّم في سبيل «النثر الفني» أو غير الفني!

الكِتَابَةُ وَشُجُونُهَا

بين القراءة والكتابة[1]

مضت شهورٌ لم أكتب فيها كلمةً في الأدب؛ لأني كنت أقرأ! والقراءة والكتابة عندي نقيضان، وقد كنت -وما زلت- امرءًا يتعذَّر عليه ولا يتأتىٰ له أن يجمع بينهما في فترة واحدة، ولَكَم أطلتُ الفكرة في ذلك فلم يفتح الله عليَّ بتعليل يستريح إليه العقلُ ويأنس له القلب، وما أظنُّ بي إلا أن الله جلَّت قدرته قد خلقني علىٰ طراز «عربات الرَّشِّ» التي تتخذها مصلحة التنظيم، خزَّان ضخم يمتلئ ليفرغ، ويفرغ ليمتلئ!

وكذلك أنا فيما أرىٰ: أحسُّ الفراغ في رأسي، وما أكثر ما أحسُّ ذلك! فأسرع إلىٰ الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغي هذا الذي خلقه الله لي خِلقة «عربات الرَّشِّ» كما قلت! حتىٰ إذا شعرتُ بالكِظَّة، وضايقني الامتلاء، رفعتُ يدي عن ألوان هذا الغذاء وقمتُ عنه متثاقلًا متثائبًا مشفقًا من التُّخمة، فلا ينجيني إلا أن أفتح الثقوب وأسُحّ! وهكذا دواليك!

ولكم قلت لنفسي: أهذا الذي ركَّبه الله لك يا مازني بين كتفيك رأسٌ كرؤوس الناس أم معدةٌ أخرىٰ؟! وأداة نظرٍ وإدراكٍ وتفكيرٍ هو أم مخزنٌ يكتظُّ حينًا ويخلو أحيانًا تبعًا لانتقال الأحوال بك؟! والحقَّ أقول: إن الجواب يعييني! وإذا لم أكن قد ركبتُ من الوهم شر الحمير! فإن الناس في الأكثر والأعمِّ إنما يعالجون الكتابة لأن في رءوسهم فكرةً أو خالجةً كائنةً ما كانت، يبغون العبارة عنها والإفضاء بها، ولست أراني كذلك.

---

(١) «جريدة اللواء المصري» (١٠ مايو ١٩٢٥)، ثم في «قبض الريح» (١١ - ٢١).

ولقد يخيل إليَّ في بعض الأحايين أن في نفسي معنًىٰ معينًا، ويؤكِّد ذلك عندي ويقرِّر اعتقادي به ما أحسُّه من جيَشان الصَّدر واضطرابه، فأذهب ألتمسُ هذا المعنىٰ أو الخاطر فإذا به قد تبخَّر! وإذا بي كابني حين يجلسُ إلىٰ جانبي ويحاول أن يقبض علىٰ الدُّخان الذي يتصاعد من سجارتي وأنا أضحك من هذا الذي يحاوله وألهو به، وأقول: إنه يجرِّب في عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات!

وكثيرًا ما يدفعني إلىٰ الكتابة إحساسٌ غامضٌ إلا أنه من القوَّة بحيث لا يسعني مغالبتُه، فأتناول القلم وأنا كالمسحور، وكأن القلم هو الذي يثب إلىٰ يدي كما ينجذب الحديدُ إلىٰ المغناطيس، وأسرع في الكتابة وأمضي فيها إلىٰ غايتها المقدورة، شأني في ذلك شأن الذي يسير وهو نائم! ينهض من فراشه ويخطو، ويذهب هنا وهاهنا، ويتكلَّم أو يباشر بعض الأعمال، ولكن وعيه ليس تامًّا، وإرادته لا دخل لها في شيء ممَّا يصدر عنه.

وأحيانًا أفعل هذا، أسأل نفسي: أفي رأسك شيء؟ وأعني بالشيء ما له قيمة، لا أيَّ شيء علىٰ الإطلاق، فتساورني الشكوك، فأنقر بأصبعي علىٰ جوانب رأسي كمن يريد أن يتبيَّن من الرَّنين مبلغ الخُلوِّ! وربما أسفتُ لأني لا أستطيع أن أتناول رأسي هذا وأن أقلِّبه بين كفَّيَّ وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ! ثم أقول: لا بأس، القلم حاضر، والورق تحت عيني، فلأْقم حدَّ هذا علىٰ صفحة ذاك، ولأفتح ثقب هذه «الحنفيَّة» ثم فلأْنظر ماذا يقطر منها أو يسيل. أوَلا يدير أحدنا صِمَام «الحنفيَّة» أحيانًا ليرىٰ أفيها أم ليس فيها ماء؟ نعم، وكذلك أمتحن نفسي من حِين إلىٰ حين كلما شككتُ وكبر في ظنِّي أن رأسي قد أصبح فارغًا! ولا أفعل هذا حين أفعله إلا علىٰ سبيل الاختبار، وطلبًا للاطمئنان، لا رغبةً في الكتابة ولا عن قصدٍ إليها، حتىٰ إذا وجدتُ القلم يجري، وألفيتُ مَراعِفه تقطر، قلت: الحمد لله، وأقصَرت!

وقد أبدأ المقال معتمدًا شيئًا بعينه، فيجري القلم بخلافه، وشبيهٌ بهذا أن تريد السَّفر إلىٰ الإسكندرية فتحملك رجلاك إلىٰ قطار يذهب بك إلىٰ السُّويس! وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضًا، وقد يفتنك وأنت تكتب معنًىٰ يعنُّ لك فيلهيك عما كنتَ فيه، ويدفعك من طريقه إلىٰ غير ما قصدتَ إليه، وقد تأخذ في كلام تحسبه هينًا، فتتكاءدك الوعور، وتتعاظمك العقبات، فتميل عنه إلىٰ ما هو ألين.

ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان! وكثيرًا ما أستخير الله في الكتابة علىٰ نيَّة معقودة، ثم أعدل في بعض الطريق عنها وأتحوَّل إلىٰ سواها، ويجيء الكلام متناولًا طرفًا من هذا وأطرافًا من ذاك، ويعجزني أن أختزل مضمونه في عنوان، فأدع المقال بلا رأس، وأقدِّمه هكذا إلىٰ الأستاذ أمين بك الرافعي، فيضع هو جزاه الله عني خيرًا ما يوافقه من العناوين![1].

وأمري مع الكتب أغرب، كنت في أول عهدي بها -أي منذ عشرين سنة أو نحو ذلك- أذهب في أول كل شهر إلىٰ واحدٍ من باعتها، فيتقدَّم إليَّ العامل سائلًا عن حاجتي، فأبيِّنها له، فيرفع رأسه إلىٰ الرُّفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه، ثم يلتفت إليَّ وعلىٰ شفتيه -دون عينيه- ابتسامة جهل وغباء، ويهزُّ لي رأسه آسفًا، فأنحِّيه عن الطريق وأمضي إلىٰ الرُّفوف وأجِيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني، وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حِمل حمار، وأغرق فيها بقية الشهر إلىٰ ما فوق الأذنين إن كان فوقها شيءٌ يستحقُّ الذكر!

وكنت لا أتخطىٰ عتبة البيت إلا متأبطًا كتابًا، ولا تمضي عليَّ ليلةٌ إلا طالعتُ في بعضها قليلا أو كثيرًا.

وكانت الكتب أنيسي في وحدتي، وسميري في خلوتي.

---

(١) وإن لم ييسر الله له رئيس تحرير كأمين الرافعي بقي المقال بلا عنوان، كما في مقاله المتقدم المنشور في «مجلة المشرق» بعنوان «بدون عنوان»!

وكنت أستغني بها عن مُتَع الحياة ولذّات العيش، وأقول: إنها تدخل في متناول الحسِّ والعواطف والمدرَكات وكلِّ ما له وجودٌ في العقل، وإنها توقظ الحواسَّ الخامدة والمشاعر الراكدة، وتملأ القلب، وتشعِر النفسَ كلَّ ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله، وكلَّ ما له قدرةٌ علىٰ تحريكها وابتعاثها، وتدرِّب المرء علىٰ الاستمتاع بتدبُّر عظمة الجلال والأبد والحق، وإنها تمثِّل ذلك للإحساس، وتُحْضِره للذِّهن، وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم، وإنها تعين القلبَ علىٰ تعرُّف الهَول والفزَع، والسُّرور واللذَّة، وتخفِق بالوهم علىٰ جناح الخيال، وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره، وإنها تسدُّ النقصَ في تجارب المرء، وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشدَّ تحريكًا لها، وتجعله أشدَّ استعدادًا لقبول المؤثِّرات علىٰ اختلاف أنواعها ودرجاتها؛ لأنه ليس بالإنسان حاجةٌ إلىٰ التجريب الشخصي لتتحرَّك فيه هذه العواطف، بل حسبه «ظاهر» التجريب الذي تهيِّئه له الكتب، وإنما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثِّل للمرء؛ لأن كلَّ حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأي قبل أن يتعرَّفها الذهن أو تؤثِّر فيها الإرادة، ومن أجل ذلك كان سواءً علىٰ المرء أن تؤثِّر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر، كالصُّور والرموز التي تمثِّل هذه الحقيقة؛ فإن في طاقة الإنسان أن يصوِّر لنفسه ما ليس له وجودٌ حتىٰ يعود وكأن له جسمًا يُحَسُّ ويُلْمَس، فسيَّان عند الإنسان أن يؤثِّر فيه الشيء أو مثاله؛ لأنه يحرِّك فيه عوامل الفرح والحزن مثلًا علىٰ كل حال، وسواءٌ أكان الشيء حاضرًا أم ماثلًا في الخيال بصورته، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يحسَّ حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحبِّ والإجلال والعجب والشُّهرة؛ فكأن هٰذه الرموز هي اللسان المترجِم -كما يقول هوريس- عن الحقائق.

كنت أقول مثل ذلك وأصدِّقه، وكان مثَلي كمثَل أشعَب الذي حكوا أن صِبيةً هتفوا به وأثقلوا عليه، فأراد أن يصرفهم عنه، فقال لهم: إن في مكان كذا وليمةً فاذهبوا

إليها وأصيبوا منها، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح، فذهب يعدو في أثرهم! وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسُّخر من نفسه كذلك انقلبتُ عن الكتب، فلا أنا أفدتُ شيئًا سوىٰ قمع الشباب، وإضاعة فرصته، وإراقة مائه في تلك الصَّحراء العارية، ولا أنا فهمتُ الحياة كما ينبغي أن تُفْهَم، أو سددتُ نقصًا في تجاريبي، أو استطعتُ أن أستغني «بظاهر» هذا التجريب عن التجريب الشخصي.

وشرٌّ من ذلك أني اطَّلعتُ من هذه الكتب علىٰ صورة أو صورٍ للحياة ليس أكذبَ منها ولا أبعَد! ولا نكرانَ أنها أيقظت نفسي، وفتحت عيني، ونبَّهت حواسِّي، وابتعثت مشاعري، وجعلتني أشدَّ تأثرًا بالحياة، وتحرُّكًا لها، واستعدادًا لتلقِّي مؤثراتها، ولكن أليس معنىٰ ذلك أنها جعلتني أتعسَ وأشقىٰ ممَّا كنت أكون لو ظللتُ أرتَع في بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة، ولم أفز بهذه النعمة التي لم أعد بها غنيًّا؟! ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالقٍ للرِّياح والمَدَر؟! كما أقول من قصيدة صنعتُها بعد أن فطنتُ إلىٰ ما أضعتُ من عمري:

كــم غُصْتُ في لجَّــة الحياة فما ... فــزتُ بغير الصُّخــور والحجرِ
وكم نفضتُ اليديــن من حجرٍ ... حسبتُه درَّةً مــن الــدُّررِ
فخــلِّ كأسَ العفَــاء تســلبني ... كنزي وتَسْحُو سلاســل الخبَرِ
ما ضرَّني لو جهلــتُ ما علمَت ... نفســي وما قــد أفــادني نظري
أو لو نســيتُ الذي شــعرتُ به ... في كبري الآن أو لَــدُنْ صِغَري
أو لو ســلوتُ الــذي كَلِفتُ به ... علىٰ الــذي كان فيه من سُــكُرِ
أو لــو فقدتُ الــذي فرحتُ به ... ومــا وجدنــا في حــدَّة الظفــرِ
أثــمَّ صــوتٌ تعيــد نبرتُــه ... إلــيَّ ذِكــرَ الربيــع والزَّهَــرِ؟
أثــمَّ عيــنٌ تثيــرُ نظرتُهــا ... أحلامَ نفســي في ريِّــق البُكَرِ؟
وتنشــر اللــذَّة المضيئــة لــي ... حلمًــا من العيش جــدُّ مبتكَرِ؟

نعم لعمـري في الأرض زينتُها ... مـن مَسْمَعٍ فاتـنٍ ومـن نظرِ
وروضـة العيـش جـدُّ حاليةٌ ... مـن زهَـرٍ مونـقٍ ومـن ثمـرِ
كأنهـا لافـترار بهجتهـا ... تُجِيـرُ نطقًـا لمُدْمِـن البصـرِ
واهًـا لقُمريِّهـا إذا اتَّسـقت ... أسـجاعُه واسـتراح للسَّـحرِ
واهًا لسـحرٍ في لحظ نرجِسـها ... يسـطو بوقـع السُّـجوِّ والفتَرِ
واهًـا لأيكاتهـا إذا همَـس الـ ... ـنسيم في أذنهـا مـع القمـرِ
لكـنَّ أغصانهـنَّ يـا أسـفا ... بعيـدةٌ مـن منـال مُهْتَصِـرِ
أصبتُ في العزم لا الشـعور فإنْ ... أدرتُ لحظي في الشـيء لم يَدُرِ
وإن مـددتُ اليديـن خانَهمـا ... عزمُ الشـباب الجريء ذي الأشَرِ
يَذْعَـرني الشـيء كان يجذبني ... لَشَـدَّ مـا أسـتجير بالحـذرِ
أحمـل عبئًا مـن السِّـنين فما ... عسـىٰ وراء الغايات منكدَري؟
ولـي مـن الذكريات حاشـيةٌ ... في حيث أمضي محشودة الزُّمَرِ
فهاتهـا أذعَـر الشـجونَ بهـا ... حتـىٰ أراهـا تطيـر كالشَّـررِ
لِـمْ لا أبـتُّ الـذي يقيِّـدني ... بما مضىٰ وانقضىٰ من العُصُر؟
إني أراني قد حُلْتُ وانتسـخَت ... مـع الصِّبا سـورةٌ من السُّـوَرِ
وصرتُ غيري فليـس يعرفني ... -إذا رآني- صبـاي ذو الطُّـررِ
ولوبـدا لـي لبـتُّ أنكِـره ... كأننـي لـم أكنـه في عمُـري
كأننـا اثنـان ليـس يجمعنـا ... في العيـش إلا تشـبُّث الذِّكَـرِ
مـات الفتـىٰ المازنـيُّ ثم أتىٰ ... مـن مـازنٍ غيـرُه علـىٰ الأثرِ

وما أحسبني بالغت؛ فقد مات «الفتىٰ» المازني حقًّا ولم يبق منه شيء، وإني لأمرُّ الآن بالمكاتب فأشيحُ بوجهي عنها وأغمِض عيني دونها، ويَرِدُني الكتابُ بكَرهي

فأتركه حيث يقع، وأهمِله الأسابيع والشُّهور، وإذا فتحتُه اكتفيتُ بأن أعْبُرَه[1] تزجيةً للوقت، ولم أبالِ من أيِّ موضع بدأت، وسيَّان عندي أن أقرأه من أوله إلىٰ آخره، أو من آخره إلىٰ أوله، أو أن لا أقرأه.

وقد تعاودني الحمَّىٰ القديمة ويتأوَّبني الحنينُ الماضي إلىٰ الكتب، فأدافع نفسي عنها ما استطعت، فإن عجزتُ وغُلِبت علىٰ أمري طاوعتُها علىٰ حذرٍ وسايرتُها متحفِّزًا، وذهبتُ أتخيَّر لها الكتبَ وأنتقيها.

ومهما يكن من الأمر فلستُ الآن ذلك الذي كان كأنما يعبدُ منها دمًىٰ وأصنامًا، وقد اغتنمتُ أول فرصةٍ سنحت فبعتُها جملةً وتحرَّيت بعد ذلك أن أزداد جهلًا!

ولكنَّ الزَّامر يموتُ وأصابعه تلعَب! كما يقول المثلُ العامِّيُّ، وللعادة حكمٌ لا يقوىٰ المرء في كلِّ حين علىٰ مغالبته، والنفسُ لا تطاوع المرء دائمًا علىٰ ما يريدها عليه من الخمود والتبلُّد، وقد يزعِجُ المرء أن يرىٰ نفسه يقضي أيامه بطينَ الجسد وحده أو يَمُوتها علىٰ الأصحِّ؛ فإن من الموت أن يستحيل الإنسان جثَّةً خامدة المتَّقد لا ينقصها إلا الرَّمْس[2]، وما لا يصحُّ سلوىٰ ومتعةً قد يصلح دواءً، وعسيرٌ علىٰ من تعوَّد أن يُحِسَّ الحياة بأعصابه العارية أن يروِّض نفسه علىٰ التبلُّد ويخلد إلىٰ الرُّكود، فلا عجب إذا كنتُ أقبل علىٰ المطالعة حينًا بعد حين!

ولقد قرأتُ في هذه الفترة الطويلة طائفةً صالحةً وأخرىٰ غير صالحةٍ من الكتب، بعضها في الأدب والفلسفة، علىٰ بغضي لها، واستثقالي ظلَّها، وعجزي عن فهمها[3]،

---

(١) عَبَر الكتابَ عَبْرًا: تدبَّره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته.

(٢) القبر، أو التراب الذي يحثى عليه.

(٣) المازني كثير الشكوى من الفلسفة والتبرُّم بها، وقد مضى رأيه في فلسفة الألمان في مقالة «ما كنت أتمنى أن أقرأ». وانظر ما كتبه في «رأيي في الكتب». واقرأ كذلك مقالة ظريفة له في التعريف بكتاب «شخصيات ومذاهب فلسفية» للدكتور عثمان أمين في «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٤٧ - ٤٥٠). =

وبعضها يزعمه واضعوه أدبًا وفلسفةً وهو ليس من ذلك لا في كثير ولا في قليل.

وأحسب القرَّاء[1] لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية، وهذا هو الذي سنقصُر مقالاتنا عليه، ونحاول أن نعقد له فصولًا نستطرد فيها ومنها إلىٰ أبواب من البحث متَّصلةٍ بموضوعاته.

وسنبدأ بـ«حديث الأربعاء» الذي وضعه صديقنا الدكتور طه حسين، ولسنا ندري بأيِّ كتاب آخر يمكن أن نثنِّي؛ فإن كتاب الدكتور يضطرُّنا إلىٰ النظر في أمور عديدة، والخلاف بيننا وبينه طويلٌ يتناول أصول المسائل، ولنا فيمن قصَر كتابه عليهم من مثل أبي نواس وبشَّار وغيرهما وفي العصر العباسيِّ كلِّه رأيٌ يناقض رأيه ونظرةٌ تختلف عن نظرته.

وحسبك دليلًا علىٰ بعد ما بين الرأيين، واتِّساع الهوَّة بينهما، قولُه عن أبي نواس: «أما أبو نواس فأمره غير هذا كله، لم يكن عذريًّا، وما كان يستطيع أن يكون عذريًّا، وهو الرجل الذي شكَّ في كل شيء، ولم يؤمن إلا بالمجون واللذَّة يلتمسهما

= وقد قال قديمًا في «حصاد الهشيم» (٢٧١): «والحق أقول: إني ما استطعتُ أن أسيغ الفلسفة في يوم من أيام حياتي، وكثيرًا ما اتهمتُ نفسي بكثافة الذهن وضعف الاستعداد حتى رأيتُ من يحبُّون الفلسفة ويعكفون على كتبها يقفون مثلي حيارى أمام من لا أفهمُ من رجالها مثل هجل وشلجل ممَّن لا يصلح بعض كلامهم إلا ليعزِّم به المرء على الجن». وصوَّر حاله في قراءة كتب الفلسفة تصويرًا ضاحكًا في موضع آخر من «حصاد الهشيم» (٤٣٣)، فقال: «وكما كان أيسرُ إشفاقه (يعني ابن الرومي) من الماء أن يمرَّ به في الكوز مرَّ المجانب، كذلك أيسرُ إشفاقي من مباحث أصحابنا هؤلاء (الفلاسفة) ألَّا أقربَ الرفَّ الذي فيه كتبهم! وإذا كتب الله لي أن أفتحها أغمضتُ عيني! ولقد كنت في بعض ما سلف من عمري جريئًا، وكنت لا أتهيَّب كلَّ التهيُّب أن أفتح واحدًا من هذه الكتب، ولكني كنت لا أكاد أعبُر بضعَ صفحاتٍ حتى أحسَّ كأني مطلٌّ من زحلوقة على هاوية سحيقة، فتنفرج شفتاي عن صوتٍ كهذا «بورررر»! فأرفع رأسي فزعًا، وأمسك بجوانب الكرسيِّ حتى تطمئنَّ نفسي ويذهب عني الرَّوع، وأحمد الله على السلامة».

(١) قراء «جريدة اللواء المصري» سنة ١٩٢٥.

حيث يجدهما لا يتقيَّد في ذلك بحرج وجناح، ولم يكن عذريًّا ولم يكن يتكلَّف أن يكون عذريًّا، وإنما كان يسخر من العرب وممَّا كان العرب يتكلَّفون. لم يكن يتكلَّف العُذريَّة، وإنما كان يهتمُّ باللذَّة وبلذَّةٍ غير التي كان يهيم بها عمر بن أبىٰ ربيعة»، إلىٰ أن يقول: «إن أبا نواس يُكْرِهك حين تقرأ غزله بالغلمان علىٰ أن تُعْجَب بهذا الغزل، رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدِّين ...» إلخ.

أما نحن فقد قلنا في المقدمة التي وضعناها للجزء الثاني من ديواننا: «فلا جرَم كان الشاعر أحسَّ الناس، وأعمقَهم حكمة، وأصحَّهم إدراكًا لخلال الخير وخصال الفضل، نقول: الفضيلة والخير ولا نخشىٰ أن يهزَّ القرَّاء رؤوسَهم إنكارًا؛ فإن الشعر أساسه صحَّة الإدراك الأخلاقيِّ والأدبيِّ، ولستَ بواجدٍ شعرًا إلا وفي مَطاويه إدراكٌ أخلاقيٌّ أدبيٌّ صحيح، وعلىٰ قدر نصيب الشاعر من صحَّة هذا الإدراك الأدبيِّ تكون قيمة شعره.

ولا يتعجَّل القارئ فيحسب أنَّا نقصد إلىٰ إظهار الإحساس الدينيِّ في الشعر، فليس كلامنا علىٰ مادَّة الشعر، بل علىٰ مصادره وينابيعه. ولا ينبغي كذلك أن يستخلص أن الشاعر يجبُ أن يكون صاحب مبدأ عمليٍّ لا يتحوَّل عنه، فقد كان بيرنز الشاعر الإنجليزي وأبو نواس وامرؤ القيس متقلِّبي وجوه الحياة ومظاهرها، ولكن نصيبهم مع ذلك من صحَّة الإدراك الأخلاقيِّ والأدبيِّ عظيم. ولئن كان لهم معايبُ نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمنُ هباءً لا قيمة له ولا وزن، وأنت خليقٌ أن تنظر إلىٰ ما وراء ذلك؛ فإن أبا نواس أصحُّ مبادئ وأنقىٰ ضميرًا من البحتريِّ علىٰ كثرة ما تقرؤه للأول ممَّا يَرُوع ويُخْجِل، وكذلك امرؤ القيس أفطنُ إلىٰ معاني الفضيلة وأعظمُ رجولةً من أبي تمَّام وابن المعتز، ولم يكن الأعشىٰ علىٰ حبِّه الخمر واستهتاره بها وتخلُّعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة...» إلىٰ آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك في يناير سنة ١٩١٧، ولقد غبَرتْ أعوامٌ ثمانية فلم تزدنا إلا اقتناعًا بهذا الرأي الذي أشرنا إليه في ذلك الوقت إشارة من لا يحسُّ أن المسألة تحتاج إلىٰ إفاضة.

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدىٰ الخلاف بين الرأيين، ولتدرك ما في المسألة من دقَّة وتعويصٍ لا يسعُ المرء حيالهما إلا أن يسأل الله السَّلامة.

الكتابة وحالات النفس[1]

كتب إليَّ بعضهم يسألني: هل صحيحٌ ما روته إحدىٰ المجلَّات من أني لا أكتب حديثًا للإذاعة اللاسلكية إلا قبيل موعده بوقتٍ قصير، وإني إذا كتبته قبل ذلك بزمن طويل فالأغلبُ والأرجحُ أن أمزِّقه وأكتبه مرَّة أخرىٰ؟ وما سبب ذلك أو داعيه؟

فأما أني أمزِّق شيئًا ممَّا أكتب -حديثًا كان أو مقالًا أو قصَّة- فغير صحيح، ولست أعرف أني راجعتُ كلامًا أكتبه أو عَنِيتُ به بعد أن أفرغ منه؛ فقد غدوتُ كالثَّور المشدود إلىٰ السَّاقية وعيناه معصوبتان، حتىٰ لا يدور رأسُه من كثرة الدَّوران واللَّفِّ، وكلَّما وقف يستريح صاح به صاحبه: «عا»، ولمَسه بالعصا أو السَّوط، فيتحرَّك الثَّور ويستأنف الدَّوران؛ لأنه أخفُّ مؤونةً وأسلمُ عاقبةً من الوقوف.

وكذلك أراني في حياتي، وإذا كان الثور يدري لماذا يجشَّم عناء هذا اللَّفِّ كلِّه فإني أدري لماذا تكلِّفني الحياة هذا الجهد. وليست علىٰ عيني عصابة، وإني لأنظر بهما وأرىٰ، ولكني لا أدرك ما وراء ذلك، وليس ثمَّ سوطٌ يلهِب ظهري، ولا عصا هناك تقع عليه، ولكن الحياة تدفعني من حيث أشعر ولا أشعر، وللحياة وخزٌ وحفزٌ وإغراءٌ محسوسٌ وغير محسوس، ولعل الذي لا نفطن إليه أفعلُ وأقوىٰ من الذي ندركه من وسائلها.

وكثيرًا ما أشعر أني مدفوعٌ إلىٰ الكتابة، وأني لا أملك التحوُّل عنها أو إرجاءها، وأني سأشقىٰ وأسقَم إذا لم أذعِن لهذا الدافع الغامض، فأجلس إلىٰ المكتب وليس في رأسي شيءٌ سوىٰ الإحساس العامِّ الثقيلِ بالحركة، وبأنها توشك أن تتمخَّض عن

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٣٠، ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧)، ثم في «سبيل الحياة» (٩٢ - ٩٥).

خاطرٍ معيَّن أو خالِجةٍ بيِّنة، ويكون القلم في يدي في تلك اللحظة فأخطِّط به علىٰ الورقة وأنا حائرٌ ذاهلٌ لا أحسُّ ما حولي، بل لا قدرة لي علىٰ الإحساس بشيءٍ ممَّا يحيط بي إلا إذا حملتُ نفسي علىٰ ذلك حملًا، وخرجتُ بها من ضباب الحيرة والذهول والسَّهو بجهدٍ واضح، ثم تخطر لي عبارةٌ فأخطُّها وأنا لا أدري إلىٰ أين تفضي بي، ويغلبُ أن يطول تردُّدي في البداية ثم يمضي القلم بعد ذلك بلا توقُّف، ويستغرقني الموضوع وتستولي روحُه عليَّ فلا يبقىٰ لي بالٌ إلىٰ شيء، حتىٰ إذا انتهىٰ الأمر ونضب المَعِين ألقيتُ القلم والورقات، ورحتُ أتثاءب وأتمطَّىٰ كأنما كنتُ نائمًا، ويكون هذا آخر عهدي بما كتبتُ في يومي.

وقد استعملت لفظ «التمخُّض» وأنا أعنيه، فليس ثمَّ أدنىٰ فرقٍ فيما أعلم وأحسُّ بين التمخُّض بالجنين وبين حركة التوليد في النفس، وكما تفتُر المرأة بعد أن تضع طفلها ولا ينازعها في ذلك الوقت شوقٌ إليه أو تحسُّ فرحًا به، وإنما يكون إحساسُها بالفرج بعد الضيق الذي كانت فيه، والكَرب الذي كانت تعانيه، والراحة بعد الجهد والمشقَّة والعذاب والتفتير الذي يورثها إياه ما تجشَّمَت، كذلك يكون الأديبُ بعد أن يستريح من أزمة النفس أو الفكر.

ويخطر لي أحيانًا أني كالمسافر الذي لا يذهبُ إلىٰ المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرَّك، فما أراني أكتبُ إلا في اللحظة الأخيرة، وقد أَلِفْتُ أن أرجئ الكتابة مادام في الوقت فسحة، وأحسب أنه لو وسعني أن أكفَّ عن الكتابة لفعلت؛ فإني أوثر الراحة علىٰ هذا العناء الباطل، وبي مثل بلادة التلميذ الذي لا يذهب إلىٰ المدرسة إلا محمولًا علىٰ ذراع الخادم، فليت من يدري أهذه عادةٌ اعتدتُها أم هي طباعٌ وفطرةٌ واستعداد؟!

علىٰ أني أعرفني من المرجئين في كلِّ شيء، الدَّين أفرُّ من أدائه ما وسعني الفرار، والنوم أكره أن أستيقظ منه، والفراش يشقُّ عليَّ أن أترك نعيمه، واليقظة أستثقل أن

أنزل عنها، كلُّ حالة أكون فيها أشتهي أن تطول وتدوم، إلا التنغيص والألم كما لا أحتاج أن أقول.

وقد جرَّبتُ أن أكتب ولا أنشر، فكتبتُ رواية «طويلة» ودسستُها في دُرج المكتب، ومضت شهور، وسافرتُ إلىٰ لبنان، فحملتها معي لأراجعها هناك قبل طبعها، فلمَّا أجَلتُ فيها عيني وجدتُ أن الحالة النفسية التي كتبتها بها قد ذهبت، وأن حالةً أخرىٰ قد استولت عليَّ، فحاولتُ أن أستعيد تلك الحالة الأولىٰ فأعياني ذلك، فأجريتُ القلم في الرواية بالتبديل والتغيير، والتقديم والتأخير، والحذف والإضافة، وإذا بالرواية قد صارت شيئًا جديدًا، فقلت: لا بأس، وطويتُها، وفي عزمي نشرُها بعد الأوبة إلىٰ مصر، فلمَّا صرتُ في بيتي خطر لي يومًا أن أخرجها وأتصفَّحها، فإذا بي في حالة نفسية جديدة لا تسمح لي بالرضا عن الرواية في صورتها الثانية، فأعملتُ فيها القلم ومسختُها مرَّة ثانية، ومازلت بعد ذلك أرجع إليها بالمسخ كلَّ بضعة شهور حتىٰ يئستُ فانتزعتُ منها فصولًا تصلحُ أن تكون قصصًا قصيرة، ومزَّقت الباقي، وحمدتُ الله علىٰ الراحة بعد طول العناء، وأيقنتُ أنه خير لي ألا أكتب إلا إذا وثِقتُ من النشر بعد أن أضع القلم.

وأذكر أن بعضهم سألني مرَّة: أي كتبك أحبُّ إليك؟ فلمَّا قلت: «ولا واحد» استغرب جوابي وأنكَره، وذكَّرني بأني قلتُ مرَّة: «إن هذه المفاضلة عسيرة؛ لأن الكتب كالأبناء، والوالد لا تخفىٰ عليه مزايا أبنائه وعيوبهم، ولا يجهل أن هذا ذكيٌّ وذاك غبيٌّ مثلًا، ولكنه مع ذلك يحبُّهم جميعًا علىٰ السَّواء وإن كان يعرفُ فضل بعضهم علىٰ بعض»، وهذا صحيحٌ علىٰ الجملة، وفي الأغلب والأعمِّ، ولكني رجلٌ دأبي أن أراجع نفسي، ولا تنفكُّ حالاتي النفسية تتغيَّر، فنظرتي إلىٰ الشيء وإحساسي به يختلفان من يوم إلىٰ يوم.

وثمَّ أمرٌ آخر، هو ما يتمثَّل لي من صور الكمال، وما يبدو لي في عملي من وجوه النَّقص والقصور، وليس لي حيلةٌ إلا أن أقيسَ ما أخرجتُ إلىٰ ما كنتُ أحبُّ

أن يكون، وإلا أن أحدِّث نفسي أنه كان في مقدوري أن أصنع خيرًا ممَّا صنعت، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الإمكان لرضيتُ وقنعتُ واغتررت، ولكني أحسُّ أني أقدر علىٰ خيرٍ ممَّا أفعل، وقد يكون هذا إحساسًا كاذبًا كالجوع الكاذب، وقد يكون خدعةً من خدع الغرور، فإن يكن كذلك فإنه ولا شكَّ بلاء، ولكنه الواقع علىٰ كل حال.

وما أكثر ما أسمع من يثني علىٰ كتاب لي، فأتركه يثني؛ فإن الثناء حبيبٌ إلىٰ النفوس، وأتعجَّب له فيما بيني وبين نفسي وأسألها: ماذا أعجبه يا ترىٰ؟! أما لو أن رجلًا نقَد نفسه! وأزداد غرورًا، وأشعر أني فوق هذا المادح، ولكني أتواضعُ وأقول له وأنا مطرق -ووجهي فيما أعتقد وأرجو مضطرمٌ من فرط الحياء-: «أستغفر الله! أستغفر الله! يا شيخ قل كلامًا غير هذا» إلخ إلخ.

فإذا كنتُ لا أكتب إلا قبيل أوان النشر بأوجز فترة؛ لأني بليد، ولأن نفسي تتعاقب عليها حالاتٌ مختلفة، فأسخط علىٰ ما كنت أرضىٰ عنه، وأذمُّ ما حَمِدت، وأستضئل ما أكبَرت، ولا حيلة لي في ذلك، وماذا أصنع إذا كنت أحسُّ أني مَسُوقٌ إلىٰ جسِّ نفسي وقياس قدرتها إلىٰ ما ينبغي ممَّا ترتسم صورُه في نفسي وتتمثَّل لي في خواطري؟!

الكتابة وثقلها[1]

قد أعرف لماذا أقرأ، وما يستهويني من الكتب ويغريني بالاطِّلاع؛ فإن أقلَّ ما في ذلك أنه نُقْلَةٌ إلىٰ عالم غير دنيانا الحافلة بالمنغِّصات المائجة بالمتعبات، ولكني والله لا أدري لماذا أكتب؟! ولست أراني أفدتُ شيئًا ولا لي أملٌ في شيء، وأحسبني بين الكتَّاب الوحيد الذي يعيش بلا أملٍ جادٍّ أو طمعٍ مُسْتَحِثٍّ، بل لعلِّي الكاتبُ الوحيد الذي يعتقد أن الدنيا لا تخسر شيئًا -وقد تكسب- إذا خلت رقعتُها من الأدباء والشعراء!

واعتقادي هذا فرعٌ من أصلٍ أعمٍّ وأشمل، هو أن الدنيا لا تَنْقُصُ إذا قضت الحياة نفسُها نحبَها، فلا إنسان ولا حياة ولا نبات، وقد غَبَر زمنٌ كنت فيه مجنونًا كشيلِّي[2]، فالآن صار جنوني بهوان الحياة وغرور الإنسان وعبث العيش كلِّه، وما لقيتُ نعماء أو أصابتني ضرَّاء إلا قلتُ كما قال سليمان بن داود: «باطل الأباطيل، الكلُّ باطل»[3]، حتىٰ لقد هممتُ أن أسمِّي كتابًا لي «باطل الأباطيل» كما سمَّيت آخر «قبض الريح»، وثالثًا «حصاد الهشيم».

فليس إيثاري لهذه الأسماء عن تواضع كما توهَّم البعض، بل عن نزوع إلىٰ الاستخفاف حتىٰ بالنفس[4]، وعن شعور قويٍّ بمرارة الهوان الذي أجده لهذه الحياة وكلِّ مظاهرها.

---

(١) «السياسة الأسبوعية» (٢٥ أكتوبر ١٩٣٠)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٩٧).

(٢) Percy Bysshe Shelley شاعر إنكليزي رومانتيكي توفي سنة ١٨٢٢، تأثر به المازني كثيرًا كما مرَّ في المقدمة، وبديوانه وديوان الشريف الرضي بدأ مطالعاته الجدية، وعلى إثرهما استنزف أيامه في معاناة الأدب، كما يقول في جواب استفتاء «الهلال».

(٣) العهد القديم، سفر الجامعة، ١: ٢، ١٢: ٨.

(٤) انظر كلام صاحبه العقاد عن هذا في كلمة حفل استقباله بمجمع اللغة، ضمن «مقدمات العقاد» (٥٣٩).

وليس أبغض إليَّ من الكتابة، ولا أثقل علىٰ نفسي من تناول القلم، وما أعرفني كتبتُ شيئًا إلا بعد أن أعيا بالتهرُّب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل، فإني لا أطيق السُّكون.

ومن أغرب ما يحدث أني أراني كلما أردتُ الكتابة أحاول قبل معاناتها أن أعزِّي نفسي بأحلام اليقظة، فآوي إلىٰ فراشي، وأستلقي عليه، وأغمض جفني، وأذهب أحضِر إلىٰ ذهني صورًا شتَّىٰ من الحياة كما أشتهي أن تكون، علىٰ قدر ما يستطيع خيالي أن يلفِّق، ولا أزال كذلك حتىٰ يغلبني النعاس أو ينهضني الشعورُ بالواجب إذا كان الوقتُ أضيقَ من أن يتَّسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحبُّ الأحلام ولا أؤثرها علىٰ الحقائق.

ولو كانت القدرة علىٰ اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقًا علىٰ الأرجح أن أكون أنشط إلىٰ الكتابة، ولكنَّ اختيار الموضوع أشقُّ عليَّ وأشدُّ عذابًا من الكتابة نفسها، علىٰ فرط مَقْتِي لها واستثقالي لمعاناتها.

وأنا أحسُّ حين أعالجُ أن أهتدي إلىٰ موضوع صالح للكتابة كأن رأسي قد صار «قهوة برابرة» أعني مكانًا يكثر فيه اللَّغط وتشتدُّ الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهَم الناسُ بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي كلُّ ما فيه ضجَّةٌ عاليةٌ مرهقةٌ تنتهي بالصُّداع والعدول عن الكتابة، أو إرجائها إلىٰ وقتٍ آخر أحسُّ فيه أني أصحُّ وأكثر تهيُّئًا لها.

والواقع -عندي علىٰ الأقل- أن نفسي لا تكون متهيِّئةً للكتابة في كلِّ وقت أو كلَّما أردت، ويخيَّل إليَّ أن هناك أويقاتٍ تحسُّ فيها النفسُ مثل نشوة الخمر، وهذا هو الذي أعنيه بالتهيُّؤ، وقد كنت أجرِّب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سَراح ورَواح -أعني لمَّا كنت غير مطالب بالكتابة-، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعةً وعملًا أؤدِّيه وأنا كاره؛ لتكرُّره يومًا بعد يوم بلا راحة أو استجمام.

وقد سألني بعضهم في رسالة بعث بها إليَّ: لماذا لا أقول الشعر الآن؟ وليس لي من جواب عن ذلك سوىٰ أن الصِّحافة هي التي قطعتني عنه، والصِّحافة تُكسِب الكاتب مرونةً في الأسلوب وسرعةً في الأداء، ولكنها تفسِد عليه فنَّ الكتابة، ولا سبيل إلىٰ الاستغناء عن الفنِّ في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصُّحف -المصرية علىٰ الأقلِّ-، وأقول: «المصرية» لأن الكاتب فيها مرهقٌ يضطلع بأكثر ممَّا يجوِّد معه العمل، وهي في بلادنا تُغْثِي[1] النفس، وتقمَع النشاط، وتغري باليأس؛ لأن المرء يكون فيها كالذي يُضرَب بالسِّياط، لا يحسُّ الدنيا حوله، وإنما يحسُّ العذاب الذي هو فيه.

أحسبني كففتُ عن الشعر أيضًا لأني أعلىٰ به عينًا، أعني أني انتهيتُ إلىٰ أنها إحدىٰ اثنتين:

فإما أن يقول المرء شعرًا من أعلىٰ طبقة.

وإما أن يريح نفسه ويريح الناس.

فلا خير في غير الكلام الخالد علىٰ الدهر، وأنا أعرفُ بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرتُ فيما قرضتُ من الشعر فهززتُ رأسي وقلت: «هذا كلامٌ فارغ، وأولىٰ بي أن أعرف قدرَ نفسي، فلْأقلِع»، ورميتُ ديواني، حتىٰ ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقيًا!

والشعر -علىٰ كونه إلهامًا- فلن يسلَس بالمِرانة، وقد أهملتُه حتىٰ صرتُ لا أستطيع أن أنظم شطرًا واحدًا، وحسنًا فعلتُ؛ فما ينقُص الدنيا الكلامُ الوسط، فإنه فيها كثيرٌ بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فُطِر عليه الإنسان.

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: تغني.

متاعب الطريق[1]

ليس أخطر من التعميم في الأحكام، ولا سيَّما إذا كان الأمر خارجًا عن دائرة العلوم المضبوطة، وخاصَّة بما يختلف فيه الناس ويتباينون، ولكنَّا مع هذا نستطيع أن نستغني عن الاحتياط إلىٰ مدًى بعيد، وأن يأمن الخطأ إلىٰ حدٍّ كبير حين نقول: إن المرء حين يعشق، أي حين تستبدُّ به الرغبة وتطغىٰ به العاطفة، قلَّ أن يفكِّر في الاحتمالات أو فرص النجاح، أو في ما له من الصِّفات والمؤهِّلات التي تُعِين علىٰ التوفيق أو تحول دونه، أو في طبيعة المرأة التي فتنته واستولت علىٰ هواه؛ ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدرُه بالرغبة فيها وتضطرم نفسُه عليها، ويَغِيمُ كلُّ ما عدا ذلك، فلا يرىٰ أو يسمع أو يحسَّ إلا هذه العاطفة المتأجِّجة التي تسدُّ عليه كلَّ فِجَاج النظر.

وغير منكورٍ أن في الناس من يسعه ضبط نفسه، وقياس آماله إلىٰ قوَّته، وكبح عاطفته إذا تبيَّن أنها موشكةٌ أن تركض به بين الوُعور، كما أن فيهم من يمضي علىٰ وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتىٰ ينتهي إلىٰ غايته أو يقع دونها، ولكن هذا لا ينفي أن العاطفة تتملَّكه قبل التفكير، وهذا هو الذي نريد أن ننبِّه إليه لو أن الأمر محتاجٌ إلىٰ تنبيه.

والأديب شبيهٌ بالعاشق، يَعْرِض له الخاطر فيستهويه ويسحَره، ولا يجري في باله في أول الأمر شيءٌ من المصاعب والعوائق، ولا يتمثَّل له سوىٰ فكرته التي اكتظَّت بها شعابُ نفسه، ولا ينظر إلا إلىٰ الغاية دون المذاهب، ويَشِيع في كيانه الإحساسُ بالأثر الذي سَيُحْدِثه، وقد يتصوَّر الأمر واقعًا، ولا يندر أن يتوهَّم أنه ليس

---

(١) «جريدة الاتحاد» (٢٠ أغسطس ١٩٢٥)، ثم في «قبض الريح» (١٤٥ - ١٥٢).

عليه إلا أن يتناول القلم فإذا به يجري أسرع من خاطره، وإذا بالكتاب تتوالىٰ فصوله، وتتعاقبُ أبوابه، وتُصَفُّ حروفُه، ويُطْبَع ويُغَلَّف ويباع، ويقبل عليه الناسُ يلتهمونه وهم جَذِلُون دَهِشُون معجَبون، وإذا بصاحبه قد طبَّق ذكرُه الخافقَين، وسار مسير الشمس في الشرق والغرب، وخلد في الدنيا إلىٰ ما شاء الله!

يَكْبُر كلُّ هذا في وهمه لحظةً تطول أو تقصُر، ثم يهمُّ بالعمل ويعالِج أداءه، فيتبيَّن أن عليه أن يُنْضِج الفكرة، ويتقصَّىٰ النظرة، ويلمَّ بهذا ويعرِّج علىٰ ذاك، ويستطرد هنا ويمضي إلىٰ هناك، ويُدخِل شيئًا ويُخرِج خلافه، ثم أن يصبَّ ذلك في قوالب ملائمة ينبغي أن يعنىٰ بانتقائها، وأن يتوخَّىٰ في الأداء ضروراتٍ تَقْسِره عليها طبيعة الخواطر أو المسائل، هذه تتطلَّب إيضاحًا، وتلك لا مَعْدىٰ في سَوقها عن تحرِّي القوَّة في العبارة أو اللين أو السُّهولة أو الجمال أو غير ذلك.

وأحْرِ به حين يكابد كلَّ ذلك أن تفتُر حرارتُه الأولىٰ، وأن يدبَّ الملل في نفسه، وأن يُضْجِره أن يضطرَّ أن يقطع الطريق خطوةً خطوة، ويكتب الفكرة الرائعة الجليلة التي استغرقته وفتنَته كلمةً كلمة، ويتناول منها جانبًا بعد جانب، وأن يعاني في أثناء ذلك مشقَّات التعبير ومتاعب الأداء، وأن يُذْعِن لأحكام الضرورات، فلا يستعجل فيفسُد الأمرُ عليه، بل يكرُّ أحيانًا إلىٰ ما كتَب ويعيد فيه نظره ويُجِيل قلمَه مرَّة أخرىٰ وثالثة إذا احتاج الأمر إلىٰ ثانية أو ثالثة، ويصبر علىٰ بَرْح ذلك وعنائه وتنغيصه وتَغْثِيَته يومًا وآخر، وأسبوعًا وثانيًا، وشهرًا وعامًا، وأكثر من عام أو أعوام إذا دعت الحال.

وفي أثناء ذلك كم خالِجَةٍ عزيزة يضطرُّ أن ينزل عنها ويدعَها مدفونةً في طيَّات نفسه؛ لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وإبرازها في الثوب الذي ينسجم عليها ويجلوها للقارئ كما هي في ذهنه، أو لأن كلمةً واحدة -واحدةً لا أكثر- تنقُصها لتستوفي حقَّها من التعبير الذي يكفل لها الوضوح أو الحياة؟ كم معنًىٰ يتركه ناقصًا أو غامضًا وهو «يحسُّه» تامًّا ويتصوَّره في ضميره كأجلىٰ ما يكون؟

وما كلُّ امرئ يدخُل في مقدوره أن يحتمل هذا المضض كلَّه.

ومن الكتَّاب من لا يكاد يلتقي بأول صخرة في الطريق حتىٰ ينكص راجعًا وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التي أفادته إياها الفكرة حينما نشأت، ويروحُ يطير من فكرة إلىٰ أخرىٰ، ولا يكاد يصنع شيئًا؛ لأن العوائق التي لم يَقْدِرها تغلبه، والوعود التي لم يتوقَّعها تَهِيضه[1]، والمشقَّات التي لم يفكر فيها تُسْئِمه.

والأدب إلهامٌ وفنٌّ، ولكلِّ فنٍّ أدواته وآلاته، ولا بدَّ فيه من الإحسان والتجويد، أي من الصَّبر، وصحَّة النظر، وسلامة الذوق، وصدق السَّريرة، وحسن الاستعداد. وما كان الصَّواب وصحة النظر ودقَّة الإحساس وحسن التخيُّل والقدرة علىٰ ذاك وغيره بمقصورة علىٰ الأدباء، ولا هي بوقفٍ عليهم، ولكن كم ممَّن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة، والآراء السديدة، والإحساسات العميقة، يستطيعون أن يبرزوا هذه ويُحْدِثوا فيها صورًا ويجلوها للناس كما هي في نفوسهم؟!

الألفاظ التي هي أدوات الكتابة موجودة، ولعل غير الأديب لها أحفظ، وبها أعلم، وهي في طريق من شاء، غير أنها ليست كلَّ ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب.

كذلك الأصباغ والألوان حاضرة، من شاء مدَّ إليها يده وتناولها وصنع بها ما أحبَّ، وهي مادَّة التصوير، ولكن من ذا الذي يحسب أنها كلُّ ما ينقص المرء ليكون مصوِّرًا؟

وكذلك لا يفي العلمُ بالقواعد والأصول، وما عسىٰ أن تكون قيمتها وحدها؟

هذا وجهٌ يريد المصوِّر أن يرسمه، وينقل إلىٰ اللوح ما يترقرق في صفحته من المعاني ويجول فيه من الأمواه، فكيف بذلك؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقةً بالسُّخرية، أو تقويسة الذقن معبِّرةً عن التصميم، أو لمعة العين شاهدةً بسجاحة

(١) تكسره.

الخلق ورضا النفس؟ وكيف يُشعِرك ما يَشْعُر به هو من السِّحر أو الدلال، أو القوَّة والجلال، ويفيدك ما أفاد من الأنس والغبطة والروح؟ أو كيف يجعلك حين تنظر إلىٰ الصورة الحاكية تشتهي مثله حين يجتلي الأصل أن تغمض عينيك وتنقل نفسك إلىٰ عالم آخر من الخيالات والخواطر والإحساسات؟

وما يقال عن المصوِّر يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر، والأمر في كلتا الحالتين يحتاج إلىٰ فطرة مهيَّأة له أسبابها، وذوق مؤازر، وسليقة مناصرة، وملَكة مُعِينة علىٰ حسن اختيار الرموز الكفيلة بإفراغ الخواطر في القوالب الملائمة، والقادرة علىٰ إحداث الصُّور المطلوبة في أذهان القرَّاء. وعلىٰ ذلك يكون المرء صانعًا لا أكثر إذا رُزِق الفنَّ وحُرِم الإلهام، صانعًا كهذه الآلات التي تدور بلا روح، وتخرج ألوانًا وضروبًا من الصور تُعْجَب بصقلها ودقَّتها وإحكام صنعها ولا تحسُّ أن يد إنسان حيٍّ أو قلبه وراءها.

وكم من الناس يفكِّرون فيما يقاسيه الأديب؟ أين ذاك الذي يطالع الكتابَ أو الديوان ويُعنىٰ بأن يصوِّر لنفسه الجهدَ الذي بذله صاحبه، والغصص التي تكبَّدها وصبر عليها، جهدَ التفكير والأداء، وغصصَ النجاح والفشل علىٰ السَّواء؟ إنه لا يقدر ذلك إلا من عانىٰ هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها.

وشبيهٌ بهذا أن يقف رجلٌ من الأوساط العاديين أمام صورة يتأمَّلها، ويدير فيها عينَه، ويُعْجَب بها أو لا يُعْجَب، وهو لا يدري أنها ليست ألوانًا وأصباغًا مزجَها المصوِّر وزاوج بينها وساوقها، بل قطعة حيَّة من نفسه إذا نظر إليها صاحبُها كرَّت أمام عينه سلسلةٌ طويلة من الألم واللذَّة، والندم والغبطة، والغيظ والكمَد، والسُّخط والرضا، والأمل والخيبة، ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة.

لي صديقٌ مصوِّر مخلصٌ لفنِّه، دعاني مرَّة إلىٰ محلِّه -وكان هذا منذ سنواتٍ ثلاث- وقال: إني أريد أن أرسمك؛ لأني أتوسَّم في رأسك مادَّة صالحة لصورة لها

قيمةٌ فنية، فشكرتُ له ذلك، وقلت له: إن عندي من الغرور ما هو فوق الكفاية، ولم يكن ينقصني أن أعلم من فنَّان مثلك أن رأسي جديرٌ بالتصوير!

ثم جعلتُ أختلف إلىٰ داره في الأوقات التي يعيِّنها، وأجلس إليه في كلِّ يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخلَّلها فتراتٌ أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة، فكان ربَّما بدا مرتاحًا إلىٰ العمل مقبلًا عليه مهتمًّا، ثم لا يلبث أن تعتريه الكآبة ويعلو وجهَه الوُجوم، فتتدلَّىٰ يداه وينثني رأسُه علىٰ صدره، ثم يرفعه ويرسل زفرة غيظٍ من بين أسنانه المطبقة، ويعود كالذي يهمُّ أن يتناول اللوح فيمزِّقه، ويعمد إليَّ فيرمي رأسي بالكراسي والألواح ويطردني رفسًا بقدميه!

وكنت أحاول أن أردَّ إليه ما يعزُب عنه في هذه اللحظات من خلقه الوادِع، وأقول له: إن هذا الذي تكابد ليس بغريب عنَّا معشر الكتَّاب، وربما كنَّا أسوأ من المصوِّرين حالًا، وكان فنُّنا أشقَّ وأمرَّ.

فيقول: كلا! إنكم أيها الكتَّاب تستطيعون أن تَسُوقوا خواطركم ومعانيكم واحدةً في إثر واحدة، فإن أغفلتم معنًىٰ لسبب من الأسباب فقلَّما يفطن القارئ إلىٰ ما أهملتم، وهل كان يدري قبل أن يقرأ كلامكم أنه كان في رؤوسكم كذا وكذا، فأردتم منه هذا واطَّرحتم ذاك؟ ولكن صورة الوجه علىٰ اللوح إما أن تكون حيَّة ناطقة أو ميِّتة خامدة الروح، وليس يخفىٰ موتُها أو حياتُها علىٰ الناظر إليها، وقلَّما يفوته التقصير في إنطاق الوجه وأداء المعاني المرتسمة علىٰ صفحته، وقد تَدِقُّ بعض المعاني المكتوبة عن الأفهام لتعويصها أو غرابتها أو سموِّها أو لطفها ودقَّتها ولكن شخصية الإنسان لا تخفىٰ علىٰ الإنسان، وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا مَعْدىٰ له عن أن يحسَّها، والصُّورة كذلك، ومن هنا كانت أشقَّ، وكان الإخفاقُ أخلقَ بأن يكون أبيَن.

وأذكر أني منذ أكثر من خمسة عشر عامًا قام بنفسي أن أضع كتابًا «ضخمًا» في فلسفة الشعر، وأن أجعل هذا عملي الأدبيَّ في حياتي، وقلت لنفسي: حسبي به إذا

رُزِقت التوفيق فيه، واستخرتُ الله في إمضاء الفكرة، ولم يكن يغيبُ عني فَدْحُها[1]، فشرعتُ أعِدُّ لها العدَّة الكافية، وأقرأ كلَّ ما استطعتُ أن أقرأه ممَّا له علاقةٌ قريبة أو بعيدة بموضوعي، وقسمتُ الكتاب إلىٰ أبوابه التي تنطوي تحتها أغراضه، وحصرتُ كلَّ ما أريد أن يتفرَّع إليه، ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل، ومضت عليَّ وعلىٰ كتابي هذه السَّنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز إلىٰ هذه السَّاعة المقدِّمة وفصلين أحدهما هو المدخل!

ويظهر أنه ليس أعون علىٰ المثابرة والصَّبر من «خفَّة» الإحساس، ومن أن يكون المرء بحيث لا تهتاجُ آماله أو مخاوفه إلىٰ درجة من الألم والإلحاح لا تُحْتَمل، ولا يسع المرء معها رفقًا بنفسه وإبقاءً عليها إلا أن يفرغ من الأمر الذي يعالجه ولو خسر في سبيل ذلك غايته.

وأعني أن يكون المرء هادئ النفس، قليل الاكتراث، قادرًا علىٰ الانتظار، مطيقًا للصَّبر، راضيًا عن نفسه، مستعدًّا للارتياح إلىٰ كلِّ ما عسىٰ أن يشغله، يستوي عنده أن يكتب في الفلسفة أو يصف حوانيتَ الباعة، وأن يستكشف القطب الشماليَّ أو يهتدي إلىٰ حانة تبيع «الويسكي» بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة، ما دام هو الذي يفعل هذا أو ذاك، وما دام رضاه عن نفسه لا يضعفه سببٌ من الأسباب.

وليس من النادر أن يُرْزَق هذا الضربُ من الناس حظًّا من البساطة الطبيعية ترفعهم وتُذْرِي منهم[2]، ولكن ما عسىٰ صبرُ الذين تطغىٰ بهم البواعث القوية، وتلجُّ بهم الأشواق الحادَّة والرغبات الجامحة، وتدفعهم إلىٰ محاولة الوثوب، وتُعْجِلهم، ولا تدع لهم فرصة راحة يَرُوضون فيها نفوسَهم!

---

(١) ثقلها.

(٢) تلقيهم. أذرت الدابة راكبها: ألقته.

ولعل هذا هو السَّبب في أن الأمة الإنجليزية لم تنبغ في شيء نبوغَها في الشعر الذي يرجع في مردِّ أمره إلىٰ الإرادة والعاطفة، وأن الأمة الفرنسية من «أفصح» الأمم.

ذلك أن الشعر عبارةٌ عن الإحساس الذي يعترفُ به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها، ويرمز له بما هو أقربُ إلىٰ الصُّورة التي هو عليها في نفس الشاعر.

أما الفصاحة فإحساسٌ كذلك، ولكنه يُصَبُّ في أذهانٍ أخرىٰ ويُلقىٰ إليها، طلبًا لعطفها، أو التماسًا للتأثير فيها، أو نشدانًا لتحريكها وحَفْزِها إلىٰ العمل، ومن هنا كانت الأمة الفرنسية أضعفَ الأمم الكبرىٰ شاعريَّةً وأفصحَها في الوقت ذاته؛ إذ كانت أشدَّها غرورًا وأعظمَها اعتدادًا بالنفس!

كيف أكتب؟[1]

يتمتَّع القرَّاء بنفثات الكثيرين من كبار كتَّابنا وشعرائنا ومؤلفينا، فيطالعونها مرتَّبة منظَّمة بين دفَّتي كتاب متقن الطبع أو علىٰ صفحات جريدة أو مجلة منسَّقة، وهم لا يعلمون بالطبع كيف اهتدىٰ أولئك الكتَّاب والشعراء والمؤلفون إلىٰ أفكارهم التي يخرجونها للقرَّاء، ولا كيف نضجت تلك الأفكار واستقرَّت حتىٰ أصبحت صالحة للنشر، ولا كيف كُتِبت علىٰ الأصول التي قُدِّمت للطبع، وهي ناحيةٌ خفيَّة مجهولة يسرُّ القرَّاء ويهمُّهم معرفتها. ولذا رأينا أن نحادث الظاهرين من كتَّابنا عنها، وبدأنا بالأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني وهو ليس في حاجة إلىٰ من يقدِّمه إلىٰ القرَّاء، ويكفي أن نذكر كتبه «حصاد الهشيم»، و«قبض الريح»، و«صندوق الدنيا»، و«رحلة الحجاز»، وقصصه «إبراهيم الكاتب»، و«غريزة المرأة»، وأبحاثه الأدبية العديدة، لكي يعلم القرَّاء أنه في مقدِّمة الداعين إلىٰ التجديد الجريء في أدبنا الحديث.

إذا بدأتُ الكتابة فيندر جدًّا أن أتوقَّف بعد ذلك، ولكن الصُّعوبة هي أن أبدأ، واستهلال الكلام هو الذي يحيِّرني دائمًا ويشقُّ عليَّ، وأحسب هذا راجعًا إلىٰ حالة عصبيَّة أو إلىٰ ما يسمَّىٰ «الإيحاء الذاتي» أعني الإيحاء إلىٰ النفس؛ فقد ظللتُ أقول لنفسي كلَّما هممتُ بعمل أو قول أو كتابة أو مباشرة أيِّ شيء: إن الخطوة الأولىٰ هي العسيرة، والتي يكثر قبلها التردُّد، حتىٰ إذا خطاها الإنسان صار ما بعدها سهلًا،

(١) «مجلة كل شيء والعالم» (٢٣ يناير ١٩٣٢).

نسبيًا على الأقل. ظللتُ أقول هذا لنفسي وللناس حتى وقر في ذهني، ورسخ في نفسي، وبدا أثره في كلِّ ما أعالج، حتى في شؤون الحياة العادية.

وأنا أكره أن أضطرَّ إلى حذف الكلمات وإفسادها و«ترميجها» أي شطبها، ولا سيَّما في فاتحة الكتاب، ويسرُّني ويشجِّعني على المضيِّ أن أرى السطور تتوالى مستقيمةً بلا شطب أو إفساد.

وإذا كتبتُ على مهلٍ جاء الخطُّ واضحًا والسُّطور متقاربة، وإذا أسرعتُ -وهذا هو الأغلب- تباعدت السُّطور وساء الخطُّ.

ولست أستطيع أن أكتب إلا في اللحظة الأخيرة التي ليس بعدها أخرى، وأحسب هذا راجعًا إلى الكسل من ناحية، وإلى طبيعة العمل الصحفيِّ اليوميِّ من ناحية أخرى.

وقد تعوَّدتُ أن لا أكتب إلا على مكتبي في الجريدة، فليس لي في بيتي عملٌ سوى القراءة، أما الكتابة في البيت فقد قاربَت المستحيل.

ويستوي عندي الآن أن تكون الغرفة خاليةً ساكنة، وأن تكون كالسُّوق القائمة كلَّها ضوضاء؛ فإن في وسعي أن أنصرف عن الضَّجَّة، وأن أحصر التفاتي في عملي بحيث لا أسمع ما يدور حولي من اللغط بالغًا ما بلغت ضجَّته، وما دام الذين حولي لا يوجِّهون الكلام إليَّ ولا يطلبون مني المشاركة في الحديث فإن لغطهم لا يعطِّلني ولا يُحْدِث لي أيَّ تعويق، لا في عملية التفكير، ولا في صَوغ العبارة عمَّا أريده؛ لأن انصرافي عنهم يكون تامًّا، فكأنهم غير موجودين.

وهذا فعلُ العادة، ولم أكن كذلك في أول الأمر، ولكني اضطررتُ إلى احتمال الناس، واعتدتُ الانصراف عنهم لمَّا اشتغلتُ بالتحرير في «الأخبار»[1]، وكانت لا

(١) «جريدة الأخبار»، أنشأها يوسف الخازن وداود بركات سنة ١٨٩٦، ثم ابتاعها أمين الرافعي سنة ١٩٢٠ بعد الحرب العالمية الأولى.

تنقطع منها الرِّجْل، ولا يكفُّ زوَّارها عن الدُّخول في كلِّ مناقشة، وكثيرًا ما كانوا يختلفون فيحتدُّون وتعلو أصواتهم، والمرحوم أمين بك الرافعي لاهٍ عنهم بعمله، وكانت غرفتي في طريق غرفته ولِصْقَها، وكنَّا في الشتاء ننتقل إلىٰ غرفة مشمسة نشتغل فيها معًا، فألِفتُ هذا الحال.

واعتقادي أن تأثير العمل في وسط الضوضاء سيءٌ جدًّا، وأن ضرره بالأعصاب عظيمٌ وإن كان المرء لا يشعر بذلك، ولكني أنظر فأجد أن العهد الذي قضيته في التعليم -وهو عشر سنوات- كان أثقل علىٰ أعصابي وطأةً وأشدَّ إيذاءً لها وتمزيقًا من عهد الصِّحافة، أي منذ ١٩١٩ إلىٰ الآن.

هذا مع إني كنت أتمتَّع أيام التعليم بإجازة سنوية تبلغ أربعة شهور غير يوم الجمعة من كل أسبوع، وفضلًا عن الإجازات القصيرة في المواسم والأعياد، ولم أكن أعمل في اليوم أكثر من ساعاتٍ ثلاث أو أربع، وهذا نادر، وكثيرًا ما كانت جملة عملي في الأسبوع عشر ساعات فقط.

وقد نسيتُ الراحة والإجازات منذ اشتغلتُ بالصِّحافة، ويكفي أن تتصوَّر أني ارتحتُ من العمل شهرًا علىٰ دفعتين في خمس سنين في «الأخبار»، وشهرًا وبضعة أيام في أربع سنين في «السياسة»[1]، ولست أحسب أيام المرض؛ فإنها ليست راحةً مهما كثرت.

ومع ذلك أراني أنشط، وأحسُّ أعصابي أقوىٰ، فلا أدري أي الرأيين هو الصَّحيح؟

وأذكر أني قلت مرَّة -أو كتبتُ علىٰ الأصح- لمن طلب مني ترجمة حياتي ومختاراتٍ من شعري -وكان هذا من عشر سنين-: إن خير شعري هو الذي لم

---

(١) «جريدة السياسة»، أنشأها حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٢، ورأس تحريرها محمد حسين هيكل.

أقله، أو كلامًا في هذا المعنىٰ[1]. وقد ضحك منه بعض الذين قرؤوه بعد نشره، ولكن هذه هي الحقيقة الحرفية؛ فقد تخطر لي أحيانًا الفكرة أزهىٰ بها وأنوي الكتابة فيها وأنا فرحٌ مسرورٌ مستبشر، وإذا بي بعد دقائق أو ساعة أو ليلة قد نسيتها جملةً وتفصيلًا، فأكاد أُجَنُّ.

وما اعتدتُه هو أني لا أقيِّد شيئًا من خواطري كائنةً ما كانت، فأنتظر حتىٰ يلهمني الله سواها، ولكن الأسف يظلُّ يخامرني علىٰ ما طار عنِّي.

وكثيرًا ما أحسُّ حين يستغرقني الموضوع كأني أكتب ما يملىٰ عليَّ، فأكتب وأنا لا أكاد أفهم، كأني سكرتيرٌ تجري يده بما تتلقَّىٰ أذنه، وليس في هذا الذي أصفه مبالغة، ولا أنا أكتبه لأدَّعي أني ملهَم. كلَّا، لا شيء من هذا علىٰ الإطلاق، وإنما هي الحقيقة التي جرَّبتها مرَّاتٍ لا تعدُّ ولا تحصىٰ، وأحسب تفسير ذلك أن شيئًا مستكنًّا في ما وراء الوعي يبرز فجأةً ويستولي علىٰ النفس ويملؤها، فيجري به القلم بسرعة.

ولا أدري هل هذا تفسيرٌ مقنعٌ أو لا؟ ولكن الذي أدريه أن الحالة التي أصفها صادقة. يضاف إليها أني سريع النسيان جدًّا[2]، والنسيان ليس معناه فقدان المعاني

---

(١) يشير إلى ترجمته التي كتبها في ٢١ مارس ١٩٢٢ لكتاب الأستاذ أحمد عبيد «مشاهير شعراء العصر» (١/ ١٥)، ويقول فيها: «وعلى ذكر شعري أقول: إني لم أبعث إليك منه إلا بشرِّه، أما خيره فذلك ما لم أنظمه، هو الذي يجيش به صدري ولا ينطلق به لساني، ويملأ شعاب نفسي ويعيا به فمي وجناني».

(٢) اقرأ حديثًا ظريفًا عن نسيانه في «أحاديث المازني» (١١٤ – ١١٧)، وأصله مقال في «مجلة الرسالة» (العدد ١٨٦، ٢٥ يناير ١٩٣٧)، ومقالًا آخر عن النسيان في «جريدة البلاغ» (١٢ أبريل ١٩٤٢)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٣٩)، ومضى جزء منه ملحقًا بمقال «مكتبتي».

ومن طرائف نسيانه ما ذكره في مقال «عيوبي» بمجلة الهلال (مارس ١٩٤٣)، قال: «ويلي ذلك في المرتبة أني سريع النسيان، وهي آفةٌ قديمة، أذكر أني بعد أن تخرجتُ في مدرسة المعلمين العليا، وعُيِّنتُ مدرسًا في المدرسة السعيدية الثانوية، وكان ذلك في سنة ١٩٠٩ اتفق معي زميلٌ فاضلٌ من أساتذة المدرسة عرف كرهي للعلوم الرياضية ونفوري منها =

أو تبخرها. كلَّا، وإنما معناه رسوبها فيما وراء الوعي، واستتارها عن العين، فهي موجودةٌ ولكنها غير مُحَسٍّ بها.

ولستُ أعود إلىٰ ما أكتب بعد الفراغ منه، مهما كان حرصي عليه وعنايتي به؛ فإني سريع الملل والضَّجر، ويندر جدًّا أن أستطيع تغيير شيء فيه.

ولهذه المناسبة أقصُّ عليك أني لمَّا قدَّمتُ روايتي «غريزة المرأة» للسيدة فاطمة رشدي[1] طلبت منِّي أن أطيلها قليلاً، فاعتذرتُ لها بأني كالتي وضعَت طفلاً، فإن كان قد جاء أنثىٰ فهي لا تستطيع أن تجعله غلامًا، وإذا جاء غلامًا فليس في طوقها أن تقلبه أنثىٰ، أو أن تجعله أجمل أو أقبح، أو تصلح له أنفه أو تصغِّر له أذنيه، فضحكت وقبلت عذري.

ولا يتمُّ هذا الكلام بغير ملاحظةٍ عن أثر الوراثة، فقد كان خطِّي في أول عهدي أقربَ إلىٰ الرُّقعة، ثم لم يزل يتغيَّر فيدنو من النَّسخ، ثم الخط الفارسي، حتىٰ استقرَّ علىٰ حدٍّ بينهما، فلا هو نسخٌ ولا هو فارسيٌّ، واتفق بعد ذلك أن عثرتُ علىٰ ورقاتٍ بخطِّ والدي -وكان يُحْسِن الخطَّ، ولكني أعني ورقاتٍ من خطِّه العادي لا الذي يحتفل فيه، ورقاتٍ من التي كان يكتب فيها مذكِّراته القضائية- فإذا خطُّه العادي فارسيٌّ.

ولا أحتاج أن أقول: إني لا أعرف التبييض؛ فإن الصِّحافة تعلِّم المرء الاكتفاء بالمسوَّدة، والاقتصار علىٰ استعمال القلم الرَّصاص، ولذلك يندر أن يتفق أن يوجد

= وعجزي عنها أن يعطيني كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة ليدن، وأن أعطيه ما نسَج العنكبوتُ عليه خيوطه أو بيوته من كتب الرياضة عندي، وأصبَح فجاء بالكتاب الذي وعَدَنيه، وظلَّ يتقاضاني إنجاز وعدي إلى آخر العام، ومن يدري؟ لعله لا يزال ينتظر، وإن كانت مكتبتي خاليةً من كتب الرياضة!».

(١) ممثلة مصرية لها فرقة مسرحية مشهورة، مثلت مسرحيات أحمد شوقي وكثير غيرها، ولها مذكرات مطبوعة، توفيت سنة ١٩٩٦.

في بيتي حبر، وإذا وُجِد فهو ممَّا يشتريه ابني لحاجته إليه في دروسه[1].

---

(١) تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في «أدب المازني» (١١): «وقد سألت عن مسودات المازني الفنية، فعلمت من الأستاذ العقاد أنه لم يسوِّد في حياته قط؛ لأنه لم يكن في حاجة إلى التسويد، فقد كان يكتب في سرعة وسهولة منقطعة النظير، يعينه سراوة طبع سمح، ونفس غنيَّة بفنون المعاني الزاخرة من الأحاسيس بألوان شتى».
ويقول الطنطاوي في «الذكريات» (٣/ ٢٨٦) في حديثه عن الأدباء الكتَّاب: «ومنهم من يكتبها في جلسة واحدة لا يمسح القلم ولا يعيد النظر في جملة، كالمازني وزكي مبارك في أكثر أحواله». وانظر: «حياة قلم» للعقاد (١٨١).
وقد مضى قوله في مقالة «الكتابة وحالات النفس»: «ولست أعرف أني راجعت كلامًا أكتبه أو عنيت به بعد أن أفرغ منه».

كيف أؤلف قصصي؟[1]

ليس لي طريقةٌ خاصَّة في تأليف قصَّتي، وكلُّ ما هنالك أنني حين أعزم علىٰ كتابة قصَّة أجلسُ إلىٰ مكتبي وأنا خالي الذِّهن إلا من هذا العزم، فإذا كتبتُ السَّطر الأول منها انحلَّت أمامي كلُّ مشكلة، وأخذتُ أكتب ما أريد بسهولة.

فإذا عرض لي موقفٌ من المواقف يحتاج إلىٰ الحلِّ عرضتُه علىٰ وقائع الحياة، وحلَّلتُه علىٰ طريقتها، ولكنِّي أُلْبِسُه مع ذلك ثوبَه الفنِّي.

ولست أعتقد أن هناك قصصًا خياليَّة وأخرىٰ واقعية؛ لأن المؤلف يستمدُّ وحيَه من وقائع الحياة، وقد يكون في الحياة ما هو أغربُ ممَّا يصوغه القصصيُّون، ولكن مهمَّة الكاتب القصصيِّ هي مهمَّة الفنَّان الذي يضفي علىٰ آثاره ثوبًا جذابًا من الفنِّ الجميل.

(١) «مجلة كل شيء والدنيا» (٢٢ مايو ١٩٣٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٥٥٩).

ساعة الوحي[1]

تمرُّ بالأديب ساعاتٌ يسلس فيها قياد القريحة، فتجود بالإنتاج الخصيب، وأخرىٰ تستعصي فيها القريحة فلا تجود بشيء. وفي هذا المقال يتحدث طائفةٌ من أدبائنا عن هذه الساعات كيف تأتي ومتىٰ؟

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني:

الأدب ليس عندي فنًّا، أو هو علىٰ الأصحِّ قد صار صناعةً لي، ولا أراني هويتُ بمقامه حين أقول ذلك، أو غضضتُ منه. وقولي: «إنه صناعة» هو الوصفُ الصَّحيح لما يصير إليه الأمر بعد طول المزاولة.

والمرء في شبابه تحلو له بعض الألفاظ فيتعلَّق بها، وإن كان لا يحيط بمعناها ومدلولها علىٰ الوجه الصَّحيح، ومن هذه الألفاظ كلمة «الوحي»، ومعروفٌ أن الحياة كلَّها قائمةٌ علىٰ الإيحاء، وأعني بالحياة حياة الناس من كلِّ وجه، والإيحاء متبادلٌ بلا انقطاع أو فتور، وكلُّ امرئ يستوحي من غيره ومن الأشياء، ويوحي أيضًا إلىٰ سواه.

وما من خاطرٍ أو خالِجَة إلا وهي وليدة خواطر أو خوالج أخرىٰ. ولكلِّ ما يدور في النفس الإنسانية من الآراء والإحساسات أو الخوالج علىٰ العموم أبوان كالإنسان نفسه، وجدودٌ مُعْرِقة في القِدَم تعريقَ أبينا آدم.

---

(١) «مجلة الهلال» (١ فبراير ١٩٣٧).

ولست أعرف «وحيًا» خاصًّا للأدب؛ فإن الأديب يستوحي من كلِّ إنسان، وكلُّ ما هناك من الفرق بين الأديب وغيره أن الأديب أسرع تلقُّفًا للوحي واستجابةً له.

وأما عن استعصاء الوحي أحيانًا، فإني أفهم منه أن الإيحاء إلىٰ النفس يكون ضعيفًا فلا يجد الأديب منه استجابةً كافية. ولا حيلة له في هذا، وخيرٌ له في هذه الحالة ألا يحمل نفسَه علىٰ استجابة لا يحسُّ منها استعدادًا كافيًا لها.

ومن الأدباء من يستعين -أو يقال: إنه يستعين- علىٰ الاستجابة بوسائل صناعية، وهذه سخافةٌ وإرهاق، وخيرٌ له وللأدب عند الفتور ألا يصنع أو يحاول شيئًا حتىٰ تنشَط نفسُه. وهذا ما أتوخَّاه أنا علىٰ الأقل، فما أحسستُ قطُّ فتورًا عن الكتابة، أو عن أيِّ شيء ممَّا أعالجه من أمور الحياة المختلفة، إلا انصرفتُ عمَّا أراه مستعصيًا عليَّ أو أرىٰ نفسي فاترةً عنه.

لماذا أستطرد؟[1]

استطردتُ الأسبوع الماضي[2] عن كتاب «في أصول الأدب»، فلم أكد أذكر اسمه حتىٰ ذَهَلتُ عنه، وأخذتُ في كلام آخر؛ لأني كالأطفال يشغلهم في الطريق ما تقع عليه عيونهم فيه، ويفتنهم ويستغرقهم حتىٰ لينسىٰ الواحدُ منهم أنه كانت له غايةٌ أخرىٰ أو مقصدٌ غير ذلك!

ثم إني أحبُّ أن أرسل نفسي علىٰ سجيَّتها، وأن أقول ما أقول غير محتفِل، لا «غير محتشِم» كما كان الشاعر العربيُّ القديم[3] يفعل.

وعلىٰ أني قلَّ أن أعرف ماذا أريد أن أقول قبل أن يجري به لساني، والكلام عندي كالامتحان لعقلي، ولساني أو قلمي «حنفيَّة» أفتحها لأرىٰ ما هنالك، وأعرف أفي رأسي شيء أم ليس فيه شيء، وما أكثر ما أدير الحنفيَّة -أعني أفتح فمي- فلا أجد قطرة، فأطبق شفتي وأسكت!

ولهذا تطول فترات صمتي؛ سترًا للخواء الذي في رأسي، فإذا أحسستُ أنه امتلأ عَظُم فرحي بذلك، وأطلقتُ لساني حتىٰ تفرَغ الذخيرة، وينضب المَعِين، فلا تسمع غير صوتي في المجلس حين أتكلَّم.

---

(١) «جريدة البلاغ» (١١ مايو ١٩٣٠)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٣٨١). وعنوان المقال في الأصل: «في أصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات»، واقتصرت على مطلعه ووضعت له هذا العنوان.

(٢) «جريدة البلاغ» (٤ مايو ١٩٣٠)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٢٠١).

(٣) أظنه يريد صاحبه ابن الرومي، في ديوانه (٦/ ٢٣٥٥).

ثم تراني ولا تسمع مني حرفًا، ويبصرني الناس ساكتًا، فيحسبون أني أفكِّر، ويتكرَّر ذلك ويكثر، فيقولون: فيلسوفٌ غوَّاص، وأنَّىٰ لهم أن يعرفوا أن الحوض فارغٌ وراء اللسان؟!

وكذلك شأني في كلِّ شيء.

فالمال أنفِق منه الموجودَ كثر أم قلَّ، ولا أطيق أن يبقىٰ منه شيء، كأنما يتعبني حملُه أو أجد له وخزًا، بل أنا أحسُّ له في كفي حِكاكًا يذهب متىٰ أفنيتُه، ثم أقعد كاسفَ البال.

والكتبُ أقرؤها وهمِّي أن أفرغ منها وأطويها، لا أن أعيَ ما فيها، فإذا رأيتُ موضوعها يمسكني ويرغمني علىٰ التمهُّل غالطتُ نفسي ووثبتُ إلىٰ آخر صفحة، وقلت معزِّيًا نفسي: ستنسىٰ ما قرأتَ علىٰ كل حال، فقد ابتلاك الله بذاكرة ليس أخونَ منها ولا أغدر، فافترضْ أنك قرأتَ وأزعمُ أنك نسيت! وأرمي الكتاب أو أضعه علىٰ رفِّه، ولكني أظلُّ بعدها أرمقه مجذوبًا إليه كلما مررتُ بمكانه، حتىٰ يضجرني هذا الحنينُ المُخامِر، فأتوكَّل علىٰ الله، وأسأله الصَّبر، وأتناول الكتاب مرَّة أخرىٰ.

ولكني أوشك أن أستطرد مرَّة أخرىٰ، فيحسُن أن أكبح نفسي وأردَّها إلىٰ كتاب الأستاذ الزيات، وهو كتابٌ فيه محاضراتٌ ومقالاتٌ في الأدب العربي، فأما المحاضرات فألقىٰ أكثرها في بغداد ...[1].

(١) ثم مضى في الكلام عن الكتاب.

نشاطي في الكتابة[1]

سألني صديقٌ عن شيء لماذا أفعله أو أتركه؟ فقد نسيت، فكان ممَّا أذكر أني قلته له: إني أعيشُ الآن كما أحبُّ لا كما يَجِب؛ فقد جاوزتُ الأربعين، والذي بقي لي من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدِّمة لا محالة حين ترتفع بي السِّنُّ، فلا يبقىٰ لي حينئذ من لذَّة الحياة إلا الوجود بمجرَّده لو أن هذا يفيد متعة.

فمن حقِّي في هذه الفترة التي أرجو أن تطول قبل أن يدركني الذُّوِيُّ والذبول أن أعتصر من الحياة كلَّ ما يدخل في الطوق اعتصارُه من المُتَع واللذاذات، فأنا أقرأ ما أشتهي، وأذهب إلىٰ حيث أريد، وأجالس من آنسُ به، ولا أبالي من غضب ممَّن رضي، فما في الحياة فسحةٌ لمبالاة ذلك، وأطلِق نفسي علىٰ السَّجيَّة كلَّما وسعني ذلك، وليس للناس عليَّ أكثر من أن أؤدِّي واجباتي فيما عدا هذا.

ودخل عليَّ وأنا أقول هذا لصديقي شابٌّ مهذَّب، فحيَّا وقال: إنه يقرأ الآن ديواني. ففزعتُ، ولكني ابتسمتُ له، وقلت: كان الله في عونك! ومن الذي ابتلاك به؟!

فأهمَل السُّؤال وجوابَه، وأقبل عليَّ يسألني: إنك تكتب بسرعة!

فقلت: إن الذي أعرفه أني أكتب في غرفة تحيط بها جدرانٌ من الحجارة لا تنفذ العينُ منها، علىٰ خلاف ما كان يصنع ديماس[2] الذي كان يكتب علىٰ ما يقال في دكَّان، فيجيء الناس وينظرون إليه من وراء الزُّجاج.

أريد أن أعرف يا صاحبي ماذا تعني بالسُّرعة؟

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ١٩٢، ٨ مارس ١٩٣٧)، وعنوان المقال في الأصل: «الطين الضعيف»، واجتزأت أوله ووضعت له هذا العنوان.

(٢) إسكندر ديماس، روائي فرنسي مشهور.

قال: أعني أنك تكتب إلىٰ مجلات كذا وكذا وكذا، وتكتب في صحيفة يومية أيضًا. هذا كثير. فمتىٰ تستطيع أن تكتب كلَّ ذلك؟! إنه نشاطٌ عجيب.

فقلت: جواب السُّؤال أني أكتب وأنا نائم! فالذي تقرؤه لي هو أضغاثُ أحلامي. وأما النشاط يا صاحبي فذاك أني ما زلتُ في شبابي.

فتركني وهو يقول: إنه يَدْرُس ما أكتب، وإنه ينوي أن ينشر بحثًا، فاستعذتُ بالله وحاولتُ أن أصرفه عن هذا العناء الباطل، فما أفلحت، فتوجَّهتُ إلىٰ الله عسىٰ أن يصرف عنِّي هذا السُّوء بطريقة ما.

وهل كثيرٌ علىٰ الله أن يشاء أن تشبَّ النار في كتبي التي عند هذا الشاب، أو تنقلب الدَّواة كلما همَّ بالكتابة، أو تجمد أصابعُه، أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل؟

وانفضَّ هذا المجلس، ولكن خاطرًا ثقيلًا ألحَّ عليَّ، وظلَّ يدور في نفسي، ذلك أن كلَّ من ألقاهم من إخواني يذكرون هذا النشاط، ولا يكتمون تعجُّبهم. فلم يسعني إلا أن أتعجَّب مثلهم، وإلا أن أسائل نفسي: أكان هذا يبدو لهم مني مستغربًا لو أنهم كانوا يرونني شابًّا في العشرين من عمري مثلًا؟

أتراهم يستغربون لأني في ظنهم خلَّفتُ شبابي ورائي، فالمنتظر من مثلي في اعتقادهم هو الفتور؟

ولم يعجبني هذا التأويل؛ فإنه ثقيلٌ علىٰ النفس.

وآثرتُ أن أقول: إنهم هم معدومو النشاط، ولذلك يتعجَّبون لي.

ثم إني لا أحسُّ إلا أني مازلتُ شابًّا، والعبرة بالإحساس، لا بهذه الشعرات البيضاء التي يقول ابن الرومي: إنها تزيد ولا تبيد، فهي مثل نار الحريق[1]، وما

---

(١) «ديوان ابن الرومي» (١/ ١٤١).

قيمة هذه الشعرات؟ لقد ابيضَّت وأنا في العشرين من عمري، وكنت يومئذ بها فرحًا مزهوًّا، وكنت أعدُّها مظهرًا للرجولة ومدعاة للاحترام، فماذا حدث حتىٰ صرتُ أبغضها؟ ...»[1].

(١) إلى آخر ما قال.

أثر الحرب على الكتابة والتأليف[1]

أكتب هذا الفصل الوجيز من مكانٍ ما علىٰ ساحل بحر الرُّوم[2]، وكان العزم أن لا أتناول قلمًا أو أخطَّ حرفًا أو أقرأ في كتاب، فلمَّا كان اليوم الثاني من مقامي في هذا الموضع القَصِيِّ الذي لا يختلفُ إليه أو يغشاه أحدٌ من غير أهله الوادعين ضجرتُ، ولم أعد أطيق هذا الجمود، وإن كان راحةً إلىٰ حين.

فاستخرتُ الله، وقطعتُ الراحة، ومضيتُ فاشتريتُ طائفةً صالحةً من الكتب لولا الظلام المفروض ليلًا ولا حيلة فيه ولا مفرَّ منه لكانت حسبي عشرة أيام وزيادة، ولكن القراءة لي والنوافذ مغلقة ليست ممَّا يطاق، علىٰ أني عوَّدتُ نفسي أن أرىٰ الخِيرة في الواقع، وما دام مطلبي الراحة فليكن الليلُ وقتها، وفي هذا الكفاية والحمد لله.

ومن الكتب التي اشتريتها كتابٌ صغيرٌ في مئتي صفحة أو تزيد، ألَّفه الأستاذ عبد الحميد جودة السَّحَّار وأخرجته «لجنة النشر للجامعيين»، وهو ترجمةٌ للصَّحابي المشهور أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وقد سمَّاه «الاشتراكي الزاهد أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله»[3].

---

(١) «جريدة البلاغ» (١٩ سبتمبر ١٩٤٣)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٤٦٩). وعنوان المقال في الأصل: «أبو ذر الغفاري للأستاذ عبد الحميد السحار» إلا أنه استطرد على عادته وفرغ من المقال قبل أن يتكلم على الكتاب.

(٢) البحر الأبيض المتوسط، ولعل المكان مرسى مطروح.

(٣) كان هذا قبل ثورة ١٩٥٢ وطغيان المد الاشتراكي، وكتب بعدها غير واحد في «اشتراكية الإسلام»، و«اشتراكية أبي ذر»، ووصفه بـ«الاشتراكي المطارد» و«أول ثائر في الإسلام»، وهو تعسُّف وخروجٌ عن سواء السبيل في قراءة التاريخ قراءة منصفة غير «مؤدلجة». انظر: «نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام» لمحمد الحامد، و«أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد» لمنير الغضبان.

و«لجنة النشر للجامعيين» لا تحتاج إلىٰ تعريف بها؛ فإن اسمها يدلُّ عليها، وهي تخرج كلَّ شهرٍ كتابًا[1] بحثًا أو قصَّة أو غير ذلك، وبعض ما تنشر لأعضائها. وهذه اللجنة ظاهرةٌ أخرىٰ من ظواهر ما يمكن أن نسمِّيه «عصر الإحياء»، ونعني به عصرنا في فترة هذه الحرب[2].

ومن العسير عليَّ وليس تحت يدي شيءٌ من المراجع في هذه البقعة المنعزلة أن أحصي ما أخرجته المطابع حتىٰ في هذه السَّنة من الحرب، ولكني أحسبني غير مبالغ حين أقول: إن الأقلام نشطت في سِنِي الحرب كما لم تنشط قبلها، أو علىٰ غير ما كان متوقَّعًا، وعلىٰ الرغم من ندرة الورق وتعذُّر الحصول عليه إلا بأسعار خرج بها طلَّابُ الربح الفاحش إلىٰ الشَّطط والإعجاز.

وهذا أثرٌ من آثار الحرب كان المنتظَر خلافُه، وكنت أحد الذين يقولون في بداية الحرب: إنه لا داعي للنشر الآن؛ فإنه عناءٌ وكلفةٌ باهظة، وكان ظنِّي أن القراء لن يُقْبِلوا علىٰ اقتناء الكتب بالأثمان العالية التي تقتضيها كثرة التكاليف.

ولم أكن وحدي في القول بإرجاء النشر إلىٰ ما بعد الحرب؛ فإني أعرفُ أن الدكتور زكي مبارك يذهب إلىٰ هذا أيضًا، ولعل كثيرين غيره كانوا علىٰ هذا الرأي، ولم أكن أرجئ النشر وحده، بل كنت أقول: إنه يحسُن إرجاء الكتابة والتأليف كذلك.

وكان باعثي علىٰ هذا أن هذه الحرب نارٌ سُبِكَ فيها العالمُ سبكًا جديدًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أنه يعرف علىٰ أية صورة جديدة سيخرج معدنُ العالم بعد هذا السَّبك الطويل.

---

(١) استدرك هذا المازني في مقالة لاحقة فقال: «وقد أخطأت في الفصل السابق، فقلت: إن لجنة النشر للجامعيين تخرج كل شهر كتابًا، والصواب أنها تنشر كل شهرين كتابًا، وقد أصدرت إلى الآن (أحمس) للأستاذ السحار أيضًا، و(رادوبيس) للأستاذ نجيب محفوظ، و(أبو ذر) رضي الله عنه وأرضاه، وفقها الله وجزاها خيرًا».

(٢) الحرب العالمية الثانية.

وكنت أقول للذين يحضُّونني علىٰ الكتابة والتأليف: إني ضالٌّ لا يهتدي، فقد قلبَت هذه الحرب كلَّ شيء، وأورثتني شكًّا كبيرًا في كلِّ رأي ومذهب وكلِّ ما نشأتُ عليه وما ألفتُ أن آخذ به. وأنا الآن أحسُّ كأني مخمورٌ مُدَارٌ به، ولا خير فيما يكتبه سكرانٌ مخلِّط، وإنما الخير أن يُنتظَر حتىٰ يفيق. ولست أحبُّ أن أتخلَّف عن زمني، أو أن أتلكَّا وراء الرَّكب الذي يَخُبُّ ويَضَع، وأخشىٰ إذا أنا كتبتُ الآن شيئًا أن يجيء وكأنه مكتوبٌ قبل الطوفان؛ لفرط ما غيَّرت الدنيا من دنيانا، أو ما تؤذن بالتغيير فيها.

كان هذا ما أقول، وإذا بالتيَّار يجرفني معه، ولكنه لم يحملني علىٰ مَتْنِه بكرهي، فقد أدركتُ خطئي، وعرفتُ أن الحرب قد غيَّرت ما بنفسي وهي تغيِّر ما بالدنيا، وإن كنت لم أفطن من قبل إلىٰ ذلك، وكان خطئي أني توهَّمتُ لمَّا شعرتُ برجَّة الحرب وزلزلتها أني واقفٌ أتفرَّج علىٰ الدنيا وأنظر إلىٰ ما يجري بها، وأن كل ما عليَّ هو أن أراقب الأحداث والغيرَ وأفتح عيني علىٰ الاتجاهات الجديدة للآراء والمذاهب وما تجدُّه الحرب للناس، وتؤدِّي إليه من تبدُّلٍ في التقاليد والعادات والنظم الاجتماعية وغير ذلك، ولم أكن أدرك أني أيضًا أتغيَّر شيئًا فشيئًا وإن كنت غير دارٍ أو شاعرٍ بما يحصل في نفسي.

ولولا أني اعتدتُ أن أراجع نفسي وأقيم لها الميزان، وأدير عيني في قلبي ورأسي -مجازًا كما لا أحتاج أن أقول-، وأغوص وأنقِّب وأتقصَّىٰ، أقول: لولا أني اعتدتُ ذلك لكان الأرجح أن أظلَّ أتوهَّم أني ما زلتُ كما كنت، وأني لا أعدو موقف المتفرِّج المترقِّب لها لما عسىٰ أن يكون المتهيِّئ للَّحاق بالرَّكب في حيثما اتَّجه. فلمَّا فطنتُ إلىٰ خطئي شرعتُ القلم وذهبتُ أكتب، وتناولتُ ما كنت كتبتُ من قبل، وعالجتُه بالتغيير والتبديل حتىٰ صار موافقا لرأيي الحاضر.

علىٰ أن نشاط الأقلام في هذا العهد ليس كلُّه ممَّا جاءت به أو أودعت إليه الحرب؛ فقد بدأت مظاهره قبلها، أو لعل الأصحَّ والأدقَّ أن نقول: إن الاتجاهات الحديثة في

التأليف بدأت قبل الحرب، ثم برزت وتأكَّدت في أثنائها، وعسىٰ أن يكون ممَّا يغلطنا في هذا الباب استغرابنا التوسُّع في النشر في إبَّان الحرب مع ندرة الورق وغلائه، ومن أجل هذا نتوهَّم أن النشر الآن فاق ما كان في أيام السِّلم، ولعل الأمر علىٰ خلاف ذلك، أو لعل كلَّ ما هناك أنه استمرَّ علىٰ الرغم من العوائق والمصاعب، فكان العجبُ منه مدعاةً للتهويل في أمره.

وإني أرجو بمشيئة الله أن أتناول كتاب «أبي ذر» في الأسبوع المقبل بالبحث، فليس بين يديَّ هنا ما أرجع إليه الآن، ثم بعد ذلك أشرع بمعونة الله وتوفيقه في بيان ما كان للحرب إلىٰ الآن من أثرٍ في الأدب علىٰ قدر ما أستطيع أن أتبيَّن.

الكتب والخلود[1]

ماذا يصنع أحدنا إذا قُدِّمت له صَحفةٌ فيها طعامٌ هذا أوَّلُ عهدِه به؟ قد يكون هذا اللونُ الجديد الذي يُطاف به عليه أشهىٰ ما ذاق أو يذوق في حياته، ولكنَّ جهلَه به حقيقٌ أن يكون مدعاةً للتهيُّب، فتراه يودُّ لو سمع من إنسانٍ كيف طعمُه؟ وما هو؟ ومن أيِّ شيء رُكِّب؟ ليطمئنَّ ويُقْبِل عليه آمنًا واثقًا من التذاذه، جامعًا بين متعة الخيال وحسن الحقيقة، ثم هو حتىٰ بعد أن يسمع ما ينفي قلقَه لا يملك إلا أن ينظر إليه ويحدِق فيه من قريب ومن بعيد، ويمدَّ إليه يدَه، ولكنْ في إشفاق، ولا يتناول ويأكل كما يفعل المجرِّبُ العارف بما ينتظر، بل يقلِّبه ويقدِّم ويؤخِّر فعلَ الفاحص المتقصِّي، ويحمِل إلىٰ فمه اليسيرَ من هنا وهاهنا في حذرٍ وأناة، ويحرص علىٰ ألا يتجاوز النَّزر الذي لا يملأ الفم، ثم يلوكُه ويتذوَّقه وعينُه ثابتة الحِمْلاق[2]، وعلىٰ وجهه سماتُ التفكير، حتىٰ إذا اطمأنَّ مضىٰ.

كذلك أراني مع الجديد من الكتب، أخشىٰ التَّغْثِيَة، وأخاف إضاعة الوقت فيما لا طائل تحته ولا محصول وراءه أو فيما هو شرٌّ من ذلك. ولو أني لم أكن قرأتُ شيئًا لما تهيَّبتُ جديدًا، ولا أشفقتُ أن يفسد عليَّ لذةً قديمة أفدتها، ولكنَّ إلفي للجيِّد من براعات الكتَّاب والشعراء يدفعني إلىٰ الضنِّ بها أن أنغِّص علىٰ نفسي متعتَها بهذا الجديد الذي لا أدريه كيف يكون!

ولا يتعجَّل القارئ فيحسب أني أُكْبِر القديمَ لأنه قديم، وأمقتُ الجديد لأنه جديد، فما لهذا محلٌّ في نظري، وليس مِن فضلِ أحدنا أن يتقدَّم به الزَّمن أو يتأخَّر.

---

(١) «جريدة الأخبار» (١٩ أبريل ١٩٢٤)، ثم في «حصاد الهشيم» (٢٥٩ - ٢٦٥).

(٢) حِمْلاق العين: ما يسوده الكحل من باطن أجفانها.

وقد أتردَّد في قراءة الكتاب مضىٰ علىٰ موت صاحبه مئاتٌ من السِّنين؛ لأنه يكون جديدًا بالقياس إليَّ وإن كان قديمًا من حيث عمره في هذه الدنيا.

ومع ذلك هَبْني كنت أؤثر كلَّ قديم علىٰ كلِّ جديد، فماذا إذن؟ من الذي يستطيع أن يتجرَّد من المودَّات والخصومات وما إلىٰ ذلك وأن ينصِف معاصرًا له الإنصافَ الواجب؟ من الذي يسعه أن يكون علىٰ يقين جازم من أن الزَّمن سيؤيِّد رأيه في معاصِره بعد عشرة أعوام أو عشرين أو مئة؟

كتابك يا معاصري بديعٌ رائع، أعترفُ بذلك ولا أنكره، ولكن أنفك الضخم يجعل شكلك مرذولًا أو مضحكًا، فتقلُّ روعة آرائك وحسنُها كلَّما تصوَّرتُ هذا الأنف الذي رُكِّب علىٰ وجهك، وليس يسعني إلا أن أتصوَّره وأُحْضِره أمام عيني!

وهذا الكاتب الآخر رجلٌ فاضلٌ عظيم المواهب، ولكنه صريحٌ جريءٌ يتقحَّم علىٰ الناس بآرائه فيهم، ولا يبالي من رضي ممَّن سخط منهم، وأنا من الساخطين أو المزاحِمين له في ميدانه، فليس يروقني أن أرىٰ كلامه مطبوعًا.

ولا سبيل إلىٰ شيءٍ من هذا وأشباهه حين تتناول كتابًا عليه جلالُ القِدَم، وبعيدًا عن عصرك بكلِّ ما فيه من الجلائل والصغائر.

وكم كتابًا تخرجه المطابعُ في العام، لا بل في الأسبوع أو اليوم؟ ليكن محصولُ المطابع أو ثمراتها -إن صحَّ هذا التعبير- كثيرًا أو قليلًا، فما من شكٍّ في أن ما تخرجه في اليوم أكثر ممَّا يسعُ أشرهَ الناس أن يقرأ في اليوم. وما أكثر ما نتلهَّف ونتحسَّر لأن الِوقت أضيقُ من أن يتَّسع لقراءة ما نودُّ أن نقرأ! من منَّا لا تضطرُّه المشاغل أو العلل أو المَلل أو غير هذا وذاك إلىٰ طيِّ كتابٍ يريد أن يلتهمه، أو إلىٰ الاكتفاء بواحدٍ من مئات؟ بل من منَّا لم يخطر له خاطرٌ لم يجد وقتًا لتقييده، ثم كرَّت الأيامُ واستسَرَّ الخاطرُ في ظلام النسيان، فكأنه ما مرَّ بالذهن؟

والزمنُ ماضٍ لا يثقِّل رجلَه ولا يتوقَّف، والمطابع دائرةٌ لا تكفُّ عن إخراج

الكتب ولا تبالي أقرأها كلُّ شُرَاتها أم أهملوها على رفوفهم. وإذا كان الناسُ اليوم لا يقدرون أن يقرؤوا كلَّ ما يُكْتَبُ فأَحْرِ بهم أن يكونوا في مُقْبِل الأيام أعجز!

فكَّرتُ في ذلك حين وردني كتابا الآنسة ميّ[1] وقبل أن أقرأهما، ودارت في نفسي هذه الخواطر وأنا أتأمَّل غلافيهما وورقيهما، وتمثَّلَت لعيني المطابع، فوثب بي الخيال إلىٰ جبل أوليمبيا[2] أو طار بي إليه، وتصوَّرت المخلَّدين من الكتَّاب والشعراء علىٰ قممه وسفوحه وفي مَخارمه[3]، وقد غصَّ بهم وشَرِق بجموعهم الوافدة عليه من كلِّ أمَّة، فأدركني العطفُ عليهم والمَرثية لحالهم ولما يعانونه من الضيق والكَرب، وتراءىٰ لي كأنهم ضاقوا صدرًا بهذا الحال، فحشدوا أنفسهم مؤتمرًا وقام فيهم الخطباء يشرحون آلامهم ومتاعبهم، ويفصِّلون أسبابها، ويصفون العلاج، ويطرحون الاقتراحات، وكأني أسمعهم يذكرون من أسباب هذا الزِّحام الذي لم يعد يطاق: فشوَّ التزييف في مؤهِّلات الخلود، وانتشارَ المطابع والصُّحف علىٰ ظهر الأرض التي لا تزال تتعقَّبهم مصائبها، ويقولون: إن الصُّحف دأبُها أن تقرِّظ وتمدَح، وإنها قلما تعنىٰ بالتَّفْلِية والنقد، أو تكترث للتمييز بين الجيِّد والرديء، حتىٰ اجترأ الضعفاء واغترَّ الأدعياء، وزادت الكتب بأنواعها حتىٰ عن حاجة الأسواق! وحتىٰ صار كلُّ امرئ بعد موته يأتي إلىٰ الجبل ومعه حملُ بعيرٍ من شهادات الصُّحف! فكَثُر بين الخالدين الواغلون ومن لا يستحقُّون إلا النار طعامًا لما سوَّدوا من ورق! وأصيب سكَّان الجبل بغلاء الآكال والأشربات الأولمبية غلاءً فاحشًا مزعجًا يهدِّد بحدوث قحطٍ عامٍّ!

ثم بدا لي كأنما أجري الانتخاب لتأليف لجنة تتولىٰ التحقيق ويوكَل إليها أن تراجع مؤهِّلات كلِّ من في الجبل، للتثبُّت والتحقُّق من أنه أهلٌ للخلود، وإعلان

---

(١) «الصَّحائف» و«ظلمات وأشعَّة»، كما مضى في «حظوظ الكتب».

(٢) هو جبل يقول القدماء: إن الخالدين يعيشون عليه بعد موتهم. (المازني)

(٣) جمع مَخْرِم، وهو الطريق في الجبل.

كلِّ ساكنٍ بإبراز أوراق اعتماده والمستندات التي يثبت بها حقَّه، مخافة أن تكون الأغراض الشخصية قد فعلت فعلَها وحَشَرت بين الخالدين من لا يستحقُّون إلا جحيم تارتاروس[1] التي يُقْذَف فيها بالعاصين!

ثم أفقتُ من هذا الحلم، وابتسمت، وتناولتُ «الصَّحائف» وأنا أسائل نفسي: ترىٰ غدًا كيف يكون حظُّ كاتبتك[2]؟ ليس في مصر من لا يشهد لها بالبراعة، وما من صحيفةٍ إلا وهي تثني عليها، فهل تكفي هذه الشهادات للسُّكنىٰ علىٰ جبل أوليمبيا؟

وفتحتُ الكتاب لعلي أهتدي إلىٰ رأي تسكنُ إليه نفسي، فقرأتُ فيه:

«ومن الكتَّاب من هو ملخِّص جلساتٍ ومدوِّن وقائع. ومنهم «كولمب» جاء لاقتحام البحار وركوب الأخطار واكتشاف عوالم مجهولة».

وهذا صحيح، والزمن يؤخِّر الملخِّصين والمدوِّنين ويُخْمِلُهم، ولا يقدِّم ويضع تاجَ الخلود إلا علىٰ مَفَارق من يكونون في عالم الأدب ما كان «كولمب» في عالم الارتياد.

وقد عَهِدنا الزمنَ لا يرحم ولا يعرف وسطًا، فإما النبوغ فالخلود، وإما الخمول! والأدباء من كلِّ طبقة عنده أكثر من أن يسعهم جميعًا جبلُ أوليمبيا، فلا بدَّ من التدقيق في الوزن تدقيقًا لا يغلُّ شعيرة، ولا يهمل شعرة، ولا يقام فيه وزنٌ لظروف الحياة وللأحوال المحيطة بالإنسان، وهل هي ممَّا يعين علىٰ إنضاج القوىٰ الكامنة أم ممَّا يقتلها ويقضي عليها؟

ولم أفكِّر في ذلك من أجل الآنسة ميّ، بل لأن كتابيها حرَّكا في نفسي هذه الهواجس. وأنا أيضًا أكتب وأقرض الشعر، فما مصير كلِّ هذا الذي سوَّدتُ به الورق، وشغلتُ به المطابع، وصدَّعتُ القرَّاء؟ إنه كله سيفنىٰ ويطوىٰ بلا مراء! فقد

(١) سجن أسطوري إغريقي في أعماق الأرض.
(٢) ميّ، وكتابها «الصحائف».

قضىٰ الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسدُّ الطريق، وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم.

ومن الذي يذكر العمَّال الذين سوَّوا الأرض ومهَدوها ورصَفوها؟ من الذي يعنىٰ بالبحث عن أسماء هؤلاء المَجاهيد الذين أدمَوا أيديهم في هذه الجلاميد؟

وبعد أن تُمَهَّد الأرض، وينتظم الطريق، يأتي نفرٌ من بعدنا ويسيرون إلىٰ آخره، ويقيمون علىٰ جانبيه القصور شاهقةً باذخة، ويُذْكَرون بقصورهم ونُنْسىٰ نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقةً رائعة، والذين شُغِلوا بالتمهيد عن التشييد!

فلندَع الخلود إذن، ولنسأل: كم شبرًا مهَدنا من الطريق؟

من أنا؟[1]

سألتُ نفسي مرَّة: ماذا أنا؟ وإني لأدري أني صحفيٌّ، وأني معدودٌ من رجال هذه المهنة، ولكنني لست كذلك في الحقيقة، وأيُّ صحفيٍّ هذا الذي لا يعرف دواوين الحكومة أين هي أو بعضها علىٰ الأقل؟ ولا يطيب له أن يلقىٰ الناس، ولا يُعنىٰ بتقصِّي الأخبار، ولا يثقُل عليه أن يبيت جاهلًا بما هو حادثٌ في الدنيا، ومبدؤه الذي لا ينزل أو يحيد عنه هو «خبَرٌ بفلوس، بكرة يبقىٰ بلاش»؟!

كلَّا، لستُ صحفيًّا إلا علىٰ التسامح، وإنما أنا رجلٌ كاتب، أو أديبٌ إذا شئت. فهبني أردتُ أن تكون لي بطاقةٌ تُذكر فيها مهنتي الحقيقية أو أن أثبتها في جواز سفري، فماذا أكتب؟ أأقول: إني كاتب؟ هل يكفي هذا في تعريف من يطَّلع علىٰ بطاقتي أو جوازي أني رجلٌ صناعته الكتابة؟ أوَلا يخشىٰ أن يتوهَّم أني كاتبٌ في دكَّان أو نحوه؟ أم أقول: أديب؟ ولكن هذه صفةٌ لا صناعة، فقد يكون الرجل أديبًا ولا يكتب شيئًا. أم أقول: إني مؤلف؟ فإني أترجِم أيضًا، وليس عملي في الترجمة بدون عملي في التأليف.

حدَّثت بهذا رَصِيفًا أديبًا، فقال: إنه وقع في مثل هذه الحيرة يوم أراد السفر إلىٰ خارج مصر بعد أن اعتزل وظيفته الحكومية، واحتاج أن يجدِّد جواز سفره أو يغيِّره، فلم يدرِ كيف يصف مهنتَه: موظَّف سابق من الأعيان؟ من أرباب المعاشات؟ كاتبَ؟ أديب؟ مؤلف؟ روائي؟ وأخيرًا حلَّ العُقدة هو وموظف الجوازات بإيثار كلمة «المؤلف».

---

(١) «جريدة أخبار اليوم» (٨ ديسمبر ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٥٦٥).

وغريبٌ ولا شكَّ أن يحتار كاتبٌ أديبٌ في وصف مهنته والتعريف بنفسه، وإنها لحيرةٌ تريك أن الأديب ليست له منزلةٌ اجتماعيةٌ مقرَّرة معترفٌ بها، كالتاجر، أو الميكانيكي، أو الجزَّار، وأكبر الظنِّ أن كثيرين من الناس لا يزالون يعتقدون أن الأدب والتسوُّل وحياة التطفيل مترادفات، علىٰ نحو ما كان مألوفًا منذ بضع عشراتٍ من السِّنين أيام كان الشاعر يعيش علىٰ ما يجود به عليه أهلُ الخير من ممدوحيه أو الجبناء ممَّن يهجوهم.

وقد غبَر زمانٌ كان الناس فيه يعدُّون الصَّحفيَّ متسوِّلًا، وبهذه العين كان الناس ينظرون إلىٰ معظم الصَّحفيين، فكان إذا أقبل صحفيٌّ علىٰ جماعة استعاذوا بالله في سرِّهم، وراحوا يفكِّرون هل ينقدونه «شِلِنًا» أو حسبُه «نصف فرنك»؟ أم تراه يُرجىٰ أن يكتفي بفنجان من القهوة يشربه ويتوكَّل علىٰ الله ويريهم قفاه؟ وكان الخوف من طول لسان الصحفيِّ -لا احترام عمله وتقدير مهمته- هو الباعث الأكبر للناس علىٰ إظهار التوقير له اتقاءَ لشرِّه، ثم ارتقت الصِّحافة ودخل فيها لفيفٌ من أهل الفضل وذوي المقامات الملحوظة، فرفعوا من شأنها وأعلَوا قدرها، حتىٰ لقد أصبحت تسمِّي نفسها «صاحبة الجلالة» و«السُّلطة الرابعة».

أما الأديب فلا يزال مركزه الاجتماعيُّ قلقًا، وصفته يشاركه فيها كلُّ من هبَّ ودبَّ. وسوادُ الناس يختلط عليهم الأمر حين تقول لهم: إن فلانًا أديب. ولعل منهم من يتوهَّمه من جماعة الشعراء الذين كانوا قبل ربع قرن يقعدون علىٰ دكَّة عالية في المقاهي ومعهم الرَّبابة، ويروون للناس قصَّة أبي زيد، أو عنتر، أو سيف «اليزل» كما تسمِّيه العامَّة[1].

ولعلَّ منهم من يتذكَّر حين يسمع بأديب أولئك الذين كانوا يسيرون في الشوارع يَسْتَجْدُون، وقد وضعوا علىٰ رؤوسهم طرابيش واسعة طويلة الأزرار، تختفي فيها

(١) وهو سيف بن ذي يزن.

الآذان، ثم يصفع بعضهم بعضًا وهم ينشدون ما عندهم من هزلٍ فارغ، ويردِّدون كلمة «كعكم» إن صحَّ أن تسمَّىٰ هذه كلمة، ويهزُّون رؤوسهم بعنف، فيدور «الزرُّ» في الهواء. ألم يكن هؤلاء يُدْعَون «الأُدباتيَّة»؟

ويخطر لك أن تبعث برسالة إلىٰ تلميذ صغير، فتكتب له في العنوان: «حضرة الأديب الفاضل»، وإن كان ما يزال يتهجَّىٰ، كأن من العيب في حقِّه أو الحِطَّة له والغضِّ من قدره أن تقول: «حضرة الطالب» أو «التلميذ».

وتكون أنت أديبًا له شهرةٌ في مصر والأقطار العربية كلِّها شرقًا وغربًا، ويرىٰ مركز البوليس أن يدعوك ليسألك عن شيء، فتتلقَّىٰ منه دعوةً هي عبارةٌ عن قصاصة كُتِب عليها: «مطلوب حضور النَّفَر فلان»، فاذا بدا له أن يتأدَّب معك أسقط كلمة «النفر» واكتفىٰ باسمك مجرَّدًا!

ولا ترىٰ أحدًا يذكر طبيبًا إلا مقرونًا بلفظ «الدكتور»، أو محاميًا أو مدرسًا إلا حرص علىٰ أن يقول: «المِيتر» أو «الأستاذ»، وهكذا، إلا الأديب والكاتب، فإن الناس يبخلون عليه بصفته الحقيقيَّة، أو لعلهم لا يبخلون بها وإنما يستصغرونها ويستقلُّونها، ويرون غيرها أدلَّ علىٰ التكريم.

ترىٰ لو أراد في زماننا هذا أديبٌ لا عمل له غير الأدب أن يتزوَّج، وتقدَّم إلىٰ أسرة يطلب مصاهرتها، وسألوه عن عمله أو صناعته، فقال لهم: إنه «أديب»، فماذا يكون رأيهم فيه وظنُّهم به؟ أما أنا فأرجِّح أن يتوهَّموه عاطلًا، ويحسبوه قد جاء يطلب مصاهرتهم ليسرق مالَهم!

صورة الكاتب[1]

أراني منذ بضع سنواتٍ أزداد كلَّ يوم انقباضًا عن الناس، وفتورًا عن لقائهم ومخالطتهم، ونفورًا من الاتصال بهم، وكنت قبل ذلك أحسُّ الضَّيعة إذا لم أجد من أجالِسُ وأحادِث، وكان يسرُّني أن أسمع صوتي لا شاديًا بل متحدِّثًا، وكانت لذَّة الحديث لا تعادلها عندي لذَّة، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنعُ كلَّ ما يراني الإخوان ذا ولوع به أو طلب له من بريء، وكانت الوحدة تتلفُ أعصابي، وتعصفُ باتزاني، وتكلِّفني شططًا.

ثم ألفيتني من حيث أشعر ولا أشعر أضيِّق الدائرة أو أوسِّع لنفسي المخرج من محيطها، وأتسلَّل شيئًا فشيئًا، حتىٰ أصبحتُ أتلفَّتُ فلا أجد حولي أحدًا، وصرتُ إذا احتجتُ إلىٰ لقاء صديق قديم أتردَّد، وبي من التهيُّب والخجل مثل ما يحسُّ المرء عادةً عند لقاء غريب لا عهد له به.

وقلت لنفسي مرَّة: يا هذا، إنك لتمشي في شارع غاصٍّ بالخلق، مائجٍ بالرائحين والغادِين، والرائحات والغادِيات، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهنَّ ساعةً أو بعض ساعة، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب، فلا يتَّفق أن تلقىٰ وجهًا تعرفه!

نصف المدينة القارئة تخرج إلىٰ هذا الشارع وتسير فيه، وكلُّ من ترىٰ معه صاحبٌ أو صاحبة، ولا تزال يده ترتفع بالسَّلام أو رأسه يهتزُّ بالتحية لهذا وذاك، إلا أنت فما يمرُّ بك من تعرفه أو يعرفك!

---

(١) «قصة حياة» (٨٨ - ٨٩)، والعنوان مني.

ومع ذلك أنت أشهرُ من يمشي في هذا الشارع، ولعل كثيرين ممَّن تأخذهم عينُك قد قرؤوا لك، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك، فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك ورقاتٍ مغلَّفة أو مجلَّدة، ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم.

ومن يدري؟ لعلهم يستغربون، بل يستنكرون أن يروك في الطريق! فكثيرًا ما تحصل في نفوس القراء صورٌ للكتَّاب ليس أغربَ منها ولا أعجب، وقد خابت لي أنا آمالٌ كثيرةٌ في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم؛ لأني وجدتهم علىٰ خلاف ما كنت أتخيَّلهم ممَّا أقرأ لهم.

والصُّورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون علىٰ هواه، وقلَّما يكون الأصل علىٰ حقيقته كذلك. والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصُّورة وتلوينها وإنطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعزُّ عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل، بل بالتغيير التامِّ في أحيان كثيرة، وهذه الصُّورة المتخيَّلة تكون من جهد النفس، والنفس لا يطيبُ لها أن يذهب جهدُها عبثًا، وأثقل من ذلك علىٰ المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه، وباهىٰ فيما بينه وبين نفسه به.

وما أكثر ما سمعتُ من الناس في أول لقاء: غريب! لقد كنَّا نتخيَّل المازني شيئًا جسيمًا له طولٌ وعرض، أو قولهم: لقد كنَّا نتصوَّر أنك تكوِّر علىٰ رأسك عمامةً عظيمةً وترسل لحيةً كثَّة، أو قولهم: أأنت المازني أم اختزالُه؟!

ومتىٰ كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثلُ أن أبقىٰ في أذهان الناس كما يشاؤون أن يتخيَّلوني، وأن أظلَّ عندهم كتابًا يقرؤونه ويرضون عنه فيما أرجو، أو لا يرضون، فقد استوىٰ هذا وذاك عندي!

زيتونٌ في قرطاس من الشِّعر[1]

في بعض سنوات الحرب العالمية الأولىٰ [2]أدركتني «حُرْفة الأدب»، أو سوء الحظِّ، أو قلَّة العقل إذا أردتَ الحقَّ، فأصبحتُ يومًا وليس في بيتي كِسرة من الخبز لا ناشفة ولا طريَّة، ولم أكن أفكِّر في يومي؛ فإن يومًا من الجوع لا يَقْتُل، وإنما كنت أفكِّر في شهورٍ طويلة كان لا معدَّىٰ عن قضائها في صومٍ ليس فيه إفطارٌ إذا لم يُحِلني الله القادر علىٰ كل شيء أنا وأهل بيتي كأهل الكهف، أو إذا لم يلهمني الله مخرجًا من هذه الضائقة، ولمَّا كان أهل الكهف -كآدم والمسيح عليهما السلام- آيةً لا مطمع لي في تكرارها فقد وجب أن أتولىٰ أنا تدبير الأمر.

ومن الأسرار التي لم أبح بها لأحد -حتىٰ ولا للأستاذ العقاد الذي كان يعرف دون غيره ما أنا فيه من الضَّنك واللَّأْواء؛ لأني خجلتُ أن أفضي حتىٰ إليه بذلك- أني قدَّمت طلبين إلىٰ شركة التِّرام وشركة المياه، لم تردَّا عليهما، ولهما العذر؛ لأني أهملت أن أضع طوابع البريد!

علىٰ أني لم أنتظر الردَّ، بل ذهبتُ إلىٰ صديق وقلتُ له: إن عندي ملء غرفة من الكتب، وأريد أن أبيع منها ما لا حاجة بي إليه، فسألني عن الباعث، فغالطتُ وقلت: يا أخي، إن أكثر ما قرأتُ يبعد أن أعود إليه، فما فائدة بقائها مرصوصةً عندي؟ فأدرك أني في ضيق، وكأنما أراد أن يهوِّن الأمر عليَّ، فقال: إنه هو أيضًا يبيع بعض كتبه كلَّما افتقر إلىٰ المال، فإذا احتاج إليها مرَّة اشتراها من السُّوق. وأشار عليَّ أن أبدأ بالنسخ الباقية عندي ممَّا أَلَّفتُ، ونهض معي إلىٰ ورَّاقٍ اشترىٰ هذه النسخ بالأُقَّة[3]!

---

(١) «جريدة أخبار اليوم» (١٦ أغسطس ١٩٤٧)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٦٤٩).

(٢) (١٩١٤-١٩١٨).

(٣) ثقلٌ قدره ١٢٤٨ جرامًا. وانظر ما سيأتي في «خاتمة» آخر الكتاب.

ووجدتُ أن بيع الكتب موردٌ كافٍ أستطيع الاعتماد عليه في اجتياز الشهور التي كنت أقدِّر أن تستغرقها الأزمة، فصرتُ أدعو بمعاونة أصدقائي أصحابَ المكتبات لمعاينة البضاعة، وكانوا أميِّين، وكان تسعيرهم للكتب عجيبًا، فقد كان الواحد منهم يحمل الكتاب علىٰ يده كأنما يَزِنُه، فإذا ألفاه خفيفًا قال: قرشين، وإذا كان ثقيلًا قال: خمسة، فأسفتُ لأني كنت أحرص علىٰ اقتناء الطبعات الحسنة الأنيقة الرقيقة الورق!

واستغنيتُ بذلك عن الاقتراض، وإراقة ماء الوجه، واجتزتُ الأزمة بسلام.

واتفق يومًا أن اشتريتُ من بقَّالٍ زيتونًا أسود، فلفَّه لي في ورقةٍ حملتها وانصرفت، فلمَّا صرتُ في البيت أفرغتُ الزيتون في صحن، وهممتُ أن أرمي الورقة، وإذا بها منزوعةٌ من ديواني الذي كنت قد بعتُ ما بقي منه بالأُقَّة!

من ذلك اليوم بدأ رأيي يتغيَّر في الأدب وقيمته، وما قيمة أدب مصيره إلىٰ دكاكين البقَّالين ومن إليهم؟! وما زلتُ أكتب وأنشر، وإن لي لنصيبي من الغرور الذي لا تطاق الحياة بغير قدرٍ كافٍ منه، ولكني حِلْتُ شيئًا فشيئًا حتىٰ صرتُ أشبه بنجَّار لا يأسَف علىٰ حجرة جلوس أو مائدة باعها، وقد خَلَت نفسي من ذلك الشعور بالأبوَّة لما أكتب، فليس يعنيني مصيره، وليس يثقُل عليَّ أن يقول فيه الناس ما قال مالكٌ في الخمر، ولا يطربني أن أسمع الثناء عليه، وإن كنت أستطيبه إذا كان القصدُ متوخَّىٰ فيه؛ لأن المبالغة توهمني أن صاحبها إما جاهلٌ أو ساخرٌ أو منافق.

وأكثر كتبي ليس عندي منه نسخة، وأكسل أحيانًا عن القراءة، ولمَّا كانت عادةً فإني أشعر بالضَّجر والضِّيق إذا لم أجد ما أقرأ أو إذا فترتُ عن القراءة، فأتسلَّىٰ بتَصفُّح بعض كتبي، فلا أراني راضيًا عنها، لا عن مادَّتها ولا عن أسلوبها، وأتعجَّب كيف كتبتُ هذا التخريف؟ وأتساءل: لماذا عَجِلت؟ لِم لَم أنتظر حتىٰ أنضج؟ وكثيرٌ من الناس ينضجون في شبابهم، أما أنا فقد احتجتُ وما زلتُ محتاجًا إلىٰ زمن طويل وتجربة حتىٰ أبلغ درجةً مرضية من النُّضج.

ومن ذلك أني قرأتُ ما قرأتُ من الأدب العربي علىٰ الخصوص كيفما اتفق؛ لأني لم أجد من يوجِّهني[1]، علىٰ خلاف الأدب الإنجليزي، فقد أحسن أساتذتي توجيهي فيه، وكنت قد ذهبتُ إلىٰ آراء في الأدب العربي اجترأتُ علىٰ إعلان بعضها، ولكني شعرتُ منذ بضع سنوات أن عليَّ أن أراجع هذا الأدب وأدرسه درسًا جديدًا منتظمًا[2].

وقد أسأل نفسي أحيانًا: ولم كلُّ هذا العناء؟ فلا يحضرني من الجواب إلا أني لا أعرف عملًا آخر أزجي به الفراغ وأضيع الوقت! وأن القراءة قد أصبحت عادةً ثابتة كالتدخين!

وأحيانا أتساءل: أليس الأولىٰ وأنا أزداد علىٰ الأيام نقصًا في القوة أن أزداد أيضًا جهلا؟ وأدير عيني فيما حولي، فأرىٰ أبنائي، فأتذكَّر معنىٰ أبياتٍ لابن الرومي بديعةٍ ارتجلها لمن قال: إن له أربعين من السِّنين وأربعين من الولد، فقال علىٰ لسانه قصيدة[3] لا أتذكَّر الآن سوىٰ مطلعها:

لـي أربعـون مـن السِّـنيـ ـنَ وأربعـون مـن الولـدْ

**

ثم يقول فيها علىٰ ما أذكر:

ومـن العجائـب أن نُسَـرْ رَ بمـا يُشَـدُّ بـأن نَهُـدْ

وهذه طبيعة الحياة، الأبناء -كما يقول العامَّة- «في الطَّالع، والآباء في النازل».

---

(١) أما توجيه عبد الرحمن شكري له فيبدو أنه كان في باب الشعر خاصة.

(٢) أشار المازني إلى إعادة قراءته للأدب العربي في غير موضع، وانظر «ماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟».

(٣) ديوانه (٢/ ٦٣٦)، ورواية البيت الثاني فيه للمفرد.

أدب؟! يا حسرة علىٰ ما ضيَّعتُ من العمر؟! ومتىٰ يا ترىٰ أنسىٰ الزيتون الملفوفَ في قرطاس من صفحة من ديوان شعري؟! شعري؟! تالله ما كان أخيبني وأضلَّ سبيلي!

إصلاح الكون بملِّيم[1]

يخيَّل إليَّ ممَّا أقرؤه في بعض الرسائل التي أتلقَّاها أني مطالبٌ بإصلاح هذا الكون المرزوء! لا لأني قادرٌ علىٰ ذلك وكفؤٌ له، بل لأن سوء الحظِّ قضىٰ بأن أكون رجلًا كاتبًا. وكيف تكون في الدنيا رزايا وبلايا ولا أعالجها بقلمي؟ وكيف أغضِي عن المرض والفقر والجهل، وأروحُ أتكلَّف ما لا أزال أتكلَّفه من العناء الباطل منذ أربعين عامًا، فمن قصص سخيفة، إلىٰ رواياتٍ لا قيمة لها ولا انتفاع بها، ومن دراساتٍ وبحوث أدبية لا طائل تحتها، إلىٰ غير ذلك ممَّا لا يغيِّر ما بالدنيا أو علىٰ الأقلِّ ما بمصر.

وما أظنُّ إلا أن غيري من أدباء جيلنا قد تلقَّىٰ أمثال هذه الرسائل السَّاخطة الناقمة المتسائلة عن هذا الأدب ما خيره؟ وما فائدته؟

وأحبُّ أن أؤكِّد لكتَّاب هذه الرسائل أنها تسرُّني ولا تسوؤني؛ فإني أستطيع أن أدرك أن أصحابها يُمِضُّهم ويقضُّ مضاجعهم ما في الدنيا من أسواء[2]، وصحيحٌ أن هذه الأسواء ليست بنت اليوم، وأن الدنيا ما خلت قطُّ من أمثالها، وأكبر الظنِّ أنها لن تخلو منها، ولكنَّ سخط الساخطين يكشف عن إدراكٍ صحيح، وشعورٍ كريم، وفي الكتابة به إليَّ وإلىٰ إخواني -وإن كان لا ذنب لنا- تنفيسٌ وتَسْرِيَةٌ وترفيهٌ عن أعصاب هؤلاء الكرام البررة، ثم إن النِّقمة والسُّخط أقوىٰ ما يستحثُّ الناس علىٰ طلب الإصلاح والسَّعي له ومعالجته.

---

(١) «جريدة أخبار اليوم» (٢٥ ديسمبر ١٩٤٨)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٧٢٣). والمِلِّيم (لغير أهل مصر، فما بهم حاجة للتعريف به) أصغر جزء من العملة، وفي الجنيه الواحد ألف ملِّيم.

(٢) جمع سُوء.

إني أحبُّ أن أقول كلمةً أو كلماتٍ وجيزة لحضرات الغيورين السَّاخطين لا علىٰ سوء الحال، بل علينا نحن معشر الأدباء والكتَّاب، وأول ما أودُّ أن أقوله هو أن الواحد منَّا مسكينٌ والله، بل مسكينُ المساكين. وتصوَّر أن يقضي إنسانٌ عمره معلقًا بساقيةٍ لا ينفكُّ يدور حولها، فإذا ونَىٰ أو فتَر أو كلَّ صاح به الموكَّل بالسَّاقية «عا» إذا آثر الترفُّق، أو ألهبَ ظهرَه بالعصيِّ أو بالسَّوط ليستأنف الدَّوران، ولا شكَّ أن كلَّ إنسان له ساقيةٌ هو مشدودٌ إليها، ولكن هناك فرقًا بين ثورٍ وثور!

وما الفائدة بين كل هذا العناء أو التدويخ؟ لا أدري! وليس في وسعي أن أهتدي إلىٰ حكمة يستطيع عقلي القاصر أن يطمئنَّ إليها ويسكن، وما أرىٰ أن غيري أدرىٰ وأهدىٰ، ولعلَّ من العزاء لنا في عنائنا وجهلنا أن كرتنا الأرضية كلَّها دائخةٌ مثلنا في دورانها الدَّائم حول الشمس وحول نفسها أيضًا، وليست بالوحيدة أيضًا، فما قيمتنا نحن؟ وما نحن إلا هباء علىٰ سطح هذه الكرة الدائخة!

ويضحكني في هذا المقام أن بعض المحبِّين كتب إليَّ يهنِّئني بأن صار لي بعد أربعين سنة من الجهد والنَّصَب دارةً أو فيلَّا! وإنه لمشكورٌ علىٰ تهنئته، ولكني أرجو أن يضيف فضلًا إلىٰ فضله فيدلَّني علىٰ مكانها! ولست بشاكٍ أو متذمِّر؛ فإن المال غادٍ ورائحٌ أو هو هكذا عندي، وحسبي من دنياي القوتُ الذي يقيمُ الأود، والمسكن الواقي، والملبس السَّاتر، والقدرة علىٰ مواصلة الكَدْح، وسأظلُّ فقيرًا إلىٰ الله، مغتبطًا بفقري إلىٰ ربِّي، وغنيًّا عن الناس، لا بالمال فما له عندي قيمة، بل بالصَّبر والقناعة بالسِّتر.

وأقول بعد ذلك: إن «الفقر والمرض والجهل» آفاتٌ مزمنة في دنيانا هذه، ولعل أشقىٰ الأشقياء هم الذين يعرفون مبلغ جهلهم وضعفهم، والذين يؤتون من الرزق الكفاية المهدَّدة بالنقص عن حدِّها.

ألم يقل المتنبي: إن الحياة إنما تصفو للجاهل والغافل والقادر علىٰ مغالطة نفسه في الحقائق؟[1]، أما الذي يعلم شيئًا ويدرك أنه غابت -وستظلُّ غائبة- عنه أشياء، والذي يُتْعِبُ جسمَه في مراد نفسه، والذي يسعىٰ وهو مشفقٌ ولا يزال دهرَه بين توفيقٍ مرَّة وإخفاقٍ مرَّات = فهذا هو الشقيُّ بلا مراء .

وليس ذنبي أو ذنب إخواني وزملائي أنَّا كتَّاب حتىٰ نطالب بإصلاح الكون الذي لا يبدو له وجه صلاح.

إن مطالبة الأديب بعلاج الفقر والمرض والجهل ليس لها مؤدًّىٰ إلا أن يكون نائحةً وندَّابة، وما جدوىٰ النَّدب ولطم الخدود؟ ومن ذا الذي يجهل بلاء هذه البلايا؟ من ذا الذي يخفىٰ عليه سوء حال السَّواد الأعظم من الناس في كلِّ بلد، لا في مصر وحدها؟

والكتابة في هذا نُوَاحٌ لا أكثر ولا أقلّ، وأظنُّ أن السَّاخطين علينا يسعهم أن يَنُوحوا كما يشاؤون إذا طاب لهم ذلك، ولا حاجة بهم إلىٰ تكليفنا النُّواح لهم والنَّدب من أجل أنهم يشترون المجلَّة التي نكتب فيها بقرشين، وما أرخصنا إذا فعلنا! إن من يكتبون لأخبار اليوم مثلًا كثيرون، وثمنها قرشان، فكلُّ كاتب ينوحُ ويندُب بماذا؟ بمِلِّيم؟ خيرٌ من ذلك أن نهجر الأدب، وأن ننقلب نوَّاحين محترفين؛ فإن هذا علىٰ قلَّة جدواه أربح، ولا بأس أحيانًا من أن يخسر المرء عقله ليكسب مالًا.

ويعيبنا السَّاخطون بأننا نكتب «سخافات»، ولست أرىٰ هذا عيبًا؛ فإنه هو الطبيعي، والذي لا معدًىٰ عنه، علىٰ الأقل أحيانًا، فليس أحدٌ بمعصوم، وكلُّ إنسان يعتريه الفتور والضعف والكَلَال ويُحْسِن السِّيرة ويسيئها، ويصدر عنه الطيِّب

---

(١) قال:

تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافـل	عمَّا مضـى فيهـا وما يُتَوقَّعُ
ولمن يغالط في الحقائق نفسَه	ويسومُها طلبَ المحال فتطمَعُ

والقبيح، وهو في أدبه إذا كان أديبًا يحلِّق أحيانًا، ويُسِفُّ أحيانًا أخرىٰ، وليس بإنسان من يسلَم من النقص والقصور والضعف.

والميزان الصَّحيح هو أن تجعل أمامك الكفَّتين -واحدة فيها الحسنات وواحدة فيها السيئات، في كل شيء، لا في الأدب وحده- فإذا رجَحَت الحسنات كان المرء إنسانًا أو أديبًا فاضلًا، وإذا رجَحَت السيئات وشالت الحسنات جاز لك أن تحكم عليه لا له، وليس الأدب إلا فرعًا من شجرة الحياة.

وقد أحسن ابنُ الرومي كلَّ الإحسان حين قال[1]:

قولا لمن عاب شعر قائله	أما ترىٰ كيف رُكِّبَ الشجرُ؟
رُكِّب فيه اللِّحاء والخشبُ الـ	ـيابسُ والشوكُ دونه الثمرُ
وكان أولىٰ بأن يهذَّب ما	يخلق ربُّ الأرباب لا البشرُ

علىٰ أن الأدب شيء، والإصلاح الاجتماعي شيءٌ آخر مختلفٌ جدًّا، ومن العبث والإفساد أن تكلِّف الأديب أن يتولىٰ عملًا من أعمال الإصلاح، وليس من المعقول أن تطالب النجّار أن يكون حدَّادًا، أو المهندس أن يكون طبيبًا، وليس للأدب غايةٌ خاصَّة، وهو إذا خدم المجتمع فإنما يفعل ذلك من طريقٍ غير مباشر، أي بتفتيح العيون، وإيقاظ القلوب، وتنبيه العقول ولو بإزعاجها، وتثقيف النفوس بوسائله الخاصَّة، لا بالنُّواح ولا بالوعظ وما يجري هذا المجرىٰ.

ومن هنا صحَّ قول من قال: إن كل نهضة قومية قد سبقتها نهضةٌ أدبية، وأن غير هَذا الترتيب مستحيل. والنهضة الأدبية مستحيلةٌ أيضًا إذا فرضت علىٰ الأدب وجهة خاصَّة وألزمتها طريقًا معيَّنًا.

وفي هذا القدر اليوم كفاية.

---

(١) ديوانه (٣/ ١٠٢٩). وفيه: «مادحه» موضع «قائله». وسيأتي كذلك.

في الكتابة والكتب[1]

كتب بعض الأفاضل يسأل عن «المازني» ما له لا يُخْرِج للناس كتبًا في هذه الأيام؟ وكتب إليَّ بعض الإخوان -قليلٌ منهم- يسألني عن السِّرِّ في هذا الصَّمت أو الكسل أو عن داعيه؟ ويحضُّني علىٰ التأليف والإنتاج. وروىٰ لي أصدقاء أوفياء أحاديث بهذا المعنىٰ دارت في مجالسهم.

فالمسألة إذن تستحقُّ أن أقول فيها كلمةً علىٰ سبيل البيان، لا الدفاع، فما يحتاج من لا يصنع شيئًا إلىٰ دفاع، أو هو عسىٰ أن يكون الدفاع منتظرًا منه، ولكنه يستطيع أن يلزم الصَّمتَ بلا ضيرٍ عليه.

وأحسب أن السُّؤال لم يبق له محلٌّ بعد أن أخرجتُ ثلاثة كتب في شهرين، دفعنا اثنين منها إلىٰ السُّوق، وهما «عود علىٰ بدء»، و «إبراهيم الثاني»، وفرغنا من أمرهما، وحبسنا الثالث وهو «ميدو وشركاه» بضعة أيام؛ لسبب خاصٍّ، ثم نلقي به في الموعد الذي آثرناه له.

غير أن هذا لا ينفي أني لبثت زمنًا لا أخرج شيئًا من كتبي فهل كان لهذا داعيه؟

ويحسُن قبل كل شيء أن أنفي[2] تهمة الكسل، وإن كنتُ أعترف أني أكسلُ خلق الله، وأزهدُهم في كلِّ عمل، وأرغبُهم في راحة؛ فإن عندي بضعة كتب أخرىٰ -خمسة إذا أردتَ الدِّقَّة- لا ينقصها إلا أن أجد ما يشجِّع علىٰ تهيئتها للطبع، كأن أجد الورق أو المال الجمَّ الذي يكفي لاقتناء ضيعة، فأشتري به هذا الورق العزيز الذي صار يساوي وزنه ذهبًا، أو يتيح الله لي ناشرًا ظريفًا منصفًا لا يَغْبِن، وقنوعًا لا يطمَع، ولا

(١) «جريدة البلاغ» (١٣ يونيو ١٩٤٣)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٧٥).

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: أتقي.

يجعل همَّه ووُكْدَه[1] أن يُقْنِع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه! أو ناشرًا يتحلىٰ بهذه الصِّفات الحميدة، وعنده فوقها الورق الكافي.

وما أكثر الناشرين الظرفاء! ولكن البلاء هو الورق، وأنك لا تعرف هؤلاء الناشرين، أو لا تستطيع أن تَعْرِض نفسك علىٰ من تعرف منهم، أو أنا علىٰ الأقلِّ لو يدخل هذا في طاقتي، وإني لأوثر للكتاب أن يُحْرَق علىٰ أن أعْرِضه فيُعْرِض عنه من تخاطبه فيه، وعسىٰ أن تكون هذه أنفةٌ لا مسوِّغ لها، ولكن الله يخلق الناسَ كما يشاء هو لا كما يشاؤون.

وليس بكسلان فيما أظنُّ من يستيقظ قبل الطير، وقبل أن يتنفَّس الصُّبح، صيفًا وشتاءً، ثم يتوكَّل علىٰ الله ويجلس إلىٰ مكتبه من الخامسة إلىٰ ما بعد التاسعة، ويقضي هذه السَّاعات الطِّوال التي يطيبُ فيها النَّوم في قراءة أو كتابة، ثم يغدو علىٰ «البلاغ» فيؤدِّي له حقَّه، ثم ينصرف إلىٰ غير ذلك ممَّا يكون عليه عمله، ثم يتغدَّىٰ متوخِّيًا التقليل والتخفيف، ويستريح نصف ساعة، ويقوم مرَّة أخرىٰ إلىٰ كتبه وأوراقه، حتىٰ إذا كانت السَّادسة تمشَّىٰ قليلًا أو باشر أمرًا أخر، ثم عاد في الليل علىٰ مكتبه فبقي فيه إلىٰ منتصف الليل وزيادة، إلا أن يَسْقَم فلا يبقىٰ له مَعْدًىٰ عن الكفِّ.

وليس بعجبٍ[2] وهذا ما وصفتُ من سيرتي علىٰ الجملة أن ينتابني الملَلُ أحيانًا حتىٰ لأهمُّ بأن أوقد نارًا ألقي عليها كلَّ ما عندي من كتب وأوراق، وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيقُ النظر إلىٰ كتاب، وأروح أتساءل: ما الفائدة؟! فيم كلُّ هذا العناء؟! لن تنقص الدنيا شيئًا إذا نقصَت هذا المازني! فما أراها زادت به، وإنها لتستغني عن أجيال متلاحقة من الكبار والصغار، والصالحين والطالحين، وكأنهم

(١) الوكد: السعي والقصد والجهد. وفي مطبوعة «الأعمال»: «وكده» بواو واحدة، والكدُّ: الاشتداد في العمل والإلحاح فيه. والمثبت أشبه.

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: معجب.

ما كانوا عليها ولا دبَّت بهم الرِّجلُ فوقها، أأقول: فوقها؟ وما فوقها هذا أو تحتها؟ وأين هو؟ وما هذا الإنسان؟ وما خبره علىٰ كلِّ حال؟ وليس هذا من الشكِّ في حكمة الله سبحانه، ولكنه من فرط الإحساس بالنفس واستهوالها أن يكون شيئًا ثم يصبح لا شيء وعدمًا مطلقًا إذا كان هناك عدمٌ مطلقٌ وعدمٌ غير مطلق، أو من العجز عن فهم ذلك، أو عن رياضة النفس علىٰ السُّكون إليه.

وأسأل نفسي أيضًا: وهَبْني لَم أكن كتبتُ أو نشرتُ شيئًا، فماذا كنتُ خليقًا أن أخسَر، أو ماذا كان الناس خليقين أن يخسروا؟ لا شيء! فأما أنا فكنتُ آكل وأشرب، وأعيش كما يعيش الأكثرون، ولا أرفع عيني عن الأرض، ولا أصعِّد طرفي إلىٰ السماء. وكفىٰ بهذه نعمة، وبحسب المرء من المتاعب والمنغِّصات ما يكابده أمثاله، ولا حاجة به إلىٰ زيادة تجيء بها القراءة والكتابة والتفكير.

وتالله إن الإنسان لمسكين! صار إنسانًا لمَّا استطاع أن يقف علىٰ رجلين اثنتين، ووَسِعَه بفضل ذلك أن يُجِيل عينَه فيما حوله وأن يرفعها أيضًا إلىٰ فوق، وقيل: إنه ارتقىٰ[1]، ولكن ارتقاءه حَرَمه ما كان ينعَم به وهو حيوانٌ يمشي علىٰ أربع كغيره من الحيوانات؛ لأنه صار الحيوان الوحيد في كلِّ هذه الدنيا الطويلة العريضة الذي لا مفرَّ له في العمل والكَدْح ليأكل ويشرب، فهو لا يأكل إلا إذا سعىٰ و كدَّ، ولا ينال إلا بقدر ما أوتي من القدرة، وهو الحيوان الوحيد الذي يعقِّد الأمور علىٰ نفسه ويخلقُ لها المشاكل ويمنِّيها الأماني، ثم يروحُ يعالِج أن يحلَّ هذه العقد، أو يُدْرِك مُنَاه، أو يحقِّق ما يحلم به، ولو ذاق في سبيل ذلك الأمرَّين!

علىٰ أن هذا استطرادٌ مُغْرٍ لم يكن في النية، فيحسُن أن أُقْصِر، وإلا اتَّسع مجال القول فلا ننتهي في يومنا هذا.

---

(١) حكاية هذا القول على سبيل السخرية المازنية المعهودة.

وأعترف أن أول كتاب لي أخرجتُه -وكان ديوان شعرٍ سامحني الله وعفا عني- أفرحني، فكنت لا أنفكُّ أتناوله وأتأمَّل غلافه وورقَه، وأقلِّب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذلٌ مزهوٌّ، وأستقصي أن أسمع مدحَه والثناء عليه، فإذا فاتني ذلك اشتهيتُ أن أسمع ولو قدحًا؛ فإن كلَّ ذكرٍ له ولو بالسُّوء خيرٌ من الإهمال كأنه لم يكن!

ولكني الآن أتناول الكتاب من كتبي الحديثة، فأقول له: يا هذا إني كتبتُك -صنعتُك- في عشرة أيام أو عشرين مثلًا، (فإن صبري قليلٌ وسريعُ النفاد، ولستُ أطيق أن يستغرق مني الكتابُ -يشغلني بنفسه- أكثر من شهر)، وها أنت ذا قد خرجتَ إلىٰ الدنيا، كنتَ مستكنًّا في رأسي، بل لم يكن لك وجودٌ أحسُّه وأفطن إليه، ثم صرتَ كقِطَع السَّحاب السَّابحة، وأكبر الظنِّ أن ليس فيها ماء، ولكن خاطرًا خطر لا أدري كيف؟ أو لِم؟ فضُمَّت قِطعُ السَّحاب وكِسَفُه[1] بعضها إلىٰ بعض وصارت متراكمة، حتىٰ سدَّت الآفاق فيما أحسُّ، فإما أن يخرج الوَدْقُ[2] من خلالها ويسيلُ وإلا اختنقتُ، كالحبلىٰ جاءها المَخاض وإما أن تضعَ وإلا هلكَت، والآن وقد صرتَ شيئًا يا هذا، فما أدري لماذا تعبتُ فيك؟ ولا ماذا أفيدُ منك؟ وليس وجودك -بعد أن وُجِدتَ- وعدمك كما كنت سببين فيما أرىٰ أو أشعر، ولكن لماذا أجشَّم هذا العناء كلَّه؟ ما قيمتك؟ ما محلُّك بين مخلوقات الخيال أو العقل من أمثالك؟ إني لأخشىٰ أن تصبح صعلوكًا بين ملوك الكتب، فأكون قد جنيتُ عليك كما جنيتُ علىٰ أولادي الآخرين! ومن أدراني أنك لا تحسُّ؟ أمِن أجل أنك لا تنطقُ تكونُ غيرَ مُحِسٍّ مُدْرِك؟ وعجيبٌ أمرك! إنك إبانة، ولكنك مع ذلك أخرس لا يُبين عن نفسه! وِما هي نفسُك؟ أهي ما صنعتُ أنا بما كتبتُ أم لك نفسٌ أخرىٰ قائمةٌ بذاتها بعد أن صرتَ شيئًا قائمًا بذاته؟

---

(١) قِطَعه، وفي الكتاب العزيز: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الروم: ٤٨].

(٢) المطر.

وأظلُّ أعذِّب نفسي بأمثال هذه الخواطر حتىٰ أنتبه، فأكفُّ وأهمُّ بأن أرمي الكتاب، ثم أشفق أن يكون قد أوتي الحسَّ ورُزِق الشُّعور فأترفَّق به، وقد أربِّت عليه، ويا ربما تبسَّمتُ له ملاطفًا مجاملًا كأنه يفهم عنِّي، وأتركه وقد كبر في ظني أو وهمي -من يدري؟- لعله يستوحش وحده في هذه الغرفة، وعسىٰ أن لا يجد الخِلَّ الموافق له وإن كثرت الكتبُ حوله! وأقوم حين يخطر لي هذا، فأرتِّب الكتبَ ترتيبًا جديدًا يضمُّ المؤتلفة منها حتىٰ لا تُشْقِيها الفُرقة أو تثقل عليها صحبةُ المخالفين.

ويخيَّل إليَّ أحيانًا أني أسمع لغطًا في المكتبة، كأنما تتحادث الكتبُ وتتحاور أو تتهامس، فأبتسم وأقول: ليتها تفعل!

وكثيرًا ما أجلس وأروح أتصوَّر حوارًا دائرًا بين كتابين، ويطيبُ لي هذا حتىٰ لتمضي السَّاعاتُ وأنا ذاهلٌ إلا عن الحديث الذي أجريه بينهما، ولستُ أذكر من هذه الأحاديث إلا طيبَ متعتها، ولولا نسياني وكسلي لسقتُ لك بعضه، علىٰ أني أرجو أن أنشط فأثبته.

وأقول الحقَّ: إني ما استطعتُ قطُّ أن أَسْلُكَ الكتبَ مع الجماد؛ فإنها عصارة العقول والنفوس، وإنها لورقاتٌ ولكنها أيضًا معانٍ حيَّة تلاقي عندك ما يوائمها فتتزاوج هذه وتلك وتتولَّد معانٍ جديدة حيَّة، وهل يجيء الإنسانُ إلىٰ الدنيا إلا علىٰ هذا النحو؟! وما أكثر ما تثير هذه المعاني التي نقرؤها في الكتب من معاركٍ في نفوسنا وتَعْقِد من مؤتمراتٍ تطول أو تقصُر، وتُثْمِر أو تُعْقِم، فكيف يُعَدُّ من يفعل هذا جمادًا؟ حاشا لله!

النقد والإعلان[1]

كففتُ سنواتٍ عن النقد الأدبي؛ لأني أردتُ أن أريح نفسي من عناءٍ باطل، وكان الكتَّاب والشعراء يهدون إليَّ كتبهم، فأُعنىٰ بها وأتناولها بما يعنُّ لي من الرأي، وأضِيع في ذلك وقتًا وأنفِق جهدًا، ولعل غير هذا أشهىٰ إليَّ وأحبُّ، وعسىٰ أن أكون مفتقرًا إلىٰ الوقت والجهد فيما هو أردُّ عليَّ.

وكان أصحاب الكتب يلحُّون عليَّ أن أبدي لهم رأيي فيها، وكنت أحرص علىٰ مرضاتهم علىٰ قدر ما يسعني أن أفعل، فأتلطَّف معهم وأكبح نفسي عمَّا أعرف أنه يسوؤهم، وأزجرها عن الإغلاط والشدَّة والعنف، وأدور أبحث عمَّا يستحقُّ الثناء لأقول خيرًا، ومع ذلك ما كنتُ أرىٰ أحدًا يرضىٰ، ووجدتني لم أكسب إلا العداء والبغض والذمَّ، وليس هذا بضائري، ولكن لماذا أحتقبُ الذمَّ إذا وسعني أن أتَّقيه وأعفِي نفسي من ثِقَله؟!

هذا شاعرٌ لا يزال مذ كتبتُ عنه منبِّهًا إلىٰ ضعف لغته، وسوء استعماله للألفاظ، وغلطه، يزعمني حاقدًا متحاملًا، ومضطغنًا واجدًا، ولا ينفكُّ يحدِّث الناس بما يحسبني منطويًا عليه له من الحفيظة، كأنما كان قد قتل أبي، أو أفجعني في بعض ما أعتزُّ به وأزهىٰ.

وهذا شاعرٌ آخر يسأل جلساءه: لماذا أثخن المازني فِيَّ علىٰ هذا النحو وهو يعلم أني مريضٌ مُشْفٍ علىٰ التلف؟!

---

(١) «جريدة البلاغ» (٤ فبراير ١٩٣٧)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٢٧٧).

وهذا كاتبٌ بلغ من غيظه وحنقه أن صار مغرًىٰ بشتمي في كلِّ مجلس منذ أربع سنوات، واتفق مرَّة أن واحدًا من إخواني ملَّ هذه اللَّجاجة في الطعن السَّخيف، فاعترض، فتشاتما وتضاربا بالكراسي كما كان يفعل «الفُتوَّات» قديمًا في القهوات والأفراح، إذ ينهض الواحدُ منهم فيضرب المصابيحَ أول ما يضرب؛ لتظلم الدُّنيا، ويَسُود الهَرج، وتعمَّ الفوضىٰ، ويتعذَّر أن يعرف المرء وجه من يضربه.

لهذا وأمثاله قلت لنفسي: إن الأولىٰ بي أن أكفَّ عن عملٍ لا حمدَ عليه ولا مثوبة، ولا عائدة لي منه إلا وجعَ القلب والدماغ، وما لي أنا أُجشِّم نفسي قراءة كتبٍ لعلِّي لا أريد أن أقرأها، وأضيع وقتي فيها وغيرها أجدرُ بذلك، وإذا كان الناس لا يرضون إلا عن المدح بالحقِّ أو بالباطل فما قيمة النقد؟! ولم لا أريح نفسي وأريحهم، وأفرغ لما أحبُّ؟!

وقد كان. انصرفتُ عن النقد، وأعلنتُ ذلك، ولكنِّي لم أفز بالراحة التي حدَّثتُ نفسي بها، ولا بالرضا الذي طمعتُ فيه، وكان إخواني أول من غضبوا عليَّ وأنكروا منِّي ما توهَّموه إهمالًا وغمطًا، وإنهم لَأكبر من أن يُهْمَلوا، وأجلُّ من أن يسعني أن أغمطهم أنا أو سواي، فهذا يعتب صراحة، وذاك يسرُّ بعتبه إلىٰ إخوانه وإخواني، وما قصَّرت عَلِم الله ولا جرىٰ لي في بال أن أهمل كتبهم؛ فإنهم فوق ذاك، وإنما كرهتُ لنفسي أن أظلَّ عرضةً لما يسعني اجتنابه بلا عناء، ولم يكن يسعني أن أقصِّر من ناحية وأمضي من ناحية أخرىٰ.

ولم يخلُ الأمر ممَّا يُضْحِك؛ فقد كانت الكتبُ تَرِدُ بالعشرات، فيهولني ذلك ويفزِعني، وأروح أتساءل: متىٰ يتاح لي أن أقرأ كلَّ هذا الكَوم العظيم؟ ومتىٰ يتسنَّىٰ لي أن أقرأ كتبي الخاصَّة أو أكتب فصولي وقصصي وصوري؟ لو كان في اليوم أكثر من أربع وعشرين ساعة لبدا لي وجهُ حيلة، ولكن هذه السَّاعات الأربع والعشرين لا تُمَطُّ، وللطاقة حدودها.

فلمَّا أقصرتُ عن النقد صار أصحابُ الكتب يَعْدِلون بها عنِّي، فأتشهَّد وأحمد الله، ولا أشتري أو أقتني منها إلا ما أتوقع أن أجد فيه خيرًا.

واتفق يومًا أن جاءني ناشرٌ لا يعرفُ أني تبتُ إلىٰ الله وأنبتُ، ودفع إليَّ بالجزء الأول من كتاب ينشره، وقد ظهر منه جزءان، ورجا منِّي أن أكتب عنه، ووعَد أن يقدِّم إليَّ الجزء الثاني في يوم عيَّنه، فأقبلتُ علىٰ الكتاب أقرؤه، وجاء اليوم الذي عيَّنه، فزارني الناشر الفاضل ومعه الجزء الثاني، فشرعت أحدِّثه بما رأيته في كتابه، فسألني: هل كتبتَ شيئا؟ فقلت: لا، ولم أزده، فقال: إذن أعود إليك في يوم آخر. ومضىٰ عنِّي بالجزء الثاني معه ضنًّا به علىٰ من لا يكتب! وتكرَّر ذلك بضعة أسابيع، فأحسَّ الرجل حرجًا، وخُيِّل إليَّ من سلوكه أن به خجلًا، وأنه يتردَّد في أمر، فبعثتُ إليه من يشتري لي الكتاب كلَّه تعويضًا له عمَّا خسر حين أهدىٰ كتابه إلىٰ من لا يعنىٰ بالكتابة عنه، وعرف هو ذلك فيما بعدُ فانقطع.

وقد قلت لنفسي منذ بضعة أيام: لماذا ينتظر مني الناس أن أتناول كتبهم، ولا أراني أنتظر من أحدٍ أن يكتب عمَّا أخرجه حين أخرج كتابًا؟ أترىٰ هذا عملي وأنا لا أدري؟!

ولكني أعرف أن لي سبيلًا غير هذه، وقد مضيتُ فيها وحمدتُ الله علىٰ توفيقه، واعتقدتُ أني ارتحتُ بعد إذ وقعتُ علىٰ ما يوافقني، واهتديتُ إلىٰ طريقة خاصَّة بي للعبارة عما أريد.

فلماذا لا يدعني الناس أفعلُ ما أحبُّ وأذهب حيث أشاء؟ ما لهم يأبون إلا أن يشغلوني عن شأني وأنا لا أريد ولا أحاول أن أشغلهم عن شؤونهم؟ وليتهم يرضون إذا كتبتُ، إذن لكان في هذا بعض العوض.

وماذا يبغي صاحب الكتاب؟ أليست غايتُه أن يَرُوج ويقرأه الناسُ فيربح؟ ومتىٰ كان هذا هكذا فإني أرىٰ في الإعلان الكفاية جدًّا، وقد صار الإعلان وسيلةً للترويج

لا تخفق أبدًا إذا عرفت كيف تصنع هذا وتلحُّ به علىٰ الجمهور. ومن كان لا يحبُّ أن يستغني بهذه الوسيلة التي أصبحت ميسَّرة عن النقَّاد وعَنَتِهم ورذالاتهم ودلالهم وتعالُمهم وفلسفاتهم البايخة فإني أشفِق علىٰ عقله، وأسأل الله أن يشفيه.

وقلت لنفسي أيضًا: إني لا أعرفني طلبتُ قطُّ من إنسانٍ أو توقَّعتُ منه أن يكتب عن كتاب لي، وإنما الذي أعرفه أني أرمي بكتبي في السُّوق، فمن شاء أن يقرأها فهو المسؤول، ولا ذنب لي ولا تبعة عليَّ، فلماذا لا يصنع غيري مثل ما أصنع؟ أم ترىٰ هذا لأني سيء الرأي في نفسي وهم علىٰ نقيض ذلك؟ ولكنَّ حُسْن رأيهم في نفوسهم لا ينبغي أن يكون من ذنوبي أنا!

وفي وُسْع من شاء ممَّن يغالون بأنفسهم أن يكتب في الإعلان المنشور المأجور ما يشاء من المدح المُغْرِي، فلن يحاسبه عليه أحد؛ لأنه إعلان. وهذا علىٰ كلِّ حالٍ أجدىٰ من مقالاتٍ في النقد قد لا تخلو من ملاحظةٍ عسىٰ أن تصرف القارئ عن شراء الكتاب. ولماذا يقعد المرء ينتظر الثناء من إنسانٍ إذا كان الله قد يسَّر له طريقةً جديدةً لمدح النفس، لا غضاضة فيها، ولا حرج منها عليه.

وتعالَ إلىٰ الحساب. يطبع المرءُ الكتاب، ثم يحمل منه عشراتٍ من النسخ ويدور علىٰ الصُّحف فيقدِّمها إليها، وعلىٰ الكتَّاب فيهديها إليهم. هذه العشرات من النسخ لو باعها ونشر بثمنها إعلانًا لكان ذلك أجدىٰ عليه. وهو يستطيع أن ينشر الإعلان حين يحبُّ، ولكنه لا يستطيع أن يحمِل النقَّاد علىٰ الكتابة حين يكون ذلك مفيدًا في لفت النظر إلىٰ الكتاب المعروض للبيع.

وللإعلان كتَّابه المهرة البارعون، والأخصائيون الحاذقون، والاستعانة بهم سهلة، ولا كلفة فيها ولا خسارة منها، وهؤلاء الكتَّاب الأخصائيون في صَوغ عبارات الإعلان المُغْرِي أدباء في الحقيقة من طرازٍ جديدٍ أخرجه هذا الزمان، وهم يكتبون ما يشتهي المؤلف أو المترجم، ولا يمنعهم من ذلك أو يصدُّهم عنه ضميرٌ أو ذمَّة

أو ما يجري هذا المجرىٰ؛ لأنهم لا يقرؤون ما يكتبون إعلانَه، ولا يضعون عليه أسماءهم، ولا تلزمهم من جرَّاء ذلك كله تبعة، وهم أشبه شيء بالذي يزيِّن الدُّكَّان للتاجر بالألوان والأضواء والرُّسوم، وهذا لا يُسأل عن البضاعة التي ستُعرَض فيه أو تُرَصُّ علىٰ رفوفه.

وما دام الأمر كذلك فقد انتهينا واسترحنا وعرفنا طريق الاستغناء عن النقد، وإن امرءًا يسعه أن يستغني ويأبىٰ مع ذلك إلا أن يفتقر لعبيطٌ أبله، وأحمق لا دواء لحماقته!

واقتنعتُ بأني علىٰ صواب في الكفِّ عن النقد، وبأني أفطَن إلىٰ تيَّار الزمن الذي أعيش فيه من سواي، وأحببتُ أن أعلن هذا ليستردَّ من شاء من المؤلفين إذا شاؤوا ما أهدوا إليَّ مشكورين، والسلام عليهم ورحمة الله.

ماذا أفدتُ من النقد؟[1]

تلقَّيتُ منذ بضعة أيام كتيِّبًا في ثمانين صفحة اسمه «روَّاد الشعر الحديث في مصر» للأديب مختار الوكيل، وهو كاتبٌ جديد، ولعله شاعرٌ أيضًا، وإن كنت لا أذكر أني قرأتُ له شعرًا، ولكن ذاكرتي خوَّانة فلا تعويل عليها، وهي -أي ذاكرتي- إن كانت تستحقُّ هذه التسمية تعنىٰ عناية موفَّقة بنسيان الأسماء، حتىٰ ليكبُر في وهمي أحيانًا أني سأنسىٰ اسمي في يوم من الأيام، وعسىٰ أن أفعل فأستريح من ضجَّته الفارغة ومن شغلي به، وأصارح القرَّاء فأقول: إني آخذ لذلك اليوم عدَّته من الآن، وأفكِّر في اسم آخر أتسمَّىٰ به وأُعرَف بين الناس، فما يكون للمرء وجودٌ وحقيقةٌ في هذه الدنيا بغير حروف يتألَّف منها اسمٌ يُطلق عليه، فما أهون حقيقتنا! وما يدريني؟ لعلي أوثر يومئذ أن يكون لي رقمٌ أستغني به عن الأسماء وأتميَّز كما يتميز السجناء في المحابس، وما دنيانا يا صاحبي إذا لم تكن سجنًا؟!

ولا أكتم القرَّاء أن أسفي سيكون عظيمًا إذا نسيتُ اسمي؛ فإن له في نفسي حلاوة، وفي الدنيا خيرٌ منه ألف مرة، ولكني لا أرضا بغيره ما دمتُ ذاكرَه ولو كان من أعظم الأسماء وأشهرها وأسهلها علىٰ اللسان وأعذبها في الآذان.

ولا عجب؛ فإن الاسم رمز الشخصية وعنوانها، وما من إنسان يقبَل أن يستبدل بها سواها ولو كانت شخصية أعظم من دبَّت أو تدبُّ به قدمٌ علىٰ هذه الأرض. ولا أدري لماذا؟ فيظهر أن في السَّريرة الإنسانية من الغرور أو التخييل أو المغالطة -أو غير ذلك فما أعرف- ما يكفي لإرضاء المرء عن نفسه وتسميته.

---

(١) «جريدة البلاغ» (١ سبتمبر ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ١٧١)، وعنوان المقال في الأصل: «عبد الرحمن شكري وكتاب رواد الشعر الحديث للأديب مختار الوكيل».

وأعود إلىٰ مختار الوكيل فأقول: إني أعني بقولي: «إنه كاتبٌ جديد» أنه شابٌّ، وقد جرىٰ علىٰ السُّنَّة[1] المألوفة في بلدنا، فبدأ بالنقد، وليته لم يفعل؛ فلن يكسبه هذا إلا الحزازات والبغضاء، وسيعلم بعد عشرين عامًا أني صادق، كما عرفتُ أنا بعد الأوان، فقد بدأتُ مثله بالنقد، وكانت غايتي أن أكون شاعرًا وناقدًا.

فأما الشعر فأخفقتُ فيه.

وأما النقد فانظر ماذا أفدت! النَّدم والحسرة، الندم علىٰ ما أسأت، والحسرة علىٰ ما ضيَّعت، ويا بؤس من يمشي وشرابه البؤسُ في بستان زقُّوم[2].

ولو أني بدأتُ حياتي مرَّة أخرىٰ من جديد لآثرتُ أن أكون بائع فِجْل وكرَّاث ولا أكون ناقدًا، لا اتقاءً للعداوات، فما يستطيع الإنسان أن يتَّقيها ولو عاش في كهف، ومن ظنَّ أنه ينجو منها فقد ظنَّ حمقًا، بل لأن النقد الذي ضَرِيتُ به جهلٌ وسفاهةٌ وتطاولٌ ذميمٌ وقلَّة حياء.

ولماذا لا نحيا وندع غيرنا يحيا، ونعمل ونفسح لسوانا أن يعمل؟! ومن ذا الذي يسعه أن يصنع خيرًا ممَّا صنَع ويُحْجِم؟! وكيف يُطالَب المرء بأكثر ممَّا يدخل في طوقه؟!

والنقد تطفيل، ثم إن الناقد يقيم من نفسه حكمًا ومرجعًا، ويفرض آراءه علىٰ الخلق، وينحَلُ نفسَه حقوق القرَّاء جميعًا في وزن ما يقرؤون، وهذا كلُّه من الغرور والدعوىٰ والتطاول، عفا الله عنَّا.

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: الألسنة.

(٢) قال المازني في بعض شعره:

أنت الطبيبُ لداءٍ قد بُلِيتُ به ... فداوِه باقتراب غيــر مفصومِ
وذاك أحسنُ من ليلٍ لبثتُ به ... شرابيَ المُهْلُ في بستان زقُّومِ

ومِن كرهي للنقد أكره الآن أن أتلقّىٰ كتبًا فيه؛ لأنها توقظ في نفسي الشرَّ الذي أنمتُ شيطانه، وكنت أظنُّ لجهلي أني قتلتُه، فإذا به ينهض وقد استجمَّ من طول الرقاد، ويستولي عليّ، ويزوي عيني عن الخير، ويدير رأسي، فأنقلب كالمجنون في يده سيف، ثم أفيق فتأخذ عيني الأشلاء المتناثرة، فيتقطَّع قلبي حسرة، وأثور بنفسي فأوسعها ذمًّا ولعنًا، وأُنذِرها أني بعد اليوم مُلْجِمُها بلجام من النار، ولكنَّ طباع السُّوء أغلب.

فلْيُعْفِني الكتَّاب، فإني شرِّير، ولا يَهِيجوا أبالستي الكامنة، ولْيدَعوني وما أعالج من نفسي وأرُوضها عليه وأصرفها إليه، لعلِّي أتطهر، وما أظنُّهم يحبُّون لي أن أظلَّ عمري امرأ سَوء.

والنفسُ تكره أن تضطرَّ إلىٰ الاعتراف بخطيئاتها، وتَثْقُل عليها دواعي الندم، فإذا كثر ذلك وطال تكراره فتَر الإحساسُ بالذنوب، وخَفَتَ صوتُ الضمير، وتبلَّد الشعور، وصارت مقارفة السُّوء عادة.

لهذا لم أقرأ من كتاب «روَّاد الشعر الحديث في مصر» إلا فصلًا واحدًا كتبه عن الأستاذ عبد الرحمن شكري.

وقد عرف القرَّاء حكايتي معه، وكيف كنَّا صديقين حميمين، ثم وقعت الجفوة، وحلَّت النَّبوة، وتعادينا، وأساء كلٌّ منَّا إلىٰ صاحبه، ومضىٰ خير عمرَينا في قطيعة سخيفة، ولستُ أعلم كيف كان بَعدي، وما أظنُّ به إلا أنه بخير، وما أعرف لي رجاءً أو دعاءً حين أذكره إلا أن يمسح الله علىٰ قلبه وينسيه ما كان منِّي، فما ندمتُ علىٰ شيء في حياتي كندمي علىٰ ما فَرَط منِّي في حقه[1].

ذلك أني أحبُّه وأُكْبِره، ولا أستطيع أن أجحد فضله عليّ.

(١) وأسوأ ما كتبه المازني فيه وأرذله «صنم الألاعيب» في «الديوان» (١/ ٥٧، ٢/ ١٧٧).

نعم، كنَّا زميلين في المدرسة، ولكنه كان ناضجًا وكنت فِجًّا، وكان أديبًا شاعرًا واسع الاطلاع، وكنت جاهلًا ضعيف التحصيل قليل العقل، فتناول يدي وشدَّ عليها، وأبت له مروءته أن يتركني ضالًّا حائرًا أنفق العمر سُدًىٰ، وأبعثر في العبث ما لعله كامنٌ في نفسي من الاستعداد.

وكنت أقرأ ابن الفارض، والبهاء زهير، فأقرأني شعر «الحماسة»، والشريف الرَّضِي، والبحتري، والمعرِّي، وابن المعتز، وأبي نواس، وغيرهم.

وكانت مطالعاتي في الإنجليزية مقصورةً علىٰ أمثال ماري كوريللي، ومن نسيت غيرها من أضرابها، ففتح عيني علىٰ شكسبير، وبيرون، ووردزورث، وشيلِّي، وبيزنز، وملتون، وكولردج، وهازلت، وكارليل، ولي هنت، وماكولي، وجوتا، وهينة، ورختر، ولسبخ، وموليير، وراسين، وروسو، ومئاتٍ غيرهم من أعلام الأدب الغربي.

وصرفني عن المقلِّدين في أدب كلِّ أمَّة، وأغراني بأصحاب المواهب والابتكار، وصحَّح لي المقاييس، وأقام الموازين الدقيقة، وفتح عيني علىٰ الدنيا وما فيها، وكنت عَمِيًا لا أنظر، وإذا نظرتُ لا أرىٰ، وكان لفرط أدبه يتوخَّىٰ معي سلوك النِدِّ، ولا يتعالىٰ تعالي الأستاذ علىٰ التلميذ، وكنت فقيرًا فكان يعيرني الكتب أو يَهَبنيها، وكنت غبيًّا فكان يشرح ويفسِّر علىٰ نحوٍ لا يجعلني أبدو لنفسي صغيرًا، ولمَّا نفخني وأعداني قلتُ الشعر، وكان يصونني عن العبث ويزجرني عن التقليد، ولا يرضىٰ لي الضعيف.

وأذكر أني مرَّة نظمتُ أبياتًا في العتاب أو الغزل وبعثتُ بها إليه، فردَّها بكتاب قال فيه: إنها لا تليقُ برجولتي، فشقَّ عليَّ ذلك وأجبته جوابًا مرًّا، فأغضىٰ، ومرَّت أيام وهدأت نفسي، وراجعتُ الأبيات فلم أر فيها غير ما رأىٰ، فمزَّقتها، وتوخَّيتُ بعد ذلك أن أجنِّب ذلك الضعيف الذي نهرني عنه.

ووجَّه بعض الشعراء أبياتًا إليَّ نشرَها في الجريدة، وكان يجري فيها علىٰ الأسلوب القديم، أي علىٰ التقليد، فأجبته بأبياتٍ من طرازها، ذهبتُ فيها مذهبَه إيثارًا لمجاملته، وكراهةً مني لأن يقال: عجَز عن المجاراة، فقرأها شكري وكتب إليَّ ينكر عليَّ هذه النكسة، وينصح لي إذا دُعِيتُ مرَّة أخرىٰ إلىٰ ما يردُّني إلىٰ التقليد ويغريني به أن أعتذر بطول الطريق وبُعد الشُّقَّة.

ولو أردتُ أن أتقصَّىٰ لما فرغت؛ فأنا مدينٌ له بكل ما أعان علىٰ ما صرتُ إليه. أقول ذلك مباهيًا شاكرًا فضل الله عليَّ أن لم يضيِّعني، وأن كتب لي نعمة الاتصال بشكري.

وإني لأرجِع البصر في حياتي وأتساءل: ماذا عساي كنت أكون لولاه؟ فلا أجد عندي لهذا جوابًا، وأدير عيني في نفسي وأبحث عن نزعة لم يكن هو غارس بذرتها إذ لم يكن هو الموحي بها فلا أهتدي[1].

ومن طول ما عرفته، وفرطِ ما ملأتُ نفسي به، صرتُ علىٰ البعد والقطيعة أستطيع أن أستوحيَه، فكأنَّا تباعدنا ولا تجافينا.

ولقد تنمَّرتُ له وغدرتُ به، ولكني والله ما كرهتُه قطُّ، ولا انطوت له نفسي في أحلك ساعات النقمة إلا علىٰ الحبِّ والإكبار.

---

(١) كتب العقاد في «جريدة الجهاد» (٤ سبتمبر ١٩٣٤) تعليقًا على مقالة المازني بعنوان «اعترافات المازني» ذكر فيه أنه لا ضير على المازني أن يعترف بفضل شكري عليه إذا كانت هي الحقيقة، أما هو فيخطئ من يظن أن شأنه وشأن المازني في ذلك واحد، وأن دراسته للآداب الأوروبية ومطالعاته في تاريخها ومذاهبها سابقةٌ لمعرفته بالمازني وشكري، وأنه لم يغير منهجه في القراءة والاطلاع بعدهما، بل هما اللذان التفتا إلى النقد العلمي الفلسفي بعد أن كانت قراءتهما شاخصة إلى النقد الأدبي المحض.

وأجاب المازني في «البلاغ» (٨ سبتمبر ١٩٣٤) بمقاله «حول اعترافاتي»، أكَّد فيه ما قاله العقاد، وأن لكل منهما شأنه وطريقه ومنهجه، وأنه ليس فيما كتبه ما يمكن أن يفهم منه أحدٌ أن ما يسري عليه يسري على العقاد.

أقول هذا ولا رجاء لي عنده، ولا أمل لي فيه، ولا خوف بي منه، فما يملك لي نفعًا ولا ضرًّا، وإني لأسطىٰ منه وأجرأ علىٰ الحياة، وأقوىٰ عزمًا، وأعظم جلدًا، وقد بُنِيت علىٰ المغامرة وحبِّ الخِطار والفرح بالمجازفة، فلو سكنت الدنيا حولي لذبلتُ ومِتُّ، وإنه ليستوي عندي الجِدَة والفاقة، والنجاح والفشل، والخطأ والإصابة، والحياة والموت، وقد هان كلُّ شيء حتىٰ ما أحفل شيئًا، أو أبالي كيف أكون، أو أتحسَّر علىٰ شيء فات، أو أتطلَّع إلىٰ ما هو آت، إنما هي رياضة نفسي علىٰ ما أحبُّ لها من حالات النظر والإحساس، ومن نوع التلقِّي لما تجيء به الأيام، وأضألُ فوز في هذا المسعىٰ أجلُّ عندي، وأشرح لصدري، وأندىٰ علىٰ كبدي، فلولا الرزق والعيال لاستغنيتُ عن الناس، فما يفرِحني ما يفرِحهم، أو يسوؤني ما يسوؤهم؛ لأن همِّي غير همِّهم، وآمالهم ومساعيهم خلاف آمالي ومساعيَّ، وهم يدبُّون علىٰ الأرض، وأنا أحاول أن أحلِّق فوق الحياة لو أن إلىٰ هذا سبيلًا، وهم ينظرون إلىٰ اللحظات التي تكون وتمضي عليهم ثم تمضي بهم، وأنا أعالج أن أنظر بعين الزَّمن، ومن كان هذا وُكْدَه ففيمَ يعادي؟ وعلامَ يخاصِم؟

وقد سرَّني أن يكتب مختار الوكيل عن شكري، وأن يحاول في هذا الفصل إنصافه، ولا أعرف ماذا صنع في بقية الفصول، فقد وقفتُ عند شكري، علىٰ أنه لا يعنيني ماذا كتب غير ذلك؛ فإن مثل العقاد لا يحتاج أن ينصفه ناقد، ولا يَضِيره ألا يفعل، و«مِطران» ينعَم بكلِّ ما ينعَم به الشاعر الموفَّق، وبعض ذلك أن تلهَج بذكره الألسنة، ولا قيمة للمدح أو الذمِّ بعد ذلك، و«أبو شادي» مشهور، والأقلام مشغولةٌ به، وشكري وحده هو المظلوم المغمور، ولا نكران أنه هو الذي حجب نفسه عن العيون، وطوىٰ آثاره، وكفَّ عن نشرها، وأصرَّ علىٰ ذلك سبعة عشر عامًا، حتىٰ نسيه الناس، ولكن من كان له مثل فضله ومزاياه يجب إكراهُه علىٰ الظهور رضي أم سخط، وإنزاله منزلته ولو ثار وقذف الناسَ بالبراكين، وما أظنُّه يكون حينئذٍ إلا قرير

العين، فما يكره أحدٌ أن ينال حظَّه الذي يستحقُّه في دنياه وإن غالط نفسَه وأوهمها غير ذلك[1].

(١) تحدث المازني عن عبد الرحمن شكري أيضًا وبسط قصته معه وأنصفه من نفسه في مقال سبق هذا بنحو ثلاثة أشهر في «جريدة البلاغ» (٢٠ مايو ١٩٣٤) بعنوان «كلمة إنصاف لنفسي وللأستاذ عبد الرحمن شكري»، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ١٦٣).
وبعد نحو عام نشر شكري قصيدته الدالية الباذخة «بعد الإخاء والعداء» في «مجلة الرسالة» (العدد ١٢٠، ٢١ أكتوبر ١٩٣٥)، وذكر العقاد أنها قيلت في المازني، وقال: «إنها من أروع قصائد الأدب العربي»، وهي كما قال. انظر: «المازني شاعر النفس والحياة» لأبي همام عبد اللطيف عبد الحليم (٤٥).

سؤالٌ وجواب[1]

قال لي بعضهم بلهجة المتعجِّب المستنكِر: ما لي أراك أصبحتَ رجلا طيبًا؟! ماذا جرىٰ لك؟!

قلت: أمَّا أني رجلٌ طيبٌ فهذا والله ما كنتُه طول عمري، أعني هذا ما كنتُه دائمًا أبدًا، ولكن ماذا تعني أنت؟

قال: أعني أنك كنت قديمًا عنيفًا في النقد، وأنت اليوم ليِّن الملمس، رقيق الحاشية، تتقبَّل كلَّ كتاب بالحمد، وتثني عليه أجمل الثناء، فكيف حدث هذا الانقلاب؟ ومتىٰ قُلِّمَت أظافرك؟

قلت: لم يحدث انقلاب، ولم أقلِّم أظافري، ولا تغيَّرتُ عن العهد بي، وكلُّ ما في الأمر أن الزمن تغيَّر، وأن دواعي العنف القديم زالت.

وشرحُ ذلك بإيجاز أننا ألفينا فجاجَ الأرض مسدودةً في وجوهنا صدرَ حياتنا، فاحتجنا أن نشقَّ لأنفسنا طريقًا أو طرقًا شتَّىٰ بنسف ما يعترضنا ويقف في سبيلنا ويأخذ علينا متوجَّهنا، وكان أكبر من حملنا عليه هو العقلية الجامدة التي لا تعرف إلا التقليد، وقد وفَّقنا الله بعد عناء طويل ومشقَّة بالغة، حتىٰ إن الذين ثُرنا عليهم واتخذنا منهم أمثلةً للجمود فتحوا عيونَهم بعض الفتح وحاولوا أن يدركوا القافلة الجديدة، وأشفقوا أن تفوتهم ويتخلَّوا عنها ويبقوا وحدهم، فيقضوا نحبَهم غير مَبكِيِّين أو مذكورين .

وقد انتهت هذه المرحلة بما كان فيها من صراعٍ وجهادٍ لا يعرف مرارتهما إلا من شهد مظاهرهما أو نزل إلىٰ الحَلْبة معنا أو علينا، وصارت الطرق كلُّها معبَّدة،

(١) «جريدة البلاغ» (٢ سبتمبر ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٦٧).

وفي وسع من شاء أن يمضي علىٰ سَنَنه إلىٰ حيث يريد بلا عائق، ورَحُبَ المجال للاجتهاد في كلِّ باب، ولا حاجة بأحدٍ إلىٰ هدم شيء؛ فإن الحَلْبة رحيبة، والمسالك عديدة، والدروب أوسع من أن تضيق برفقاء الطريق، وصار التعاون علىٰ الرُّفقة أوجب وأحجىٰ وأرشد من التدافع والتصادم في فجٍّ يتسع لكلِّ رَكْبٍ مهما عَظُم .

ثم إني رَشَدتُ أيضًا؛ فما ترتفع السِّنُّ دون أن تفيد المرء شيئًا من البصر والحكمة ولو قليلًا، وقد كنت في شبابي أحملُ علىٰ من نسمِّيهم «أصحاب المذهب القديم البالي»، و«أهل الجمود والخمود»، وأخوفُ ما أخاف الآن أن أصير أنا إلىٰ ضرب آخر من الجمود، فأنا أحاول جاهدًا أن أتَّقي هذا، وأن أجدِّد نفسي، فليس همِّي اليوم تنبيه غافل أو إيقاظ راقد، فقد فتحت الدنيا كلُّها عيونَها ولله الحمد، وإنما همِّي الأكبر أن أمنَع أن أركُد[1]، وكلُّ جديد يصبح قديمًا عتيقًا إذا لم يتعهَّده صاحبه بما يقتضيه التطوُّر، ولم يتولَّه بما يجعله صالحًا للزمان الجديد ونزعاته واتجاهاته.

ويخيَّل إليَّ أحيانا أني أخطأتُ حين أرخيتُ لنفسي العِنَان في صدر حياتي واندفعتُ إلىٰ تلك الثورة العارمة التي تميَّز بها العهدُ كلُّه، ولم أكن إلا واحدًا من رجالها لعلَّه أقلهم شأنًا، وإن لم يكن أقلَّهم إخلاصًا وغيرةً وصدق سريرة، ويبدو لي أننا كنَّا خُلَقاء أن نبلُغ حيث بلغنا بالرِّفق والهَوادة، وبغير حاجة إلىٰ معاول الهدم؛ فإن الزمن لا يبقىٰ عليه إلا ما يستحقُّ البقاء، ولكنها كانت تجربةً لم تخلُ من نفعٍ علىٰ كلِّ حال، وقد علَّمتني أنه لا داعي أن يحترِبَ الناسُ ولاسيما الأدباء؛ فإن الدنيا تتَّسع لهم جميعًا، بل إنها تستغني عنهم كلِّهم ولا تخسر شيئًا، فلا وجه للغرور، ولا مسوِّغ للاغترار، والعقلُ أن نتعاون علىٰ البِرِّ ما [2]وسعنا التعاون.

هذه خلاصة ما قلته لصديقي في جواب سؤاله وقدر رأيت أن أثبته هنا إذ من يدريني لعل بين القراء من يدور بنفسه مثل هذا السؤال.

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: أو أركد.

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: وما.

نصيحةٌ للشباب[١]

... ومن أول ما تعلَّمته في حياتي أن الدنيا لي ولغيري، فلم أُعْطَها وحدي، ولم يُعْطَها سواي ملكًا خالصًا له، ونحن جميعًا شركاء متعادلون في الحقوق، وعلينا من أجل ذلك واجباتٌ متكافئة.

وما دمنا شركاء إلىٰ حين، وما دام أن المقام في الدنيا علىٰ كلِّ حالٍ قليل، فإن من الحماقة أن ننغِّص علىٰ أنفسنا هذه الحياة القصيرة، أو نُؤثِر في سيرتنا التي هي «أخشن» علىٰ التي هي «أحسن».

وقد كنت أحمقَ الحمقىٰ في صدر حياتي، وما زالت بي بقيةٌ غير قليلة من الحماقة، فما زالت الدنيا تنفضني كما ينفض الأسدُ فريستَه، وتشيلني وتحطُّني وترجُّني وترميني من هنا وهاهنا حتىٰ فاءت بي إلىٰ الرِّفق والهَوادة، فأرحتُ وارتحت.

إي نعم، تتَّسع الدنيا لي ولغيري، وتستغني عنَّا جميعًا، وليس أخطل رأيًا ممَّن يتوهَّم أن الحياة لا تطيبُ له إلا إذا خلا طريقُه فيها من الناس، وما أحكم قول الإنجليز في أمثالهم: «عِشْ ودع غيرك يَعِشْ»!

---

(١) جزء من مقال بعنوان «واجبات الشباب العربي»، قال المازني في مطلعه: «سألني بعض الإخوان هنا أن أوجِّه إلى شباب العراق نصيحة، فقلت: حبًّا وكرامة، وعلى الرأس والعين، وإن كنت لا أعرف أن لي ما يخوِّلني أن أقف موقف الواعظ أو المرشد سوى السنِّ والتجربة»، واقتصرتُ منه على ما يشرح رأيه وتجربته وموقفه من النقد تأكيدًا لما مضى في المقالات السابقة. وهو في «أحاديث المازني» (١٥٤ – ١٥٥). وفي الأصل بضع تحريفات أصلحتها دون إشارة.

وما علىٰ المرء إلا أن يفكِّر فيما عسىٰ أن تخسر الدنيا إذا هي خلت من الناس وعادت خرابًا يبابًا؟ لا شيء!

لن يكفَّ الفلَكُ المسيَّر عن الدوران، ولن تعدم الحياة علىٰ الأرض مظهرًا آخر تبتدئ فيه كما ابتدأت فينا نحن بني آدم، وهل نحن إلا صورةٌ من صور الحياة؟ وهي أشدُّ غرورًا أو أقلُّ عقلًا، فمن يكبُر في وهمه أن الحياة تنعدم إذا انقرض الإنسان وتقلَّص ظلُّه علىٰ الأرض؟!

ولا تحسبوا أن هذا كلام زاهدٍ أو متزهِّد، فما أنا بهذا ولا ذاك، وإني لمن أشدِّ الناس رغبةً في الحياة الرَّضِيَّة، ونشدانًا للعيش الرغيد، وطلبًا لأطايب الدنيا، وعكوفًا علىٰ مُتَعِها المشتهاة. وكلُّ ما في الأمر أني لا أرىٰ أن فوزي بما أبغي يستوجبُ أن يُحْرَم الناسُ ما يطلبون، أو أن يَخِيبوا ويُخْفِقوا، ولست أحسُّ أنهم ينافسونني أو يزحمونني أو يضيِّقون عليَّ المجال؛ فإن الدنيا رحيبة، ومجالاتها لا آخر لها، وما أراني عجزتُ قطُّ عن اختراع طريقٍ بِكْر، أو خلق ميدان جديد إذا شعرتُ بالحاجة إلىٰ ذلك.

وصحيحٌ أن الحياة جهاد، جهادٌ مع الطبيعة ومع الإنسان، ولكنَّا لسنا من الحيوان، فنضالُنا ليس بالأنياب والمخالب، بل بالعقول. ونضال العقول متعة، لا يعيىٰ به أو يستثقله إلا من لا يصلح لغير حمل الأثقال كالدوابِّ، وليس أمر الدنيا إلىٰ هؤلاء المساكين الذين يُسَاقون، بل إلىٰ أصحاب العقول. ولستَ تستطيع أن تعطِّل عقول الناس، وخيرٌ وأرشدُ أن لا تفعل حتىٰ إذا استطعت.

وفي هذا النضال يتصفَّح المرء عقول منافسيه، ويضيفها إلىٰ عقله، فهو يكسب أبدًا ولا يخسر، ويضيف كلَّ يوم ثروةً ذهنية إلىٰ ما أوتي من ذلك، ويمنع عقله أن يصدأ، ويَجْلُوَه ويَشْحَذه ويُرْهِفَه.

غضب المؤلفين من النقد[1]

خرجتُ عن حدِّ الصِّحَّة أسابيع، فصرفني الفتور والضعفُ عن الكتابة، واحتجتُ أن أرجئ أمر الكتب الجديدة حتىٰ أَبِلَّ [2]وتثوبَ إليَّ قوَّتي. وهذا عذري إلىٰ المؤلفين.

وإن كان لي عذرٌ آخر هو أني أجد بعضهم سريع الغضب والبرطمة؛ لأني أقول في كتابه أو فنِّه أو بابه ما لا ينال رضاه، أو ما يغلط هو فيحمله علىٰ غير محمله، ويؤوِّله علىٰ غير وجهه، ثم يذهب يتلهَّب ويثور بي من غير شيء في الحقيقة.

وليس هذا عتابًا، ولكنه تعجُّب؛ فما أنا بمطالب بأن أكون علىٰ هوىٰ الناس، وأن أتوخَّىٰ ما فيه مرضاتهم، فلا أقول إلا ما يوافقهم، وليس ذنبي أن الله لم يشأ أن يجعلني من الفهماء الحكماء والعباقرة والنُّبغاء، وماذا يضير هؤلاء العلماء الحكماء ولماذا يسخطهم أن لا أكون أحدَهم؟!

ثم إنه ليس ذنبي أن أقول القولَ أعني به شيئًا فيفهم غيري غيرَه!

ثم إني والله رجلٌ طيِّبٌ يا معاشر العلماء والحكماء، لا يسرُّه شيءٌ كأن يثني علىٰ الناس، وإن كان لعله أدرىٰ بمواطن الضعف والنقص، غير أنه يعلم أنه ما مِن أحدٍ يبرأ من عيب أو يسلَم من نقص، فهو يُغْضِي ويُعْرِض ولا يمنُّ بالإغضاء؛ لأنه يدرك أنه إنسانٌ مثلهم لم يؤتَ الكمال ولم يُرزق العصمة.

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٥ يونيو ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٥١). وعنوان المقال في الأصل: في عالم الكتب.

(٢) بلَّ من مرضه: صحَّ وبرئ.

وما تعجَّبتُ لشيء، علىٰ جهلي وغلوِّي فيه، كتعجُّبي لعالمٍ نحريرٍ ونِقَابٍ[1] ألمعيٍّ يُحْنِقه أن جاهلًا مثلي يجهل، وأن إنسانًا قليل الفطنة لا يفهم! وإني علىٰ ضعف رأيي لأتساءل: ما خير هذا العلم كلِّه إذا كان لا يفيد صاحبه سعة الصَّدر، وصحَّة الإدراك، والحِلم، وتمهيد العذر لمن لا يعلمون؟!

قد تكون للعلم منافعُ أخرىٰ لا أعرفها، ولكن أنا أؤثِر أن لا أحفظ شيئًا إذا كان العلمُ لا يكسبني إلا ضيق الصَّدر، والزَّهْوَ بالمعرفة، وتعيير الجهلاء المساكين بجهلهم.

«ظهر الإسلام» للأستاذ أحمد أمين بك:

والحمد لله! فهذا رجلٌ لا يَثْقُل عليه ولا يسوؤه أن يقع الناقدُ علىٰ عيب أو نقص أو مأخذ في كتاب له. ألم أقل من قبل: إن أحمد أمين بك معلِّم الجيل؟ وإنما قلتُ ذلك لأن همَّه تثقيفُ الجيل، ولأن أخلاقه هي أخلاق العلماء.

ولأسُق مثالًا من هذه الأخلاق، فقد أخرج في العام الماضي هو والأستاذ زكي نجيب محمود الجزء الأول من كتاب «قصَّة الأدب في العالم»، فبادرتُ إلىٰ اقتنائه وقراءته وكتبتُ فيه أكثر من مقال، ونبَّهتُ إلىٰ وجوهٍ من النقص بدت لي فيه، فلم يغضب الرجلُ ولا زميلُه ولم يستكبرا، بل أسِف أحمد أمين بك علىٰ ما حدَّثني الأستاذ توفيق الحكيم لأنه فاته أن يهدي إليَّ نسخةً من كتابه هذا . وما فاته شيء، ولا كان منه تقصير. وإنه ليكون تقصيرًا مني أنا في حقِّ نفسي إذا لم أحرص علىٰ اقتناء الكتب القيِّمة دون انتظار إهدائها إليَّ.

ثم كان من فضله بعد ذلك أن دأب علىٰ إهداء كتبه إليَّ قبل أن أعلم بظهورها، وليس الفضلُ أنه أبقىٰ علىٰ مالي، فما أستكثر مالًا علىٰ كتبه وكتب أمثاله من صفوة أهل العلم والفضل والأدب، وإنما الفضلُ أنه كان واسع الصَّدر، لا يتكبَّر ولا يأنف أن يقال في كتاب له غير المدح الصِّرف.

---

(١) علاَّمة بحَّاثة فطن.

وأنا أكره أن أكون واعظًا؛ لأن الوعظ ينطوي علىٰ معنىٰ التعالي، ولكني أشدُّ كرهًا لضيق الصَّدر؛ لأنه لا يكون إلا من الغرور القبيح، أو الضعف، أو سوء الإدراك، ولا يناسب صفة العلم أو يشاكلها شيءٌ من ذلك.

* * *

وقال في موضع ثانٍ[1]:

... وقد صدق ابن الرومي حين قال[2]:

والنـاسُ، إن فكـرتَ، مـن طينـةٍ ... يَصْـدُق في الثَّلـب لهـا الثالـبُ

لـولا عـلاجُ النـاس أخلاقَهـم ... لفـاحَ منهـا الحَمَـأُ الـلَّازبُ

ولو اختار كلمة غير «الأخلاق» أعمَّ منها وأشمل لكان[3] قوله أجمع وأوعىٰ. علىٰ أني لا أستقلُّها مع ذلك ولا أراها من الضيق بحيث لا تغني؛ فإن أخلاق الناس مصدرُ كلِّ ما يكون من أحوالهم وأعمالهم، ففيها الكفاية، ونحن نقنع من الشعراء بما دون ذلك، ونكتفي منهم باللَّمحات الدَّالَّة، لا لقصورٍ خاصٍّ فيهم، بل لأنهم يُلزِمون أنفسهم من القيود ما لا يلتزم غيرهم، فليس عجيبًا أن يعيَوا أحيانًا بالتعبير، وأن يجيء اللفظ أقصر من المعنىٰ قليلًا، والمعنىٰ أكبر وأضخم جدًّا من اللفظ الذي يكتسيه[4] ويحاول أن يتبدَّىٰ فيه.

وأنا أعرف هذا [حقَّ] معرفته؛ فقد كنت أعالج النظم قديمًا، فأطار عقلي وسوَّد عيشي ما كنت أعانيه[5] من مشقَّة الأداء الوافي الدَّقيق، وما كنت أحسُّ به من العجز

---

(١) «جريدة البلاغ» (١٤يوليو ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٦١)، في التعريف بكتاب «الحياة الروحية الإسلام» لمحمد مصطفى حلمي.

(٢) ديوانه (١/ ١٨٦).

(٣) في مطبوعة «الأعمال»: ولكان.

(٤) في مطبوعة «الأعمال»: يكتسبه.

(٥) في مطبوعة «الأعمال»: ما أكتب أعانيه.

عن التعبير الصَّحيح، وما كنت أراني أقع فيه [1] من اللغو والحشو والتزيُّد الفارغ، ولهذا كففتُ وتبتُ إلىٰ الله، أو رشدتُ إذا شئت، فما تنقص الإنسان في حياته القيود العارقة [2] حتىٰ يضيف إليها قيود الوزن والقافية، فليعذر الناسُ الشعراء فإنهم بشرٌ مساكين، وليُغضوا عن تقصيرهم فإنه اضطرار، وليُكْبِروا توفيقهم فإنه والله اقتدار.

وأعود بعد هذا الاستطراد فأقول: **إنه ليس أقبح ولا أرذل من غرور المؤلفين من** أدباء وشعراء وعلماء وفلاسفة إلىٰ آخر هؤلاء؛ لأنهم أحقُّ الناس بأن يعرفوا هذا الذي أسلفتُ القول عليه، وليس ممَّا يليق أن يغتر به عاقلٌ رشيدٌ مستقيم النظر أنه أعلم من الجهلاء وأذكر من الأغبياء، ومن أجل هذا مدحوا تواضع العلماء، وإنه لتواضعٌ كلُّه كِبْر، ولكنه كلُّه فهمٌ وإدراكٌ صحيحٌ أيضًا؛ لأنه لا محلَّ للزَّهو بالقليل الذي عرفه الإنسان أو أدركه، والذي لا يُعَدُّ شيئًا ولا يعدل ذرَّةً بالقياس إلىٰ المجهول.

ولا أدري لماذا أكتب هذا؟ ولعلي **أردتُ أنبِّه الذين يثقل عليهم النقدُ أو لا يطيقون الخلاف**، وعسىٰ أن يكون هناك باعثٌ آخر استقرَّ فيما وراء الوعي كما يقولون هو الذي أغراني فجرىٰ القلم بما جرىٰ به، وأنا كما يعرف القارئ أو لا يعرف قلَّما أعنِّي نفسي بأمر هذه البواعث، وإنما أكتب أول ما يخطر علىٰ البال، ولهذا يجيء كلامي في الأغلب لا أول له ولا آخر، ولا فائدة أو مزيَّة علىٰ الأرجح، وقد أبدأ بكلام وإذا بي أخرج شيئًا فشيئًا عنه وأعرِّج علىٰ سواه وإن لم تكن هناك مناسبة ظاهرة، كالذي يخرج يتمشَّىٰ فيميل كلَّ مَمِيل، ويمضي في حيثما تدبُّ به الرِّجْل، وهو لا يبالي ما انصرف عنه وما اتَّجه إليه، إذ كان كل همِّه التمشِّي، وكذلك أنا، أكتب كي أتمشَّىٰ طلبًا لرياضة العقل والجسم، ودفعًا للركود والجمود.

* * *

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: بينه.

(٢) كذا في الأصل، ورأيت المازني استعملها كذلك في موضع آخر، ولعله يريد بها: الراسخة في النفس كامتداد عروق الشجر في الأرض.

وقال في موضع ثالث[1]:

سمعتُ أن الأستاذ علي محمود طه المهندس ساءه ما كتبته عن ديوانه «الملاح التائه»، وقيل لي: إنه غضب وثار وأرغىٰ وأزبد، وجعل يسبُّ ويتوعَّد، وأخبرني من لا أشكُّ في صدقه أن مهندسنا الشاعر يتَّهمني بالتحامل، ويتوهَّم أن هناك كيدًا مدبَّرًا، وأني عسىٰ أن أكون مدسوسًا عليه، فأضحكني هذا الغرور، وآسفني أن أرىٰ هذه الروح.

لقد دفع إليَّ الأستاذ علي محمود طه المهندس ديوانه هذا، فشكرتُه، وخلوتُ به ليلة، فلم أرتح إلىٰ أكثر ما فيه، فسكتُّ وتركتُ الأيام تمضي، وآثرتُ أن أعفيه من سوء رأيي وأن أكفَّ عن أذاي، وقلت: إذا كنت لا يسعني الثناء فإن في الصَّمت مخرجًا، وكتب عنه غيري في «البلاغ» مادحًا مقرِّظًا، فوالله لقد سرَّني هذا، وقلت: لعل صاحبنا يقنَع بما ظفر به، وكفىٰ الله المؤمنين القتال، وليكن شاعرًا أو غير شاعر، وليكن مرجوًّا أو ميؤوسًا منه، فإن هذا شأنه لا يعنيني منه شيء، ولست موكَّلًا بالشعر أحمي حقيقتَه وأذود عن حوضه، ولقد نفضتُ يدي منه إلىٰ غير رجعة، والحمد لله علىٰ الهدىٰ بعد الضلال، والمعرفة بعد الجهل، ولو استطعتُ لتركتُ النثر أيضًا، ولكنه مُرتَزقي وقوتُ عيالي، **وإني لأكتب[2] ولكن للخبز لا للأدب!**

---

(١) «جريدة البلاغ» (١٠ يونيو ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٣٢٣)، وعنوان المقال في الأصل: «الملاح التائه أيضًا، عودٌ على بدء»، واقتصرت على المقصود منه. وكان المازني قد تعرض للديوان بالنقد في «البلاغ» (٨ أبريل ١٩٣٤)، وليس ضمن «الأعمال غير المنشورة».

(٢) يقصد الكتابة الصحفية. وقد قال عنه صاحبه العقاد في مقالته «صديقي المازني» في «مجلة المصوَّر» (٥ أغسطس ١٩٤٩)، وهي في «حياة قلم» (١٧٢): «إننا نأسف أشدَّ الأسف لأن الفرص لم تهيئ له أسباب النفع بهذه المَلَكة في غير الأعمال الصحفية العاجلة، ولو تيسَّرت له موارد العيش واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذي يريده لأمتع الناسَ بالعجب العجاب في هذا الباب، ولظفر العالم العربي بثروة المازني كلها، وما أنفسها وما أجلَّها إذا كان هذا الذي اتسع له وقته وتهيأت له أسبابه جدُّ نفيس وجليل».

ولا يحمل القرَّاء قولي هذا علىٰ محمل المزاح؛ فإني اليوم جادٌّ، وأنا بالأدب أعلىٰ عينًا، وهو عندي أسمىٰ وأرفع من أن أحشر فيه هذا الهراء الذي أجري به القلم في سبيل الرِّزق، وقد تمثَّلتُ صورةً لما ينبغي وأعياني أن أقاربها، فقنطت، ووددتُ لو وسعني أن أُقْصِر، ولكن الحياة تُلْهِب ظهري بالسِّياط، فلا بدَّ من العَدْوِ سواءٌ أبلغت غايةً وأوفيتُ علىٰ أمدٍ أم وقعتُ دونه!

ولم يقنَع مهندسنا الشاعر بما قرَّظه به الإخوان في «البلاغ»، وعزم عليَّ إلا ما كتبتُ، وزارني وأخبرني أنه يريد رأيي كائنًا ما كان، فقلت لنفسي: لعل في ذلك مصلحة، وسرَّني منه أن يطلب الرأي ولا يستجدي الثناء، وقلت: إنَّ من كان هكذا فهو خليقٌ أن يحتمل النقد ويتشدَّد له ويصبر علىٰ ما عسىٰ أن يناله منه، وما كان لي أن أتردَّد وأُحْجِم بعد أن دعا وكرَّر، وليس للنقد قيمةٌ إذا جرىٰ مجرىٰ النفاق، والمرء لا يلام علىٰ رأي يدلي به؛ فإن الارتياء حقٌّ لكل إنسان، وإنما يكون اللوم علىٰ سوء النيَّة وخبث الطويَّة.

والمرء ينشرُ علىٰ الناس، وللناس أن يرضوا أو يسخطوا، ولا حيلة للكاتب أو الشاعر، ومن كان يجزع من النقد فأولىٰ به ألا ينشر شيئًا، وعسيرٌ أن تُلْجَم الأفواهُ فلا تقول إلا خيرًا، وأن تُعْقَل الألسنةُ فلا تجري إلا بحَمْد، ومن كان يتوهَّم القدرة علىٰ ذلك فإنه امرؤٌ لا أمل فيه، وخيرٌ له إذن والجماعة أن يُقْمَع ويُرَدَّ إلىٰ حدود يلزمها ولا يعدوها، فما من الممكن أن يكون في عالم الأدب هذا التحكُّمُ إذا أمكن أن يكون في عالم السياسة أو غيرها من عوالِم الزَّيف والفساد.

والنقد تربيةٌ وإصلاحٌ وتقويم، ولكن بعض الناس يتعجَّل الغاية ويشقُّ عليه أن يَعُوقه النقدُ عنها ويصدُّ خُطَاه بعضَ الصَّدِّ؛ لظنِّه أن الثناء هو الذي يُدْنِيه، ولو عَقَل لعَلِم أن الثناء الجُزاف يُفْسِد عليه السَّعي، وأن النقد هو الذي يقوِّيه ويشدُّ أزرَه؛ لأنه يفتح عينه علىٰ ما يخفىٰ عليه، ويتناول أصبعه ويضعه علىٰ مواطن الضعف

والنقص، وسواءٌ أعقَل المرء أم لم يعقل فلا مفرَّ من هذا النقد البغيض، ومن ظنَّ ممَّن يكتب أو يقول الشعر أنه ناجٍ منه فقد ظن عجزًا كما يقول الشاعر القديم(١).

وقد غضب صاحبُنا ومهندسنا الشاعر وسَخِط، ولا أدري ما حيلتي أو ذنبي؟ وما لي أنا إذا كان شعرُه لا يبلغ به حيث يريد؟ أأنا المقصِّر أم هو؟ وقد كنت أنا أقول الشعر، أو أعالجُ قولَه، فما جئتُ بشيء، ومزيَّتي أني فطنتُ إلىٰ هذا فكففتُ في غير أسفٍ أو سُخط، وكيف يأسف عاقلٌ علىٰ ترك ما لا يُحْسِن؟! وقد سمعتُ أن مهندسنا يذكر شعري أو ما كنتُ أزعمه شعرًا لي بالسُّوء، ولا أعلم ماذا يفيده هذا؟! فلأكن أنا أسخفَ خلق الله وأعجزَهم عن مقال، فكيف ينهض هذا عذرًا لغيري، ويصلح أن يكون مسوِّغًا لضعف سواي؟! أتراني صرتُ مقياسًا عامًّا، فمن كان مثلي فهذا شفيعٌ له؟!

كان خيرًا من هذا وأجدىٰ علىٰ مهندسنا أن ينفض الغرور عنه، وأن يعالج شعرَه بالتقويم والتهذيب ليصحَّ، فلن ينفع أحدًا أن يسخَط مغتَرًّا، وإنما ينفعه أن يجعل وُكْدَه بعد الآن أن يُجِيل هو في شعره عينَ ناقد فاحص، وأن يتعهَّده بالغربلة والنَّخل والتَّفلية، وأن لا يعبأ شيئًا بثناء الإخوان والأوِدَّاء؛ فإن في مقدوره أن يستغني عنه إذا جاء بالمُحْكَم السَّديد والمضبوط القويم الذي لا عِوَج فيه، وما من إنسان إلا وله إخوانٌ يثنون عليه، ولكن العبرة بسواهم لا بهم، وبحكم الزمن لا بحكمهم، والزمنُ لا يميل به الهوىٰ، ولا يؤثِّر فيه تقريظُ الإخوان ولو ملؤوا الأرض والسماء طبلًا وزَمْرًا.

وماذا قلتُ عن مهندسنا الشاعر ممَّا يُغْضِب؟! ما قلتُ إلا أنه لا يُحْسِن الأداء، وسقتُ أمثلةً ناطقةً بذلك، فعزَّ عليه أن يقال: إنه سيء الأداء، وروىٰ لي صديقٌ أن

---

(١) البيت للخنساء في ديوانها بشرح ثعلب (٢٧٧)، تقول:

فمن ظنَّ ممَّن يلاقي الحروبَ   بأن لن يصاب فقد ظنَّ عجزا

مهندسنا مواظبٌ علىٰ قراءة الشعر العربيِّ منذ خمس عشرة[1] سنة، فقلت: إذا كان هذا أداؤه بعد المثابرة الطويلة علىٰ الدَّرس فما أرىٰ إلا أنه سيء الاستعداد، ولا ملَكة له، وقد كان لي فيه أملٌ فنسختُه بهذا الخبر!

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: خمسة عشر.

السَّرقات الأدبية[1]

سأقصُّ علىٰ القرَّاء حادثةً أعذر من لا يصدِّقها، ولا ألوم من يرتاب في صحَّتها، ولكنها مع ذلك حقيقة، وبعض الحقائق أغربُ من تلفيقات الخيال.

وذلك أني علىٰ إثر الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ذهبتُ إلىٰ الإسكندرية لأقضي فيها أيامًا أو لأتخذ فيها مقامي حسب الأحوال، وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جدًّا، وكنَّا في رمضان، فأفطرنا واسترحنا، ثم خرجنا لنحيي الليل بالسَّهر كما هي العادة، وكنت منشرح الصَّدر، ولكني لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتىٰ وقفتُ وقلتُ لقريبي: إني محموم، فأنا راجع، فجسَّني فلم يجد بي شيئًا، فأصررتُ علىٰ أنها الحمَّىٰ، فرقدتُ، وكنت لا أكاد أطيق الصَّهد الذي أحسُّه، وزال عني ذلك بعد ساعة أو اثنتين، غير أني لزمتُ الفراش، وعادني طبيب الأسرة في اليوم التالي، فقال: إن هذه حمَّىٰ عصبية. فاستغربت، ولكني عانيتُ من الأعصاب ما جعلني أصدِّق كلَّ شيء.

وبقيتُ أيامًا في البيت زارني في خلالها صديقي الأستاذ العقاد، وترك لي رواية روسيَّة أتسلىٰ بها، فأكببتُ عليها وقرأتها في ساعاتٍ أحسستُ بعدها أني صرتُ أقوىٰ وأصحَّ بدنًا وأقدر علىٰ المكافحة والنضال في الحياة، وأنه صار في وسعي أن أستخفَّ بما يُحْدِثُ لي سقمَ الأعصاب من الوهم[2].

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢١٣، ٢ أغسطس ١٩٣٧). وفي «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٣٥٣) مقال آخر بعنوان «السرقات الأدبية»، وهو خطأ، وإنما عنوانه «الأستاذ العقاد شخصيته وخصائصه»، وهو منشور أيضًا في كتاب «العقاد دراسة وتحية».

(٢) وقد اعتبر المازني هذه الحادثة ثاني أهمِّ حادثتين أثّرتا في مجرى حياته، كما قال في جواب استفتاء «مجلة الهلال» (مارس ١٩٣٠): «... ولم أكد أستقر في الإسكندرية حتى شعرتُ بحمَّى عصبية، ثم اتفق أن وجدتُ مع صديق لي رواية روسية مترجمة إلى الإنجليزية، فسألته عنها فأثنى عليها، ولم أكن قد سمعتُ قبل ذلك باسم المؤلف. فاشتقت أن أقرأها، =

وعدتُ إلىٰ القاهرة، ومضىٰ عام، فطلب مني بعضهم أن أترجم له رواية، فقلت لنفسي: إني مدينٌ لهذه الرواية الروسيَّة بشفائي وبالروح الجديدة التي استولت عليَّ، فيحسُن أن أنقلها إلىٰ العربية عسىٰ أن تنفع غيري كما نفعتني. وقد كان.

نقلتُ الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلىٰ المطبعة لتصحيح المسوَّدات، فيقول لي العامل أحيانًا: إن الأصول نفدت، فأقعد في أيِّ مكان وأفتح الرواية وأروحُ أترجم وأرمي للعمَّال بالورقة بعد الورقة، وكأني أدوِّن كلامًا حفظتُه من قبل. ولست أذكر هذا لأباهي به، ولا لأقول لكم: إني رجل بارع، بل لسبب آخر سيأتي ذكره في موضعه.

وفرغنا من الترجمة والطبع، ولم يُعْنَ الناشر بأن يبعث إليَّ بنسخة من الرواية، ولم أُعْنَ أنا بأن أطلب أو أدَّخر نسخة. وقد نسيت أن أقول: إني سمَّيتها «ابن الطبيعة»، وكان اسمها في الأصل «سَنين» وهو اسم بطلها. وليس هذا إعلانًا، فقد نفدت من

= واستعرتها منه. وكانت وصية الأطباء لي ألا أكدَّ خاطري أو أتعب رأسي بالقراءة أو الكتابة. وهذا شرُّ ما يوصى به مريضٌ مثلي؛ لأنه خليقٌ أن يخلو بنفسه فيطول تفكيره في أمره، وتدور خواطره على أوهامه وآلامه المتخيلة، فيزداد الأمر سوءًا. قرأت هذه الرواية، فلم أكد أفرغ منها حتى رأيتني قد انقلبتُ مخلوقًا آخر، أعدتني روحُ بطلها بقوَّتها وجرأتها على الحياة، وبالبساطة في مواجهة ما يقع له فيها، وباستقامة النظرة وسداد الاتجاه، فشُفِيتُ واستغنيتُ عن الأطباء والعقاقير، وما لبثتُ أن كررتُ إلى ميدان العمل وبي من النشاط والثقة ما يكفي فيلقًا بأسره» إلى أن يقول: «ولست أقول: إن هذه خير رواية، كلا. وإنما أقول: إنها شفتني وقوَّتني ونفثت فِيَّ روحًا كانت حاجتي إليها عظيمة، ولقد كنت قبلها أعتقد أن عمري لن يطول أكثر من خمس سنوات، فصرتُ بعدها أكاد أؤمن بالخلود في الدنيا ...».

وهي روايةٌ فاسدة الفكر وإن كانت صالحة الفن، فلا خير في قراءتها، يقول الطنطاوي في «الذكريات» (٢/ ٣٩٢): «كادت تؤثر في ديني وتفسد فكري لولا أن أنقذني الله من شرها».

ووصفها العقاد في كلمته التي ألقاها في ذكرى الأربعين لوفاة المازني بالجمعية الجغرافية، ونشرت في «جريدة الأساس» (٢٠ سبتمبر ١٩٤٩) بعنوان «عبقرية المازني»، ثم في ديوان «بعد الأعاصير» (٢٨٧) بأنها «تخلق الاستخفاف على الأقل حين قراءتها لمن لا عهد له بالاستخفاف»، ثم قال عن المازني: «ولست أنسى هزَّة وجدانه بأفاعيل سانين بطل القصة، مع إنكارٍ لتلك الحيوانية اللَّجوج التي مثَّله بها مؤلف القصة».

زمان طويل.

كان هذا في سنة ١٩٢٠.

وفي سنة ١٩٢٦ شرعتُ أكتب قصَّة «إبراهيم الكاتب»، وانتهيتُ منها ولم أرض عنها، فألقيتُها في دُرج، حتىٰ كانت سنة ١٩٣٠ فخطر لي أن أنشرها، فدفعتُ بها إلىٰ المطبعة، فاتَّفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول، وكنت لطول العهد قد نسيتُ موضوعها وأسماء أشخاصها، فحِرتُ ماذا أصنع، ثم لم أر بدًّا من المضيِّ في الطبع، فسددتُ النقص، ووجَّهتُ الرواية فيما بقي منها توجيهًا جديدًا، ونشرتُ الرواية.

وبعد شهور تلقيتُ نسخة من مجلة «الحديث» التي تصدر في حلب[1]، وإذا فيها فصلٌ يقول فيه كاتبه: إني سرقتُ فصلًا من رواية «ابن الطبيعة»، فدُهِشْتُ، ولي العذر؛ واذكروا أني أنا مترجم «ابن الطبيعة» وناقلها إلىٰ العربية، وأن أربعة آلاف نسخة نُشِرَت منها في العالم العربي، وأني أكون أحمق الحمقىٰ إذا سرقتُ من هذه الرواية علىٰ الخصوص.

فبحثتُ عن «ابن الطبيعة» وراجعتُها وإذا بالتهمة صحيحةٌ لا شكَّ في ذلك، بل هي أصحُّ مما قال الناقد الفاضل؛ فقد اتضح لي أن أربع أو خمس صفحاتٍ منقولةٌ بالحرف الواحد من «ابن الطبيعة» في روايتي «إبراهيم الكاتب»، أربع أو خمس صفحاتٍ سال بها القلمُ وأنا أحسب أن هذا كلامي! حرفُ العطف هنا هو حرفه هناك، أول السَّطر في إحدىٰ الروايتين هو أوله في الرواية الأخرىٰ، لا اختلاف علىٰ الإطلاق في واوٍ أو فاءٍ أو اسم إشارة أو ضمير مذكَّر أو مؤنث، الصَّفحات هنا هي

---

(١) (مارس ١٩٣٢)، ونشرت «مجلة الحديث» مقالين آخرين في العددين التاليين (أبريل، مايو). وكذلك فعلت مجلة «النهضة الفكرية» في أعداد سنتي (١٩٣١ - ١٩٣٢). انظر: ببليوجرافيا السكوت وجونز (٢٧١ - ٢٧٣).

بعينها هناك بلا أدنىٰ فرق.

ومن الذي يصدِّقني إذا قلت: إن رواية «ابن الطبيعة» لم تكن أمامي ولا في بيتي وأنا أكتب روايتي؟ من الذي يمكن أن يصدِّقني حين أؤكِّد له أني لم أر رواية «ابن الطبيعة» مذ فرغتُ من ترجمتها، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها أو مواقفها لما عجزتُ عن صبِّ ذلك في عباراتٍ أخرىٰ؟

لهذا سكتُّ ولم أقل شيئًا، وتركتُ الناقد وغيره يظنُّون ما يشاؤون، فما لي حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحاتٍ أربعًا أو خمسًا من رواية «ابن الطبيعة» عَلِقَت بذاكرتي وأنا لا أدري؛ لعمق الأثر الذي تركته هذه الرواية في نفسي، فجرىٰ بها القلمُ وأنا أحسبها لي[1]. حدث ذلك علىٰ الرغم من السُّرعة التي قرأتُ بها الرواية، والسُّرعة العظيمة التي ترجمتُها بها أيضًا.

ومن شاء أن يصدِّق فليصدِّق، ومن شاء أن يحسبني مجنونًا فإن له ذاك. ولستُ أروي هذه الحادثة لأدافع عن نفسي، فما يعنيني هذا، وإنما أرويها علىٰ أنها مثالٌ لما يمكن أن تؤدِّي إليه معابثة الذاكرة للإنسان.

---

(١) انظر لتهمة المازني بالسرقة: «المعول» لمحمد علي حماد (بحث ونقد ومقارنة بين روايتي غريزة المرأة للمازني والشاردة لجالسورذي)، و«شيوخ الأدب الحديث» لحبيب الزحلاوي (١٤٤ - ١٤٨)، و«التيارات المعاصرة في النقد الأدبي» لبدوي طبانة (٣١٣ - ٣١٨)، و«أدب المازني» لنعمات فؤاد (١٨٧ - ١٩٨)، و«المعارك الأدبية» لأنور الجندي (٦٥٧)، و«الحوار الأدبي حول الشعر» لمحمد أبو الأنوار (١٣٣ - ١٤٢).
ومن أطرف ما قيل في الاعتذار له وتفسير صنيعه إحالة ذلك إلى «الطفولة الخالدة» فيه، كما قال صديقه العقاد في تقديمه لكتاب «أدب المازني»: «فالطفولة الخالدة تفسِّر لنا عادة الانتحال دون ذكر المصادر؛ فإن «الأعمال بالنيات» حقٌّ لا يصدق على شيء كما يصدق على نية المازني وهو ينتحل الشعر ولا يعزوه إلى أصحابه، وما كان رحمه الله حين يفاجأ منا في مأزقٍ من هذه المآزق إلا كالطفل يفاجئه أهل البيت وهو يخالسهم إلى الحلوى المشتهاة عنده، وما كان في هذه النية من سوءٍ قطُّ بمعنى السوء، بل كانت أقرب إلى اللعب والولع بالمحاكاة».

وليست الذاكرة خزانةً مرتَّبة مبوَّبة، وإنما هي بحرٌ مائجٌ يرسبُ ما فيه ويطفو بلا ضابطٍ نعرفه، ومن غير أن يكون لنا علىٰ هذا سلطان، فالمرء يَذْكُر وينسىٰ، ويغيبُ عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلا جهدٍ منه، ويَعْلَق بذاكرته ما يَعْلَق وهو غير دارٍ أو مدركٍ لما يَحْدُث، وتتزاوجُ الخوالجُ وتتوالدُ كما يتزاوجُ الناسُ ويتوالدون وهو غير شاعرٍ بشيء ممَّا يجري في نفسه من التفاعل وأثره.

ولستُ أحبُّ أن أجعل من نفسي قاضيًا يحكم علىٰ هذا بالسَّرقة وعلىٰ ذاك بالانتحال، إلىٰ آخر هذا، وإنما أحبُّ أن أعلِّل وأفسِّر الحالات أو الحركات النفسية التي تؤدِّي إلىٰ ما يمكن أن يسمَّىٰ سرقةً أو اقتباسًا، أو التي تغري إنسانًا بما فكَّر فيه غيره.

ولا جديد في تعليلي أو تفسيري؛ فإنه قائمٌ علىٰ علم النفس، وإنما الجديد هو التوجيه أو التطبيق، ولا فضل في هذا ولا مزيَّة له.

ومن أجل ذلك أقصُر هذا الفصل علىٰ الأمثلة؛ فإن المقام لا يتَّسع لها ولما يبدو لي من وجوه التعليل، وأرجو أن تتاح لي فرصةٌ قريبةٌ أشرح فيها مذهبي ورأيي في هذه الحالات.

وقد عُنِيَ العربُ بتعقُّب شعرائهم، فكل شاعرٍ ظهر له من ينخل كلامَه ويغربلُه ويردُّ المعاني إلىٰ أصحابها، أي إلىٰ الذين سبقوا إليها. والسَّبقُ في الزمن هو الذي يُكْسِبُ السَّابق الحقَّ في المعنىٰ.

وأنا أقول: «المعنىٰ» لأنه لم يكن ثَمَّ موضوعٌ للقصائد غير الأغراض المألوفة، مَثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلىٰ ذلك.

ولمَّا كان البيتُ في الشعر العربيِّ القديم هو الوحدة، فقد صارت الأبيات المفردة هي مدار هذا الضرب من النقد، فهذا أخذ معنىٰ البيت الفلاني من فلان، وذاك نظر إلىٰ قول علَّان، إلىٰ آخر هذا إن كان له آخر.

ولهم في هذا الباب حكاياتٌ بعضها لا شكَّ مختلق، والبعض قد يكون صحيحًا، وأعني بهذه الحكايات ما يراه المرء في كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهتَرين المستخفِّين بالدنيا وما فيها، من مثل أبي نواس، سمع شاعرًا مغمورًا ينشد قصيدة، فأعجبه معنىٰ بيتٍ فيها، فأخذه جهرةً وقال: أيروىٰ لك هذا المعنىٰ وأنا حيٌّ؟!

ومثل ما يروون من أن المتنبي كان ينكر في حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي، فلمَّا قُتِل وجدوا بين أوراقه نسخةً -خطيَّةً بالطبع- من ديوان ابن الرومي وعليها تعليقاتٌ بخط المتنبي.

ولا فائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات؛ فإن الكلام خليقٌ أن يطول بلا جدوىٰ، ومن غير أن نجيء فيه بجديد، وأكثر القرَّاء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاؤوا في كتب الأدب المتداولة.

لهذا أوثر أن أسوق أمثلةً ممَّا في الآداب الغربية ممَّا يدخل في باب السَّرقات؛ فإن الأمر في هذه أمرُ موضوعٍ يُقْتَبس، أو قصيدة برمَّتها تؤخذ من أولها إلىٰ آخرها علىٰ طولها بالحرف الواحد، والقليلون يُعْنَون بتعقُّب هذا، فذكرُ أمثلة منه خليقٌ أن يكون أمتع.

أشهر شعراء الإغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول، وقد قرأتُ ترجمتين إنجليزيتين له، وحطمتُ رأسي بهما، وأعترف أنه لم يَرُقني منه إلا القليل، ولكن كنت أخشىٰ أن أجاهر بهذا الرأي؛ لئلا يقول عني إخواني: إن ذوقي فاسدٌ أو إن بي نقصًا في الاستعداد الأدبي! أما الآن فإني أستطيع أن أجهر بذلك، وأن لا أخشىٰ تهمًا كهذه.

علىٰ أني لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه، بل لأروي قصَّتين صارتا الآن معروفتين:

الأولىٰ: أن الأدب الإغريقيّ كان في العصور الوسطىٰ مجهولًا أو مدفونًا وكان لا يعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنُّوا بها علىٰ النشر والإذاعة؛ لأنه أدبٌ وثنيٌّ، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحدٌ يعرف شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا عن الأدب الإغريقي، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذي ردَّ إلىٰ العالم هومر في القرن الرابع عشر كان سكِّيرًا نصَّابًا وشرِّيرًا كبيرًا، وأن الرجل الذي حمله علىٰ ترجمة هومر كان من أبرع كتَّاب النهضة، وأن الرجل الذي آلىٰ علىٰ نفسه أن يعمل علىٰ نشر جمال الأدب الإغريقي في العالم كان لا يعرف حرفًا واحدًا من اللغة الإغريقية.

هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم: بيلاتس Pilatus، وبوكاكشيو Boccaccio، وبترارك Petrarch.

فأما أولهم، فكان مغامرًا يؤثر أن يستخفي لأسباب لعل البوليس أعرف بها، وكان قذرًا كثير الشعر دميم الخلقة، ولكنه كان يعرف اللغة الإغريقية، فجاء به بوكاكشيو وأنزله عنده ضيفًا فبقي ثلاث سنوات.

وأما بوكاكشيو، فمعروفٌ مشهور، وهو عندي أنبغ نوابغ الإيطاليين، ولكنه كان ساذجًا، وكان لا يعرف قدرَ نفسه، وكان عظيم التوقير لبترارك، حتىٰ لقد صار في آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغة الإيطالية العامية لا باللاتينية.

وأما بترارك، فقد اقتنع لسبب لا نعرفه بأن المخرج الوحيد من السُّوء الذي يراه في زمانه هو إحياء درس الأدب الإغريقي، ويظهر أنه كان هناك اعتقادٌ بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده علىٰ حلِّ المشاكل التي كانت تواجه العالم في ذلك الزمان، وهكذا عرف الناسُ هومر بعد أن قبره الزمنُ عدَّة قرون.

ومن المحقَّق أن هومر كان يعرف الأساطير المصرية، وأنه استعان بها في قصيدتيه «الإلياذة» و«الأوديسية»، وأحسب أن كثيرين قرؤوا البحوث التي نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة، وأثبت فيها استنادًا إلىٰ ما وقف عليه وكشف عنه العلماء

بالآثار المصرية والتاريخ المصري القديم أن هومر أخذ كلَّ العقائد وكلَّ القصص من المصريين.

والمصريُّون كما لا أحتاج أن أقول أسبقُ بآلاف السِّنين لا بمئاتها فقط، وهم الذين نشروا في العالم القديم العقائد التي لا تزال باقيةً إلىٰ اليوم، وهم أول من فكَّر في الروح والآخرة والحساب والعقاب[1]. وقد ذهبت مدنيَّتهم ولكن آثارها بقيت، وهي علىٰ قلَّتها كافيةٌ للدلالة علىٰ حضارتهم.

وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص، وأثبت منها أن هومر أخذ قصصَه من مصر، وأن كلَّ ما فعله هو تغييرُ الأسماء وقلبُها إغريقية.

وأنا أزيد علىٰ ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمةً لها مغزاها، ذلك أنه يصف عمله بأنه «تنظيم»، ويقول عنه في موضع آخر: إنه وضع «إطارًا» للقصص، وفي موضع آخر أيضًا: إنه «جمَع»، ومعنىٰ هذا أنه كان معروفًا أن هومر لم يبتكر قصصَه، وإنما جمعها ورتَّبها ونظَّمها.

ويظهر أنه كانت هناك رواياتٌ متعدِّدة مختلفة، وأن هومر شعر بالحيرة بينها، ولم يَدْرِ أيها يؤثِر: الرواية المصرية أم الروايات المشوَّهة التي شاعت في إسبارطة وأثينا وفي غيرهما؟ ولهذا اضطرب ولم يستقرَّ علىٰ رأي في أيهما هو البطل: هكتور أو أخيل، ويرجِّح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات المختلفة أعدَّ نصَّين، واحدًا ينشده علىٰ الجانب الآسيوي، والآخر ينشده علىٰ الجانب الأوربي.

علىٰ أن المهمَّ أن هومر أخذ موضوعه كلَّه بكلِّ ما انطوىٰ عليه من مصر، فلولا مصر لما كان هومر. وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئًا، فقد أصبح هومر اسمًا لا أكثر.

---

(١) هذه مجازفة وتهور، فأين الأنبياء السابقون ومن آمن بهم من أقوامهم من لدن آدم عليه السلام فمن بعده؟!

وأدع التوافه، مثل قول أكثر من ناقدٍ واحد: إن الرومان مدينون بفكاهتهم للإغريق، وإنه ما من نكتة في الأدب الروماني إلا وهي مأخوذةٌ من نكت الإغريق أو لها ما يقابلها عندهم.

ومثل قولهم: إن «الأبولوجيا» أو الاعتذار الذي كتبه سنيكا لمَّا أمره نيرون بالانتحار ليس سوىٰ تقليد ضعيف للأبولوجيا التي كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم علىٰ سقراط بالموت.

ومثل قولهم: إن وصف درع إينياس في قصيدة فرجيل مأخوذٌ من وصف هومر لدرع أخيل.

وقولهم أيضًا: إن خير ما في إينيادة فرجيل منقولٌ بالحرف من إينيوس Ennius وكاتاللاس Catallus، وأن القصيدة كلَّها في الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس Appollonius ورودياس Rhodias ولوسيلياس Lucilius ولوكريشلاس Lucretius، وأن مكروبيوس Macropius ضبط كلَّ هذه السَّرقات.

ومثل قولهم: إن الشاعر الإنجليزي مارلو -معاصر شكسبير- انتحل أبياتًا كثيرةً ترجمها عن اليونانية في روايته «الدكتور فاوست».

أدع كلَّ هذا؛ لأنه كما قلت: من التوافه.

وأثبُ إلىٰ ملتون الشاعر الإنجليزي المشهور، وأعترف أني لا أحبُّه، وأني ما استطعتُ في حياتي أن أقرأ له قصيدةً مرتين.

وأشهر ما لملتون قصيدة «الفردوس المفقود»، وأختها «الفردوس المستعاد»، والأولىٰ لا الثانية هي التي تقوم عليها شهرته.

وهذه يقول النقاد: إن من المعروف أنها عبارةٌ عن جملة سرقاتٍ من إيسكلاس ودافيد وماسينياس وفوندل وغيرهم.

ولكنه لم يكن معروفًا أن «الفردوس المفقود» كلَّه -موضوعه ومواقفه وعباراته أيضًا- مترجمةٌ ترجمةً حرفية عن شاعر إيطاليٍّ مغمور غير معروف كان معاصرًا لملتون.

لم يكن هذا معروفًا حتىٰ اهتدىٰ إليه نورمان دوجلاس، فقد اتفق له أن عثر علىٰ نسخة وحيدة من رواية «أدامو كاروتو» Adamo Caruto لمؤلفها سرافينو ديللا سالاندرا Serafino Della Salandra، وهذه الرواية وُضِعَت في سنة ١٦٤٧.

وأنا أنقل هنا ما يقوله نورمان دوجلاس، قال: سأسوق الآن بلا تمهيدٍ ما يكفي لإثبات أن «الفردوس المفقود» ليس إلا نقلًا وترجمةً لهذه الرواية.

محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جرَّاء العصيان الذي أُغْرِي به الإنسان الأول. وهذا هو محور موضوع ملتون.

والأشخاص في رواية سالاندرا هم الله، وملائكته، والإنسان الأول، والمرأة الأولىٰ، والحية، وإبليس، وزملاؤه. وكذلك في قصَّة ملتون.

وفي فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سلاندرا الموضوع، ويتكلم عن الله وأعماله. وكذلك يفعل ملتون.

ثم يصف سلاندرا مجلس الملائكة المتمرِّدين، وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء ناريَّة، ويسوق أحاديثهم، وكيف أنهم يحقدون علىٰ الإنسان، ويتفقون علىٰ الاحتيال علىٰ إسقاطه، ويقرِّرون أن يجتمعوا في الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الإنسان عدوًّا لله وفريسةً لجندهم. وكذلك في ملتون.

وسالاندرا يجسِّد الخطيئة والموت، ويجعل الموت ثمرة الخطيئة. وكذلك يفعل ملتون.

ويصف سالاندرا سبقَ العلم الإلهي بنتيجة الإغواء، وسقوط الإنسان، وتهيئته تعالىٰ لأسباب الخلاص. وكذلك ملتون.

ويصف سالاندرا موقع الجنة والحياة السعيدة فيها. ويفعل ملتون مثله.

ويشرح سالاندرا الإعجاز في خلق العالم والإنسان، وفضائل الثمرة المحرَّمة. وكذلك ملتون.

ويروي سالاندرا الحوار الذي دار بين حوَّاء والحيَّة، ويصفُ الأكل من الشجرة المحرَّمة، واليأس الذي استولىٰ علىٰ أبوينا آدم وحوَّاء. وكذلك ملتون.

ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتكبته حوَّاء، والسُّرور الذي عمَّ الجحيم، والحزن الذي انتاب آدم، وخروج آدم وحواء من الجنَّة، وحزنهما وندمهما. وكذلك يفعل ملتون.

ويتوقَّع سالاندرا مجيء المخلِّص، وهزيمة الخطيئة والموت، ويتكلَّم عن عجائب الخلق، ويصفُ قتلَ قابيل لأخيه هابيل، ويذكر الخطيئات في الدنيا والحرب وأهوالها. وكذلك ملتون.

ويصف سالاندرا الحبَّ الذي ينطوي عليه عيسىٰ عليه السَّلام، والعزاء الذي يشعر به آدم وحوَّاء حين يبشِّرهما المَلَك بمجيء المسيح، ثم خروجهما من جنَّتهما الأرضية. وكذلك يفعل ملتون.

فالموضوع مأخوذٌ برمَّته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس.

ويقول برتون راسكو: إن هذا ليس كلَّ شيء. ويحيلُ القارئ علىٰ كتاب اسمه «أولد كالابريا» كالابريا القديمة، ويؤكِّد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصَّة سالاندرا حرفًا بحرف، وأن ما ليس مترجمًا عن سالاندرا مترجَمٌ عن غيره من الشعراء القدماء.

والذي يجعل الأمر أغرب أن ملتون كان قد أعلن قبل ذلك عزمه علىٰ نظم قصَّة خالدة لا يسمحُ الناس بأن يدعوها تموت وتقبر، ويعني بها «الفردوس المفقود»، وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه في كلِّ الشعراء الإنجليز الذين تقدَّموه، مثل: شوسر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون، ووصَفهم بأنهم صنَّاعٌ آليُّون، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم.

ويعلِّل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلىٰ قصَّة سالاندرا بأن ملتون لقيه في رحلته إلىٰ إيطاليا، وأن سالاندرا يرجِّح أن يكون أعطاه نسخة من قصَّته عسىٰ أن يعينه علىٰ ترجمتها إلىٰ الإنجليزية.

ويقول: إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا، وإنه قابل جروتياس Gratios في باريس، وجاليليو Galelio في فلورنسا، وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه نسخة من القصَّة لمَّا نُشِرَت بالإيطالية.

والمحقَّق علىٰ كلِّ حال أن قصيدة «الفردوس المفقود» نسخةٌ طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الإيطالي.

وأنتقل الآن إلىٰ ما هو أحدث، في أثناء الحرب العظمىٰ لم يكن لنا عملٌ بعد السَّعي وراء الرزق إلا القراءة والاطلاع، واتقاء التعرُّض لمكاره الاعتقال والسِّجن وما عسىٰ أن يكون وراءهما، وقد وقَتني الكتبُ ذلك مرَّة، وجاء القوم يفتِّشون بيتي وكان معهم ضابطٌ إنجليزي، فلمَّا دخل المكتبة وأجال عينه في الرُّفوف وما عليها من كتب الأدب حَسُنَ رأيه فِيَّ ومال إلىٰ الرفق، فانتهىٰ الأمر بخير[1].

ولكن هذا استطراد، فلنرجع إلىٰ ما كنَّا فيه.

والذي أريد أن أقوله: هو أن صديقي الأستاذ العقاد أعارني يومًا قصَّة «تاييس»

---

(١) اقرأ القصة في «ليلة التفتيش».

لأناتول فرانس، فقرأتها بلهفة، فقد استطاع المترجم الإنجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدُّره وبراعة العبارة وسحرها.

ومضت بضعة شهور، ثم دفع إليَّ الأستاذ العقاد رواية «هايبيثيا» للكاتب الإنجليزي تشارلز كنجزلزي، فقرأتها أيضًا، ثم سألني: ما رأيك؟ قلت: غريب. قال: إن الروايتين شيءٌ واحد. قلت: صحيح!

والواقع أن الروايتين شيءٌ واحد، وأن «تاييس» مأخوذة من «هايبيثيا» بلا أدنىٰ شك. وفي وسع من شاء أن يقول: إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلزي إلىٰ الموضوع.

ذلك أن «تاييس» في رواية أناتول فرانس هي «هايبيثيا» في رواية كنجزلزي، والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد، وكلُّ ما هنالك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذٌ فنَّان، وأن تشارلز كنجزلزي أستاذٌ مؤرخ.

وأنا مع ذلك أفضِّل رواية «هايبيثيا» وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل، فما لأناتول فرانس في «تاييس» غير براعة الأسلوب وحلاوة الفنِّ، ولكن الصُّور في رواية «هايبيثيا» أتمُّ وأصدق، والشخصيات أكثر، ورسمُها أقوىٰ وأوفىٰ، والموضوع أحفَل. وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة: إنها تعرض عليك عالمًا تامًّا لا ينقصه جانبٌ واحد من الجوانب، أما «تاييس» فليست سوىٰ لمحة خاطفة من هذا العالم.

وتشارلز كنجزلزي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عَليه، ويريك الناسَ والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقَّة وأمانة، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطًا سريعة تريك ما وقع في نفسه من ذلك العصر، فهو أشبه بالمصوِّرين الذين يَجرون

علىٰ طريقة الامبرشزنم، أي الذين يصوِّرون وقعَ المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع.

هذا بعض ما يسعني الآن أن أذكره، وأمثالُ هذا كثيرٌ في الآداب الغربية، وليس له في الأدب العربي نظير، وأسباب ذلك كثيرةٌ يطول فيها الكلام، فلنرجئها إلىٰ فرصةٍ أخرىٰ تتَّسع لوجوه التعليل المختلفة.

الخطابة والكتابة[1]

زارني مرَّةً رجلٌ كالعصفور! ولستُ أعني أنه صغيرٌ في رأي العين أو العقل، ولكنَّما أعني أنه في حديثه كالفَزِع، لا يكاد يواقِع موضوعًا حتىٰ يتركَه إلىٰ غيره ويَثِبَ عنه إلىٰ سواه[2].

وسألني فجأةً وبلا مناسبة تقتضي ذلك: ما أحسنُ تعريف للكاتب؟

ومن عادتي حين أجالسُه أن أنظر إلىٰ شفتيه دون سائر وجهه، وما رأيته قطُّ يهمُّ بأن يُدِير لسانه في فجوة فمه إلا توقَّعتُ أن يَبْدَهني بجديد؛ ففي مجلسه إمتاع التنقُّل، وفي حديثه لذَّة المفاجأة، ولكنه يتعِب الجليسَ بما يكلِّفه من الجهد في التماس الصِّلة في ذهنه بين المسائل التي ليس بينها في الظاهر أوهىٰ علاقة.

فلما ألقىٰ إليَّ سؤاله ابتسمتُ ودعوتُ الله أن يلهمني الجواب قبل أن يطير إلىٰ موضوع آخر!

---

(١) «جريدة الاتحاد» (٦ أغسطس ١٩٢٥)، ثم في «قبض الريح» (١٢٨ - ١٣٥).

(٢) مما يتصل بهذا التشبيه، والحديث ذو شجون، ما ذُكِر في ترجمة الأصولي المتكلم صفي الدين الهندي (ت: ٧١٥) أنهم حين عيَّنوه لمناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية قال لابن تيمية في أثناء البحث: «أنت مثل العصفور تنطُّ من هنا إلى هنا ومن هنا إلى هنا»! «أعيان العصر» (٤/ ٥٠٤)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٢٦٢). وفي «طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ١٦٤): «ما أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فرَّ إلى مكان آخر». قال الشوكاني في «البدر الطالع» (٢/ ١٨٨): «ولعله قال ذلك لما رأى من كثرة فنون ابن تيمية وسعة دائرته في العلوم الإسلامية، والرجل ليس بكفء لمناظرة ذلك الإمام إلا في فنونه التي يعرفها، وقد كان عريًّا عن سواها». وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٦): «وحضر الشيخ صفيُّ الدين الهندي وتكلم مع الشيخ تقي الدين (ابن تيمية) كلامًا كثيرًا، ولكنَّ ساقيتَه لاطمت بحرًا».

وذكرتُ قصَّة «الجريمة والعقاب» لصاحبها ديستويفسكي، ووصفِ السِّكِّير فيها، وكيف كان يعبُّ في «الفودكا»، ثم يروح ينثر الأسئلة شمالًا ويمينًا ولا ينتظر الجواب! وعجبتُ لهذا الصَّاحي الذي له طبيعة ذلك السَّكران! واشتاقت نفسي أن أداعبه فقلت: أتريد جوابًا لسؤالك؟

قال: وهل في ذلك شكٌّ؟ إذن فيمَ أسألك؟

قلت: فإن لي شرطًا؟

قال: ماذا؟

قلت: ألا تطالبني بإيضاح.

فأطرق قليلًا، ثم رفع إليَّ وجهًا كالدِّرهم المَسِيح، ونظر إليَّ بعينين مظلمتَين كالكهفَين، وقال بلهجة المستسلم إلىٰ قضاء الله وقدره: قبلت.

فقلت، وتكلَّفتُ السَّمت والوقار والجِدَّ، وزويتُ ما بين عينيَّ، وغرزتُ عنقي بين كتفيَّ، كأنما أوشك أن أفضي إليه بخبر ضخم، أو أنطق بحُكْم: الكاتب يا سيدي هو الذي لا يكون وحده حين يكون وحده!

فحَمْلَق مبهوتًا، ثم هزَّ رأسه يمنةً ويسرة، ونهض عن كرسيِّه ومدَّ إليَّ يده في صمت، ومضىٰ عني حاسبًا أني أسخر منه!

وقد انقضت سنواتٌ طويلات، ولكن صاحبنا لا يلقاني بعدها إلا صامتًا، ولا يناولني يده إلا مطرقًا، ولا يغتفر لي هذه الدُّعابة الخفيفة التي ركبتُه بها قديمًا!

كان هذا منذ سنين كما قلت، ولا أدري ماذا أذكرنيه الآن، غير أني لا أرىٰ اليوم فيما قلتُ له حينئذ شيئًا من الهزل، ولا أعدٌّ كلمتي تلك التي أسخطته إلا جدًّا صِرفًا، وإن لم أكن أعني ما أعني الآن؛ فقد صارت الدنيا في نظري مدرسةً حقيقيَّة سوىٰ أنها

سخيفة! يتلقَّىٰ المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس سابحًا معهم علىٰ متن الحياة يصارع أمواجَها ويغالب أثباجَها، حتىٰ إذا كرَّ إلىٰ الشاطئ وارتمىٰ علىٰ رماله ليريح أعضاءه، ويستجمَّ لخوض العُباب مرَّة أخرىٰ، شرَع يفكِّر فيما لقيه ويُجِيل نظره فيه، كالتلميذ بعد أن ينصرف عن المدرسة يقلِّب صفحات كتبه ودفاتره ليستظهر ما فيها ويثبته في ذاكرته، ولكنها كما قلتُ مدرسةٌ سخيفة يقضي فيها المرء حياته ليتعلَّم كيف يعيش وتتصرَّم أيامه وهو لم يَحْذِق الدَّرس ولم يفز بالجائزة!

ولا شكَّ عندي في أنه لا خير فيمن يحسُّ حين يكون وحده أن حوله فراغًا. ألا يهتف به هاتفٌ أو يطوف به طائفٌ من ماضٍ؟ أو ينجم عنه في سماء نفسه نجمٌ من أمل أو فكرة أو خاطر أو خيال؟ إنه إذن ليس سوىٰ طفل كبير كلُّ حيويَّته في أعضائه، فلندَعه يبحث عن تِرْبٍ له يلاعبه!

كان بيكون[1] رحمه الله أو صنَع به ما شاء يقول: «إن بعض العقول ملائمٌ لما يمكن إرساله دفعةً واحدةً أو في زمن وجيز، والبعض يُخْلَق مناسبًا لما يبدأ بعيدًا ولا يُنال إلا بالسَّعي الطويل».

والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء، والثاني نمط الكتَّاب.

ولقد سمعتُ في حياتي خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينعَم بالحياة وبحنجرته، ولكنَّ أقواهم وأعلاهم لسانًا وأبلغهم تأثيرًا كان كالطُّبول التي قالت القردة عنها فيما روىٰ ابن المقفع في «كليلة ودمنة»[2]: «لعل أفشل الأشياء أضخمها[3] صوتًا».

---

(١) فرانسيس بيكون (Francis Bacon) فيلسوف إنجليزي اشتهر بفلسفته القائمة على الملاحظة والتجريب، توفي سنة ١٦٢٦م.

(٢) (١٠٦) باب الأسد والثور.

(٣) «كليلة ودمنة»: «أجهرها».

وكان يخيَّل لي إذ أسمعه يخطبُ الجماهير كأن في وجهه زوبعةً ثائرةً أو بركانًا فائرًا، وكأنه حين كان ينهض ليتكلَّم «بلاس» الذي حدَّثتنا الأساطير أنه خرج من رأس «جوبيتر» شاكيًا مستعدًّا تامَّ السلاح.

وكان كلَّما مضىٰ في كلامه يعلو ويبهَر كالنَّار المندلعة، ويقنع السَّامعين لا بالحجة والبرهان، بل بقوة انتفاء شكِّه في نفسه، وكان يجزم ولا يتردَّد، ويبتُّ ولا يتلعثم، ويقرِّر ولا يناقش، ويعدُّ ما شاء أقضيةً مفروغًا منها ومسلَّمًا بها، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو إيماءة أو ابتسامة أو دَقَّة علىٰ المنضدة، كأنما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافرُ وأنيابٌ حِدادٌ تمزِّق الظُّلم الذي قام متمرِّدًا عليه، وتبعثِر أشلاءه للوحوش والكلاب.

وإذا ذكر بلاده وفجائعها خِلتُه «أنطونيوس» واقفًا علىٰ جثَّة «قيصر» ليدفع حجارة روميَّة إلىٰ الثورة والانتقاض. وكانت عينُه تلتمع بنور الوطنيَّة، وصدرُه يعلو ويهبط جائشًا بالعواطف العامَّة كالعُباب الزاخر.

ثم كنت أتلو خطبتَه في المساء أو الصَّباح، فأعجب لتَفَهِها وفراغها وخلوِّها من كلِّ روعة أو جمال، وأكاد أقول: إنها غير ما سمعَت أذناي منه؛ لأنها ليست سوىٰ الرَّماد الذي صارت إليه النار التي كانت تُزَغْرِد في مِسمعي، ولأن الإشارات المقوِّية ليست هنا، ولا الصَّوت الفاتن الذي يسحَر المرء عن نفسه، ولا النظرات المُوحِيَة، ولا الوِقفة الناطقة، ولا الجماعة المتعاطفة المُعْدِية.

ولعل أقوىٰ الخطباء فعلًا في نفوس الجماهير وأبلغَهم تأثيرًا لا يكون إلا أشبهَهم بها، وأقربَهم إليها، وأقدرَهم لذلك علىٰ النزول إلىٰ مستواها. وليس في وُسْع الخطيب إذا شاء أن يبلغ من السامعين ما يشتهي أن يجاوز السُّطوح، أو يهوي إلىٰ الأعماق ويطلب الأغوار، وإلا جاوز محيطهم، وحلَّق فوقهم، وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به.

وتأمَّل ما تظنُّه أقوىٰ خطبة سمعتَها، وقل لي: من أيِّ شيء تراها مبنيَّة؟ أليس قِوامها الألفاظ المبتذلة، والعبارات المُذَالة[1]، وما ألِفَت الجماهير أن تسمع وتتأثَّر به وتنفعل له؟ وهذه المبتذَلات أفعلُ بألباب الجماهير؛ لأنها لا تكلِّفهم مشقَّة، ولا تدعهم حيارىٰ، ولا تتركهم فاغرين أفواههم كالبُلَهاء، ولا يحول دون وقوعها في نفوسهم حائلٌ من تعويصٍ أو عمقٍ أو دقَّةٍ أو سموِّ خيالٍ أو لطفِ تصوُّر، ولأنها تحرِّك المزاج العامَّ وتَشُبُّه[2] ولا تصدِمه.

ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجةٌ إلىٰ العمق أو الابتكار، وكلما كان أدنىٰ إلىٰ طبقة الأوساط العاديِّين كان هذا خيرًا له ولهم، وأجدىٰ عليه وعليهم؛ فإنَّ حائك الجيش -كما يقول «نورداو»- لا يفصِّل ثيابه علىٰ قدِّ جنديٍّ ممشوق القوام من معارفه، بل علىٰ الطول المتوسِّط.

ويقول نورداو، وليس أصدق ممَّا يقول: «تصوَّر أربعمئة من طراز جوته، وكانت، وهلمهولتز، وشكسبير، ونيوتن، وأضرابهم، محشودين في مكان واحد ليبحثوا شأنًا عمليًّا ويبدوا آراءهم فيه! قد تختلف خطبهم عن الخطب التي تُلقىٰ في المجالس النيابية -وحتىٰ هذا مشكوكٌ فيه-، ولكن ما يخلصُون إليه من النتائج ويتَّفقون عليه لا يتعرَّض لمثل هذا الاختلاف. فلماذا؟ لا لسبب سوىٰ أن كلًّا منهم -فضلًا عن خصائصه التي تُفْرِدُه وتُكْسِبه شخصيَّته الممتازة- قد وَرِثَ خصائص الجنس التي يشاركه فيها لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم، بل كلُّ نكرةٍ من نكرات الشوارع أيضًا.

ونقول بعبارة أخرىٰ: إن بين الناس العاديِّين شيئًا مشتركًا لا تكاد تتفاوت قيمته، نرمز له بهذا الحرف «أ»، وأن الأفراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشيءٍ

---

(١) المبتذلة.

(٢) توقده.

آخر خاصٌ يختلف باختلافهم، وينبغي أن نرمز له بحرفٍ مختلف في كلِّ حالة مثل «ب» و«ج» و«د» إلخ.

والآن فلنفرض أن أربعمئة من العبقريِّين اجتمعوا، فإن النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا أربعمئة «أ»، وباءٌ واحدة، وجيمٌ واحدة، ودالٌ واحدة، وهكذا. فلا يُسْفِر ذلك إلا عن أمرٍ واحد هو أن تحرز الألفات الأربعمئة نصرًا مبينًا علىٰ الباءات والجيمات والدَّالَات المفردة، أي أن ما هو مشتركٌ بين الجماعة يتغلَّب علىٰ ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تُتأم.

ولقد تعلَّمنا منذ زمن بعيد في المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع، وهذا في الواقع هو السَّبب في أن من الممكن أن نتصوَّر مجتمعًا من الأفراد العاديِّين لا من الآحاد النوابغ. ومن المستطاع -إذا طرحت الأمر للتصويت- أن تحصل علىٰ رأي أغلبيَّة في مذاق توابل الكرنب! أما في قيمة نظريَّات الحياة فلا سبيل إلىٰ ذلك. والأرجح في الاحتمال -إذا أُحصِيَت الأصوات علىٰ هذه النظريات- أن تفوز كلُّ نظريَّة بصوتٍ واحد هو صوتُ صاحبها».

ولكن للكاتب شأنًا مختلفًا جدًّا، عليه أن ينضِج ما يريد أن يفضي إلينا به ويطلعنا عليه، وإلا كان لا شيء. والوقت أمامه فسيحٌ لتلمُّس الموادِّ، وللعبارة عمَّا يدور في خاطره ويتمثَّل لخياله، والقرَّاء مستعدُّون أن ينتظروا ويصبروا حتىٰ يهتدي إلىٰ ما يبغي ويوفَّق إلىٰ ما يشتهي.

وهو مطالبٌ بأن يؤدِّي ولا يَمْطُل دينَه للحقيقة وللطبيعة، إذ كان لا يخاطب نفوسَ الجماعة المتعاطفة، بل عقلَ الفرد، والناسُ ينظرون إليه نظر التلميذ إلىٰ المعلِّم لا الظهير إلىٰ الظهير، فمِن حقِّهم أن يتقاضَوه الدِّقَّة والعمق، وموافقة الصَّواب، وتحرِّي الحقيقة، وحُسن البيان، وعلوَّ اللسان، وأن يكشف لهم عمَّا أفاده

الدَّرس والتحصيل والنظر، وما ذَخَر علىٰ الأيام من كنوز الفكر، وأن ينصِف نفسَه وعقله ومواهبه، وأن يُجِيل لحظَه في سماء فكره لا في وجوه الجماهير.

وليس ما يطلبه الكاتبُ علىٰ طرف اللسان أو حدِّ القلم، بل هو ملفوفٌ في طيَّات القلب، ومنقوشٌ علىٰ صفحات العقل طبقةً فوقها طبقة ودونها طبقة، يرفعها الخيالُ والفكر واحدةً إثر أخرىٰ، ويلتمسُ لها العبارة التي تجلوها في أحسن حِلاها وأقواها.

وعسىٰ من يقول: ولكن للخطيب مشجِّعًا كافيًا من ثناء الناس عليه في وجهه وتصفيقهم له، وما يراه من الموافقة ويحسُّه من القبول، وما يشهد من قدرته علىٰ حمل الناس علىٰ رأيه، وليس كذلك الكاتبُ المسكين الذي يسهَر الليل لمن ينامون عنه، ويكدُّ قريحتَه للناعمين بالراحة.

فنقول: نعم يلقىٰ الخطيبُ من يصفِّق له ويهتف، ويدخل السُّرور علىٰ نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحسَّ وقعَه، ويشهد ذلك بعينيه وبكلِّ جارحة فيه. ولا شكَّ في أن الكاتب قد حُرِم هذا وما يجري مجراه. غير أن هذا لا يَضِيره، وبحسبه من التشجيع أنه أمينٌ وفِيٌّ للحقيقة والطبيعة، وله قوَّة يحسُّها من نفسه ويحسُّها الناسُ منه. ولقد كان هو قارئًا قبل أن يكون كاتبًا، وليس يخفىٰ عليه ولا من الغريب عنه ما يجده القارئ من المتعة، وما يفيده من الغبطة.

والخطابة فنٌّ أجوف إذا اعتبرت القيمة الحقيقيَّة للكلام، لا التأثير الذي تُحْدِثه، والوقعَ الذي يكون لها، فمن حقِّها أن يكون الجزاء عليها التصفيق الوقتيَّ وما إليه من الأعراض الزائلة. وفنُّ الكتابة أسمىٰ وأجلُّ، فجزاؤه من جنسه معنًىٰ سامٍ لا مظهرَ خشن[1] عاميّ.

---

(١) كذا في الأصل المطبوع.

الصِّحافة والأدب[1]

كانت معرفة أخبار العرب مقرونةً فيما مضىٰ بحفظ الأشعار، وإن لم يكن للفظ «الأخبار» هذا المعنىٰ الحديث الذي صار لها وغلَب عليها؛ فقد كان أقربَ إلىٰ معنىٰ التاريخ وأشبه به، وكان الشعر نفسُه يُعَدُّ ديوانًا لأخبار العرب، وسجلًّا لأيامهم ووقائعهم، وقد اقترن الأدبُ بالصِّحافة في زماننا هذا اقترانًا يظهر أنه لا حيلة فيه ولا مهرب منه.

وقد يسأل القارئ: هل في هذا الاقتران ضير؟

والجواب الذي أستطيع أن أدلي به: هو أني أرجِّح أن لا ضير من ذلك. وأقول: «أرجِّح» لأني أراني أزداد علىٰ الأيام زهدًا في الجزم، ونفورًا من البَتِّ، وتردُّدًا بين النفي والإثبات، وإيثارًا للتريُّث؛ لعل وجهًا أو جانبًا آخر للأمر يتبدَّىٰ، فأعرف ما كان غائبًا عنِّي، وما عسىٰ أن يكون للإلمام به أثرٌ في الرأي الذي أذهب إليه، حتىٰ صرتُ أتقلَّب بين الرأي وخلافه مرَّاتٍ قبل أن أستقر، ولستُ أحسُّ بعد طول التردُّد بالاطمئنان إلىٰ الصَّواب، وما أظنُّ إلا أن هذا التردُّد قد أورثنيه ما وقعتُ فيه من الخطأ، وما رَكِبني مرارًا من الجهل، وما كثر تورُّطي فيه بالتسرُّع وقلَّة الأناة.

وأوثر قبل الجواب المفصَّل أن أصف للقارئ ما كان من أمري بين الأدب و الصِّحافة، وأحسب أن هذا الوصف يصلح أن يكون بيانًا كافيًا.

فقد كنت أديبًا قبل أن أكون صحفيًّا، وكنت في ذلك الصَّدر من حياتي معلِّمًا أيضًا، ولكني كنت أشعر أن التعليم لا يلتقي بالأدب في ملتقًىٰ واحد، أو يُعِين عليه،

---

(١) «مجلة الكتاب» (مارس ١٩٤٦).

أو ييسِّر أمره، وكنت أرىٰ أن الوقت الذي أنفقه في التعليم كان الأدب أولىٰ به، أو هو مقتطعٌ من حقِّ الأدب.

وكنت أحسُّ أن التعليم لا يَصِلني بالحياة الصِّلة اللازمة لفهمها، وكان تلاميذي لا هم من الأطفال فأدرُس فيهم هذا الطَّور الحيويَّ من حياة الإنسان، ولا هم رجالٌ كبارٌ ناضجون، وإنما هم بين بين، فكأني معهم في برزخ، ولهذا كان أدبي نظريًّا بحتًا، أو قل: إنه الأدب الذي يعتمد علىٰ الكتب، ولا يستمدُّ من الحياة إلا قليلًا؛ لأن صاحبه لا يعانيها معاناةً وافية.

وكنت أقول الشعر أيضًا في ذلك الزمان، وأرىٰ الآن أن ما قلتُ لم يكن سوىٰ توليدٍ من القديم كنت أحسبه جديدًا أو تجديدًا؛ لأنه لم يكن مظهرًا لاستجابة النفس لما يُهيبُ بها من الحياة إذ تُواقِعها.

وكنت متكلِّفًا في أسلوب الشعر والنثر جميعًا؛ لأني أعيش بين الكتب، ولا أكاد أعرف سواها إلا ظنًّا علىٰ الأكثر، ولهذا كان أدبي في ذلك العهد دراساتٍ في الأغلب، قِوَامها القراءة وحدها تقريبًا، وشعرًا لا يصوِّر النفس علىٰ حقيقتها ولا يعبِّر عنها تعبيرًا صحيحًا؛ لأن الاقتباس فيه بالقديم -من شرقيٍّ وغربيٍّ- أكثر من الاستمداد من التجريب.

وكنت بطيئًا في الكتابة والنَّظم، معنيًّا بالتجويد كما كنت أفهمه، وكنت مع عنايتي بالمعنىٰ لا أرضىٰ إلا عمَّا ترضىٰ عنه أذني حين أعرضه عليها.

ثم كان ما صرفني عن التعليم وألحقني بالصِّحافة، فكابدتُ في أول الأمر شدَّةً عظيمة؛ لأني اعتدتُ الكتابة علىٰ مهل، وألفتُ ما كنت أتكلَّفه من الجزالة والفخامة، ولا يكاد ذلك يتسنَّىٰ في الكتابة للصُّحف؛ لأنها في عجلة، وهي تأبىٰ أن تتمهَّل أو تُمْهِل، وآلاتها تدور في أوقاتها بلا تقديم ولا تأخير، فكنت أكتب في البيت لأكون في

فسحةٍ من أمري، ولأتَّقي عواقبَ هذه العجلة الشيطانيَّة وتأثيرها السيء -فيما كنت أرىٰ- في أسلوبي الفخم.

وعلىٰ ذكر الأسلوب أقول: إن الظنَّ الشائع هو أني كنت متأثرًا في البداية بالجاحظ. وهذا صحيح، ولكن أصحُّ منه فيما أعلم أني كنت مفتونًا بأسلوب الجرجاني عبد القاهر صاحب «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، علىٰ أن هذا شيءٌ قد مضىٰ، وعهدٌ قد انقضىٰ، ولله الحمد.

ووجدتُ علىٰ الأيام أن الكتابة في البيت لا تتَّفق ومطالب العمل الصحفيِّ، وأن ما أتكلَّفه من التجويد وأُعنىٰ بتخيُّره من الألفاظ يجعل ما أكتبُ نابيًا قلقًا في موضعه وسط هذا الخِضمِّ الزاخر. ولم أكن راضيًا عن الأسلوب الذي تكتب به الصُّحف، ولكن عدم الرضا عن لغة الصِّحافة لا يستوجب أن أذهب إلىٰ الطرف الآخر، وفي الإمكان التوسُّط.

وتبيَّنت علىٰ الأيام أن لغتي القديمة فاترةٌ أو خامدة، وأني كأني قطعةٌ متخلِّفةٌ من زمان مضىٰ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها، وأن اتصالي بحياة الناس بفضل الصِّحافة قد فجَّر في نفسي ينابيع جديدة، وأكسب أسلوبي نبضانًا ليس من الوجع بل من الحيويَّة، وأفدتُ مرونةً كانت تنقصني أنا وتنقصُ لغتي وأسلوبي، وأصبحتُ قادرًا بفضل الصِّحافة أن أكتب في أيِّ وقتٍ وفي أيِّ موضوع، وفي خلوةٍ أو بين الناس، وأن أحصر ذهني فيما أنا فيه، فلا تُشتِّتُ خواطري الضَّجَّاتُ التي تكون حولي.

وأقول بإيجاز: إني كنت كالرَّاهب أيام كان التعليمُ عملي، فلما زاولتُ الصِّحافة خرجتُ من العزلة القديمة -عزلة الفكر والنفس- ونزلت إلىٰ الحَلْبة، أو خضتُ العُباب، فكأني انتقلتُ من عالم إلىٰ عالم، أو هبطتُ من كوكب إلىٰ كوكب في هذا الفلك الدوَّار.

وقد لا أرضىٰ عما أُخرِجُ في هذا العهد الثاني، ولكنَّ ما أُخرِجُه هو علىٰ كل حالٍ وسواءٌ أأرضاني أو لم يرضني ثمرةُ التجربة للحياة ومشاركة الناس فيها، أما في العهد الأول فقد كان ما أُخرِجُ هو ثمرة القراءة والتحصيل مع تعذُّر التجربة الشخصية.

فأول ما يفيده الأديبُ من الصِّحافة هو اتصالُه بالحياة حياة الجماعة وحياة الفرد، وفهمُ هذه الحياة علىٰ قدر ما يتيسَّر له ذلك بحسب استعداده وما رُزِق من المواهب والمَلَكات.

وتفيده الصِّحافة أيضًا أن أسلوبه يصبح حيًّا، وتقول لي تجربتي: إني كنت قبل العمل في الصِّحافة أشبه بمُومياء محنَّطة، فلما دخلتُ في الصِّحافة أحسستُ بالدماء تجري في عروق هذه المُومياء، وأنها أصبحَت قادرةً علىٰ مُوَامقة[1] الحياة في أكثر من موضع واحد، وأنها صارت تنظر وتحسُّ وتفكِّر وتنطق كما ينطق الأحياء، ولا تكتفي بأن تتبدَّىٰ للناظرين إليها كما كانت تفعل إذ هي مومياء وتوحي إليهم أو لا توحي شيئًا.

وتفيده كذلك مرونةً في الأسلوب، أسلوب الكتابة وأسلوب التناول.

فهي مدرسةٌ نافعة، أو قل: لازمةٌ للأديب، وإن كانت مشغلةً شديدة، علىٰ أن ما تأخذه من وقت الأديب ليس شرَّ ما فيها، وإنما شرُّه أنها قد تُغْرِيه بأمرين علىٰ الخصوص:

السَّطحيَّة، أو بعبارة أخرىٰ: اجتنابُ الغوص والتعمُّق، والاكتفاء بأوَّل وأسهل ما يَرِد علىٰ الخاطر، ابتغاء التخفيف عن القارئ واتِّقاء الإثقال عليه، ومن هنا يخشىٰ أن يعتاد الأديبُ الكسل العقليَّ.

والأمر الثاني: أن الصِّحافة قد تدفع الأديب إلىٰ توخِّي مرضاة القارئ العاديِّ، فيحرص علىٰ ذلك حرصًا قد يُفْسِد عليه أدبَه، ويضيع مزيَّته، ويفقده قيمتَه.

---

(١) كذا في الأصل. ووامقه موامقةً: أحبَّ كلٌّ منهما الآخر لغير ريبة.

وقد كنت وأنا معلِّمٌ أدرِّس الترجمة أخشىٰ علىٰ نفسي أن أهبط إلىٰ مستوىٰ التلاميذ، وأن أتعوَّد التسامح والتسهُّل، فأعالج ذلك بالعكوف علىٰ قراءة الأدب القديم، وعسىٰ أن يكون هذا هو الذي يرجعُ إليه أني كنت أتكلَّف الجزالة والفخامة في صدر حياتي.

ولكن لا بدَّ من علاج لأثر الصِّحافة السيء في أدب الأديب، فلا مفرَّ له من دوام الاطلاع علىٰ الآثار الخالدة؛ ليعتدل الميزان، ويستقيم الأمر، ويتَّقي السَّطحية من ناحية، ومصانعة القارئ من ناحية أخرىٰ.

سبيل الصِّحافة[1]

فرغتُ من عملي، فوضعتُ القلم، ونهضتُ عن المكتب، ورحت أتمشَّىٰ، فلقيني زميلٌ فسألني: كيف ترىٰ الخبر الفلاني؟

قلت: عظيم. وقد جعلتُه موضوع مقالي اليوم.

قال: أنا جئتُ به.

قلت: أهنِّئك. فمن أعطاكه؟

قال: قد والله سرقتُه!

فضحكتُ وقلت: اللصُّ الشريف!

وهممتُ بالانصراف عنه بعد أن أثنيتُ عليه بالذي هو أهله.

فقال: بودِّي أن أعرف رأي الوزير فيما صنعت، وما أظنُّ إلا أنه مغيظٌ مُحْنَق.

فقلت: إن الخبر للنشر علىٰ كلِّ حال، والخلاف بينك وبين الوزير علىٰ موعد النشر، وليس هذا الخلاف بالذي يثير الغضب.

وأقبل في هذه اللحظة زميلٌ آخر، فألقيتُ إليه خلاصة الحديث، وقلت: إن الجريمة ليست في ارتكابها، بل في افتضاحها. ونحن اليوم نحرِّم السَّرقة، وتقول قوانينها: إنها محظورة، وإن عقابها كيت وكيت، ولكن (ليكرغ) في إسبارطة القديمة كان يذهب مذهبًا آخر، فيقول بأن لك أن تسرق علىٰ ألا ينكشف أمرك، فإذا انكشف كان عقابك صارمًا. والنتيجة واحدة؛ فإن السَّارق الذي يستطيع أن يستر فعلتَه لا

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٨٧، ٢ يناير ١٩٣٩)، ثم في «سبيل الحياة» (٣١-٣٣).

يصيبه شيء، وما يعاقَب إلا الذي يعجز عن إخفاء ما صنع، ويثبت عليه ارتكاب الفعل.

ووجهٌ آخر للمسألة: زميلنا هذا قد سرق شيئًا، لم يسرق خبزًا ليأكل، ولا مالًا لينفق علىٰ نفسه وعلىٰ عياله، أو ليوسِّع رزقه، ولكنه مع ذلك سرق شيئًا في سبيل رزقه؛ فإن رزقه يتطلَّب منه أن يوافي الجريدة بطائفة صالحة من الأخبار التي تعني القرَّاء، وصاحب الجريدة لا يكلِّفه السَّرقة، ولو فعل لكان هذا منه شططًا غير مقبول، وأمرًا لا يطاع، ولكن الزميل مع ذلك رأىٰ أن قيامه بواجبه يبيحُ له استقاء الأخبار بهذه الطريقة العوجاء، وهو -كما تعلم- سنيٌّ متديِّن، غير أن كونه سنيًّا ومتديِّنًا لم يمنعه أن يقدم علىٰ سرقة صريحة لا سبيل إلىٰ المكابرة فيها من أجل الرزق.

ولو أنه كان قد سرق رغيفًا أو بيضةً لكان جزاؤه ما يبيِّنه قانون العقوبات. وعذرُ الذي يسرق الرغيف ليُسْكِت «معدةً ثعلبها لاحسٌ، وتارةً أرنبها ضاغبُ» كما يقول ابن الرومي في قصيدته المشهورة لابن الحاجب[1] أوضحُ ممَّن يسرق ولا جوع به ولا خلَّة، وإنما يريد أن يستديم الرضا من صاحب عمله.

ولو جئت بسارق الرغيف وسارق المذكِّرة من الوزير أو أعوانه وسقتهما إلىٰ القضاء، لكان للمحقِّق أن يحكم علىٰ سارق الرغيف، وأن يبرئ سارق المذكرة. وقد يرىٰ القاضي أن الفاقة «ظرفٌ مخفَّف» كما يقول رجال القانون، ولكن لن يكون عنده «ظرفًا مبرئًا».

وسارق المذكِّرة يستطيع وهو آمنٌ أن يباهي بعمله، وأن يتَّخذ من قدرته علىٰ مثله شهادةً مزكِّية له، ووسيلةً للرفع من شأنه. وكلُّ صاحب جريدة يسمع بجريمته يتمنَّىٰ لو أن أخانا المجرم كان يعمل له، بل يتمنَّىٰ لو كان كلُّ من يعمل في جريدته علىٰ مثاله.

(١) ديوانه (١/ ١٨٢).

ولكن سارق الرغيف بماذا يباهي؟ أبفقرِه؟ أم بعجزه عن الكسب؟ أم بما وصمه به القانون؟ أم بما نزل به من السِّجن؟ وكلُّ صاحب عمل يزهَد فيه ويخاف منه وينفي أن يكون عنده مثله، وقد يدركه عليه العطف، ولكنه لا يطمئنُّ إليه، وإنه ليعلم أنه ما أغراه بالسَّرقة إلا الجوع وقلَّة الحيلة وانقطاع الوسيلة، وإنه ما كان ليفعل ما فعل لولا ذاك، ولكن الشُّكوك مع ذلك تظلُّ تساوره وتقاوم شعور العطف وتغالب رحمة القلب، بل منطلق العقل.

وأحسب أن الصِّحافة مدرسةٌ لتعليم هذا الضرب من السَّرقة، ولست أعرف صحفيًّا واحدًا أتيحت له فرصةُ سرقةٍ وأحجم عنها أو تردَّد. وما أبرِّئ نفسي ولا أنا أستثنيها، هذا وليس عملي في الصِّحافة -ولا كان قطُّ- أن أستقيَ الأخبار، ولكن كلَّ عمل في الصِّحافة رهنٌ بالأخبار، فصِلتُه به أوثق مما يبدو للمرء، وإن خيَّلت غير ذلك.

وإنك لترىٰ الصَّحفيَّ «حنبليًّا» في كلِّ شيء إلا حين يحتاج إلىٰ الوقوف علىٰ خبر، وإذا بالذمَّة تتَّسع، وإذا كلُّ شيء جائزٌ في سبيل الوصول إلىٰ هذا المستور أو المكتوم، ثم لا أسفَ ولا ندمَ ولا توبة.

وأكبر الظنِّ أنَّ تسقُّط الأخبار في الطِّباع، وأن الإنسان فضوليٌّ بفطرته. فإذا كان هذا هكذا فإن الصِّحافة لا تصنع أكثر من تنظيم الأمر وتوجيهه وجهة المصلحة العامَّة لخير الجماعة. والصِّحافة من ثمرات الحضارة، فهي تصنع كالحضارة، أعني أنها تعمد إلىٰ الغرائز والفطر السَّاذجة فتصقلها وتهذِّبها وتنظِّمها وتجريها في مجارٍ معيَّنة، فيصلح أمرُ الجماعة ويستقيم حالُها.

مثَال ذلك أن الرجل كان يخطف المرأة التي تروقه أو يَسبيها، ثم يحتازها ما دام راغبًا فيها، ويحارب دونها، وهو الآن يتزوَّجها، ولا يحتاج إلىٰ الخطف أو الحرب دونها، وإن كان ربما احتاج أن يعاني متاعب المنافسة من الخاطبيها، أو الراغبين فيها غيره.

ومثاله أيضًا أن الأثرة والأنانيَّة قد اتخذا مظهر الوطنية أو القومية، ولم تذهب الأثرة ولم يبرأ منها الفرد، ولكن المدنية استطاعت أن تنتفع بروحها في الفرد وتسخِّرها لخير الجماعة.

كذلك تفعل الصِّحافة حين تستغلُّ فضول الإنسان، فتتولىٰ جمعَ ما يعنيه وتنشره علىٰ الناس. وقد خرج الأمر عن أصله، حتىٰ لصار يبدو كأنه منقطعُ الصِّلة به. ومن الذي يجرؤ أن يقول: إن الصِّحافة لا همَّ لها إلا إرضاء فضول الإنسان بعد أن أصبحت تسمَّىٰ «السُّلطة الرابعة»؟[1]، ومن ذا الذي يذمُّها من أجل أنها تصلُ إلىٰ أخبارها بما يَسَع رجالها من حِيَل، ويدخل في طوقهم من وسائل وإن كان بينها السَّرقة، بل شراء الذِّمم بكل ما تشترىٰ به من طيِّب وذميم، أي بالخداع، والمَلَق، والمدح، والصَّداقة، وتبادل المنافع، لا بالمال وحده كما قد يتوهَّم البعض؛ فإن الرشوة الصَّريحة وسيلةٌ يندر الالتجاء إليها.

وهكذا جعلت الصِّحافة من السَّرقة عملًا محمودًا، ومن مرتكبها لصًّا شريفًا! ولا عجب؛ فإن خدمة الأمَّة تكلِّف أبنائها تعاطي ما يعدُّه العرفُ رذائل وآثامًا، وتحمَد منهم ذلك، وتجزيهم عليه أحسن الجزاء.

---

(١) جرؤ المازني بعد أربع سنوات، فكتب في «البلاغ» (٢٠ يونيو ١٩٤٣) مقالته «الفضول وحدُّ ما بين العام والخاص»، ومما قال فيها: «ومن سوء الحظ أن صحفنا ومجلاتنا تغذِّي هذا الفضول في الناس، وتقوِّي نزعته، ولا تساعد على تهذيبه وصقله وتوجيهه. ولا يَثْقُل قولي هذا على الزملاء الأفاضل، فإني أعرف عذرهم، ولكني أصارحهم أني لا أقرُّ ما هم مُغْرَون به، ولا يسعني إلا أن أنكره وأستهجنه، وأرجو أن يزجروا أقلامهم عنه، فإنه يجني على قرائهم وإن كان يفيد صحفهم رواجًا»، ثم تحدَّث عن إقامة الحدود بين الخاص والعام وما يجوز نشره وما لا يجوز التعرض له، إلى أن قال في آخر المقالة: «ولا يؤاخذني الذين لا يخفُّ عليهم قولي هذا، فما أرجو به إلا الخير لنا جميعًا، ومن حسن الحظ أني أستطيع أن أجهر بالحق، فما لي مطمع، ولا أنا أرهبُ غير الله، وقد آن لكلمة الحق أن تلقى، ولشدَّ ما أتمنى لو كان صوتي أعلى وأقوى، إذن لرجوتُ أن أُسْمَع، ولكن الله قادرٌ على أن يضع سرَّه في أضعف خلقه». «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٧٩).

قصَّة كتاب يأبى أن يصدر[1]

هي قصَّة كتاب أريدُ له الظهور ويأباه كلَّ الإباء! ومن الكتب ما له سيرةٌ عجَب!

قلت لنفسي بعد أن أخرجت «إبراهيم الكاتب»: يحسُن بك يا هذا أن تنحو في الرواية التالية نحوًا آخر، حتىٰ لا يجيء ما تكتب من ذاك علىٰ غرارٍ واحد، فيملَّ القرَّاء.

وصحَّ عزمي علىٰ هذا التنويع، فتوكلتُ علىٰ الله، وشرعتُ في فترات النشاط القليلة أكتب رواية فكاهيَّة. والفكاهة -كما تعرف أو لا تعرف- تتطلَّب حذقًا وأستاذيَّة لا يتطلَّبها الجِدُّ وإرسالُ النفس علىٰ السَّجيَّة، حتىٰ ولو كانت في الطباع؛ فإن لفظةً واحدة تزيد أو تنقص يَبُوخ بها المعنىٰ أو تفضي به إلىٰ الغثاثة.

بدأتها في مصر، ثم سافرتُ إلىٰ لبنان طلبًا للراحة والاستجمام، فحملتُ مسوَّدتها معي، وعكفتُ عليها في البُكرات النَّديَّة حتىٰ فرغتُ منها، ففركتُ كفَّيَّ وتشهَّدتُ وحمدتُ الله، فقد أتعبتني.

وبقي أن نطلق اسمًا علىٰ هذا المولود الجديد، والأسماء آخر ما أختار لكتبي، واختيارُها يكلِّفني شططًا؛ فإن لي فيها لمذهبًا خاصًّا، وأنا أتحرَّىٰ فيها ما لا يتحرَّاه غيري، وقد لبث كتاب «خيوط العنكبوت» حولًا وزيادةً لا يَصْدُر حتىٰ اهتديتُ إلىٰ اسمه، وأسميتُ كتابًا آخر «عابر سبيل»، فأبىٰ العقاد إلا أن يسبقني إلىٰ إخراج كتاب له بهذا الاسم، فحَرَمنيه، ونزلتُ عنه غير شاكرٍ له، واحتلتُ علىٰ المعنىٰ حتىٰ أسميتُه «في الطريق»، ولكن هيهات!

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٤ يناير ١٩٤٣)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٤٣).

ويأبىٰ العقاد إلا أن يتعقَّبني فيفسِد عليَّ أسمائي وهو لا يدري! فقد أطلقتُ علىٰ روايتي الجديدة اسم «الدكتورة سارة»، فسبقني مرَّة أخرىٰ وأخرج رواية «سارة»، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا اسمٌ آخر يضيع بفضل العقاد! فماذا أصنع؟! أترىٰ ينبغي أن أسجِّل في المحكمة ما يخطر لي من أسماءٍ لكتب أنوي إصدارها؟!

وبدا لي أن أراجع الرواية عسىٰ أن يلهمني الله اسمًا جديدًا لها، فرأيتني أغيِّر وأبدِّل، وأضيف وأحذف، حتىٰ فشا عليَّ الأمر واختلط، فلم أعد أدري أين الأصل في هذا الكَوْم كلِّه! فجمعتُه ودسستُه في دُرْج، وقلت: إلىٰ أن يجيء أوانُ الطبع نستريحُ من وجع الرأس.

ورحتُ أكتب رواية أخرىٰ أتممتها بلا عناءٍ في بضعة أسابيع، وكانت عندي كتبٌ أخرىٰ لا ينقصُها إلا أن أهيِّئها للطبع، أي أختار لها أسماءها وأنسخها، فقد صرتُ أحرص علىٰ نسخة من الأصل غير التي أقدِّمها للمطبعة، حتىٰ إذا ضاعت ورقاتٌ -كما حدث في رواية «إبراهيم الكاتب»- وجدنا صورةً منها.

وفتح الله عليَّ باسمٍ صالحٍ للرواية المهملة، ففرحتُ وقلت: هذه آية، وبعثتُ بالاسم إلىٰ الخطَّاط، وأنستني الفرحةُ بموافقة الاسم وجمال الخطِّ أن أؤدِّيَ للرجل حقَّه، فمعذرةً يا صاحبي، فإن حقَّك في الحِفظ والصَّون، ولستُ آكلُ الحقوقَ ولكنِّي أنساها، وتلك آفتي أعرفها، ولْيعرفها غيرك أيضًا؛ فإن معرفتَها أجلبُ للاطمئنان، وأنفىٰ للقلق والهواجس.

وكنت غير راغب في الطبع علىٰ نفقة غيري، ولكني لستُ بذي مال، أو أنا لا أحسنُ تدبيرَه، أو لا أدري ما العلَّة! فما يتلبَّث معي شيءٌ ممَّا يصل إلىٰ يدي قلَّ أو كَثُر، ويخيَّل إليَّ أحيانًا أني أنفق المال حتىٰ في المنام! وكثيرًا ما ألَحَّ عليَّ صديقٌ كريمٌ أن أقيِّد في دفتر صغير ما أكسب وما أنفق، فأقول له: ولماذا أجشِّم نفسي هذه المشقَّة كلَّها؟ هل تقييدُ هذه الأرقام وإثباتها في ورقة يحفظها في جيبي أو يدي؟ إن كلَّ ما

أعرفه وما أحتاج أن أعرفه هو أني كسبتُ رزقي وقضيتُ به حاجاتي، وذاك حسبي، ولا حاجة بي إلىٰ زيادة علم.

فيقول: إن هذا التدوين يضبط الحساب، ويُعِين علىٰ الاقتصاد.

فأقول: أيَّ حساب تريد أن تضبطه يا أخي؟ إنك تشتري ما تشتري بثمنه، وتنفق المال في وجوهه، فكيف يكون عناء التدوين ضابطًا للحساب؟ ولماذا تكلِّفني العدَّ والحسابَ والجمع والطَّرح؟ ما خيرُ أن أعلم أني كسبتُ كذا، وأنفقتُ كذا؟ إن فائدة المال أن الحاجات تُقضىٰ به، وهذا هو الحاصل، والاقتصاد الذي تشير به يمنعُ المال أن يدور في الأيدي دورةً تامَّة، وهذا شرٌّ، ثم إني لا أقدر عليه ولا أحسِنه حتىٰ لو أردتُه، وإني لأجد في الإنفاق لذَّةً لا تعدلها لذة، ويؤرِّقني ويتلِف أعصابي أن لا أجد وجهًا أنفق فيه ما معي، ويُكْرِبني ذلك ويضيق له صدري جدًّا.

فيقول: وأولادك؟ ألا تترك لهم شيئًا؟!

فأقول: يكفي أن أربِّيهم، وعليهم أن يكسبوا رزقهم بعد ذلك بعرق جبينهم.

فيقول: وإذا لم تكفِ فسحةُ الأجل؟

فأقول: سبحان الله العظيم يا أخي! وهل أولادي نزلوا من السماء، فهم فوق البشر، ولا ينبغي أن ينالهم مكروهٌ أو يتعرَّضوا لما يتعرَّض له الخلقُ جميعًا؟ ولماذا يجب أن ينفرد أولادي دون هؤلاء الملايين بالنعمة والتَّرف؟ إنهم ناسٌ كسائر الناس، فإذا جرىٰ عليهم ما يجري علىٰ سواهم فلا ظلم هناك، ولا حقَّ لهم في الشكوىٰ والتذمُّر إلا من النِّظام الذي يسمح للأقلِّين أن يُثْروا ثراءً عظيمًا لا داعي له ولا انتفاع به، علىٰ حين تلصَق بطونُ الجمهور الأعظم[1] بالتراب من الفاقة، وسيتغيَّر هذا كلُّه عاجلًا أو آجلًا، فاطمئنَّ، وسيُحمىٰ أولادي وأولادك وأولاد الناس قاطبةً

(١) في مطبوعة «الأعمال»: والأعظم.

أن يتمرَّغوا في المَتْربة المُذِلَّة الأليمة، وإلىٰ أن يعتدل ميزانُ الحياة لا أرىٰ أن ممَّا هو خليقٌ أن يُكْرِبَ النفسَ أن يكتب الله الشِّقوة والفقر لأولادي، ولَخيرٌ من المال يرثونه ويتطرَّون به ولا يعوِّلون إلا عليه رجولةٌ يرثونها، وجَلَدٌ يعتادونه، وقوَّة نفس يفيدونها، وصلابة عودٍ تنفعهم في الكفاح اللازم في الحياة، والمالُ يضيع، ولكن هذه تبقىٰ، فدع الخوفَ علىٰ أولادي وأولادك؛ فإن هؤلاء الأثرياء لا خير فيهم لأنفسهم ولا للناس، وإنما معوَّل الدنيا علىٰ أمثالنا المَكدودين المرهقين الذين يكسبون الرِّزق بعَرق الجبين، نحن الناسُ يا صاحبي لا أولئك الضِّعاف المَهازيل الذين يرثون ما لا يتعبون فيه، ولو فقدوه لحاروا من أين يجيئون بكِسرةٍ من خبزٍ ناشف. كلا! لستُ أحمدُ توريثَ المال؛ فإنه مفسدة.

وأعود إلىٰ ما استطردتُ عنه، فأقول: إني آثرتُ أن أطبع الرواية علىٰ نفقتي، وأشار عليَّ صديقٌ أن أشتري من ورق الصُّحف وأقصَّه وأسوِّيه رِزَمًا، وأنا علىٰ كثرة ما طبعتُ من كتب من أجهل خلق الله بهذه الأمور. وقد قال: إن هذا أرخص، فصدَّقته، ودلَّني علىٰ مطبعة في صاحبها قناعةٌ عظيمة، وكان مطلبي أن أنفق علىٰ الطبع أقلَّ ما يمكن ليتسنَّىٰ أن أبيع الرواية بأزهد الأثمان، فاستخرتُ الله وصَدَرْتُ عن رأي الصَّديق، ودفعتُ الأصول إلىٰ المطبعة، وسارت الأمور في البداية علىٰ ما يرام... ببطء، ولكنه لم يكن بطئًا مزعجًا، ثم إني غير مقيَّد بموعد، فلا ضير من ذلك.

ولم يخلُ الأمرُ من مضحكات، ذلك أني أسميتُ الرواية «ميدو وشركاه»، وقد آثرتُ هذا الاسمَ علىٰ غيره ممَّا خطر لي للدَّلالة علىٰ النَّحو الفكاهيِّ فيها، فسمع بعض رجال البوليس أن «المازني» يطبع روايةً غريبة الاسم في مطبعة صغيرة في حارة مجهولة، فارتاب في الأمر، وخشي أن يكون كتابًا سياسيًّا يُطْبَع سرًّا، فداهَم المطبعة بسَرِيَّة من الجند والمُخْبِرين، وجعل يسأل: يعني إيه ميدو وشركاه؟ فهِّموني! ولا يكلِّف نفسَه عناء القراءة ليفهَم، فأطلعوه علىٰ الإذن بالنشر، فانصرَف ولم ينقض عجبُه.

ووجدنا أن شراء الورق علىٰ نحو ما أشار صديقي قد كلَّف فوق ما كان في الحساب، وكنت أتلقَّىٰ مسوَّدة الملزمة من المطبعة لتصحيحها فأنساها هنا أو هاهنا أسبوعًا وشهرًا، وأعديتُ صاحب المطبعة بالنسيان، فأخذه عنِّي وأسرفَ فيه، وكنت ربَّما أصبحتُ ذاكرًا فأبحث عنه لأستعجلَه فلا أجده، وصار مثَلي ومثَله كمثل الذي قال فيه الشاعر: إنه يذهبُ في أمرٍ فيغيبُ حولًا ويسبُّ العجلة، أو كالخادم الذي قال فيه ابن الرومي:

لـي خـادمٌ مـا أزال أحتسـبُهْ　　　يغيـبُ حتـىٰ يـردَّه سَـغَبُهْ[1]

والكتاب في المطبعة منذ ثمانية شهور أو تسعة، وما أنجزنا منه إلا ثماني ملازم أو تسعًا، ولولا أني اعتدتُ أن أنظر إلىٰ الأمور من ناحيتها المضحكة وأتناول الحياة برفقٍ ولا أهوِّل علىٰ نفسي لطار عقلي من الغيظ، ولكني أضحك وأقول: «وافق شنٌّ طبقة» و«وقعَت الرَّحىٰ علىٰ قُطبها».

وقد كان العزم أن أصدِر كتبي واحدًا تلو الآخر كلَّ بضعة أسابيع كتابًا، فالآن صرتُ أخشىٰ علىٰ ما طُبِع من الملازم من الفئران وغيرها ممَّا هو مُغرًىٰ بقرض الورق، وسيتغيَّر لون الورق ويَحُول، فيَخْرُج حين يُقْسَم له أن يَخْرُج أعجوبة الأعاجيب.

وأقول الحق: إني مللتُ الأمر كلَّه، فلستُ أبالي أظهَر أم لم يظهر، وأكبر الظنِّ أني سأدعُه وآخذ في طبع غيره؛ فإنه يخيَّل إليَّ أن سرًّا خفيًّا يعطِّل فَلَكَه عن الدَّوران!

---

(١) «ديوان ابن الرومي» (١/ ٢٠٢). والسَّغب: الجوع.

قُرَّائي الذين يحبُّونني[1]

لكلِّ كاتب قُرَّاؤه. وما مِن كاتب يعدَم قارئًا من كلِّ طبقة، ولكن المعوَّل علىٰ الأوفياء الثابتين علىٰ الوَلاء؛ فإن هؤلاء طريقُ الرزق، ووسيلة الاطمئنان والدَّعة، ولولاهم لمَا عرف المرء متىٰ يمكن أن يتاحَ له أن يأكل، وإن كان لا يجهل كيف يجوع!

ولستُ أعرف ماذا يصنع غيري ليهتدي إلىٰ طبقات قرائه، ولكني أعرف أن مصلحة البريد أغنتني عن عناء السَّعي ومشقَّة التفكير في الوسائل المُعِينة علىٰ الاهتداء؛ فإن رسائل كثيرة تأتيني منها، فأستخلص منها العِلم الذي أطلبه والمعرفة التي أشتهيها.

وما أكثر ما قلتُ لنفسي: إن الجاحظ وابن المقفَّع وعبد الحميد الكاتب ومَن إليهم من هؤلاء الزُّملاء والرُّصَفاء كانوا مساكين -أُوه جدًّا-؛ فما عرَفت الدنيا في أيامهم مصلحةَ البريد، وقد كان من الصَّعب ولا شكَّ أن يعرفوا مبلغ حبِّ الجمهور لهم وإعجابه بهم وماذا كان يمكن أن يبلُغ من رَواج كتبهم لو أنها كانت تطبع وتباع في المكاتب، وقد حرَمهم هذا الحالُ الاستقلالَ عن الأمراء ومَن إليهم. ومن الصَّعب أن يعمل المرء في الظلام. نعم، كان الواحد منهم لا يعدَم تشجيعًا من الشَّعب، ولكن هذا كان فلتةً لا تُحْسَب ولا يعوَّل عليها.

ومن السَّهل أن يتصوَّر المرء أن الجاحظ مثلًا كان يلقىٰ في الطريق واحدًا يتقدَّم إليه ويقول له: اسمح لي.. هل أنت الذي يسمَّىٰ الجاحظ؟ فيهزُّ رأسَه أن نعم، وهو واجفُ القلب؛ لأنه يخشىٰ الاعترافَ الصَّريح المقيِّد؛ لئلا يكون هذا السَّائل من

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٠٠، ٣ مايو ١٩٣٧)، ثم في «سبيل الحياة» (٨٣ – ٨٧).

الشرطة. فيقول الرجل: لقد صدَقوا.. أعني أن اسمه في محلِّه. علىٰ كلِّ حالٍ ثابِرْ يا بنيَّ، فإني أتنبّأ لك بمستقبل باهر! ويربِّت علىٰ كتفه ويمضي عنه مبتسمًا، وعينُه إلىٰ الملَك الذي ينبغي أن يكون محتفظًا بمكانه علىٰ يمينه مرهفَ الأذن مقيمًا سنَّ القلم علىٰ الدَّفتر المفتوح ليقيِّد له هذه الحسنة، حسنة التبرع الكريم بالتشجيع.

وإذا كانت الرسائل التي تَرِدُ إليَّ دليلًا علىٰ شيء فإني أكون أحبَّ الناس -أعني الكتَّاب- إلىٰ ثلاث طبقات: المرضىٰ، واللصوص، وقد نسيتُ الطبقة الثالثة. لا بأس، من يدري؟ ربما تذكرتها أثناء الكلام.

وقد عرفتُ هذا من الرسائل التي يحملها إليَّ البريد، كما قلت، وهذا نموذجٌ منها:

«... وبعد، فإني لم أسمع باسمك من قبل، ولكن مرضتُ ودخلتُ المستشفىٰ، وجاءني زائر، فترك لي كتابًا أتسلَّىٰ به، غير أني لم أستطع أن أتصفَّحه في أول الأمر لشدَّة وطأة المرض، فلمَّا خفَّ قليلًا مددتُ يدي إليه وبدأتُ أطالع، وأؤكِّد لك أنه سرَّني جدًّا. وأنا صحيحُ الجسم في العادة، ولكن الأمراض لا أمان لها، كما تعرف، فأرجو أن تبعث إليَّ بمجموعة من كتبك كلِّها، ومعها جملة ثمنها، استعدادًا للطوارئ؛ فإن الحِيطة واجبة، وإن كان الأمر كله بيد الله، وتقبَّل سلام المعجب بك، المعتمد بعد الله عليك».

وفي وُسع القارئ أن يدرك مبلغ حيرتي؛ فإنه لا يسعني إلا أن أتمنَّىٰ لمثل هذا الرجل الصِّحَّة والسَّلامة، ولكن المصيبة والبلاء العظيم أنه إذا صحَّ وسَلِم كان خليقًا ألا يعود إلىٰ كتبي ليقرأها، فما العمل؟ هذه هي المسألة -كما يقول هِملت-، وليس ذنبي أن الأمَراض تحبِّب الناسَ في كتبي، فإذا كنت أُسَرُّ حين أقرأ في الصُّحف أن الملاريا انتشرت فإن لي العذر؛ فما كان هذا ظنِّي، ولا خطر لي قطُّ علىٰ بال، ولكن مشيئة الله جعلتني مثل «الحانوتي»[1] الذي يسرُّه ويفرحه ما يُحْزِن الخلق ويُبْكِي المفجوعين.

---

(١) متعهِّد تكفين الموتى ودفنهم.

ولهذا ترونني إذا سمعتُ بفشوٍّ مرض أدخل مسرورًا علىٰ أهل بيتي، وأقول لزوجتي: خذي يا امرأة -وألقي إليها بكلِّ ما يكون معي قلَّ أو كَثُر- خذي وأنفقي بلا حساب؛ فإن ما عند الله أكثر.

فتَعْجَب وتسألني: «ماذا جرىٰ؟ هل ربحتَ ورقة يانصيب؟

فأقول منكرًا عليها هذا الخاطر: وهل مثلي يُعنَىٰ بورق اليانصيب؟! سبحان الله يا امرأة في طبعك!

فتقول ضاحكة: ولكن ألا تخبرني؟ إنني أكاد أموت شوقًا إلىٰ المعرفة.

فأقول وأنا أرمي إليها بالصَّحيفة التي قرأتُ فيها خبر المرض المتفشِّي، وعجزَ وزارة الصِّحَّة عن مكافحته: خذي واقرئي، واشكري الله، وقبِّلي يدك بطنًا وظهرًا، فلن نجوع أو نفتقر مادام في الدنيا شيءٌ اسمه وزارة الصِّحَّة! لقد جعلوها وزارة، رفعوها ورقَّوها ووسَّعوها، أليس هذا باعثًا قويًّا علىٰ الاطمئنان والثقة بالله؟!

* * *

وقد بالغتُ حين قلت: إني محبوبٌ من اللصوص، وما أردتُ إلا أن لصًّا واحدًا -علىٰ ما يظهر لي الآن- هو الذي يحبُّني، فلقد تلقَّيتُ مرَّةً كتابًا يذكر لي فيه أنه سمع باسمي وشهرتي، فعرف أني كاتبٌ عظيمٌ جدًّا، فهو يكتب إليَّ مستنجدًا، فقد اتَّهموه بسرقة كلب، والقضيَّة معروضةٌ علىٰ القضاء، وكان محبوسًا رهنَ التحقيق، ثم أفرجوا عنه بالكفالة الشخصية، وهو يحتاجُ إلىٰ محامٍ يدافع عنه، ولكنه لا مال معه، فهل أستطيع أن أدلَّه علىٰ محامٍ كريم، أو أعينه بطريقة أخرىٰ؟ وهو يترك الأمر بين يديَّ واثقًا من مروءتي وكرمي؛ فإن مثلي لا يَخِيب من يقصده.

هذا هو الزَّبون الجديد، وقد قلتُ لنفسي لمَّا تلقَّيتُ هذا الكتاب العجيب: والله نجحتَ يا مازني! بلغت شهرتُك أخفىٰ الزوايا، وتغلغلت إلىٰ لصوص الكلاب، ما شاء الله! أحسب أن اللصَّ حين يخرج إلىٰ السَّرقة بعد اليوم ستقول له زوجته أو أمُّه

أو لا أدري مَن غيرهما: هل أنت متأكِّدٌ أن معك كلَّ ما تحتاج إليه؟

فيقول: أيوه.. أيوه.

فتقول: احذر أن تكون نسيتَ الطَّفَّاشة![1] العُدَّة كلها معك؟

فيقول: قلت لك: أيوه. ألا تسمعين؟

فتقول: والمازني؟ هل أخذته معك؟

فيقول: أوه.. طول الليل وأنا أقرأ كتابه. وهل أستطيع أن أعمل دون أن أقرأه؟! أتظنينني مغفَّلًا؟! أم تحسبين أني حديثُ عهدٍ بالفنِّ؟!

فتقول: لا. إنما أردتُ أن أطمئنَّ. واسمَع، امشِ بحساب، والبَس القفَّاز قبل أن تلمس أيَّ باب أو مفتاح أو حائط. حاذِر!

فيقول: اطمئنِّي، كلُّ شيء علىٰ ما يرام. ومعي المازني، فلا تخافي ولا تقلقي. ويلمَس صدرَه حيث وضع الكتابَ تحت ثوبه!

* * *

ولكلِّ قاعدةٍ شذوذٌ واستثناء.

وقد حدث منذ بضعة أيام ما كاد يغريني بتغيير رأيي في طبقات القرَّاء الذين يحبُّونني ويؤثِرونني علىٰ مَن عَدَاي من كتَّاب هذا الزمان.

ذلك أني كنت مدعوًّا إلىٰ مأدبة عشاء، فاتفق أن أجلسوني إلىٰ جانب سيِّدة عجوزٍ شِمطاء، ودار الكلام علىٰ الأكل، وكان بعض الذين يخاطبونني يدعونني: «الأستاذ»، والبعض يؤثِر أن يرفعني درجة فيقول: «يا بِكْ»، ولكنه لم يَدْعُني باسمي أحد، كأنه عيبٌ لا يليق أن يُذْكَر ولا سيَّما علىٰ مَسْمَعٍ من السَّيِّدات.

---

(١) أداة لفتح الأبواب بالقوة أو بالاحتيال عند فقدان مفتاحها. عامية.

ثم التفتت إليَّ العجوز وقالت: إني سعيدة.

فقلت باختصار: أهنِّئك.

فألحَّت في صرفي عن جارتي الأخرىٰ، وكانت فتاةً هيفاء نضيرَ الحُسْن، وصوتُها كالتغريد.

- صحيح، سعيدةٌ جدًّا، كلُّ كتبك قرأناها.

فتركتُ الفتاة، وأدرتُ وجهي إلىٰ هذه العجوز، وسألتُ باهتمام: صحيح؟

فقالت باضطراب رابني: كلُّها كلُّنا.

فقلت مردِّدًا قولها: كلُّكم؟ كلُّها؟ شيءٌ جميل.

فقالت: ابني علىٰ الخصوص، إعجابه بك لا حدَّ له.

فأردتُ أن أستوثق وسألتها: هل هو مريض؟

قالت: أعوذ بالله، إن صحَّته جيدةٌ جدًّا.

فقلت لنفسي: إن هذا جديد، فيحسُن أن أتقصَّىٰ الأمر، وسألتها: ألم يُصِبه مرضٌ قطُّ؟

قالت: أبدًا، أبدًا. قويٌّ جدًّا، كسيِّد نصير[1].

---

(١) أول مصري يفوز بميدالية ذهبية في الدورات الأوليمبية في رفع الأثقال، توفي سنة ١٩٧٧، ولشوقي فيه قصيدةٌ مشهورة سنة ١٩٣٠، منها:

شـرفًا نصيرُ ارفعْ جبينكَ عاليًا	وتلقَّ من أوطـــانك الإكلــيلا
اليوم يومُ السابقين فكــن فتًى	لم يبغ من قصَب الرهان بـــديلا
يا قاهرَ الغرب العتيد مــــلأته	بثناءِ مصرَ على الشِّفاهِ جمــيلا
قلّبتَ فيـه يدًا تكــــاد لـشدَّةٍ	في البأس ترفع في الفضاء الفيلا
إن الذي خلــق الحديدَ وبأسَه	جعـل الحديدَ لساعديكَ ذلــيلا

إلى أن يقول في تخلُّص بديع: =

قلت: عجيبٌ هذا.

فقالت: كتبك كلُّها عندنا تراها في كلِّ غرفة.

فسألتها: أهي حسنة التجليد؟

قالت: لا، كما اشتريناها، كلُّ بناتي وأحفادي يقرؤونها ويحملونها معهم حيثما يكونون.

قلت: شيءٌ جميل.

قالت: أوه، لَشَدَّ ما يفرحون الليلة حين أقول لهم: إني كنتُ جالسةً إلىٰ جانب تيمور بك!

=
قل لـي نصيـرُ وأنتَ بَرٌّ صـادقٌ	أحمَلتَ إنسانًا عليـك ثقيـلا
أحمَلـتَ دَينًا في حياتكَ مـرَّةً	أحمَلتَ يومًا في الضُّلوع غَليلا
أحمَلتَ ظلماً من قـريبٍ غادرٍ	أو كاشِحٍ بالأمس كـان خليلا
أحمَلـتَ مَنًّا بالنهـار مكـرَّرًا	والليل مِن مُسْدٍ إليك جميـلا
أحمَلتَ طغيانَ اللئيـم إذا اغتنى	أو نال مـن جاه الأمـور قليـلا
أحمَلتَ في النادي الغبيَّ إذا التقى	من سامعيه الحمدَ والتبجيلا
تلـك الحـياةُ وهـذه أثقالُهـا	وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيـلا

أيها القارئ تعال نتحاسب[1]

هذه مقالاتٌ مختلفةٌ في مواضيع شتىٰ، كُتِبت في أوقاتٍ متفاوتة، وفي أحوالٍ وصُروفٍ لا علمَ لك بها ولا خُبْر علىٰ الأرجح، وقد جُمِعَت الآن وطُبِعَت، وهي تباع المجموعة بعشرة قروش لا أكثر!

ولستُ أدَّعي لنفسي فيها شيئًا من العمق أو الابتكار أو السَّداد، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابًا فكريًّا في مصر أو فيما هو دونها، ولكني أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كان فِجًّا، وثمرة اطِّلاعي وهو واسع، ومجهود أعصابي وهي سقيمة، بأبخس الأثمان!

وتعال نتحاسب!

إن في الكتاب أكثر من أربعين مقالًا تختلف طولًا وقِصَرًا وعمقًا وضحولة، وأنت تشتري كلَّ أربع منها بقرش! وما أحسبك ستزعم أنك تبذل في تحصيل القرش مثل ما أبذل في كتابة المقالات الأربع من جسمي ونفسي، ومن يومي وأمسي، ومن عقلي وحسِّي، أو مثل ما يبذل الناشر في طبعها وإذاعتها من ماله ووقته وصبره.

ثم إنك تشتري بهذه القروش العشرة كتابًا، هَبْهُ لا يَعْمُر من رأسك خرابًا، ولا يَصْقُل لك نفسًا، أو يفتح عينًا، أو ينبِّه مشاعر، فهو -علىٰ القليل- يصلح أن تقطع به أوقاتَ الفراغ، وتقتل به ساعات الملل والوحشة، أو هو علىٰ الأقلِّ زينةٌ علىٰ مكتبك، والزينة أقدم في تاريخنا معاشر الآدميين النفعيِّين من المنفعة وأعرق، والمرء أطلَب لها في مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه، وأكلَف بها مما يَظُنُّ أو يحبُّ أن يعترف.

---

(١) مقدمة «حصاد الهشيم»، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٤.

علىٰ أنك قد لا تهضم أكلةً مثلًا، فيضيق صدرُك ويسوء خُلقُك، وتشعر بالحاجة إلىٰ التَّسْرِيَة والنَّفث، وتلفي أمامك هذا الكتاب، فالعَن صاحبه وناشره ما شئت، فإني أعرف كيف أحوِّل لعناتك إلىٰ من هو أحقُّ بها! ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك! أو تفكِّكه وتلفِّف في ورقه المنثور ما يُلَفُّ، أو توقد به نارًا علىٰ طعام أو شراب أو غير ذلك!

أفقليلٌ كلُّ هذا بعشرة قروش؟!

أمَّا أنا فمن يردُّ إليَّ ما أنفقتُ فيه؟ من يعيد لي ما سلختُ في كتابته من ساعات العمر الذي لا يرجع منه فائت، ولا يتجدَّد كالشجر ويعود أخضر بعد إذ كان أصفر، ولا يرقَّع كالثياب أو يُرْفَىٰ؟

وفي الكتاب عيبٌ هو الوضوح، فاعرفه! وستقرؤه بلا نصب، وتفهمه بلا عناء، ثم يخيَّل إليك من أجل ذلك أنك كنتَ تعرف هذا من قبل، وأنك لم تزد به علمًا! فرجائي إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك، وأن الحال علىٰ نقيض ذلك!

واعلم أنه لا يعنيني رأيك فيه. نعم يسرُّني أن تمدحه كما يسرُّ الوالدَ أن تثني علىٰ بنيه، ولكنه لا يسوؤني أن تبسط لسانك فيه؛ إذ كنتُ أعرفُ بعيوبه ومآخذه منك. وما أخلَقني بأن أضحك من العائبين، وأن أخرِج لهم لساني إذ أراهم لا يهتدون إلىٰ ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم!

ومهما يكن من الأمر، وسواءٌ أرضيتَ أم سخطت، وشكرتَ أم جحدت، فاذكر -هداك الله- أنك آخر من يحقُّ له أن يزعم أن قروشه ضاعت عليه! أولىٰ بالشكوىٰ منك الناشرُ ثم الكاتب!

رسالةٌ من قارئ وجوابها[1]

تلقَّيتُ هذه الرسالة قبيل العيد:

«حضرة الأستاذ الكبير

بعد التحية، أرجو أن لا تغضب إذا قلت لك: إنك رجلٌ غشَّاش تستغلُّ حسن سمعتك الماضية في عالم الكتابة والتأليف لتدسَّ علىٰ القرَّاء كتبًا سخيفة مملولة ممجوجة لا معنىٰ لها ولا فائدة فيها، وهي أشبه بلغو المجانين منها بتأليف كاتب كبير عُرِف بالبساطة والسُّهولة وحسن الأسلوب. لقد دفعتُ أربعين قرشًا ثمن كتابيك الجديدين «ميدو وشركاه» و«إبراهيم الثاني»، وإني مستعدٌّ لبيعهما بالأُقَّة إلىٰ بائع الفلافل ليلفَّ فيهما بضاعته القذرة؛ فإن هذه الصفحات المجنونة لا يليق بها إلا هذا المصير القذر. ولست أدري كيف تسوِّغ لك نفسك أن تقذف بها من سماء المجد الأدبي الذي استحوذتَ عليه وبلغتَه بعد جهاد العمر الذاهب[2] إلىٰ هذا الحضيض السَّحيق! وقد قيل لبعض الشعراء: استُر شعرك كما تستر عورتك، وأقول لك: اسحب كتابيك هذين من السُّوق؛ لأنهما عورةٌ لك سافرة. لقد حاولتُ أن أفهم لهذين الكتابين مغزًىٰ ولو فكاهيًّا أضحك منه، فعجزتُ عن ذلك، فلم أجد إلا أنك محتالٌ سرقتَ نقود القرَّاء. لو أن في مصر محكمةٌ أدبيةٌ تحاكم السُّخفاء من الشعراء والمؤلفين لحكمَت عليك بما لا أدري من العقوبات القاسية لهذين الكتابين السَّخيفين. وها أنا أرسل إليك هذا الخطاب لتعلم سوء ما قدَّمتَ إلىٰ

(١) «جريدة البلاغ» (٣ أكتوبر ١٩٤٣)، «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٨٧).

(٢) من هذه الكلمة الفاتنة كان عنوان الكتاب.

القرَّاء، ولأشفي[1] غيظ نفسي وخسارة الأربعين صاغًا التي ضاعت هباءً، والتي زادت بثمن البريد قرشين آخرين.

أيها الأستاذ الكبير، اتق الله واسحب كتابيك هذين من السُّوق؛ فإن فيهما القضاء المبرم علىٰ سمعتك الأدبية، وكفىٰ ما أصبتَ من ضحايا الأربعين.

كفر الزيات في ٢٤ رمضان سنة ١٣٦٢

المخلص

فلان المحامي الشرعي»

* * *

وأودُّ أولًا أن أؤكِّد للقارئ أني لم أخترع هذا الكتاب، وإنما حذفتُ اسم صاحبه الفاضل لأني قصَّرت في استئذانه في نشره، ولأني لا أحبُّ أن يتوهَّم هو أو سواه أني أضعه موضع التشهير، فليس هذا جزاء الرجل، وإنما جزاؤه الشكر.

ولقد كنت أيام كنت معلِّمًا آبىٰ كلَّ الإباء أن أعاقب تلميذًا من أجل أنه أساء أو تطاول أو غلط أو قصَّر، وكانت حجَّتي أن التلميذ إنما يجيء إلىٰ المدرسة لأنه ينقصه أن يتعلَّم وأن يتهذَّب، فإذا كان جاهلًا أو سيِّئ الأدب فإن هذا هو المفروض أو الذي ينبغي أن يكون مفروضًا، وعلىٰ المعلِّم أن يعلِّمه ويهذِّبه لا أن يضربه أو يعاقبه، وقد تولَّيتُ أمر مدرسة ثانوية في آخر عهدي بالتعليم، فكان أول ما صنعتُ أن ألغيتُ العقوبات جميعًا، وأن انتقيتُ أساتذةً لا يحتاجون إلىٰ العقاب، ولولا الثورة المصرية التي قامت بعد ذلك لمضيتُ في هذه التجربة إلىٰ نهايتها المقدورة.

ولستُ أشبِّه الأستاذ الفاضل بالتلميذ، فما إلىٰ هذا قصدت، وعلىٰ أني لو قصدتُ إلىٰ هذا لما كان فيه غضٌّ من قدره أو غمطٌ لفضله؛ فإن الحياة مدرسةٌ لا

---

(١) في مطبوعة «الأعمال»: ولا جفى.

تنتهي، ولا نزال نتعلَّم فيها حتىٰ يوافينا الأجل، وعسىٰ أن يكون من خير ما نتعلَّمه فيها الرِّفق، وسعة الصَّدر، وإيثار الإنصاف والمَعْدَلة، وتوخِّي النظر إلىٰ الأمور من الجوانب المختلفة لا الاقتصار علىٰ جانب واحد.

ومن بواعث أسفي أن أرىٰ مثل الأستاذ في مثل علمه وفضله وعقله يتلهَّب به غضبه فيجري قلمُه بألفاظٍ لا أقول: نابية، ولكن أقول: ظالمة، فيقول: إني غشَّاش، وإني أدسُّ علىٰ الناس كتبًا سخيفة. وليس الذي يؤسفني أنه يرىٰ أن كتبي سخيفة، فإن لكل امرئ رأيه، ومن ألَّف فقد استَهْدَف، وفي وسعي أن أتعزَّىٰ فأزعم أن هذا عيبُه لا عيبي، وأنه لا حيلة لي إذا كان القارئ لا يفهم عني ولا يفطن إلىٰ ما في كتبي من آيات العبقرية، وقد أحتدم غيظًا مثله فأثور به كما ثار بي، وأقول له كما قال ابن الرومي[1]:

شعريَ شعرٌ إذا تأمَّله الـ ... إنسانُ ذو العقل والحِجىٰ عَبَدهْ

لكنه ليس منطقًا بعثَ الـ ... ـلهُ به آيةً لمن جَحَدهْ

ولا أنا المفهِّمُ البهائمَ والطْ ... طَيْرَ سليمانُ قاهرُ المَرَدهْ

ما بلغَت بي الخطوبُ رتبة من ... تفهم عنه الكلابُ والقِرَدهْ

وقد يسعفني الغرور فأقول: وما ذنبُ الكاتب إذا كان يبسط أمام قارئه مائدةً حافلةً بأطيب الآكال، فيجتَويها[2]، لا لأنها ممَّا يُزْهَد فيه، بل لأن الجالس إلىٰ المائدة ضعيفٌ خالِفٌ[3] لا يشتهي الطعام أو لا يقوىٰ علىٰ هضمه؟!

كما تعافُ الجيِّدَ المشتهىٰ ... من الطعام المعدةُ الفاسدَهْ[4]

---

(١) ديوانه (٢/ ٧٤٣).

(٢) يكرهها.

(٣) الخالف: الضعيف لا يشتهي الطعام.

(٤) «ديوان ابن الرومي» (٢/ ٦٦٢).

ورحم الله ابن الرومي؛ فإنه يخفُّ اليوم لنجدتنا.

ولكني علىٰ جزالة حظِّي من الغرور لا أقول هذا للأستاذ، ولا أرىٰ من حقِّي أن أتطاول عليه بهذه البذاءات المُقْذِعة، ومن السَّهل أن يطاوع المرء نفسَه، ولكن المزية أن تكبحَها، ولهذا أقول له: إن الإنسان يُحْسِن ويسيء، ويصيب ويخطئ، وليس بإنسان من ليست له عثرة، ومن خير ما يقال في هذا المعنىٰ ما ردَّ به ابن الرومي علىٰ عائب شعره، قال جزاه الله عنَّا في هذه خيرًا[1]:

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترىٰ كيف رُكِّبَ الشجرُ؟

رُكِّب فيه اللِّحاء والخشبُ الـ ... ـيابسُ والشوكُ دونه الثمرُ

وكان أولىٰ بأن يهذِّب ما ... يخلق ربُّ الأرباب لا البشرُ

فليعذر الناسُ من أساء ومن ... قصَّر في الشعر إنه بشرُ

مطلبُه كالمَغاص في دَرك الْـ ... ـلُجَّة من دون دُرِّها الخطرُ

وفيه ما يأخذ التخيُّر من ... غالٍ ثمينٍ وفيه ما يذرُ

وليس بدٌّ لمن يغوص من الـ ... ـجُرفِ لما يصطفىٰ ويُحْتَقرُ

إي والله، فليعذر الناسُ من أساء ومن قصَّر؛ فإنه بشر! وهذه هي فضيلة الفضائل وأمُّها ورأسُها، ولا محلَّ للقول بالغشِّ والدَّسِّ؛ فما بيغي أحدٌ لنفسه أن يسوء رأيُ الناس فيه، ولا يتعمَّد التقصير وهو قادرٌ علىٰ الإحسان إلا مجنون، والناس أجيالٌ تجيء وتذهب، فليس أحمقَ ممَّن يعتمد علىٰ سمعته في جيل من الخلق لا يلبث أن يمضي وَيخلُفه جيلٌ جديدٌ ينظر بعين جديدة ويزنُ كلَّ شيء بميزانه هو لا بميزان أسلافه.

---

(١) ديوانه (٣/ ١٠٢٩).

ويا سيِّدي الأستاذ، إن الأسف لا يكون علىٰ المال يذهبُ قلَّ أم كثر، وليست خيبة الأمل أن قروشًا ضاعت، فليس منَّا إلا من يقتني كلَّ يوم كتبًا يجد بعضها غير أهلٍ لما أنفَق فيه، ولو ذهبتُ أنا أحصي ما ضاع من مالي في كتب رديئة لجاوز ذلك ما يكفي ثمنًا لعمارة كبيرة، وإنما يكون الأسف -أو ينبغي أن يكون- علىٰ العجز عن الخروج بفائدة حتىٰ من الغثِّ السَّخيف، أو الذي يظنُّ المرء أنه لا خير فيه.

ولقد أخطأ ابن الرومي حين قال ما يُفْهَم منه: إن اللِّحاء والخشب اليابس أقلُّ قيمةً من الثمر؛ فما من شيء إلا وله قيمة، والقِيَم نسبيَّة، ولعل انتفاع العقل حين يستخلصُ الفوائد من كتاب رديء أو غثٍّ أعظم من انتفاعه بكتاب يقرؤه وهو مطمئنٌّ إلىٰ جودته؛ لأن العبرة هنا بعمل العقل ومجهوده، والجهد الذي يبذله العقل حين يقرأ كتابًا وينقده ويميِّز غثَّه من سمينه ورديئه من جيِّده أكبر كثيرًا من جهده حين يأنس بالكتاب، ويثق بكاتبه، ويأخذ عنه أخذ التسليم، فلا يحاسِب ولا ينقُد ولا ينخُل ولا يُغَربل.

ومِن أفحش الخطأ أن يتوهَّم متوهِّمٌ أن مجالستَه العلماء مثلًا أعودُ بالفائدة من مجالسة العامَّة والأميِّين؛ فإن الثقة بعلم العلماء تورث عقلَ مُجَالِسهم الكسَل، أما مجالسة العامة فتنشِّط الذهن وتبعثه من رقاده، وتفتح له آفاقًا جديدةً من النظر والتأمُّل والقياس، فهَبني من هؤلاء العامَّة يا سيِّدي، واكسَب صحبتي، فلن تندم علىٰ أربعين قرشًا أنفقتَها في ذلك إذا عرفتَ كيف تستفيد.

ولا أشكُّ في أنك عارفٌ حاذق، ولكني أرجو حين تقرأ كتابًا جديدًا أن تخلي ذهنَك من الرأي في صاحبه كائنًا ما كان هذا الرأي، وأن لا تقبل عليه وأنت في حاشية من الآراء والتقاليد التي نشأتَ عليها؛ فإن ذلك يحول بينك وبين الوزن العادل لما عسىٰ أن يصدمك منه.

وكنت أودُّ أن لا أرىٰ منك كلَّ هذا الامتهان لبائع الفلافل ولفلافله -وهي «الطَّعميَّة» بلفظ آخر-، وأن تقول عنها: إنها «بضاعةٌ قذرة»، فما هي بالقذرة ولا بالتي يجوز في حقِّها التحقير، وإنها لطعامٌ جيِّدٌ نافع، وما أظنُّ بك إلا أنك تستطيبه مثلنا نحن أبناء الشعب الذين لا يترفَّعون عن طعامه، ولا يدَّعون الزَّهادة فيه والاحتقار له.

ولا تحسب أني أنا الذي يقبض كلَّ ما يبذله قارئٌ ثمنًا لكتاب لي، وليتني كنتُه، إذن لوسعني أن أنصفك من نفسي، وأن أردَّ إليك ما ضاع من مالك الذي لا أجهل شِقوتَك في اكتسابه. وإنه لجميلٌ منك أن تحرص علىٰ اقتناء الكتب وتطلبها بالبريد، وفي هذا تشجيعٌ لنا علىٰ المضيِّ في الكتابة والتأليف، وسأبعث إليك بكل كتاب جديد أخرجه بعد اليوم ولا أتقاضاك ثمنَه، تعويضًا لك عن الخسارة التي أراها ثَقُلَت عليك جدًّا، ومعذرةً إذا كنت قد خيَّبتُ أملك في كتابيَّ الأخيرين، فما قدرتُ علىٰ خير من ذلك وقصَّرت، ولا تنسَ اعتذار ابن الرومي؛ فإن أبياته هذه رقيةٌ نافعةٌ من الغضب الجامح.

والسَّلام عليك، والشكر لك، ولا تحرمني لواذع قلمك؛ فإنها أندىٰ علىٰ كبدي من ثناء المنافقين.

النشر في مصر[1]

قرأتُ ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن التأليف والنشر في مصر[2]، وقد روىٰ فيه أن أحد أصحاب المعالي وزراء الدولة في الحكومة القائمة دعا إليه جماعةً من الكتَّاب، وحدَّثهم في تنشيط التأليف في مصر ومكافأة المؤلفين، ووعد في هذا وعودًا حسنة.

وهذا صحيح، فقد روىٰ لي مثله صديقٌ من الكتَّاب، ولا علم لي بما ينوي وزير الدولة أن يصنع، وأحسبه لا يزال يستطلع الآراء ويستشير أهل الذِّكر في هذا، فلندعُ له بالتوفيق، ولنسأله تعالىٰ ألا يشغله بما هو أهمُّ وأولىٰ بعناية وزراء الدولة من شؤون الدولة، ولو كنت مكانه لكان حسبي أن أستطيع تنظيم أمور النشر علىٰ وجهٍ صالح ونحوٍ عادل، ولتركتُ غيري من الوزراء يحملون الأعباء الأُخَر.

وخلاصة التجارب في هذا الباب أن الأدب في مصر لا يعوَّل عليه في أمور المعاش، وأن الأديب الذي ليست له صناعةٌ أخرىٰ يرتزق منها ويحيا بها خليقٌ أن يموت جوعًا.

وقد كان المرحوم السِّباعي[3] يقول علىٰ سبيل المزاح: إن الأديب ينبغي أن

---

(١) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٣٧، ١٧ يناير ١٩٣٨).

(٢) «مجلة الرسالة» (العدد ٢٣٦، ١٠ يناير ١٩٣٨).

(٣) المترجم والأديب «المنقطع» محمد السباعي، والد الروائي والوزير يوسف السباعي، كان صديقًا للمازني والعقاد، قدَّم المازني لكتابه «الصور»، وقدَّم العقاد لكتابه «قصص روسية»، عاجله الموت سنة ١٩٢١، ونسيَه الناس. وقد وصفه المازني، فقال: «كان منهومًا بالأدب لا يشبع، وعاشقًا لا يسلو، وقلَّ أن رآه أحد إلا وفي يده كتابٌ أو كراسة»، وقال: إنه «من رجال الطليعة في نهضة الأدب العصري في هذا القرن»، وذكر أنه كان يحفظ أكثر شعر ابن الرومي، وأنه الذي أعداه بحبه فقلَّده واهتمَّ بشعره. انظر: «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٤٠٩، ٢/ ٤٥٦).

يكون أديبًا وشيئًا آخر، طبَّالًا، أو زمَّارًا، أو عوَّادًا، أو غير ذلك ممَّا يجري مجراه.

والذي كان يقول هازلًا هو الجدُّ الصَّميم. ودع الطبلَ والزَّمرَ وما إلىٰ هذا، فما كان يريد إلا السُّخرية والنُّكتة، وكانت المرارة التي يحسُّها في نفسه تفيض علىٰ لسانه علىٰ هذا النحو.

علىٰ أن الواقع مع ذلك أنه لا غنىٰ للأديب في مصر عن مُرْتَزَقٍ غير الأدب يجعل معتمَدَه بعد الله عليه، وما أعرف في هذا البلد أديبًا وَسِعَه أن يجتزئ بالأدب، ولو كان هذا ممَّا يدخل في الطاقة عندنا لكنت من أحقِّ الناس بالقدرة عليه.

وكلامٌ فارغٌ كلُّ ما يقال عن الحُرْفَة[1] وإدراكها للأديب، فما تفعلُ ذلك إلا في مثل بلادنا، وحتىٰ أدباء العرب وشعراؤهم لم يدركهم شيءٌ من الحُرْفَة، وإنما كانوا هم المجانين، إلا إذا كان المقصود أن بلاء الحُرْفَة من النفس، علىٰ أن هذا مبحثٌ آخر قد نعود إليه في فصل آخر.

وقد جرَّبتُ كلَّ وسائل النشر في مصر، وانتهيتُ إلىٰ أن الأمر لا ينقصه سوىٰ التنظيم، ففي مصر والبلاد العربية الأخرىٰ عددٌ كافٍ من القرَّاء يستطيع الكاتبُ أو الشاعرُ أن يعوِّل عليه وهو مطمئنٌّ إليه، ولكن من العبث والعنت أيضًا أن تُجَشِّم الأديبَ فوق عمله أن يقوم بأعباء الطبع والنشر، وأن تتوقَّع أن يجني من كلِّ هذا العناء ربحًا عادلًا.

وليس لهذا الخلط من نتيجة سوىٰ الاضطراب وفقدان الحقوق، وقد جرَّب كلُّ أديبٍ في مصر أن يتولىٰ هو هذه الأعباء جميعًا وأن ينهض وحده بها جملةً فأخفق. وليس الإخفاق ألا تجني شيئًا، بل أن تجني كلَّ شيء ولا تشعر أنك جنيتَ شيئًا.

ولا أذكر هنا ما جرَّب غيري، فبحسبي ما جرَّبت، وقد نشرتُ كتبًا توليتُ أنا

---

(١) الشؤم والحرمان.

أمر طبعها ونشرها، ونفدت في زمن معقول، ولكنَّ أصحاب المكاتب يختلفون، ولا سبيل إلىٰ الاستغناء عنهم، وفيهم الأمين ذو الذِّمَّة، وفيهم الطامع المنهوم الذي لا يشبع ولا يرضيه إلا أن يخطفَ كتبك بغير ثمن، ومع ذلك لا يسعني إلا أن أعترف بأني ربحت، وإن كنت لم أشعر بذلك ولم أر له أدنىٰ أثرٍ في حياتي، وإذا حسبتُ الحسابَ علىٰ الورق، وأحصيتُ ما أنفقت وما حصَّلت، كانت النتيجة أني جمعتُ مبلغًا من المال لا يستهان به، ولكنه مالٌ علىٰ الورق؛ لأني أنفقتُ جنيهاتٍ رجعت إليَّ قروشًا مبعثرة ذهبت إلىٰ الشيطان.

وجرَّبتُ أن ينفق غيري علىٰ طبع كتبي ويتولىٰ عنِّي نشرَها ثم نتحاسب، فوقع لي ما يضحِك وما يبكِي.

وأحبُّ أن أستثني طائفةً من الجادِّين المخلصين، وأقول بعد ذلك: إن بعضهم نشر لي كتابًا طبع منه أربعة آلاف نسخة نفدت كلُّها في عام، وشرع يطبع لي كتابًا ثانيًا، فقلت: أحاسبه، وطلبتُ منه نصيبي، فكان جوابه الظريف أن دع الكتاب الأول فما أعرفُ أين ذهب، ولعله سُرِق أو حُرِق، ولنقصر الحساب في أوانه علىٰ الكتاب الثاني إن شاء الله!

فقلت له: يا أخي، غفر الله لك! هل حسبتني هاويًا؟! أم ظننتَ أني بائع كوارع؟! إن هذه صناعتي، وهي مرتَـزَقي، فإذا لم آخذ حقِّي فكيف بالله أعيش؟! فابتسم وربَّت لي علىٰ كتفي ملاطفًا، وقال: العفو! العفو يا أستاذ! لا تقل هذا الكلام! سبحان الله العظيم!

يعني أنه لا ينبغي لي أن أقول: إن هذه صناعتي ومرتَـزَقي! ويظهر أنه كان صادقًا وكنت أنا المخدوع؛ فقد عشتُ من غير أن آخذ منه حقِّي، ولا نصف ملِّيم واحدٍ منه!

وينفدُ الكتاب -عدة آلاف من نسخه- ثم يتبيَّن لك أن الإسكندرية أو طنطا أو المنيا تسمع به[1]، وأن ما بيعَ بيعَ معظمُه في مدينةٍ واحدةٍ هي العاصمة، والباقي رُصَّ في الصَّناديق وشُحِن علىٰ البواخر إلىٰ الهند والعراق ومدغشقر ... إلخ، وتجيئك الكتبُ تترىٰ بذلك، فتعلم أن النشرَ غير منظَّم، وأنه كان في وسعك أن تُخْرِج للناس من كتابك أضعافَ ما أخرجتَ لو أن هناك نظامًا.

والعلاج عندي ليس أن تُعِين الحكومة الأدباء؛ فإن هذا يفضي إلىٰ الظلم والغَبن، ولكلِّ حكومة من تؤثرهم بعطفها وبرِّها، والأدبُ ينبغي أن يبقىٰ حرًّا وإلا فسَد وتعفَّن. ولو أن الحكومة أرادت الإنصاف وصدقت نيَّتها فيه لوجدت أن الأمر يوشك أن يفشو عليها، والنتيجة المحقَّقة علىٰ كلِّ حال هي التمييز والغَمْط.

إنما العلاجُ الصَّحيح العمليُّ أن تقوم شركةٌ ذات رأس مالٍ كافٍ تتولىٰ النشر، وتنظِّم أسواقه في البلدان العربية كلِّها، وترتِّب الأمر فيما بينها وبين الصِّحافة علىٰ نحوٍ يكفل التنويه الوافي في أوانه، وقد استطاعت دور السِّينما أن تنظم علاقتها بالصِّحافة علىٰ وجه مرضيٍّ، فلن تعجز عنه دارٌ للنشر.

وبذلك يستريحُ الكتَّاب، ويطمئنُّون علىٰ حقوقهم، ويثقون بسعة النشر، ويوقنون من إمكان التعديل علىٰ ما يُخْرِجون كما يفعل زملاؤهم في الغرب.

وفي هذه الحالة يتسنَّىٰ ما لا يتسنَّىٰ الآن: الطبع الجيِّد، والحجم الموافق، والربح المضمون، ومع ذلك انتظام عمل الأديب، وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان.

هذه -فيما أعتقد- هي الوسيلة العملية؛ فإن الأسواق موجودة، والقرَّاء يُعَدُّون بالآلاف في كلِّ قُطْر، والصِّحافة أداةٌ وافية، فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم، وهذا لا يكون إلا بالمال الكافي، فهاتوا لي المال، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان! ولا

(١) كما وقع في كتاب «رحلة الحجاز»، وستأتي الإشارة إليه في المقالة التالية.

تخافوا أن أبدِّده. نعم، ستحدِّثني نفسي بذلك، وتحاول أن تحملني عليه، ولكني سأقاومها، وسأروض نفسي علىٰ هذه المقاومة من اليوم، فلا تخشوا شيئًا، ولا تقلقوا علىٰ مالكم، ومع ذلك فلَأَنْ أبدِّده أنا خيرٌ من أن تضيِّعوه أنتم، ومتىٰ كنتم تحسنون الإنفاق؟![1].

---

(١) كتب المازني (قبل أربع سنين) في آخر مقالته «إنتاج عام من الأدب والعلوم» في «المجلة الجديدة» (١ يناير ١٩٣٤) معلِّلًا ضعف الإنتاج العلمي والأدبي: «ولهذا الفتور في الإنتاج عِللُه؛ فما زالت الأزمة تصدُّ الكتَّاب عن النشر، وتصرف القرَّاء عن الاطلاع؛ لما يتطلبه هذا وذاك من البذل، ومصيبة الكاتب أدهى ولا شك.

ومما يجعل وقع الأزمة مضاعفًا أن النشر سيء الحال في مصر؛ ذلك أن الكاتب إما أن يطبع مؤلَّفه على نفقته، ثم لا يحسن توزيعه ونشره، فيخسر، أو لا يفيد من ثمنه ما يعوِّض عليه تعبه وجهده، وإما أن يَكِل الطبع والإذاعة لناشر، فيُغْبَن، وهو في الحالين مغبون؛ لأن الناشرين لا يكافئون الكتَّاب المكافأة التي يستحقونها، والتي تغنيهم عن تحصيل الرزق من باب آخر، وللناشرين عذرهم ولا شك، ومنهم المنصفون، ولكن منهم الطامعين الذين لا يشبعون كجهنَّم، ولو نُظِّم النشر في مصر على نحو ما هو منظَّمٌ في الغرب لكثر إنتاج المؤلفين، ولتيسَّر لهم أن يعيشوا معتمدين على ثمرة ما يُخْرِجون، وإلى أن يتهيَّأ ذلك ستظلُّ شِقوة الكتَّاب كما هي».

تنظيم النشر[1]

زارنا في دمشق وفدٌ من شبابها، وكان ذلك قبل المهرجان علىٰ ما أذكر، وكنا نتعشىٰ، فأشفقتُ أن نقضي الليل في الإصغاء إلىٰ خطب لا طائل تحتها، والردِّ عليها، وحاولتُ أن أَزُوغ ولكن رسولهم إلينا كان كأنه موكلٌ بي، فسدَّت يقظته الشيطانية كلَّ فجٍّ.

وكانوا عشرين أو نحو ذلك، فجلسنا معهم في حَلْقة، وقلنا: تفضَّلوا فقد أعرناكم آذاننا، فإذا هم لا يريدون خطبًا ولا يبغون كلامًا فارغًا، وإنما يريدون أن يسألونا عن الوسيلة العملية لتيسير الاطلاع والحصول علىٰ الكتب والمجلَّات العلمية.

وقد ذكروا لنا أمورًا أدهشتنا، ذلك أن المجلَّة المصرية التي تباع هنا بقرشين تباع في الشام بخمسة وعشرين قرشًا سوريًّا أو خمسة وثلاثين، والكتاب الذي ثمنه في مصر عشرون قرشًا يرتفع ثمنُه هناك إلىٰ ثلاثمئة قرش أو أربعمئة، وغير منكورٍ أو مردودٍ أن هذه أثمانٌ تُعْجِز الطالبَ المتوسِّط الحال عن اقتناء الكتب أو المجلات المصرية، وتضطرُّه إلىٰ الاكتفاء بالأقلِّ أو الأرخص، وتلك خسارةٌ عليه وعلىٰ الكتَّاب المصريين والصِّحافة المصرية، فما حلُّ هذا المشكِل؟

وقد عرفتُ فيما بعد أن بعض كتبنا -وثمنه في مصر قروش عشرون أو خمسة وعشرون- قد بيع بما يعادل دينارًا من ذهب، ولعل هذا إنما كان لقلَّة ما ذهب من نسخه إلىٰ الشَام، أو لعِظَم قيمة الكتاب، أو للسَّببين معًا.

---

(١) «جريدة البلاغ» (٤ نوفمبر ١٩٤٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٥/ ١٢٧)، من مقالاته التي دوَّن فيها رحلته إلى الشام صيف سنة ١٩٤٤ للمشاركة في «مهرجان المعري» بدعوة من المجمع العلمي بدمشق.

ولم أر صحفًا مصريَّة وأنا هناك إلا في النُّدرة القليلة، وكنت لا أعرف مواعيد وصولها، وكان الذي يصل يُخْطَف خطفًا فلا يبقىٰ منه شيءٌ بعد دقائق، فاكتفيتُ بالصُّحف المحلية، وفيها الكفاية للمقيم هناك، ولكنها لا تكفي من يريد الوقوف علىٰ أخبار مصر كما اعتاد أن يقرأها كلَّ صباح ومساء بالتفصيل الوافي.

ومثل هذا يشكو منه السُّوريُّون -واللبنانيُّون أيضًا-؛ فإن كتبهم وصحفهم ومجلَّاتهم لا تباع في مصر ولا تُعْرَض في مكتباتها ولا يطَّلع عليها إلا من يتلقونها بالبريد علىٰ سبيل الهديَّة.

وقد قلت لمن حادثتهم في ذلك: إني أستغرب أن يعجز السُّوريُّون واللبنانيُّون عن تنظيم النشر لكتبهم وصحفهم في مصر، وهم من أنشط الشعوب وأحذقهم وأقدرهم علىٰ تولِّي مثل هذه الأمور، وجاليتُهم في مصر كبيرةٌ قوية، وإن كان كثيرون من أفرادها قد تمصَّروا وانتهىٰ الأمر. وأحسب أن هذا حالٌ لا يرضي أحدًا لا من المصريين ولا من السوريين واللبنانيين؛ فإن بنا جميعًا حاجةٌ إلىٰ تنظيم التبادل وتوسيع نطاقه.

وقد كنت أشرتُ قبل هذه الحرب علىٰ بعض ذوي النفوذ والجاه في مصر أن يسعىٰ لتأليف شركة قوية للنشر برأس مالٍ كبير تجري في أعمالها علىٰ النهج المألوف في شركات النشر الإنجليزية، وأكَّدتُ له أنها تجارةٌ رابحةٌ علىٰ التحقيق، وأن كلَّ ما تتطلبه هو تنظيم الأسواق في البلدان العربية، فلم يصنع شيئا لأنه شُغِل عن هذا الأمر بما كان يومئذ أولىٰ بعنايته.

والحاجة إلىٰ هذا التنظيم في مصر ذاتها عظيمة، وأذكر أني طبعتُ في سنة ١٩٣٠ كتابًا علىٰ نفقتي[1]، وكنت أخشىٰ يومئذ أن أكون قد أسرفت، فقد طبعتُ منه أربعة

---

(١) كتاب «رحلة الحجاز»، وهو من أروج كتبه وأوسعها انتشارًا في عصره، وسيأتي في «قلة الربح من التأليف» أن طبعته الأولى نفدت في أشهر قلائل، ولكن «ربحه الضخم» لم يدخل منه في جيب المازني ملِّيم؛ لأن الناشر استأثر بربحه دونه، وماطل في الدفع حتى سئم المازني الطلب.

آلاف نسخة، ولكن التكاليف كانت هيِّنة، فلا محلَّ للخوف من خسارة تصيبني، علىٰ أن الكتاب نفد في وقتٍ وجيز، وكان أغرب ما حدث بعد ذلك أن جاءني كتابٌ من الإسكندرية يقول فيه صاحبه: إنه سمع أني أخرجتُ كتابًا اسمه كذا، ومعنىٰ هذا أن الكتاب الذي بيع في القاهرة والحجاز وجاوَهْ لم يسمع به أحدٌ في الإسكندرية العاصمة الثانية لمصر!

والحقيقة أن تنظيم أسواق الكتب في مصر والبلاد العربية يفسح المجال لتنشيط التأليف؛ فإن الذين لغتهم العربية لا يقلُّون عن سبعين مليون، فإذا قلنا إن عشرة في المئة ليس إلا من هذه الملايين السَّبعين يقرؤون بالعربية، فإن المجال يكون ذا سَعة عظيمة أمام المؤلفين والمترجمين في كلِّ علم وفنٍّ.

والتنظيم هو كلُّ شيء، وسبيله أن تقوم شركةٌ كما أسلفت، وتوفد مندوبين إلىٰ البلاد العربية يعقدون اتفاقات مع المكتبات المختلفة ودور النشر الأخرىٰ والصُّحف للإعلان والنقد، حتىٰ إذا تمَّ ذلك وصار قائمًا علىٰ قاعدة عملية وطيدة اتفقت الشركة مع المؤلفين والمترجمين علىٰ اختلافهم في مصر وفي الأقطار الأخرىٰ، ثم لا تترك أمر النقد وما إليه للمصادفة، بل تدفع الكتبَ المختلفة إلىٰ النقَّاد وتستكتبهم آراءهم النزيهة فيها، وتجزيهم علىٰ تعبهم في ذلك تجزية[1] كافية، وتأخذ هي ما يكتبون فتبعث به إلىٰ الصُّحف لنشره بأجرة في أيام معيَّنة، وتكون قبل ذلك قد وزَّعت الكتب علىٰ المكتبات جميعًا في مصر وغيرها، حتىٰ إذا ظهر الإعلان والنقد وجد الجمهور الكتب معروضةً فأقبل عليها يقتنيها، وهذه الطريقة هي التي تسنَّىٰ بفضلها أن ينفد بعض الكتب الإنجليزية في أيام معدودات، وأن يعاد طبعها مرَّات، فيربح المؤلفُ ما يكفيه ويشجِّعه علىٰ التفرُّغ لفنِّه أو علمه أو بابه علىٰ العموم، وينتفع الجمهور، ولا نحتاج أن نقول: إن الشركة تربحُ ربحًا وفيرًا.

---

(١) كذا في الأصل المطبوع، ولم أعرف هذا المصدر.

وقد جرَّبت طائفةٌ من المكتبات المصرية هذه الطريقة فأصابت نجاحًا غير قليل، وأصبحت تسمِّي نفسها دورًا للنشر، ووَسِعَها أن تتوسَّع فتُخْرِج من بعض الكتب خمس عشرة ألف نسخة، وليس ثَمَّ ما يمنع أن يرتفع الرقم إلىٰ ثلاثين ألفًا أو أربعين؛ فإن القرَّاء موجودون، وكلُّ ما يحتاجون إليه هو أن يسمعوا بالكتب ويعرفوا أين يجدونها في غير عناء.

ومعظم القرَّاء يحتاجون إلىٰ ما يغريهم باقتناء الكتب، ويحضُّهم علىٰ طلبها، ويسهِّل عليهم الحصول عليها، ومعذورٌ من يزهَد في ذلك أو ينصرف عنه إذا كان لا يعرف أن كتابًا من الكتب صَدَر، أو أين يجده في غير مشقَّة، أو ماذا فيه ممَّا يدعوه إلىٰ الحرص علىٰ اقتنائه.

فالتيسير واجب، وإذا قلنا «التيسير» فقد قلنا «التنظيم»، وبه يتسنَّىٰ النشرُ في أوسع نطاق في البلاد العربية كلِّها، ويسهل التبادلُ بينها، ويتفرَّغ حملة الأقلام لما يحسنون، ويتاح للنقد أن يرتقي، وتنتفع الصِّحافة بما يُنْشَر فيها إعلانًا ونقدًا.

المؤلفون وحقوق التأليف[1]

فوضى يجب[2] أن يوضع لها حدٌّ

هذه قضيَّةٌ يجب أن تثار في الصُّحف والمحاكم وبين أقطاب التشريع، فقد صار الأمر فوضىٰ علىٰ ما يظهر، وهي قضيَّة التأليف وحقوق المؤلفين، وسأسوق أولًا طائفةً من الأمثلة ثم أعقِّب عليها.

رأيتُ وأنا عائدٌ من العراق -لا أدري في أيِّ بلد- نسخةً من كتاب «أبي الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنهما» للأستاذ العقاد، وعلىٰ غلافها عبارة «الطبعة الثانية» أو لعلها «الثالثة» من فرط العجلة، والتقيتُ بالأستاذ العقاد يومًا في نفرٍ من الإخوان فسألته أو سألت أحدهم: هل طُبع الكتاب طبعةً ثالثة؟ فكان الجواب «لا»، فتعجَّبتُ وما زلتُ أتعجَّب وأتساءل: من يكون إذن هذا الذي أخرج من كتاب الأستاذ العقاد طبعةً ثانيةً أو ثالثةً وصاحبه لا يدري؟!

وكان الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي قد ترجَم قديمًا فيما ترجَم روايةً نشرها خليل بك صادق في «مسامرات الشعب»[3]، وحدَّثني الأستاذ الدسوقي أن خليل بك

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٩ أبريل ١٩٤٥)، «الأعمال غير المنشورة» (٢/ ٤٢٣).

(٢) في مطبوعة «الأعمال»: تحت.

(٣) «قصص مختصرة يؤلفها أو يعرِّبها بعض المشتغلين بالكتابة والأدب لمكتبة الشعب ومطبعَتها»، وتتمة التعريف في «مجلة المنار» (٥/ ٣٥٧)، وفي الأعداد التالية تعليقٌ على معظم القصص، ويظهر منه اعتناء الشيخ محمد رشيد رضا بها. وعرَّفها محمد كرد علي في «المقتبس» (يونيو ١٩٠٦) بقوله: «مجلة قصصية تاريخية فكاهية لناشرها الأديب عزت خليل بك صادق صاحب مكتبة الشعب ومطبعتها بالقاهرة، وهي تصدر مرة في الشهر رواية مستقلة برأسها بقلم كاتب من كتاب مصر». وقال الزركلي في «الأعلام» (٢/ ٣١٨) عن خليل صادق: «أنشأ مجلة مسامرات الشعب، ووالى إصدارها قرابة ٤٥ عامًا، حاشدًا لها =

لقيه يومًا وعاتبه وقال: هل يجوز أن تطبع الرواية طبعةً جديدةً بغير علمي؟ فنفىٰ له الأستاذ الدسوقي هذا، وأكَّد له أن الناشر المجهول قد اعتدىٰ علىٰ حقوقهما جميعًا. وما زال الأستاذ المترجِم لا يدري مِن أمرِ هذا الذي أكل حقَّه شيئًا.

وأحدثُ ما يروىٰ في هذا الباب -أو من يدري؟ لعله ليس بالأحدث، وإنما هو «من» أحدث ما يروىٰ- أن «لجنة النشر للجامعيين» أخرجت في شهر مارس في العام الماضي رواية «سَلَّامة القَسّ» للأستاذ علي أحمد با كثير، وقد كتبتُ عنها وأثنيتُ عليها يوم صدرت[1]، و«سلاَّمة» بتشديد اللام جاريةٌ مغنِّية، و«القَسُّ» عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار سمِّي بذلك لتقواه وورعه.

وقد استأذنته إحدىٰ شركات السِّينما في إخراجها مصوَّرة، فأذِن، وهو رجلٌ طيبُ القلب وديع، وقد دُهِشتُ حين علمتُ من ناشره ومنه أنه غُبِن غبنًا مبينًا، غير أن هذا لا يعنينا الآن، وما دام أنه هو قد رضي «بالشُّوَيَّة» الضئيلة فلا شأن لنا ولا وجه لدخولنا في الأمر، وعسىٰ أن تنفعه هذه التجربة في المستقبل.

وقد حرص علىٰ ما حدَّثني ناشره علىٰ أن ينصَّ في العقد علىٰ ذكر اسمه في كلِّ ما يُنشَر عن القصَّة السينمائية المأخوذة من روايته، ولكني لم أر إعلانًا واحدًا فيه اسمه، ولم أسمع له بذكرٍ في الموضوع كله، وهذا حقُّه الصَّريح حتىٰ ولو خلا العقد من نصٍّ عليه.

هذا إلىٰ أن روايته المطبوعة التي استؤذن في بناء القصة السينمائية عليها لم يكد يبقىٰ منها شيءٌ سوىٰ الأسماء، وقد سيقت كلُّها باللغة العاميَّة فيما خلا بضعة أبيات عُزِيَت خطأً إلىٰ القَسِّ وهي للمؤلف.

= كبار الكتاب والمترجمين، متخيرًا لأجزائها أحسن القصص في لغات الغرب، وكان ممن كتب في مجلته: أحمد شوقي، وعبد القادر حمزة، والسباعي، والمازني ...».

(١) «جريدة البلاغ» (٢٠ مارس ١٩٤٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٣/ ٤٧٧).

وقد تكون القصَّة المصوَّرة خيرًا أو شرًّا من القصَّة المطبوعة، فليس لهذا قيمة، ولا هو موضع البحث، وإنما الذي يعنينا هو هذه المسائل:

هل يجوز أن يطوىٰ ذكرُ المؤلف علىٰ هذا النحو؟

وهل يجوز مثلُ هذا التصرُّف في موضوع القصة وسَوْق حوادثها ولغتها وأغانيها إلىٰ آخر ما تناوله التغيير والتبديل؟

وهل يجوز أن نذكر أسماء الممثِّلين والمغنِّين وكاتب الحوار وكلِّ من كانت له صلةٌ بالرواية السينمائية ولو كانت واهية، إلا المؤلف المسكين الذي أبت له بلاهتُه إلا أن يقصُر عنايتَه علىٰ الجانب الأدبيِّ فحُرِمَه أيضًا؟

وليس يخفىٰ علينا أن التمثيل السينمائيَّ يتطلَّب مقدارًا من التصرُّف في ترتيب الحوادث، ولكن الرواية المصوَّرة جاءت مختلفةً جدًّا، ولم يُسْتَشَر مؤلفُها في شيء ما.

وقد يكون العقد خاليًا من نصٍّ علىٰ هذه الاستشارة، غير أن النصَّ علىٰ هذا لا يكون إلا تحصيل حاصل وتزيُّدًا لا ضرورة إليه، وإنما هو فرطُ حرص؛ لأنك إذا اتفقتَ معي علىٰ تمثيل رواية لي فالمفهوم بداهةً أنك ستمثِّل روايتي أنا، لا روايةً أخرىٰ تستوحيها أنت من روايتي؛ لأن لكل امرئ أسلوبه الخاصُّ في التفكير وفي تناول الموضوعات وفي توجيه الحوادث، فإذا أردتَ أن تعدِّل وتبدِّل وتقدِّم وتؤخِّر فإن من واجبك ومن حقِّي عليك أن ترجع إليَّ وتصدُر عن رأيي، من غير إغفالٍ لمقتضيات الفنِّ السينمائي، وإلا خِيفَ أن تجيء الرواية كما تَسُوقها أنت علىٰ هواك شيئًا مختلَفًا جدًّا لا يمتُّ إلىٰ الأصل بسبب.

وقد يكون تصوُّرك أنت للموضوع وتناولك له خيرًا من تصوُّري وتناولي وأبرع، ولكنك استأذنتني في تمثيل روايتي أنا، فأنت مقيَّدٌ بهذا، ولم تستأذنِّي في

استيحاء رواية أخرىٰ جديدة من رواياتي. ولماذا تجيء إليَّ وتستأذنني إذا كانت رواياتي لا تصلح؟! ولماذا لا تكتب أنت روايةً من عندك وتستغني عنها إذا كان هذا في وسعك؟! ثم ما هو هذا المانع من استشارة المؤلف ومراجعته؟! والخير كلُّ الخير في ذلك لكلا الفريقين.

أمامي وأنا أكتب هذا كتابٌ من المختارات جمعها القصصيُّ الإنجليزي ب. ج. وودهاوس، وقد اختار لنفسه أقصوصةً صغيرة، والذي يلفتُ النظر أن الناشر صدَّر الكتاب بكلمة شكرٍ وجَّهها إلىٰ ناشري الكتب التي أُخِذَت منها المختارات لتفضُّلهم بالإذن في الاختيار ممَّا نشروا، ولم يذكرهم إجمالًا، بل بالأسماء واحدًا واحدًا، حتىٰ الناشر السابق لكتب المستر وودهاوس خصَّته بكلمة شكر، وإن كانت الأقصوصة المختارة أقصوصتَه!

وليس في مصر قانونٌ لحقوق التأليف، ولا أدري ماذا منع أن يُسَنَّ؟ وإن كان قد أُعِدَّ من سنين عديدة، ولكن القانون العام يحفظ هذه الحقوق، وفيه الكفاية، وهو لا يسمح بالغَمط والغَبن وتضييع الحقوق؛ فإن الشأن في ذلك كالشأن في كلِّ ملكيَّة أخرىٰ.

علىٰ أن الفوضىٰ السائدة خليقةٌ أن تدفع رجال التشريع إلىٰ التعجيل بإصدار القانون الخاصِّ الذي أُهْمِلَ ووُضِعَ علىٰ الرَّفِّ كما يقولون. وإلىٰ أن يحدث ذلك يحسُن بالكتَّاب أن يتآزروا علىٰ التحفُّظ بحقوقهم.

وأذكر علىٰ سبيل المثال أن في مصر جمعيةً للمؤلفين الموسيقيين نسيتُ اسمها الصَّحيح علىٰ وجه الدِّقَّة[1]، وقد زارني أحد أعضائها منذ بضعة أعوام، وأخبرني أن هذه الجمعية تصونُ للمؤلفين حقوقهم أتمَّ صيانة، وأنها تتقاضىٰ لهم حقوقهم في كلِّ سينما ومسرح ولو كان في شمال أوربَّة أو جنوبي أفريقية أو اليابان أو أمريكا؛ لأنها

(١) جمعية المؤلفين والملحنين والناشرين «ساسيرو – Sacerau».

علىٰ اتصالٍ وثيق بأمثالها من الجماعات في العالم، ففي حيثما تدار أسطوانة لملحِّن أو مغنٍّ يتقاضىٰ ممثِّل الجمعية حقَّ الملحِّن أو المغنِّي ثم يبعث به إليه في موطنه.

وليس مثل ذلك بالعسير علىٰ الكتَّاب؛ فإن في وسعهم أن يؤلِّفوا جمعيَّة ذات فروع في الشرق العربي كلِّه تكفل لهم جميعًا المحافظة علىٰ حقوقهم. وبذلك يمكن أن يتَّقىٰ مثل ما حدث أخيرًا أيضًا، وهو أن بعض الكتَّاب كان قد نشر فصولًا في مجلَّة تصدر في غير مصر، ثم توفي الكاتبُ وقَدِم صاحبُ المجلة إلىٰ مصر وجمَع ما نشره في مجلَّته للكاتب المرحوم وضمَّ إليه فصلًا بقلم كاتب لا يزال علىٰ قيد الحياة -أطال الله عمره- ودفع بذلك كلِّه إلىٰ ناشر، وقبض الثمن وعاد إلىٰ بلده، وترك ورثة الكاتب المتوفىٰ والأديب الذي لا يزال حيًّا يُرزق يتساءلون ويتبادلون عمَّا ينبغي أن يصنعوا.

وقد أشرتُ حين سمعتُ هذه القصَّة بمقاضاة الناشر، وعسىٰ أن يفعلوا؛ فقد جاوز الأمر كلَّ حدٍّ يطاق، وخرج إلىٰ الفوضىٰ التي ما بعدها فوضىٰ.

قلة الربح من التأليف(١)

١. هل الكتاب الذي تعبتَ في تأليفه أكثر من غيره هو الذي ربحتَ فيه أكثر ربح؟
٢. كم أكبر مبلغ ربحتَه من كتاب ألَّفتَه؟
٣. وما هي الطريقة المثلىٰ التي يُضْمَن بها الربحُ المعقول للمؤلفين؟

ثلاثة أسئلة عرضناها علىٰ بعض أئمَّة الكتَّاب في مصر، فأجابوا بما يلي:

إبراهيم المازني:

ودخلت علىٰ أبي محمد فوجدته واجمًا، وابتدرني قائلًا: هل أتيتَ ثانيةً بأسئلتك المعهودة؟ عجِّل بها حتىٰ نفرغ منها سريعًا!

فقلت له: هل الكتاب الذي تعبتَ فيه أكثر من سواه كان أكثر كتبك انتشارًا؟

أبدًا! فأنا مثلًا لم أتعب في تأليف كتاب «رحلة الحجاز» ومع ذلك فقد نفدت طبعتُه في أشهر قلائل، ولكن ربحه الضَّخم لم يدخل منه ملِّيمٌ في جيبي؛ فالناشر الذي نشر الكتاب استأثر بربحه دوني، وماطل في الدَّفع حتىٰ سئمتُ الطلب! وهذه هي حال الناشرين لدينا!

قلت: ما هو أكبر مبلغ ربحتَه من كتاب؟

إن الربح من التأليف هنا تافهٌ جدًّا، فأنا مثلًا إذا ربحتُ من كتاب خمسين جنيهًا اعتبرتُ ذلك نعمة من الله.

---

(١) «مجلة كل شيء والدنيا» (العدد ٥٧٦، ١٨ نوفمبر ١٩٣٦). بعنوان: كبار المؤلفين يشكون قلة الربح من التأليف.

وماذا ترىٰ لعلاج هذا الحال؟

أرىٰ أن تنشط الأمة إلىٰ القراءة، وأن ينشط أصحاب رؤوس الأموال في تأسيس شركاتٍ للنشر كشركات النشر الأوربية، أما إذا استمرَّ المؤلف علىٰ هذه الطريقة يكتبُ ويطبعُ وينشرُ فهو لا محالة منتهٍ إلىٰ السَّأم وترك التأليف إلىٰ الأبد.

فصلٌ في الكتب والفئران والفِيَلَة والسَّيارات[1]

سأبيع كتبي وأقتني فِيلًا، إلا إذا هدىٰ الله «جريدة السياسة» فأنقذَتني ما عليها لي، فيكون ذلك حسبي ثمنًا لِفِيلٍ عظيم!

وعسىٰ من يسأل: لماذا تبيعُ الكتب؟! وما حاجتك إلىٰ فيل؟!

فأقول: أما الكتب فهي أول ما يباع، وأول ما خلا منه بيتٌ فيه نسوةٌ وأطفال، ولستُ أستطيع أن أستغني عن المراتب والوسائد والسَّجاجيد والخِزَانات والثياب وما إلىٰ ذلك ممَّا يكون في البيوت للمنفعة والزينة، ولو رضيتُ أنا بالنزول عن هذه الأشياء، وقنعتُ من لذَّات الدنيا ونعيم الحياة بالنوم علىٰ الأرض في سبيل التحفُّظ[2] بالكتب، لما رضيَ الذين معي ممَّن سخَّرتني المقادير -أو قلَّة العقل علىٰ الحقيقة- لخدمتِهم، ولستُ أنوي أن أوقظ في البيت ثورةً من أجل بضعة كتب يقول لي أهل بيتي: إنها لا خيرَ فيها إلا أنها تجلبُ الفئران وتغريها بالسُّكنىٰ معنا، وتتعبنا في مطاردتها واصطيادها، وقاتلها الله -أعني الفئران والكتب معًا- ما أشقانا بها! هذه تلعب بعقولنا وتعبث بأحلامنا، وتلك تعبث في طعامنا وفرشنا وأثاثنا ولا تتَّقي أن تلعب علىٰ أجسامنا.

وقد كنت أغطُّ منذ بضعة أسابيع في النوم، فإذا بزوجتي توقظني بصرخةٍ مزعجة، فسألتها: ما لك؟

قالت: أدركني! أدركني! عجِّل!

---

(١) «جريدة البلاغ» (٢٤ نوفمبر ١٩٣٤)، «الأعمال غير المنشورة» (٤/ ١/ ٢٣٧).

(٢) العناية.

قلت: حريق؟

قالت: لا.

قلت: زلزال؟

قالت: لا.

قلت: ماذا إذن؟

قالت: فأر.

قلت: أين؟

قالت: كان هنا يجري علىٰ اللِّحاف، وأخشىٰ أن يعضَّني أو يعضَّ البنت.

والبنت هذه وليدةٌ جديدةٌ رزقنا بها الله، فهنِّئونا؛ لتتمَّ بها القبيلة.

ففكَّرتُ فيما يحسُن أن أصنع لأُقْصِ الفأر عن زوجتي وابنتي، وأشعلتُ سيجارة وجلستُ أنضِج الرأي، فقالت تستحثُّني: هيه؟

قلت: ارمي له اللِّحافَ علىٰ الأرض ليتلهَّىٰ به إلىٰ الصَّباح.

قالت: وأنام بلا غطاء؟

قلت: خذي لحافي.

قالت: وأنت؟

قلت: أنا؟ آه! أجلس هكذا رشيقًا، أهشُّ وأنشُّ حتىٰ يخرج الخلقُ من البيوت، وتفتح الدَكاكين، فنشتري مصيَدة.

قالت: واحدة؟

قلت: كم فأرًا عندنا؟

قالت: أهُوهُوه! أكثر منَّا!

قلت: والكثرة تغلبُ الشجاعة؟ أليس كذلك؟ فيظهر أن الهزيمة مكتوبةٌ علينا ولا مفرَّ منها.

قالت: لماذا لا تخرج هذه الكتب من البيت؟ إنها هي التي تجلب الفئران!

قلت: صدقت، سأبيعها، أعني الكتب لا الفئران.

ففرحت وقالت: صحيح؟

قلت: نعم، بإذن الله، وعسىٰ من يشتريها أن يأخذ الفئران معها، فإذا لم يفعل فلا ذنب لي، مفهوم؟

قالت: ونشتري بثمنها ثيابًا؛ فإن الشتاء قد دنا و.....

قلت: مهلًا يا نور عيني. علىٰ فكرة، اضغطي الزرَّ وافتحي النور؛ فإني لا أستطيع أن أرىٰ الفئران في الظلام.

فسألتني: إذن ماذا نشتري؟

قلت: نشتري فيلًا.

فوثبت عن السَّرير بخفَّة لم أعهدها فيها، ووقفت أمام سريري وصاحت: إيه؟

قلت: حاذري الجيران! قد يسمعون؛ فيسبقوننا.

فعادت تصيح: إيه؟

قلت وقد ضاق صدري: ألا تحسنين أن تقولي غير إيه؟ أقول لك: سنشتري فيلًا.

قالت: فيل؟!

قلت: نعم. فيل، ف ي ل ... فيل.

قالت: هل جُنِنت؟

فأردتُ أن أبعدها عنِّي، فقلت: ارجعي إلىٰ سريرك؛ فإني أخشىٰ أن يعضَّ الفأر رِجلَك.

فخافت ووثبت إلىٰ سريري أنا، وجلست إلىٰ جانبي، فتنهَّدتُ، فسألتني: لماذا أتنهَّد؟

فقلت: أخشىٰ!

قالت: ماذا؟

قلت: أن يعضَّ الفأر ابنتنا الراقدة وحدها هناك!

فألقت إلىٰ جانبها نظرةً عجلىٰ ثم قالت: لا، إني أراها من هنا؛ فلا خوف.

فأسلمتُ أمري إلىٰ الله وقلت: طيِّب نرجع إلىٰ الفئران، كم مصيدةً تكفيك؟ أعني تكفيها.

قالت: بل نرجع إلىٰ الفيل. هل تتكلَّم جادًّا؟!

قلت: هل ترين علىٰ وجهي مزاحًا؟

قالت: إني في حياتي ما عرفتُ لك مزاحًا من جدٍّ، ولكن من أين تشتريه؟!

قلت: هل نسيتِ أني كنت معتزمًا أن أسافر إلىٰ الهند؟

قالت: آه! لهذا؟! وكنت أسألك فتقول: شُغل، شُغل. إذن الشُّغل هو الفيل!

هذا ما كان من أمر الفيل وسرِّ تفكيري في اقتنائه، وما أرىٰ إلا أني علىٰ صواب؛ فإن الكتب تُحْفَظ لتكون زينة، وصاحبُها يسرُّه أن يراها ضيوفه علىٰ رفوفها من وراء

الزجاج؛ لأن كثرتها وجمال منظرها دليلٌ علىٰ الثراء ورغَد العيش، لا علىٰ سعة الاطلاع وعِظَم الإحاطة والتبحُّر، وقلَّ من يحتاج أن يرجع إلىٰ كلِّ كتاب عنده في خزائنه، وأندرُ ممَّن يرجع إلىٰ الكتب من يقرأ كلَّ ما يقتني، ولكنه لا يوجد واحدٌ يحاول أن يخفي كتبه ويحجبها عن عيون الزائرين إلا إذا كان يخشىٰ أن يستعيروها ولا يردُّوها، وقد قيل في الأمثال -أمثالي أنا-: إنه ليس أشدَّ بلاهةً ممَّن يعير صاحبه كتابًا أو يقرضه مالًا إلا الذي يردُّ ما استعار أو اقترض.

فاقتناء الكتب مظهرُ رخاء، والإنسان يدرك بطبيعته أن الناس يتودَّدون إلىٰ الغنيِّ وينفرون من الفقير، وأغنىٰ الغِنىٰ أن تقتني ما يفقد قيمتَه في السُّوق بمجرَّد حصول الشراء! وهذا بلاء الكتب؛ فإنك تشتري الكتاب بجنيه أو أكثر، فإذا أردت أن تبيعه لم تجد له شاريًا بقروش، وقد جرَّبتُ هذا مرَّات، فصدِّقوني ولا تكابروا بخلافه.

وما دامت الحياة مظاهر، وكلُّ فائدة اقتناء الكتب أنها زينةٌ ورمزٌ علىٰ حسن الحال وكثرة الرِّزق، فلماذا لا أشتري فيلًا ومظهرُه أوقعُ في النفوس بلا أدنىٰ ريب؟!

وقد سألتُ صاحب الفيل في حديقة الحيوان عن طعامه، فقال: إنه -أي الفيل لا صاحبه- نباتِيٌّ، فحمدتُ الله علىٰ أن بلدنا زراعيٌّ، فلا خوف عليه أن يجوع عندي، والفيل حيوانٌ فيه عقلٌ وذكاء، ففي وسعي أن أخرجه كلَّ صباح من الدُّكَّان -حيث كنت أضع السَّيَّارة- وأمسح له خرطومه، فيبتسم لي ويطوِّقني بها، ويرفعني إلىٰ ظهره، وتكون معي صحفُ الصَّباح أو ما أشاء غيرها من كتاب أو مجلَّة، فأفتحها وأذهب أقرأ وهو يمشي بي في الطريق إلىٰ «البلاغ»، ولا يدوس طفلًا، ولا يصدم مركبةً أو سيارةً أو ترامًا، ولا يخالف نظام المرور، ولا يتعب الجنود الموكَّلين به عند مفترق الطرق، ومتىٰ عرف أصحابي فإنه خليقٌ أن يريحني من تحيَّتهم كلَّما لقيتُ منهم واحدًا، فيؤدِّيها لهم عنِّي بخرطومه، ويدعني لخواطري لا يشغلني عنها شاغل، فأستطيع حتىٰ أن أكتب مقالاتي وأنا علىٰ ظهره.

وربَّ قائل يزعم أنه بطيء، وأنَّا في عصر السُّرعة، وهذا وهمٌ؛ فإن اكتظاظ الطريق بالسَّيَّارات والمركبات والتِّرام يجعل السَّير كأبطأ ما يمكن أن يكون، وأخلِق بفيلي أن يسبق السَّيَّارات في هذه المواكب الوئيدة، وما أشكُّ في أن عقله أكبر من عقول سائقيها، وحكمتَه أعظم، وعينَه أهدىٰ وأبصَر.

والسَّيَّارة تُسْرَق ولكن الفيل لا يُسْرَق، وهو يغني عن شركات التأمين، وقد سُرِقت سيَّارتي مرَّة، وكان ذلك في الليل، فلما خرجتُ -كعادتي- من جريدة «السياسة»، وكنت أعمل يومئذ فيها، لم أجدها أمام الباب حيث تركتها، فسِرْتُ حتىٰ لقيتُ شرطيًّا فقلت له: يا شاويش!

قال: هممممه!

قلت: سرقوا سيارتي.

قال: من هم؟

قلت: لو عرفتهم لما احتجتُ إليك!

قال: بلِّغ القسم.

قلت: اصْدُقني وأرحني واحْتَقِبْ[1] شكري، هل من فائدة؟

قال: لا والله يا أفندم.

قلت: أشكرك.

ومضيتُ عنه، وأسلمتُ أمري لله؛ فما كان يخفىٰ عليَّ أن اللصوص يستطيعون أن يأخذواَ السيارة إلىٰ مكان أحدهم، وهناك يفكِّكونها ليبيعوها قطعًا بأيِّ ثمن، وكلُّ ثمن مهما قلَّ ربحٌ لهم، ولا شكَّ أن سرقة السيارات عملٌ رابحٌ مأمون، ودليل ذلك

---

(١) ادَّخِر.

أني أنذِر الشرطة من الآن أني سأنشئ شركةً بلا رأس مال لسرقة السَّيَّارات، وسأضع علىٰ بابها لوحًا عريضًا أكتب عليه اسم الشركة بالخط الثلث هكذا «الشركة الوطيدة لسرقة السيارات الجديدة»، فَلْيُرِنا الشُّرطة همَّتهم!

وبلغتُ دار البريد قرب العتبة الخضراء وأنا أندب في سرِّي سوء حظِّي، وإذا بسيَّارتي هناك واقفةٌ وليس بها إنسان، فلمَّا تثبَّتُّ وأيقنتُ أنها هي أقبلتُ عليها أعانقها وأقبِّلها وأمسحُ لها صدرَها وجنبَها، ودموع الفرح بها تسيلُ علىٰ خدِّي، ورَكِبتها جذلان مسرورًا، وأركضتُها في طريق الهرم، وعدتُ بها إلىٰ مصر الجديدة، وانثنيتُ فطفتُ بها المدينة من فرط الفرح.

وكنت أنزل في بعض الطريق وأدور بها وأتحسَّسها وأشكر لها وفاءها وعودتها لي من تلقاء نفسها، وإغنائي عن الشُّرطة الذين يثبتون في الورق أنباء السَّرِقات ويدعون اللصوص يفعلون ما يشاؤون وهم آمنون، ولا يتحرَّكون لمطاردتهم إلا بعد أن يفرغوا -أعني اللصوص لا الشُّرطة- من شأنهم، ولا يُعْنَون -أعني الشرطة في هذه المرَّة لا اللصوص- بأن يقولوا كلمةً طيبةً للمنكوب، أو يبدوا -ولو أمامه- عنايةً واكتراثًا، وإن المرء ليكون سعيدًا إذا لم يسمع منهم تأنيبًا لأنه لم يتَّخذ لسيارته حارسًا يقيها شرَّ اللصوص ويريح حرَّاس الأمن وحفظَته من عناء السَّهر عليه.

وللفيل حارسٌ من نفسه، فلا خوف عليه أن يُسْرَق، بل الخوف علىٰ من يحاول ذلك، ثم إنه يصلحُ أن يلاعِب الأطفال ويداعبهم ويحملهم علىٰ ظهره الرحيب، ويخرج بهم إلىٰ الهواء الطَّلق، ويمدَّ خرطومه وهو سائرٌ علىٰ دكاكين الحلوىٰ واللعب فيشتري لهم ما يعرف بفطرته الذكيَّة أنهم يحبُّونه ويؤثِرونه، ثم يعود بهم آمنين مسرورين ضاحكين وفي جيوبهم الحلوىٰ وفي أيديهم اللُّعَب.

والشهرة إعلانٌ وطبولٌ يدقُّها المرء لنفسه، وما زلتُ أدقُّ طبولها كلَّها منذ ربع قرن، ولو أني كنت اشتريتُ فيلًا واحدًا ولو صغيرًا لأغناني عن هذه الضَّجَّة الطويلة التي

لم أجنِ منها إلا العناء، وماذا عسىٰ أن تكون حاجة ذي الفيل إلىٰ إعلانٍ أو طبل وزَمْر، واقتناؤه بمجرَّده يجعل الشُّهرة تملأ السَّماء والأرض وتسير في الشرق والغرب؟!

والكتب يقرؤها الأقلُّون ويجهلها الأكثرون، فشهرة صاحبها بها محدودة، وهو عند الأكثرين ممَّن يسمعون به اسمٌ ليس إلا، ولكن الفيل شهرةٌ ليس لها حدود، وهي ماديَّةٌ حقيقيَّةٌ جدًّا لا وهم فيها ولا خيال.

والكتب تجرُّ عداوةً وحسدًا ومنافسةً وبلاءً عظيمًا وكربًا شديدًا، أما الفيل فلا يثير إلا الإعجاب به والإكبار له، ولا يُكْسِبُ صاحبَه إلا الإجلال، ومن ذا الذي يعرف المازني صاحبَ هذه الكتب التي لا يجني منها خيرًا ولا يفيد مالًا؟! ولكن من ذا الذي يمكن أن يجهل المازني صاحبَ الفيل وراكبَه في مدينة المُعِزِّ؟! بل من ذا الذي لا يشتاق أن يراه مطمئنًّا علىٰ ظهره الفسيح؟! وأية فتاة جميلة لا يغريها ذلك بالتحبُّب إليه وتملُّقه؟! وما قيمة السَّيَّارات الفخمة التي تفتن النساء وتردُّهنَّ إلىٰ المياسرة بعد المعاسرة إلىٰ جانب الفيل؟!

إنه هو الفتنة يا رِفاق! وما أحلىٰ الغزل والعناق علىٰ ميدان ظهره في الليالي القمرية! بلىٰ! وتالله ما أذكاه وأفطنه حين يقفُ بوحيٍ من خاطره اللهمَّ ليتيح لراكبيه أن ينعموا بالحبِّ والليل والقمر!

والفيلُ يعوِّد الناسَ الوقار، ويَعِظُهم بمِشْيته وحدها، ويزجرهم عن الخفَّة المُزْرِية، ويفيض علىٰ الحياة معاني الجلال التي ضيَّعها النَّزق، ويردُّ إلىٰ الدُّنيا اللِّينَ والمرونة والسَّكينة، ويعلِّم الناسَ الأدب والاحتشام، ويدرِّبهم علىٰ حسن السَّير في الطريق، ويُلْزِمهم إخلاء ما ينبغي أن يُخْلُوه منه والاقتصار علىٰ ما جُعِل لمَشْيِهم، ويريح الآذان والرؤوس والأعصاب من ضجَّات الأبواق والأجراس، ويغني حتىٰ الحكومة عن الشُّرطة، ويعفيها من الحاجة إلىٰ تنظيم المرور وإحصاء المخالفات، إلىٰ آخر هذه المنافع والمزايا التي لا تحصىٰ.

ثم إني مع استمرار ارتفاع السِّنِّ سيجيء يومٌ أعجز فيه عن الكتابة، فمن أين آكل؟! فلو اشتريتُ فيلًا لأمكن عند الحاجة أن أقيم له ملعبًا فيكون هو مورد رزقي، ويكثر في يدي المال، فأشتري له فيلةً فينعَم بحبِّها وتنعَم بحبِّه، وتلد لنا فِيَلةً صغارًا ما أحلاها وأظرفها وأجمل خراطيمها الصَّغيرة! وما أعظم حبَّ أطفالي لها وتعلُّقهم بها حتىٰ لكأنَّهم إخوانها ومن فصيلتها!

نعم سأشتري الفيل، فهيَّا اشتروا الكتب، وإلا عَدَلْتُ والذَّنبُ لكم!

مجالسة الكتب ومجالسة الناس[1]

كنت أهمُّ بأن أكتب غير هذا المقال، وكانت الفكرة حاضرة، والورق مهيَّأً، والقلم مبريًّا، ولكني أشرفتُ من النافذة فأخذَت عيني صبيًّا يلعب بالحصىٰ ويُهِيل الرمال، وفي ناحية أخرىٰ فتاتان تتحادثان وتتضاحكان. فقام بنفسي سؤالٌ لم أستطع التملُّص منه علىٰ فرطِ ما جاهدت: ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبتُ أو بما عسىٰ أن أكتب؟! بل هبني جعلتُ الصبيَّ والفتاتين موضوع مقالي وأدرتُه علىٰ ما أرىٰ منهما ومنه، أيكترثنَ لي أو يحفِلنَ بي وبما أسطِّر؟ كلا! ولعل أحرىٰ بي أن أسأل: أيعود أحدٌ منهم أصلحَ للحياة وأقدرَ عليها وأعرفَ بها من أجل أني أجريتُ هذا القلم بكلماتٍ فيه أو عنه، وهو لو قرأها أو تُلِيَت عليه لما أحسَّ أنه موضوعها؟ كلَّا أيضًا! ومع ذلك أباهي بما قرأت، وأعتزُّ -علىٰ الأقلِّ فيما بيني وبين نفسي- بما كتبت، وأفرح بالخالِجة تدور في نفسي لحظة، ويجيشُ بها صدري برهة، وقد أضعها في كفَّة وأضع الطبيعة كلَّها في كفَّة أخرىٰ! وبعبارة أخرىٰ: أغالي بالفنِّ وأعدو به قدرَه، ثم أنقلبُ بجزاء من يفعل ذلك!

أيُّ شيء هذه الكتب؟! ستقول: إنها عالمٌ حافلٌ بالمُتَع. وإنها لكذلك، ولكن أين ذلك الذي يسعُه أن يزعمَها العالمَ الوحيد؟! وهي ديوانٌ قيَّد فيه السَّلفُ ما وَسِعَهم أن يورِّثونا إياه من معارفهم وخواطرهم وتجاربهم، غير أن هذا ليس معناه أنها كلُّ ما يمكن أن نعرفَ أو يخطر لنا أو نحسُّه أو نجرِّبه. والحياة كتابٌ أوسعُ وأضخمُ من كلِّ ما حوت المكاتب قديمُها وحديثُها، وليس ما علىٰ رفوفنا سوىٰ صفحاتٍ قليلة من هذه الموسوعة الهائلة.

---

(١) «جريدة الاتحاد» (٢٧ أغسطس ١٩٢٥)، ثم في «قبض الريح» (١٥٣ – ١٦١).

ولقد عَبَر «هولاكو» علىٰ جسرٍ من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقِّل الزمنُ رجلَه، ومضت الحياة في طريقها كأن لم يحدث شيء، ولم يفقد الناسُ هذه الكنوز، بل كأن لم يكتبها أحدٌ ولم يُضْنِ فيها نفسَه، ولم يُخْلِق في تحبيرها أيَّامَه، ولم يُبْلِ في إخراجها حياتَه! بل كأن لم يكن أصحابها قد خُلِقوا قطُّ! وهل ما أخرجَ الكتَّاب من آثار أقلامهم هو كلُّ ما كان يمكنُ أن يُكْتَب؟! لا أظنُّ أحدًا ممَّن يعاني الكتابة يذهب إلىٰ أن بعض ما كتبوا ليس إلا بعض ما اضطرب في صدورهم، وقد لا يكون خيرَه.

والكتَّاب الذين ظهروا في هذه الدنيا ليسوا كلَّ من يحسُّ ويفكِّر، فربَّ تاجرٍ يمسي ويصبح بين السِّلع جيِّدها ورديئها، والمساومات شريفها ووضيعها، والمكاسب حلالها وحرامها، هو أبعدُ مدىٰ ذهنٍ وأوسعُ مضطربَ فكرٍ من «كانْت» أو «كُونت»[1] أو من شيء غيرهما، وربَّ حمَّال يقضي عمره حانيًا ظهرَه للأثقال هو أحسُّ بالحياة والطبيعة من ابن الرومي، وقد تزدري أميًّا جاهلًا وهو -لو علمتَ- أحدُّ طبعًا من المتنبي.

ولكنه الغرور، ولا أدري ماذا أيضًا، فليس أبغض إليَّ من التقصِّي، يخيَّل لنا أن الحياة تَعْقُم بأمثال من ظهروا ويظهرون فيها من الكتَّاب والشعراء والفلاسفة ومن إليهم، وكلُّ هؤلاء الذين نعدُّهم «نكِرات» يأتون إلىٰ الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلِّفون وراءهم أثرًا أدبيًّا، والدنيا لا تنقصُ بذلك، كما أنها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها «المعارف»! والحياة كالأوقيانوس[2] الأعظم لا يزيده صَوْبُ الغمام، ولا ينقصه ما تأخذ منه.

وهَبْ الدنيا خلت ممَّن عليها من الناس، وصَفِرَت من كلِّ أصناف الخلق، فماذا إذن؟ لا شيء! تظلُّ الأرض دائرةً حول الشمس، ولا تكفُّ الشمسُ عن إضاءتها كما تفعل الآن، إذ نحن عليها نروح ونجيء ونكدُّ ونسعىٰ ونشقىٰ ونسعد ثم نموت!

---

(١) الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت أو كانط، والفيلسوف الفرنسي أوغست كونت.
(٢) البحر المحيط.

ونحن نموتُ أفرادًا وجيلًا فجيلًا، أليس كذلك؟ ولا تعود الدنيا موجودةً في نظرنا -لو أنه بقي لنا بعد الموت نظر- ونعود نحن فيها، أليس هذا هكذا أيضًا؟ فهَبْ جيلَنا كان آخر جيل، أفتظنُّ أن الدنيا كلها تقضي نَحْبَها من أجل أننا نحن قضينا نَحْبَنا؟!

إذن لا تُصَوِّب نظرك يا مازني إلىٰ هذه الحَيَوات الصغيرة الساذجة التي تبدو لعينيك إذ تُطِلُّ من نافذتك، ولا تبتسم إذ تجتلي مظاهرها كأنك تزدريها أو ترثي لأصحابها الذين لم يقرؤوا ما قرأتَ ولم يعرفوا ما عرفت؛ فإنها حافلةٌ بالمُتَع والعجائب كهذه الكتب التي تعنىٰ بها ولا تكاد تَحْفِل ما عداها، ولعلها لو بلوتَها أجدىٰ عليك وأشرحَ لصدرك ممَّا أضعتَ عمرك فيه.

وما من ريب في أني لو كنت أصغر ممَّا أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة لخرج المقالُ من يدي علىٰ غير ما يخرج الآن، ولكان الأرجح في الاحتمال أن أُشِيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها، ولكني لسوء حظها كَبرتُ وبلوتُ من جرائرها ما أسخطني عليها! وبحسبي من ذلك أن صارت مجالسُ الناس وأحاديثهم عندي غثَّةً لا تكاد تُسَاغ ولا تُسْتَمرأ، وأني مضطرٌّ إلىٰ أن أعالج نفسي لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول: لأستمتع بها.

وليس ذلك لعزوفٍ طبيعيٍّ عن الناس وكراهةٍ لمخالطتهم، ولكنها الكتب قبَّحها الله ردَّتني كالمُتْرَف الذي تؤذيه خشونةُ العيش!

ألستُ قد عشتُ بين خير العقول وأحسِّ النفوس، وأَلِفْتُ أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقيَّة الممحَّصة، واعتدتُ الصَّقل في سَوْقِها والفنَّ في عرضها وإبرازَها؟ فما عسىٰ الصَّبر إذن علىٰ أحاديث المجالس الخاوية المبتذلة؟!

كيف لمن يقضي الشطر الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتَّابها بإطاقة المستوىٰ الذي لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس؟! وما للكِبْر دخلٌ في هذا، ولا للغرور أصبعٌ فيه ولا ظُفر، وإنما هي العادة التي يقولون عنها: إنها طبيعةٌ ثانية.

وما مثلي إلا كمثل الذي نشأ في بيئة أرستقراطية كما يسمُّونها، ودرَج علىٰ عاداتها وتقاليدها وآدابها، مثلُ هذا لا يُحْسِن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطُّهاة أو العَمَلة وباعة الأسواق. ولا شكَّ في أنه يحادثهم أحيانًا ويحتكُّ بهم قليلًا، ولكن هذه ليست معايَشَة، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يُصْدِر إلىٰ واحدٍ منهم أمرًا أو يبتاع سلعةً أو يفعل ما هو من هذا بسبيل، ولو أنه جالس طائفةً من هذه الطبقة لمَلَّها واستثقل وطأتَها علىٰ كاهل صبره. والعكسُ صحيحٌ أيضًا.

وليس السَّبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسِّطة، بل السببُ فيما أظنُّ هو أن من تتباين نشأتهم وتتباعد طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة، والأحاديث تدور علىٰ الأكثر في هذه الدائرة، ومِن هنا لا يطَّرد الحديث في مجاريه العادية بين من أَلِفُوا الكتابة والقراءة وبين سَوَاد الناس؛ ذلك أن الكاتب اعتاد التفكير وإطالة النظر إلىٰ المسائل من كل الجوانب التي يتفطَّن إليها ويسعه أن يحيط بها، وأن يَعْرِضها مرتَّبة مبنيًّا بعضها فوق بعض، ويسوقها في عبارة يتخيَّرها لها، وليست الأحاديث كذلك؛ فهي متقطِّعة متوثِّبة سطحيَّة في الأعمِّ والأغلب، ولا يزال الناس ينتقَّلون في مجالسهم من موضوع إلىٰ آخر، ولا يتريَّثون هنا أو هاهنا.

فيكون الكاتب بين أمرين: أن يلزم الصَّمت، أو يُثْقِل علىٰ جلسائه. ولا شكَّ في أن غِشيانَه المجالس واختلافَه إليها يَصْقُله ويعده لها ويذلِّل له ما تقيمه عادته من العقبات، وقد ينفعه ذلك ويحرِّك ذهنه ويطلقه من القيود التي تحفُّه بها مزاولة فنِّه.

ولكنه لا شكَّ أيضًا في أنَّ روح الأحاديث هو التعاطف، وأنَّ تباعدَ ما بين الجلساء يضعف هذا التعاطف، ويُحِيل المَحْضَر موقرًا باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين. والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه؛ لأن استطاعة ذلك معناه أن المرء يسعه أن يحلِّق فوق نفسه، وهو عين المستحيل.

واعلم أن «الماسونية» ليست بمقصورة علىٰ رجالها، وأن لكلِّ طبقة منها نصيبًا، وكما أنه لا يفهَم رموز الماسوني حقَّ فهمها إلا صِنوه وقرينه، كذلك لا يتمُّ التفاهم إلا بين القرينين، علىٰ أن بعض الناس يذهبون إلىٰ أنه لا خير في محادثة القرناء؛ إذ كانوا خُلَقاء أن يعرفوا ما عساك تقول، وإنما يحلو الحديث ويُجْدِي -كما تُجْدِي الصَّداقة- بين المختلفين، وهذا صحيح، ولكنه ليس كلَّ الصواب؛ لأن كون اثنين في مستوًىٰ واحدٍ لا يستوجبُ التطابقَ بينهما، وهذه المدارس تلقِّنُ التلاميذَ علومًا واحدة، غير أن هذا لا يجعلهم أشباهًا، ولا يحيلهم كالنسخ المتعدِّدة من الكتاب الواحد، وقد يقرأ الكتابَ رجلان ويخرج أحدُهما بغير ما يخرج به صاحبه.

والكاتبُ يعنىٰ بالفكرة قبل أن يعنىٰ بوقعِها، وهمُّه الأول جِلاؤها وعرضُها في أحسن حِلَاها وأقواها. ولا ريب في أنه وهو يكتب يجعل بالَه أيضًا إلىٰ التأثير، ولكن هذا لا يشغَل من نفسه الحيِّز الأكبر، بل هو يأتي تبعًا لمعالجة الأداء. والحال علىٰ خلاف ذلك في الأحاديث؛ فإن المرء لا يزال يُدِير عينَه في وجوه الجلساء ليستشفَّ منها الأثر الذي أحدثه كلامُه. وما أشبهَ الكاتب بالممثِّل الذي يُعنىٰ بدوره، ويصرف همَّه إلىٰ القيام به، ويخلي ذهنه علىٰ قدر ما يسع إنسانًا أن يفعل ذلك من التفكير في جمهور النظَّارة الذين يجعلونه قيدَ أبصارهم.

أما حديث المجالس فقريبُ الشَّبه بالخطابة، بل هو صورةٌ مصغَّرة منها، والمرء لا ينفكُّ كما أسلفنا يستنبئ الوجوه، ويستخبر العيون، ويحاول أن يتَّخذ منها مرايا يجتلي في صِقالها وضاءة حديثه وبهجة كلامه، ومن ذا الذي لا يعنيه ما يندُّ عن شفتيه، ولا يبالي أين وِقع، ولا يكترث لكلامه أتلقَّفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد؟!

ولهذا لا يسعُ المرء إلا العناية بأمر جلسائه، وإلا مراقبة حالة نفوسهم، فيرتفع معهم ويحلِّق إذا رآهم مطيقين للتحليق، راغبين فيه، مستعدِّين له، ويهوي معهم إذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك.

وأتعسُ المجالس وأثقلُها علىٰ نفس الأديب تلك التي تتألَّف من الأوساط أدعياء الثقافة، فيها يدورُ الحديث علىٰ الآداب والفنون، ولكنه حديثٌ منقولٌ عن الصُّحف والمجلَّات، يلوكون فيه ما تكتبُه لهم، ويفسدونه إفسادًا لا سبيل إلىٰ الصَّبر عليه، وعذرُهم واضح، وعذرُك أوضح؛ فالموضوع الذي يردُّونه منك إليك لا يعنيهم كما يعنيك، ولا يستمدُّون الباعث علىٰ طرقه من أعمق أعماق نفوسهم مثلك، وقد لا يدرون عنه إلا بعض ما التقطوه منك، وتشعر بالتقزُّز إذ ترىٰ القوم يمزِّقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك، ويلقونها إليك خِرَقًا قَذِرة، وتصدُّك الآدابُ العامة عن تنغيصهم، ويقضي ذلك علىٰ صدق السَّريرة، ويذهب بالإخلاص، ويَغِيض من جرَّاء ذلك مَعِينُ اللَّذاذة المستفادة من الاجتماع.

ومن هذا الضَّرب أفرادٌ يحفظون من الكتب أسماءها، وأسماء مؤلِّفيها، وبعض ما يقال عنها، ويدورون بهذا علىٰ المجالس، يعرضونه عليها كالإعلانات، حتىٰ لكأنها فهارسُ حيَّة أو قوائم متنقِّلة!

وليس من النادر أن يكون الأدبُ أو العلمُ أو غير ذلك ممَّا اشتهرتَ به من ذنوبك عند بعض الناس، فلا يكاد يغشىٰ أحدهم مجلسًا لك أو يلتقي بك حتىٰ يشرع في تنغيص مُتَعِك وتكدير صَفْوِك؛ فإذا كان الشعر فنَّك أنحىٰ علىٰ الفنِّ كله، وبسَط لسانه فيه، وسمَّىٰ كلَّ سخافة «خيال شاعر». وإذا مدحتَ شيئًا، أو أظهرتَ ارتياحك إليه، أو ولوعك به، ذمَّه وسَخِر منه، أو عرَّض بسوء رأيه فيه واحتقاره له -ولك ضمنًا- إذا جَبُن عن التصريح. وهكذا يظلُّ يطاردك ويتعقَّبك حتىٰ يُسَوِّد الدنيا في عينيك، ويملأ نفسك نقمةً علىٰ الحياة والناس إكرامًا له!

والأديبُ كالمغنِّي الذي يرسل صوتَه غير معتمدٍ علىٰ آلة موسيقية تُشْبع أنغامَه وتسدُّ نقصَها وتملأ فراغها، وقد أَلِفَ أن يجعل معوَّله علىٰ ما للعبارة وحدها مِن وَقْع، وليست كذلك الأحاديث التي تستمدُّ جانبًا كبيرًا من قوَّتها أو حلاوتها أو

بهجتها من المكان والاجتماع والجلساء وهيئة المحدِّث وإشاراته ونظراته وصوته.

ومِن هنا يخطئ كثيرون ممَّن يبرزون في المجالس، فيحسبون أنهم يستطيعون أن يظهروا في عالم الكتابة كما ظهروا في عالم المجالس، ويتوهَّمون أن الوَقْع الذي يوفَّقون إليه في أسمارهم لا يخطئهم إذا تناولوا القلمَ وأجرَوه بدلًا من اللسان.

وليس أشقَّ -عندي علىٰ الأقلِّ- ولا أشدَّ إجهادًا للأديب من مجالس النساء! ماذا يقول لهنَّ؟! في أيِّ شيء يحادثهنَّ؟! كيف يجعلهنَّ يرتحنَ إلىٰ حديثه ويتَّقي إملالهنَّ؟! هنَّ لا يكدنَ يحملنَ معهنَّ غير ثيابهنَّ وزينتهنَّ وعُجْبِهنَّ وما يتَّصل بذلك من قريب أو بعيد، وهو لا يكاد يحمل معه سوىٰ آرائه، فكيف السبيل إلىٰ التوفيق بين هذه وتلك؟!

ومجالسة الكتب تحيلُ المرءَ أشبهَ بها، حتىٰ ليعود وكأنما لا ينقصه إلا أن يغلَّف ويوضعَ علىٰ الرفِّ بين إخوته! وطولُ العهد بها يشيبُ النفسَ قبل إشابة الرأس، ويطفئ لمعة العين، ويعوق تدفُّق النشاط الجثماني، ويغري بالسُّهوم والصَّمت، ويفعل ما هو شرٌّ من ذلك: يبعث علىٰ التعلُّق بالمُثُل العليا وصور الكمال، ويُشْرِبُ النفسَ حبَّها، ويعلِّمها نِشدانَها، فإذا راح يضرب في غمرة الحياة تعثَّر ولقي في كلِّ خطوةٍ صدمة، كالذي يسلك طريقًا ومعه مصوَّرٌ[1] لخلافه!

---

(١) خريطة أو خارطة.

خاتمة[1]

أخطأ حسابي وحسابُ الناشر، فجاوز الكتابُ ما كنَّا نتوقَّع له، وما كان العزم أن نَقْصُره عليه، فمعذرةً إذا كنَّا قد أسأنا بالإطالة، وضاعفنا بها بواعثَ المَلالة!

والكتابُ كما هو الآن في يد القارئ يمثِّل منزعَ الناشر أكثر ممَّا يمثِّل نفسَ الكاتب، فقد أبىٰ إلا أن يُخْلِيه من نقد المعاصرين؛ ليريح نفسَه من حماقات المعاتبين! وحسنًا فعل، أو شرًّا فعل، كما تريد! ومن الذي يستطيع الراحة ولا يستريح؟! غير أن الكتاب بهذه الصُّورة يعرض منِّي جانبًا ويطوي جانبًا، ويصوِّر للقراء لِينَ ملمسي ويستُر أظافري، ويُبْدِيني مفتَرَّ الثَّغر، منزوع النُّيوب، مقلوع الضُّروس! ولستُ أبالي كيف أبدو للقارئ! وما كنتُ لأُعنىٰ بجمع هذه أو تلك من مقالاتي ونشرها بعد أن طُوِيَت مع الصُّحف التي ظهرت فيها لولا أني فرَّجت بذلك أزمةً كانت مستحكِمة، وما أراني أنقذتُها أو أحييتُها، بل بعثتُها من قبورها لتلقىٰ حسابها! ولعله كان خيرًا لها أن تظلَّ ملفوفةً في أكفانها!

وأحسبني بعد أن صارحتُ القارئ بهذا الذي لم يكن يعلمه لا أحتاج إلىٰ أن أقول: إني لا أكتب للأجيال المقبلة، ولا أطمع في خلود الذِّكر. وهل ترىٰ ستكون هذه الأجيالُ المقبلة محتاجةً كجيلنا إلىٰ هذه البدائه؟ أليست أحقَّ بأن يكتب لها نفرٌ منها؟ أمِنَ العدل أم من الغَبن أن نكلِّف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضًا؟ تالله ما أحقَّ هذه الأجيال المقبلة بالمَرْثِيَة إذا كانت ستشعر بالحاجة إلىٰ ما أكتب! ليتَّهمها غيري بالعُقم إذا شاء!

---

(١) خاتمة كتاب «حصاد الهشيم»، ٢٨ يناير ١٩٢٥.

ويرىٰ القارئ في كتابي هذا مقالًا كان في الأصل مقدمةً لكتاب جمعتُ فيه ما نقدتُ به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين[1]، وللقارئ الحقُّ أن يستغرب أن أنقل مقدمة كتاب مطبوع وأن أدسَّها هنا، ولهذا سببٌ لا أرىٰ بأسًا من إيضاحه:

جمعتُ فيما مضىٰ نقدي لشعر حافظ، وطبعتُه ونشرتُه، وبعتُ منه عددًا ليس بالقليل، ثم أخذ الشُّراةُ يبطئون عليَّ، فضقتُ ذرعًا بما بقي من نُسَخِه، فحملتُها إلىٰ بقَّال روميٍّ اشتراها منىٰ بالأُقَّة[2]! وعزَّيتُ نفسي عن ذلك بقولي لنفسي: إنَّ جُبْنَ الروميِّ وزيتونَه أحقُّ بهذا النقد!

---

(١) هو مقال «تقليد القدماء». وقال في حاشيته (٢٤٥ – ط. الثانية): «نقدنا شعر حافظ في سنة ١٩١٣، ثم جمعنا متفرِّقه وطبعناه في سنة ١٩١٤ – ١٩١٥ وجعلنا هذا المقال مقدمة له، ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ أية صلة. وقد أثبتنا هذا المقال هنا لدلالته على حال الأدب يومئذ. أما النقد فقد أسقطناه من جملة ما كتبنا وعِداده غير آسفين على إسقاطه؛ فقد كان مما أغرت به حماقة الشباب».
وفي هذا السياق يقول أيضًا في مقال كتبه بمجلة الهلال (نوفمبر ١٩٤٨) بعنوان «ذكريات طريفة عن شاعر النيل صديقي حافظ إبراهيم»: «ودارت الأيام دورة أخرى، وإذا بالغرور ينحرف بي عن سواء السبيل، وإذا بعفريت اسمه المذهب الجديد في الأدب يركب كتفي، فأنقد شعر حافظ نقدًا كله سخرٌ وتهكُّمٌ وقلة أدب أو قلة عقل؛ لأنه صار في رأيي ممثلًا لمذهب قديم يجب هدمه. وغضب حشمت باشا صديقه، وكان ناظرًا للمعارف، واضطهدني، وكنت مدرسًا، وأوصى بي الرؤساء شرًّا، فكان هذا من أسباب استقالتي من وزارة المعارف. ولست أرى أني كنت مخطئًا في نقدي لشعره، ولكني ولا شك أخطأت في أمرين: أولهما: التطاول وسلاطة اللسان. وثانيهما: ظني أن نقدي يهدم رجلًا بناه فضله في زمانه. وقد خدمتُ إلى حدٍّ ما مذهبنا الجديد بهذا النقد، ولكني لم أهدم حافظًا؛ لأن الزمن وحده هو الذي يجرد المرء من كل ما زاد على حقه ...». وذكر هذا المعنى أيضًا في مقال «حافظ لسان عصره» بمجلة أبولُّو (يوليو ١٩٣٣). انظر: «الأعمال غير المنشورة» (١/ ٧١٤، ٢/ ٢٠٧). وراجع كذلك مقالاته المتقدمة في النقد وندمه على ما سلف من مسلكه فيه.

(٢) ثقلٌ قدره ١٢٤٨ جرامًا. ويبدو أن المازني قد باع هذا البقال أو غيره غير كتاب من كتبه! فانظر لفَّه للزيتون في بعض أوراق ديوانه في مقال «زيتون في قرطاس من الشعر».

ثم مضت عشرة أعوام وبعض عام وشرعنا نطبع «حصاد الهشيم» هذا، وإنَّا لماضون في ذلك إذ جاءني صديقٌ يعودني، وكنتُ مريضًا، وأطلعني علىٰ صحيفة ينشر فيها بعضهم نقدًا لشعر حافظ، وأكثره مسروقٌ من قديم نقدي!

وسألني الصَّديق: أأنت الكاتب؟

قلت: كلا.

قال: إذن فهي سرقةٌ يحسُن التنبيه إليها. وألحَّ عليَّ في ذلك.

فقلت له: اسمع! زعموا أن لصًّا تسلَّل إلىٰ بيتٍ فألفاه أفرغَ من فؤاد أم موسىٰ، وعزَّ عليه أن ينقلب صِفرَ اليدين -أو كما يقول العربُ رحمهم الله أو ما شاء فليصنع بهم- خاليَ الوِفَاض، بادي الأنفاض، فواصل البحثَ وهو مغيظٌ مُحْنَق، فما راعه إلا رجلٌ في بعض الغرف مختبئٌ في ركن ووجهُه إلىٰ الحائط، فلمَّا ثابت إليه نفسُه بعد الدَّهشة قال: لعله لصٌّ مثلي، وضَحِك، ودنا منه فلم يتحرَّك، فوضع يده علىٰ كتفه في رفق وسأله: من أنت يا هذا؟ وماذا تصنع هنا؟ فاستدار الرجل وقال ووجهه إلىٰ الأرض: أنا صاحب البيت، وقد شعرتُ بدخولك، وأدركتُ غرضك، فتواريتُ منك خجلًا!

وأنا يا صديقي كصاحب هذا البيت العاري! أستحي أن أنبِّه إلىٰ سطو صاحبنا المتلصِّص علىٰ نقدي، مخافة أن يتنبَّه الناس إلىٰ ما أرجو مخلصًا أن يكونوا قد نسوه من أني أنا كاتبُ ذلك الهراء القديم! ومن أجل ذلك أهبُ للصِّنا[1] ما عدا عليه وبزَّني إياه، وما أسهلَ أن يهبَ المرءُ غيرَ شيء!

فضحك صاحبي وانصرف.

وخطر لي بعد أن وهبتُ النقد لسارقه أن أستنقذ المقدمة.

---

(١) الصِّنا: الرماد ووسخ النار.

ولم يبق ممَّا أريد أن أقوله في هذه الخاتمة سوىٰ كلمة واحدة، هي أني مستغنٍ عن رضا النقَّاد المتحذلقين عن كتابي هذا، وقانعٌ باستحسان أمثالي من الأوساط المتواضعين، وهم بحمد الله كثيرون في هذا البلد الأمِّيِّ! بل أكثر ممَّا يلزم لي!

العمر الذاهب

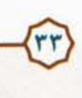
رحلة المازني المعرفية من القراءة إلى الكتابة

هذه سيرةٌ معرفية فاخرة من طرازٍ غير ما تألَف، جمعَت حلاوة البيان إلىٰ ظرف الروح إلىٰ حكمة العمر، فيها عبرةٌ وتجربة، ومتعةٌ وفائدة، وألوانٌ معجبة من الصَّراحة النادرة، ورفعٌ رقيقٌ للحجاب عن أسرار نفس إنسانية قلقة، ومشاهدةٌ لها من قريب، بقلم صَنَاع حاذق، أحسن الإبانة عنها، وافتنَّ في كشف دخائلها، متأثرًا بما أطال صحبته من قصص الروس ورواياتهم، وإن أثرها فيه لكبير.

سيرةٌ لا ينقصها الصدق الذي ينقص كثيرًا من السير الذاتية، بل هي مرآةٌ كاشفةٌ لروح صاحبها في رضاه وغضبه، وغروره وتواضعه، وفرحه بما قدَّم وندمه علىٰ ما فرَّط، يخطئ فيعترف، ويُحْسِن فيتباهىٰ، لا يعبأ برأي القارئ فيه، ولا يلتفت لموقف العالم منه، وقد هان عنده كلُّ شيء حتىٰ ما يحفل شيئًا، أو يبالي كيف يكون، أو يتحسَّر علىٰ شيء فات، أو يتطلَّع إلىٰ ما هو آت، كما يقول عن نفسه.

ومن ترىٰ من الأدباء الكبار يجسُر علىٰ الاعتراف بأنه لا يفهم الفلسفة، أو الإقرار بأنه يعيد قراءة الأدب العربي مرة أخرىٰ لأنه تعجَّل في قراءته أول مرة، أو التصريح بأنه يكتب للخبز لا للأدب، أو المجاهرة بترك الشعر وقد كان معدودًا من شعراء عصره لأنه رأىٰ نفسه ليس من أهله؟ ومن منهم تسمح نفسه بالاعتراف بالفضل في توجيهه لواحدٍ من أقرانه، بل من خصومه وأعدائه؟ دعك من كبار الأدباء، كم من عامة الناس من يعترف بأخطائه ويتراجع عن حماقات شبابه؟ ومفاجآت المازني التي ستستقبلها في هذا الكتاب لا تنتهي!





sales@al-fostat.com مطابع الفسطاط الحديثة



ردمك: ٩-٠-٩١٦٦٠-٦٠٣-٩٧٨

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز البريدي: ١٢٢٧٤
سجل تجاري: ١٠١٠٢٥٨٨٣٨ هاتف: ٩٦٦١١٢٢٥٥٤٧٣+ فاكس: ٩٦٦١١٢٢٥٠١٦٧+
www.afaqpub.com sales@afaqpub.com